

الأركان السبعة للدين

في الشريعة والدين

مؤلفه
مفتي الجمهورية

د. أحمد محمد عيسى

الناشر: مكتبة الشريعة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الثانية

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧

رقم الإيداع: ٩٧/٣/٢٩

الترقيم الدولي I.S.B.N

٥-٣٣-٤٦-٥-٩٧٧

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت ٤٨٣٧٨٥١

PDF Eraser Free



أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بفراطة

PDF Eraser Free



غرناطة. منظر عام لمدينة الحمراء
وقد ظهرت من وراءها جبال سيرا انغادا مغطاة بالثلوج

PDF Eraser Free



فصر الحمراء. نافورة فناء الأسود ومن وراءها الشرفة الوسطى.

PDF Eraser Free



غرناطة. منظر عام لمدينة الحمراء
وقد ظهرت من وراءها جبال سيرا نيفادا مغطاة بالثلوج

PDF Eraser Free



إشبيلية، منارة المنصور أو "الخبر الداء" La Giralda وهي الآن
برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى

PDF Eraser Free



سرسبلة عقد من عقود قصر الجعفرية (قصر بني هود)
محافظة بغداد - متحف ملوك الوطن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان من عناية الله أن أتيح لي، أن أحقق أمنية قديمة طالما جاشت بها نفسي، وأنا أكتب تاريخ الأندلس، هي أن أزور هذه الربوع القديمة، التي لبثت قرونًا مثوى دولة إسلامية عظيمة، وحضارة إسلامية زاهرة، وأن أشهد ما تبقى فيها من الآثار الأندلسية الباقية، وأنقصي بنفسي، ما تبقى منها منطبعا من العادات والتقاليد الأندلسية، وأعيش حينًا في هذا الجو، الذي عاش فيه من قبل ملايين من المسلمين، في عز وسؤدد ورخاء.

واليوم وقد زرت هذه الربوع العزيزة مرارًا، وتجوّلت في سائر مدنّها ونواحيها، وشهدت خواصها الطبيعية، واستطعت أن ألتشف كثيرًا من طبائع أهلها، وتقاليدهم وعاداتهم، يجدر بي أن أقدم نتيجة هذه الدراسة، وهي ما نزل حية في نفسي، ماثلة في مشاعري.

إن الأندلس القديمة، تبدو اليوم بلادًا إسبانية نصرانية محضة، لا تكاد تشعر وأنت تتجول فيها، أن هذه البلاد، كانت يومًا منزل أمة عربية إسلامية، اللهم إلا ما يصادفك من آثار قليلة، تذكرك بهذا الماضي البعيد، وحتى هذه الآثار، فيما خلا بضعة صروح عظيمة، مثل حمراء غرناطة، وجامع قرطبة، وبعض الحصون والقصور الأندلسية القديمة، تكاد تختفي تحت أثوابها النصرانية، التي خلعتها عليها الأمة الغالبة، منذ عصر "الاسترداد" La Reconquista.

إن قرطبة، وإشبيلية، وطليطلة، وسرقسطة، وبلنسية، ومرسية، وشاطبة، وجيان، وغرناطة، ووادي آش، ومالقة، ورندة، وشريش، وبطليوس، وماردة، وباجة، وبابرة، وأشبونة، وغيرها وغيرها، من القواعد الأندلسية القديمة، لا تكاد فيما خلا غرناطة وإشبيلية وقرطبة، تبدي شيئًا من مظاهرها الإسلامية القديمة، ولا نستطيع إلا بالبحث المجهد، أن نظفر في بعض أحيائها أو أطلالها الدارسة، بلمحات ضئيلة من طابعها الأندلسي. فالمساجد كلها قد هُدمت، أو حوّكت إلى الكنائس، أو بُنيت الكنائس فوق أنقاضها، والأحياء الأندلسية القديمة، قد اختفت في معظم المدن أو طاشت معالمها، ولم تبقى منها إلا بقايا متناثرة هنا وهناك في سفوح القصور والحصون الأندلسية القديمة، وحتى هذه الأحياء الأندلسية التي مازالت تقوم في أعماق بعض المدن القديمة، تبدو في أثواب متواضعة رثة، وقد أسلم معظمها لغمر النسيان والعفاء.

PDF Eraser Free

على أنه توجد مع ذلك طائفة هامة من الصروح والآثار الأندلسية، التي شاعت العناية أن تنجز من أحداث الزمن وعناية المحر والفناء، في عدة من القواعد الأندلسية الذاهبة. وإذا تركنا حمراء غرناطة وجامع قرطبة جانباً، فإن معظم هذه الصروح والآثار، يتمثل في طائفة من القلاع (القصور) الأندلسية القديمة، والقصور التي كانت ملحقة بها، وفي بعض القلاطر العربية، التي ألفت عليها يد الدهر، وبقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة، ثم في بعض الأطلال التي تركت إلى جانب بعض الكنائس، التي أقيمت فوق أنقاض المساجد، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس، ومن عقود أو أسوار أو مشارف دُرسة، وأخيراً في عدد عديد من النخائر والتحف واللوحات الأندلسية، المبعثرة هذا وهناك في بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية، وهذا كله إلى ما خلفه الفن الأندلسي من أثر خالد، في طراز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية، من كنائس وقصور وأبواب وعقود وغيرها، وفي زخارفها ونقوشها، وما خلفه فن المنحنيين الذي اشتق من الفن الأندلسي، من الآثار الظاهرة في طراز كثير من الصروح، التي أنشئت في مختلف المدن الإسبانية، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر.

* * *

ولقد تحولت في سائر القواعد الأندلسية الذاهبة، التي أضحت اليوم منذاً نصرانية إسبانية أو برتغالية، شاهد وتقصي هذه الآثار والأطلال، والنخائر الأندلسية الباقية، هنا وهناك، وأستوعب لمحاتها المندثرة. وقد استغرق مني هذا التجوال خمس رحلات متوالية ما بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥٤، ولم يكن دائماً سهلاً ولا هيناً في ظروف المواصلات الإسبانية المعروفة، ومع ذلك فقط استطعت أن أزور ثيفاً وستين مدينة أندلسية ونصرانية لها علاقة بتاريخ الأندلس، واستطعت أن أقف خلال تجوالي ومشاهدتي، كثيراً من المعلومات والملاحظات القيمة، وكنت أقف مذكرتي على الفور، فوق الصروح والأطلال الدارسة، وفي ثايا الكنائس الجامعة، وفي أروقة المتاحف العديدة، حتى اجتمعت لديّ منها طائفة كبيرة، رأيتها جديرة بالتكوين والتنسيق والإخراج.

وقد ألفت نظري أثناء هذا التجوال الشامل ظاهرة تبعث إلى كثير من التأمل، ذلك أنني شأعت في كثير من المدن الإسبانية والبرتغالية، التي كانت من قبل قواعد أندلسية إسلامية، كثيراً من الآثار الرومانية والقرطاجنية والإيبيرية، ومنها معابد ومسارح، وهياكل أخرى كاملة، ودعك من القلاطر والحصون والعقود والأسوار الرومانية، التي كانت قائمة في كثير من مدن شبه الجزيرة الإسبانية حينما فتحها المسلمون، والتي مازال معظمها قائماً حتى اليوم في حالة جيدة، مثل أسوار آبله وطركونة العظيمة، والقلاطر المائية الضخمة في شقوبية،

PDF Eraser Free

وماردة، وغيرهما، ومن الحصون والعمود والقناطر النهرية عدد عديد، فهذا كلها أبقى عليها المسلمون طوال عهدهم، وعملوا على تجديدها وإصلاحها والارتفاع بها. ودمت من الكنائس القوطية التي كانت قائمة وقت الفتح، وأبقى المسلمون على معظمها لعبادة رعاياهم النصارى، ولكن المدحش حقاً هو أن المسلمين قد أبقوا في نفس الوقت على المعابد الوثنية والنصرانية الرومانية وغيرها، لم يقوموا بهدمها، ولم يمسوها بسوء. وإليك بعض أمثلة بارزة لهذه الآثار الوثنية والنصرانية، التي كانت قائمة أيام المسلمين، وما زالت قائمة إلى يومنا:

١- في مدينة يابرة البرتغالية، يوجد معبد روماني كامل، هو المعروف بمعبد ديانا، وهو من أجمل وأكمل المعابد الرومانية في شبه الجزيرة.

٢- في مدينة ماردة يوجد معبد روماني، ومسرح روماني عظيم، يقال له "أمفونتر" روماني، يضارعه في الروعة والفخامة، كما يوجد قوس تراجان الشهير.

٣- في مدينة ساجنتو (مريبطر) وهي ضاحية بالنسية، يوجد مسرح روماني كامل.

وقد لبث المسلمون قروناً سادة في هذه القواعد الأندلسية، ولم يفكروا في هدم هذه الآثار القديمة، من رومانية أو غيرها، مع كونها وثنية أو نصرانية. والسبب في ذلك بسيط واضح، هو أن المسلمين كانوا بعقيدتهم المستبصرة، ودينهم السمح، يرون أن هذه الآثار إنما هي ذخائر فنية من تراث العصور الغابرة يجب الإبقاء عليها، وكانوا بذلك يرتفعون بالقيم الفنية إلى مستوى لا تصدح منه الاعتبارات الدينية الضيقة. وهذه الاعتبارات الدينية الضيقة هي التي حملت السياسة الإسبانية في عصور التزمّت والتعصب، على أن تقصد بالمحو والإفناء الشامل، كل ما خلفته الأمة الأندلسية من مساجد وصروح وآثار جليلة. وربما كان ثمة إلى جانب الاعتبارات الدينية، اعتبار معنوي آخر هو أن لا تبقى الأمة الغالبة على شيء أو على كثير من روائع الفن الأندلسي، حتى لا تكون شاهداً أمام الأجيال اللاحقة، بما كانت عليه حضارة الأمة المغلوبة من مستوى رفيع باهر. وقد يرجع إفلات بعض الصروح والآثار الأندلسية القليلة، التي نجت من سياسة المحو والإفناء، إلى كفاح بعض الأذهان الإسبانية المستبصرة، كما حدث بالنسبة لجامع قرطبة ومذابة إشبيلية، وحمراء غرناطة، والتي اقتصر ظفر التعصب على بترها أو تشويهها.

وقد تحدثنا ولنا بمدرّد في هذا الموضوع مع العلامة والمؤرخ الإسباني الكبير الأستاذ منديث بيدال، فحاول أن يشرح موقف السياسة الإسبانية من هذه المسألة على النحو الآتي:

إنه من المستحيل أن يطالب إلى عقاية القرن الثالث عشر والرابع عشر، أن تحترم مساجد مخصصة لعبادة أخرى، ولم يكن من المعقول أن تترك المساجد، إذ لم يكن لوجودها

PDF Eraser Free

محل، فهذه لتقوم الكنائس. وفيه ليكون سبقاً للتاريخ أن يُطلب احترامها، وقد كانت إسبانيا في عصر البروتستانتية (الإصلاح الديني) بلدًا لا يدين بالتسامح.

ولكن إسبانيا كانت قبل سقوط غرناطة، تحتفظ بالأديان الثلاثة: النصرانية والإسلام واليهودية، وكان سان فرناندو (الملك فرناندو الثالث) ملك الأديان الثلاثة، وشعر قبره مكتوب باللاتينية والعربية والعبرية.

وكذلك كانت إسبانيا تبدو في هذه العصور أحيانًا أكثر تسامحًا من غيرها. مثال ذلك أن الصليبيين الفرنسيين في موقعة العقاب (١٢١٢ م) نكثوا عن متابعة الحرب، حينما رأوا زملاءهم الإسبان يابون قتل الأسرى المسلمين. وقبل ذلك في موقعة باب الشزري Roncesvalles (٧٧٨ م)، أمر شارلمان أن يقتل من لم يعتنق النصرانية من الأسرى المسلمين.

ولا بأس بهذه التعليقات والمقارنات التاريخية، بيد أنها لا يمكن أن تكفي لتبرير سياسة الأمة الغالبة في القضاء على الآثار الأندلسية، وقد كن من هذه الآثار غير المساجد، مدارس وقصور وحمامات وصروح مختلفة أخرى، تناولتها جميعًا سياسة الهدم والإفناء الشامل. وهذا اليوم لموقف السيلة الإسبانية من تراث الأمة المغنوبة، يردد كثير من العلماء الإسبان أنفسهم حينما يجيء خلال الكتاب.

وكذلك لا يمكن أن تصدح هذه التعليقات والمقارنات التاريخية، من قدر السياسة المستنيرة السعداء، التي أملت على الفاتحين المسلمين، احترام تراث الأجيال الغابرة الفني، المدني والديني، في إسبانيا وفي غيرها.

وإني لأضع اليوم بين أيدي قراء العربية هذه الدراسة الشاملة، وهذه الصور المختلفة للآثار الأندلسية الباقية، في سائر القواعد الأندلسية الذابغة، مئةً بالعبر التاريخية المؤلمة، ولود أن لنوء بالي لم أقصد بما كتبت تكوين رحلة أو مشاهدات شائقة عابرة، ولكني أرئت أن أقدم قبل كل شيء دراسة تاريخية أثرية لهذا التراث الأندلسي، الذي مازل مثلاً أمام أعيننا، ينبذا بكثير من عظمة الماضي وروعته.

وقد عنيت عناية خاصة بمسألة الخرائط والصور، فحصلت على مجموعة كبيرة من الخرائط الإسبانية التفصيلية، وخطط المدن الأندلسية، كما حصلت على مجموعة كبيرة من صور الآثار الأندلسية في مختلف البلاد التي زرتها، ومنها ما صورته بنفسي، وقد أوزنت منها في هذا السفر طائفة كبيرة، تستبين منها عظمة هذه الآثار وروعتها.

وإني أنتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى مختلف السلطات الإسبانية، ولا سيما دور البلديات، ومكتب السياحة، والمتاحف، والكنائس والأديار، ودور المحفوظات، في

PDF Eraser Free

مختلف البلاد التي زرتها، وكذلك إلى العلماء والأصدقاء الإسبان الذين لقيتهم، واتصلت بهم خلال رحلاتي المتوالية، لما لقيت منهم جميعاً من ضروب المعاونة والمجاملة. وأخص بالذكر منهم الأستاذ لويس سيكو دي لوثينا ومبستيان لومبريرو بغرناطة، وفيلكس هرناندث بقرطبة، والدكتور بلييري بقرطوشة، والأستاذ كاتينا بقسطونة، والدكتور سارنلوي كاريرس بشاطبة، والدكتور بوسكيتس مولث بميورقة، والأب ريباؤو بوندو، والسيور خوان تمبوري الفاريث بمالقة، وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم.

كما أقدم جزيل الشكر إلى معهدنا المصري بمطريد لما لبدى إلى من معاونات قيمة لدى مختلف الهيئات العلمية.

القاهرة في يولييه سنة ١٩٥٦

محمد عبد الله عنان

خطاب إلى المؤلف من العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال

ثالثال، رقم ٢٣ (شامرتين) مدريد - في ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٧

الأستاذ م. ع. طان - مدريد

صديقي المحترم

لك خالص الشكر لإرسالك إلي كتابك "الأثر الأندلسية في إسبانيا والبرتغال" وهو الذي تعرض فيه نتائج رحلاتك ودراساتك في هذه الأعوام الأخيرة في الجزيرة الإسبانية؛ وإنه لما يستحق جزيل الشكر، أن تقوم بالتعريف بهذه الأثنياء باللغة العربية؛ لأنني أعتقد أنه من الضروري جداً، أن تقع المعرفة المتبادلة، والإدراك المتبادل، والتقدير المتبادل.

بيد أني لود فقط أن أبدي بعض إيضاحات صغيرة حول التأكيدات التي أبديتها بالنسبة للمعاملة المختلفة التي قام بها كل من المسلمين والإسبان تجاه الأثر التي لقوها عند فتوحهم، وعند استردادهم لهذه الفتوح. واعتقادي أن الأثر الرومانية، وما قبل الرومانية، قد بقيت مصونة لمئاتها الفاتكة، في حين أن العمارات العربية هي أقل بكثير في المتانة، وأكثر اهتماماً بزخارفها الجصية الجميلة، ولم يبق الإسبان بهدم المساجد الإسلامية، ولكن الذي حدث هو أنهم - وهو ما يطابق المنطق - حولوها إلى كنائس نصرانية، مثلاً قعل العرب حينما استخدموا لمزاولة شعائرهم الكنائس النصرانية القديمة، وثمة أمر آخر، وهو أنه عند ذكر التعبيرات الخاصة بالمنصب العسكرية والقضائية المشتقة من العربية، تسرب سهو صغيرة؛ حيث ذكرت كلمة Alvarez، وهي لقب عائلي، ويجب أن يذكر بدلاً منها Alferez، وهي منصب عسكري.

ولما قوما يتعلق بها تبقى، فإنني متفق معك، ذلك أن ما كد ينتهي العصر الوسيط، عصر التعايش المشترك، حيثما كان يقوم في القرى حي إسلامي بمساجده وحي يهودي بمسجده، حتى جاء عصر التزمت وعدم التسامح.

وإنني مع أخلص تحياتي، ملاقات أحتفظ عن محادثاتنا بأطيب الذكريات.

ر. مننديث بيدال

PDF Eraser Free

تلقيت هذا الخطاب من صديقي العلامة المؤرخ الكبير الأستاذ منتهيث بيدال، رئيس الأكاديمية الملكية الإسبانية، وذلك على أثر ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وإطلاعه على ترجمة ما ورد في مقدمته خاصًا بموقف المسلمين من الآثار القديمة، وموقف الإسبان من الآثار الأندلسية.

ولني مع تقديري لما جاء في خطاب العلامة الكبير من الملاحظات، أود أن أسجل هنا فقط نقطتين:

الأولى - أن الصروح الأندلسية من مساجد وقصور ومدارس وغيرها، لم تنتشر، لأن العمارة الإسلامية أقل متانة من العمارة الرومانية؛ ولكن لأنها قوضت وهدم معظمها بتأشراً بأيدي الإسبان، عقب "الاسترداد"، وأما فيما يتعلق بمدى متانة العمارة الإسلامية فإني أود أن أذكر هنا فقط صرحاً إسلامياً واحداً، هو جامع قرطبة، الذي حُوّل إلى كنيسة جامعة، والذي مازال قائماً بعقوده وسواريه، وسائر أبنيته في أجود حالة من الحفظ، وذلك بالرغم من أن أقدم أجنحته، وهو الجناح الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل الأموي، قد مضى على بنائه زهاء ألف ومائتي عام.

الثانية - أن العرب عند الفتح لم يقوموا بهدم جميع الكنائس التي كانت قائمة بالمدن المفتوحة، أو تحويلها جميعاً إلى كنائس؛ وإنما الذي حدث وتزايد جميع الروايات، هو أنهم حولوا بعض الكنائس الرئيسية إلى مساجد، وبنوا مكانها المساجد، كما حدث في قرطبة وطليطلة، وبعض قواعد أخرى؛ ولكن الثابت المحقق إلى جانب ذلك، هو أنهم تركوا في نفس الوقت في سائر المدن الأندلسية كثيراً من الكنائس، لكي يزول فيها النصارى شعائرهم أحراراً كإخوانهم المسلمين. وقد كان المستعربون أو النصارى المعاهدون يكونون في مختلف القواعد الأندلسية أقلية كبيرة، وكانوا إلى جانب كنائسهم القديمة، يقيمون كنائس من وقت إلى آخر. وكانت هذه الكنائس في أحيان كثيرة، تقوم إلى جانب المساجد. فأين هذا كله من سياسة الهدم الشامل التي اتبعتها إسبانيا النصرانية عقب "الاسترداد" نحو سائر المساجد والصروح الأندلسية الأخرى؟ إنه لا شيء سوى التباين الواضح بين التسامح المستعير، والتزمت المطبق.

محمد عبد الله عنان

تصدير

للطبعة الثانية

ما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب، استطعت أن أقوم برحلات جديدة لطائفة من المدن والأماكن الأندلسية التي لم يُتاح لي زيارتها من قبل؛ مثل جيان ولبدة وبياسة في شرق الأندلس، وإستجة وقرمونة ولبة في غربها، وأرشدونة ومربلة والمنكب وشلوبائية وهترييل في جنوبها، وهذا فضلاً عن زياراتي الجديدة المتكررة للقواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وإشبيلية وقرطاجنة ومالقة وغيرها، وقد استطعت خلال هذه الرحلات الجديدة، أن أقوم بدراسة طائفة كبيرة أخرى من الآثار الأندلسية الباقية، وأن أجمع كثيراً من المعلومات الأثرية المفيدة.

ومن ثم فقد رأيت أن أصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب، متضمنة لتلك الدراسات الجديدة، متضمنة في نفس الوقت كثير من الزيادات والتصحيحات، الاصطلاحية والأثرية، التي اجتمعت لي خلال المراجعات العديدة التي قمت بها في الأعوام الأخيرة، ومنها مراجعات لمصادر مخطوطة هامة.

وقد أضيفت إلى الكتاب طائفة كبيرة جديدة من الصور الأثرية لمختلف المدن والأماكن الجديدة التي زينت في هذه الطبعة، هذا إلى ما أضيف إليه من الصور الجديدة، لبعض المدن والأماكن السابقة.

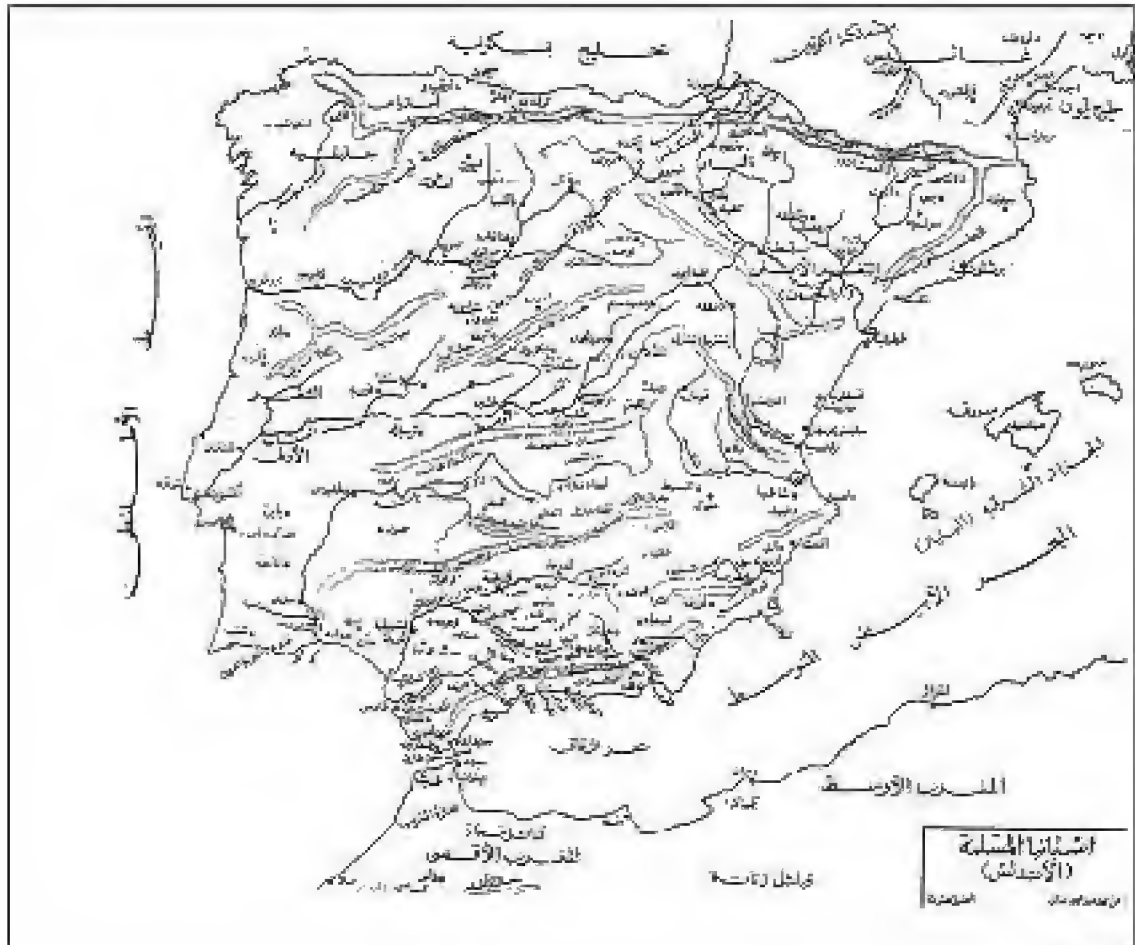
وكذلك أجريت في تنظيم الكتاب بعض التعديلات، من تقديم وتأخير اقتضاء تنسيق المواد القديمة والجديدة.

وإني إذ أضع هذه الطبعة الجديدة من الآثار الأندلسية الباقية، بين أيدي القراء، أرجو أن أكون قد استطعت أن أنقل إليهم صورة جامعة لذلك التراث الأثري المؤثر - تراث الأمة الأندلسية المجيدة.

القاهرة في: ربيع الثاني سنة ١٣٨١

سبتمبر سنة ١٩٦١

محمد عبد الله عنان



PDF Eraser Free

الكتاب الأول القواعد الهندسية الكبرى

١ - قرطبة

Cordoba

لبيت قرطبة زهاء ثلاثة قرون، قاعدة الدولة الإسلامية بالأندلس، ومركز الفُجُوح والغزوات المختلفة، ومثوى الحركة العقلية الأندلسية. ولبيت حتى بعد انهيار الخلافة، تحتفظ في ظل الطوائف، ثم المرابطين والموحدين، بكثير من هيبتها النادرة، كقاعدة رئيسية من قواعد الإسلام في إسبانيا. وكان لسقوطها في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٣٦ م (٦٣٣ هـ) أعظم وقع في الأندلس، وفيما وراء البحر، ومع أن مجتمعا الإسلامي النادر، أخذ ينهار منذ سقوطها بسرعة، وقد عاندها أكثر سكانها المسلمين، ولا سيما الأشراف ولبناء الطبقات الممتازة، فرارا إلى القواعد الإسلامية الأخرى، فقد بقي بها في ظل حكم القشتاليين كثير من المسلمين الذين تدجنوا^(١)، ثم فقدوا بمضي الزمن، وحكم الاندماج في المجتمع الجديد، خواصهم ودينهم ولغتهم، ولم يمت زهاء قرن أو قرنين، حتى كان المجتمع الإسلامي في قرطبة، قد عاصت آثاره الأخيرة.

وقرطبة مدينة أندلسية إسبانية عريقة، ترجع إلى العصر الروماني، وهي تقع على سفح جبال قرطبة الجنوبي، على منحى الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وترتبطها مزيج بين البساط الخضراء، حيث تزرع الحبوب والكروم، وغطات الزيتون وحدائق البرتقال والليمون، وبين السفوح المنحدرة من جبل سييرا مورينا^(٢) حيث توجد المراعي الطيبة. وهي في الوقت نفسه، مدينة صناعية، بها مناجم الفحم والرصاص والنحاس، وأهم صادراتها الفواكه والتبغ والزيت.

ولا تعد قرطبة اليوم، من المدن الإسبانية الكبيرة، وهي ليست في مرتبة بلنسية أو إشبيلية من حيث اتساع الرقعة، أو كثافة السكان، ولا يعدو سكانها اليوم مائة وثمانين ألف نفس، وقد بلغوا في عهد ازدهارها أيام النواة الإسلامية زهاء خمسمائة ألف.

واليوم تبدو عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة، مدينة أوربية بكل معاني الكلمة. وهي تكاد تكون مربعة الرقعة. وأعظم شوارعها "متزه القبطان الأعظم" "Paseo del Gran

^(١) عن تيجن أي ألف واستاكس، ومنها عتجن ومنجنون، وبالإسبانية Mudéjares وهم المستعمرون الذين كانوا يعيشون تحت حكم الإسبان.

^(٢) جبل سييرا مورينا Sierra Morena هي بالعربية "جبل الشرائط".

PDF Eraser Free

"Capitán"، وهو شارع عريض جداً تقوم على جانبيه طائفة من المباني الفخمة المحدثه، والقبطان الأعظم الذي سُمي باسمه هو "جونزالفو دي كوردوبا" وهو من أعظم قواد إسبانيا أيام الملكين الكاثوليكين فرديناند وإسبيللا، فاتحي غرناطة؛ ويقاطع هذا الشارع شارع عظيم آخر هو شارع "كاناليخاس"، "Avenida de Canalejas"، وعند تقاطعهما يقع "ميدان الثيران"، حيث توجد ساحة مصارعة الثيران. وأهم ميادينها التجارية "ميدان كانوفاش" "P. de Canovas"^(١)، وعلى مقربة منه يقع "ميدان إشبيلية"، ويتفرع من كليهما بعض الشوارع الضيقة التي تؤدي إلى المسجد الجامع. ومن أهم شوارعها الوسطى "شارع سان بابلو" وشارع "سان لورنسو" وشارع "سان فرناندو". وتقوم المدينة كلها في شمال النهر، ما عدا ضاحيتها الصغيرة المسماة "حي الروح القدس" "Barrio del Espíritu Santo"، وهي تقع على الضفة الجنوبية من النهر تجاه المسجد الجامع. ومما يجدر ذكره أنه مازالت توجد بقربطبة اليوم شوارع صغيرة تحمل أسماء "المنصور" و"ابن رشد" و"ابن ميمون" وهي تقع متجاورة على مقربة من المسجد الجامع.

وقد نزلت قرطبة الحديثة كل معالمها القديمة، فلم يبق بها اليوم - إذا استثنينا مسجدها الجامع القديم - ما يذكرنا بماضيها الإسلامي المجيد. وتكاد قرطبة - إذا استثنينا أيضاً بعض الدروب المحيطة بالجامع - تخلو حتى من الأحياء الأندلسية القديمة، ذات الدروب الضيقة والطابع الخاص. وقد شاح من مبانيها الحديثة كل أثر للطرز الأندلسي القديم الذي مازال يمثل في كثير من مدن الأندلس الأخرى، ولا سيما إشبيلية وغرناطة، وهي تبدو على الجملة بشوارعها الشاسعة المحدثه، وعماراتها العالية، مدينة أوربية محضة، لا تذكر أول وهلة بشيء من ماضيها القديم.

ولكن قرطبة الأوربية النصرانية، مازالت حتى اليوم تحتفظ بأثر من أعظم الآثار الأندلسية، وهو مسجدها الجامع القديم، الذي عاصر أيام عظمتها الزاهية، منذ بداية الدولة الأموية، وأيام محنتها خلال الفتنة والثورات المتعاقبة، وأيام المرابطين والموحدين، حتى سقوطها في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقيس فرناندو وذلك في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيو سنة ١٢٣٦ م.

ويقوم هذا الأثر الإسلامي العظيم - مسجد قرطبة الجامع أو "La Mesquita Aljama" كما يسميه الإسبان - فوق بقعة صخرية، تقع في نهاية جنوب شرقي قرطبة، على مقربة من القطرة العربية القديمة، المقامة على نهر الوادي الكبير، وتحيط به الدروب الضيقة من جوانبها الأربعة، وتبدو على جدرانها وواجهاتها الخارجية آثار العفاء والقدم، ولكنك متى

^(١) كاناليخاس وكانوفاش من أعلام النحلة الإسبان في القرن التاسع عشر.

جزت إلى داخل فناءه التاسع، وتامت مدخله الرئيسي، أدركت لأول وهلة أنك تواجه الشرا من أجل وأبداع الآثار الإسلامية الباقية.

وفي قصة المساجد الأندلسية الجامعة، تمثل عبدة التاريخ الخالدة، فقد حولت - أو حولت مواقعها - جميعاً إلى كنائس جامعة (كنائس)، وفي أمثلة كثيرة، كانت بُني الكنيسة الجامعة كلها أو بعضها من أنقاض المسجد المهذوم، كما هو الشأن في كنيسة طليطلة الجامعة، وأحياناً صُنِّفَت منارة الجامع لتغدو برجاً لأجراس الكنيسة، كما هو الشأن في كنيسة إشبيلية الجامعة، وذلك كله إشادة بظفر النصرانية على الإسلام في إسبانيا. ولم يشذ مسجد قرطبة عن هذه القاعدة، فهو اليوم بالرغم من محاربه وعقوده الإسلامية، كنيسة قرطبة الجامعة (كنائس)، وقد بُدِيَء بإنشاء مسجد قرطبة، في سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م)، على يد عبد الرحمن الداخل الأموي، وكان موضعه كنيسة قوطية. وأراد عبد الرحمن أن يكون مسجد قرطبة أعظم مساجد الأندلس وأفخمها، فجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المصنوع من أربونة ونيسة وإشبيلية وقسطنطينية. ولكنه توفي قبل إتمامه، فآتمه ولده هشام، وأنشأ به منارته الأولى، وزاد فيه عبد الرحمن بن الحكم بهوين جديدين من ناحية القبلة، أعني من الناحية الجنوبية المواجهة للنهر (٢١٨ هـ - ٨٣٣ م). وجدده الأمير محمد بن عبد الرحمن، وأنشأ به مقصورة فخمة كانت الأولى من نوعها بمساجد الأندلس. وفي عهد ولده الأمير عبد الله أنشئ "السباط" الموصل من القصر إلى الجامع، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبني فوق عقد كبير، يفضي من القصر إلى مقربة من المحراب، وجدد عبد الرحمن الناصر واجهة الجامع وهدم منارته القديمة، وأنشأ مكانها منارة أخرى أرفع وأفخم (سنة ٣٤٠ هـ - ٩٥١ م). وكانت منارة الناصر مربعة الواجهات، لها أربعة عشر شباكاً ذات عقود، وتحتوي على سلمين: أحدهما للصعود والآخر للنزول، وفي أعلاها ثلاث تفلحات، اثنتان من الذهب، والثالثة من الفضة. وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها، تكاد تخطف الأبصار ببريقها^(١).

ثم زاد فيه ولده الحكم المستنصر زيادات كبيرة، فابتنى المحراب الثالث، واستغرق بناؤه أربعة أعوام، وعملت له قبة فخمة، زخرت بفسيفساء بنيسة، واستقدم الحكم من قسطنطينية خبيراً بأعمال الفسيفساء، وأرسل إليه قيصر منها قدرًا كبيراً، وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة بها قبة على الطراز البيزنطي، وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة، وأخرى للوعاظ وعمل المسجد. وتشتغل زيادة الحكم في الجامع قسمه الأوسط، الذي يلي جناحه القديم الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل وهو يبلغ نحو ثلث الجامع^(٢). وأخيراً جاء

(١) أعمال الإعلام لابن الخطيب (بيروت) ص ٣٨

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩، وأصل الإعلام ص ٤٨

PDF Eraser Free

المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور) فزاد فيه من ناحيته الشرقية، زيادة كبيرة، فأقام بهذا الجامع القديم، من شماله إلى جنوبه، على رقعة شاسعة، تكاد تعدل مساحته الأصلية، جناحاً أو جامعاً جديداً، رُوعي في إنشائه التماثل والمطابقة للصرح القديم (٣٧٧ هـ - ٩٨٧ م) وبذلك تضاعف حجم الجامع تقريباً، وبلغ عدد سواريه ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وأربعمائة وسبعة عشرة، وبلغت نريته مائتين وثمانين.

وهكذا لبث الأمراء والخلفاء عصوراً يتعاقبون في توسيع جامع قرطبة وتجميله، حتى عدا برقعته التاسعة، وسواريه الألف وأربعمائة، وأبوابه البرونزية العديدة، ومخاربه الفخمة، وزخارفه البديعة، من أعظم المساجد الجامعة في العالم الإسلامي، إن لم يكن أعظمها جميعاً.

وقد كان جامع قرطبة، فضلاً عن وظيفته الدينية الرئيسية كمسجد الإمارة ثم الخلافة الرسمي، يتخذ مركزاً لبعض المهام الكبرى، فقد كانت تؤخذ فيه بيعة الأمير أو الخليفة الجديد، وكانت تعلن من فوق منبره عظام الحوادث، وتقرأ الأوامر والأحكام الخلافية الهامة، وكان يعقد به مجلس قاضي القضاة. وفضلاً عن ذلك كله، فقد كان جامع قرطبة، مركزاً للجامعة قرطبة الشهيرة، التي ازدهرت أيام الخلافة، وكانت تنظم بين أروقته حلقات الدراسات الرفيعة المختلفة، التي جعلت من قرطبة، خلال العصور الوسطى، أعظم مركز للدراسات العلمية المعتادة في الغرب.

ويشغل جامع قرطبة مسطحاً كبيراً يبلغ طوله مائة وثمانين متراً، وعرضه مائة وخمسة وثلاثين، وبذا تبلغ مساحته ٢٤٣٠٠ متراً مربعاً، ويخفى في ذلك صحنه المكشوف الواقع في شماله والذي يعرف اليوم بفناء النارنج أو البرتقال "Patio de los Naranjos"، وهو فناء شاسع مستطيل يكاد يبلغ ثلث رقعته، وهو أندلسي الطراز والمظهر، بمعالمه وأوضاعه ونوافيره وأشجاره، ويحيط به من الشمال والغرب عدد من الأبنية ذات أعمدة وعقود على الطراز القوطي. ويؤدي إليه من الباب الرئيسي المجاور للمنارة، وهو الباب المسمى باب الغفران "Puerta del Perdon"، وكان الجامع من قبل تسعة عشر باباً فخمة، تؤدي كلها إلى فناءه الشاسع. ويبلغ ارتفاع "باب الغفران" سبعة أمتار، وعقده كحدوة الجواد، وقد زين بزخارف عربية جميلة. بيد أنه ليس هو باب المسجد القديم، ولكنه أنشئ بعد سقوط قرطبة سنة ١٣٧٧ م، ورُوعي في إنشائه أن يكون تقليداً للطراز العربي. وفي فناء البرتقال توجد عدة من النوافير، وقد عرفت في جنبته وفي وسطه أشجار البرتقال، وهو تقليد إسباني قديم متبع في سائر المساجد الجامعة، التي حولت إلى كنائس، ومنها صحن جامع إشبيلية الذي يعرف أيضاً بفناء البرتقال.

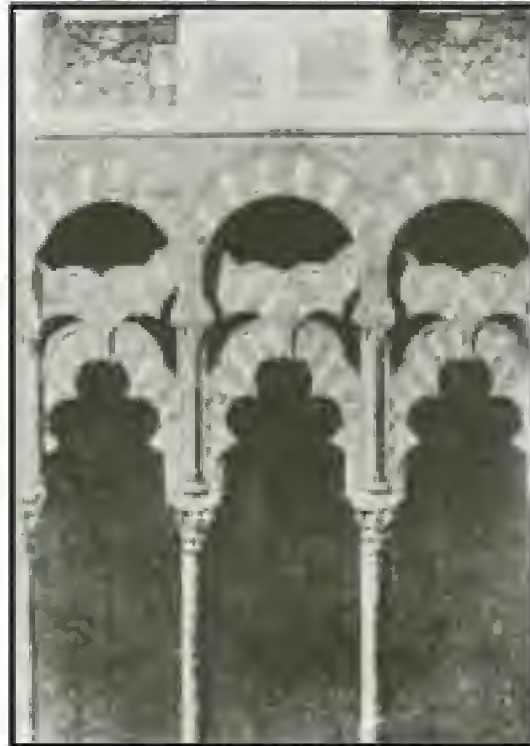
PDF Eraser Free

ويقع بناء الجامع في جنوبي الصحن بينه وبين النهر، وتشرف أجمل واجهته وهي الشمالية على الغناء، وهي ترجع إلى عصر عبد الرحمن الداخل وولده هشام. وفي هذا الجناح يوجد أقدم أبواب الجامع، وهو يقع في وسط الجدار الواقع في الناحية الغربية، ويطلق عليه الإسبان اسم باب "ثنت إشتين" "San Esteban". أما الجناح الكبير الذي أنشأ المنصور فيقع إلى اليسار، ومنخله الرئيسي باب برونزي هائل رائع الزخرف، ويعرف بباب النخيل "Puerra de las Palmas" وهو مواجه لباب الغفران. وله ثمانية عشر بابًا أخرى، في جوانبه الأربعة: سد معظمها اليوم، وتبدو روعة هذا الأثر الإسلامي العظيم للداخل من أول نظرة، ويحار البصر في تأمل عقود، وأعمدته العديدة المتقاطعة، التي لا تكاد تدرك العين نهايتها. وتبلغ عقودها في الطول تسعة وعشرين، وفي العرض تسعة عشر، ويبلغ ارتفاع سقفه نحو اثني عشر مترًا. ولأول وهلة، ولمدى قصير فقط، يشعر المتأمل أنه في قلب مسجد إسلامي، ولكنه متى دقق البصر قليلًا، أدرك في الحال أن المسجد قد استحال إلى كنيسة، بل إلى كنائس لا نهاية لها، والواقع أن الجامع يبدو من الخارج، في مجموعته، كأنه كنيسة أكثر منه جامعًا، وقد عُدَّت أسقفه على الطراز الكنسي، وأزيلت القباب القديمة ما عدا القبة الرئيسية الوسطى، وهي التي تظل الهيكل الرئيسي الذي أنشئ في وسطه، وحلت محل القباب سقف مصلعة، تزينها من الداخل نقوش نصرانية، وأنشئت على طوِّ جوانب الجامع الأربعة من الداخل، هياكل لا نهاية لها، ونصبت فوقها الصلبان، وتمثال القديسين وصورهم، وجعل من كل عقد أو اثنين هيكل قائم بذاته، ولم يترك من جوانبه سوى مكان المحرابين. وأحد المحرابين قديم مخرب، ويقع على مقربة من الزاوية اليمنى للجامع، والمرجح أنه المحراب الأول قبل توسعة الجامع، والمخرب الثاني قريب منه، ويقع في نحو الثالث من الناحية الجنوبية، وهو فخم مزين بالنقوش والآيات القرآنية، وفي داخله مخدع صغير، وسقفه عقد رخامي مزين بالزخارف المذهبة، وهو معلق بفتح للزائرين بذاكرة خاصة.

PDF Eraser Free



جامع قرطبة، صحن الجامع
وقد ظهرت به لشجار النارنج ويزج الأجراس الذي أقيم مكان العشرة القديعة



جامع قرطبة، عقود منخل المحراب

PDF Eraser Free

ومنى سرحت البصر في هذه التفاصيل مدى لحظة، أدركت أنك تجوس خلال اثر إسلامي شوهدت معالمه الإسلامية بطريقة منظمة، ولكن سألجة فجأة. وأشد ما يؤذي النظر خلال هذا الجلال المشوه، ما يسود وسط الجامع وجوانبه من الظلام. فالضوء قليل ينفذ إلى بضعة أركان ونواح متفرقة. والسبب في ذلك هو أن معظم القباب القديمة قد أزيلت وبُنيت مكانها أسقف مستوية، وبُنِي ما بين كثير من الأعمدة، وبكاد ينعدم الضوء حول الهيكل الكبير القائم في وسط الجامع. وقد بُني هذا الهيكل بشكل مقصوب مفتعل، تحت القبة الرئيسية وبين القباب الأربع التي تحيط بها، على شكل صليب "Crucero"، وقد سد فيها ما بين الأعمدة وزينت الجدران من الداخل، وكذلك سقوف هذه القباب بزخارف نصرانية، وأزيلت جميع الزخارف الإسلامية القديمة، ورسمت صور القديسين بين الزخارف. ونصب في كل من الناحيتين اليمنى واليسرى هيكل، علقت فوقه صور كبيرة للقديسين. وصفت كرسي الميراثين عند الهيكل الأيمن، كما وضعت هناك عدة أناجيل تاريخية، وبُنِي في كل من الناحيتين الآخرين في أعلى الوسط مخدع فخم، والظاهر أنهما مخدعان ملكيان، كلاهما أيام ازدهار الملوكية، يخصصان لجلوس الملك وأسرتيه عند إقامة القداس.

ونرجع قصة تشويه مسجد قرطبة الجامع على هذا النحو المؤلم، إلى أوائل القرن السادس عشر. ذلك أنه لما سقطت المدينة في أيدي النصارى، ودخلها فتحها سالن فرناندو ملك قشتالة، أقيم في المسجد الجامع قداس شكر، ثم أنشئ به هيكل مؤقت، واستمر الجامع بحالته الأصلية حيناً، واقتصر الملوك الإسبان على إجراء تغييرات جزئية في أوضاع الجامع،



وإنشاء المصليات والبياكل الصغيرة. وفي عصر الملك ألفونسو العاشر، في أواخر القرن الثالث عشر، أزيلت المقصورة الخليفة، وأقيم مكانها المصلى الكبير "Capilla Mayor"، وكان يستخدم في ذلك صناع من المدجنين، الذين يعرفون الطراز والزخارف العربية، وذلك حرصاً على شكل المسجد وطرازه، ولكن الفن الأندلسي كان يومئذ قد فقد كثيراً من قوته وبروعته، ومن ثم فإن أعمال المدجنين في المسجد، لم تكن تضارع الأوصاف والزخارف الأندلسية الأصلية، في براعة التنسيق وجمال الابتكار، وجاءت هذه التغييرات في معظمها أقرب إلى الفن القوطي منها إلى الفن الإسلامي.

باب القديسة كاتالينا أحد أبواب الجامع

PDF Eraser Free

وقد كانت إقامة الهيكل الكبير في وسط الجامع على هذا النحو، مثالاً لقد شديد من العلماء الأثريين الغربيين من إسبانيا وغيرهم. وقد وصفه بعضهم بأنه "شئ عمل همجي"⁽¹⁾ ارتكب لتشويهه. وكان ذلك أيام الإمبراطور شارلوك. ففي سنة ١٥٢٦، استأذن لسقف قرطبة دون ألونسو مانريك الإمبراطور، في إقامة هيكل رئيسي، يسبق على الجامع صفته النصرانية بصورة حاسمة، فأذن الإمبراطور، وأقيم الهيكل القوطي الكبير الذي يتوسط الجامع "Crucero"، واقتضى بناء قبته العالية، أن يزال السقف الأندلسي. وكانت إقامة هذا الهيكل الضخم، وما أحدثه في الجامع من تشويه مؤلم، أثرًا من آثار التعصب الكنسي العميق الذي طبع السياسة الإسبانية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والذي قضى على كثير من الآثار الأندلسية الفخمة. ومما هو جدير بالذكر أن الإمبراطور حينما رأى هذا الصرح الفضولي الضخم داخل الجامع بعد ذلك، أبدى سخطه، وندم لما صرح به، واحتج على إقامة الهيكل على هذا النحو في وسط هذا الفراغ الرائع، الذي تبدو فيه ملامح الفن الإسلامي، وصرح بأن عمل النصراني يبدو بالنسبة له ضئيلاً باهتاً، ويروى أنه قال للمشرقيين على الجامع: لقد بنيت هذا ما كان يمكن بناؤه في أي مكان آخر، وقد قضيت بذلك على ما كان أثرًا وحيداً في العالم.

والغريب في ذلك أن الإمبراطور شارلوك نفسه، هو الذي أمر بإزالة جزء كبير من قصر الحمراء في غرناطة، ليبني عليه قصر الروماني، إلى جانب قصر الملوك المسلمين، وهو الذي أمر بإزالة مسجد الحمراء ليبني مكانه كنيسة سانتاماريا.

وقد تم بناء هذا الهيكل الكبير في أواخر القرن السادس عشر. ويقول العلامة الأثري الإسباني كونتريراس، متولي إصلاح قصر الحمراء، "إن إقامة هذا المصلى الجديد، في قلب القديم، قد رذ في تحطاط الفن" و"به في رأيه" هو الذي أسبق على الجامع ملامحه المظلمة الموحدة"⁽²⁾.

وقد استمر الصنّاع المنجّون، واليهود والنصارى الذين تعلموا عليهم، في القيام بأعمال الترميم والزخارف في المسجد الجامع عصوراً. ولولئك المنجّون هم الذين خلقوا هذا المزيج من الفن الإسلامي النصراني، وهو الفن المنجّي، وهو الذي غلب على كثير من الصروح الأثرية الإسبانية، منذ القرن الثالث عشر، وحتى سقوط غرناطة كان المنجّون هم الذين يقومون في قرطبة وغيرها، من المدن الأندلسية القديمة بالإصلاحات والزخارف الأثرية الأندلسية.

⁽¹⁾ A. F. Calvert & W. M. Galliehan: Cordova, a city of the Moors, p. 76.

⁽²⁾ R. Contreras: Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada, Sevilla y

Córdoba. (Madrid 1878) p. 66.

PDF Eraser Free



جامع قرطبة، الجناح الأيمن المسمى "جامع المنصور"، وهو الذي أنشاه المنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٧
- ٣٨٠ هـ (٩٨٧ - ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم

PDF Eraser Free

وفي سنة ١٥٩٣، أزيلت منارة الجامع القيمة، وأقيم فوق أنقاضها برج الأجراس الحالي، على نمط يشبه المنارة، وقد جاء أعلى منها، وارتطاعه الحالي ثلاثون متراً. وفي داخله سلم حجري سميك، وقد ظهرت عليه آثار البلى والقلم، وفي جنبته شرف ومخادع تسكنها بعض الأسر الفقيرة. وقد أقيم فوقه تمثال للقديس رافائيل حامى المدينة.

وقد حمل العلماء الأثريون جميعاً، وفي مقدمتهم العلماء الإسبان على هذا التشويه، لأثر من أجل الآثار الإسلامية، ووصفه العلامة كونتريراس بأنه "تكنيس للفن"^(١). بيد أن هذا السخط وهذا التآسي لمسح مسجد قرطبة الجامع، يبدو بنوع خاص في هذه الكلمة البليغة المؤثرة التي يستهل بها المستشرق والعلامة الأثري الإسباني أمادور دي لوس ريوس، كلامه عن تاريخ المسجد الجامع، وهي في الواقع أبلغ رثاء لهذا الأثر الإسلامى العظيم:

"إنه لا الأوضاع النصرانية الفخمة التي تقوم اليوم، في وسط هذه العمدة التي لا تحصى، ولا ذخائر الفن التي أهدفه عليها أكبر الفنانين الذين أقاموها في القرن السادس عشر، ولا تلك السلسلة التي لا نهاية لها من المصليات التي ترجع إلى كل عصر، والتي حشرت بجدران المسجد وشوهرتها، ولا الصور التي تغطي عقود في الجزء المخصص للمحراب، ولا أولئك الملائكة الثقيل الذين كأنهم يؤخرون غير أنهم لكي ينيروا العبادات المقدسة، ولا الكلمات الإنجيلية التي تنوي من كرسي الروح القدس، في هذه العقود ذات البناء المحدث، يمكن أن تبدد أو تمحو ذرة من جلال هذه الأشباح المتجولة، التي تبحث عبثاً في زاوية المحراب عن ذلك الكتاب المقدس، الذي شمتت صحفه، حسبما تقول الرواية المتوارثة، بدم عثمان الزكي شهيد الإيمان. إن ثمة عالماً من الذكريات يملأ مخيلة السائح، حينما يشرح البصر بشعور من الأسى خلال هذه التشويهات: تلك الأعمال التي أملاها إيمان أجدادنا المغرّق المخلص معاً، فدفعتهم الرغبة، في أن يمحوا إلى الأبد، من البقعة التي خصصت لكتاب عيسى، روح محمد، وأشباح أوليائه الذين يغشونها، والذين سوف يغشونها دائماً ما بقيت في الوجود. ذلك أنه بالرغم من كل التشويهات التي ضلّت، وكل التغييرات التي أحدثت بها، فإنه قد ختم عليها، وفقاً لقانون محترم، بخاتم الفن الذي أوحى بها، وروح الأمة التي وضعت خطتها وأقامتها"^(٢).

وقد زار قرطبة في أواخر القرن السابع عشر (سنة ١١٠٢ هـ - ١٦٩١ م) الوزير المغربي محمد بن عبد الوهاب الغساني وزير مولاي إسماعيل سلطان المغرب وسفيره إلى كارلوس الثاني ملك إسبانيا، ووصف لنا مسجدها الجامع فيما يأتي:

^(١) R. Contreras, Ibid, P. 66.

^(٢) D. Rodrigo Amador de los Ríos: Inscripciones de Córdoba P. 8.

PDF Eraser Free

وهو مسجد كبير جداً في غاية الإتقان وحسن البناء، وبداخله ألف وثلاث مائة وستون سارية، كلها من الرخام الأبيض، بين كل سارية قوس فوق قوس آخر، وله من الأبواب الآن أربعة عشر باباً، وقد سد كثير من الأبواب وغيرها، ومحرابه الإسلامي باقى على حاله لم يتغير، ولم يحدث فيه شيء، إلا أنهم جعلوا عليه شباكاً من نحاس، وطرحوا أمامه صليلاً فلم يدخل عليه أحد إلا قبل ذلك الصليب، ولم يزد بداخله ولا بحائطه شيء قليل ولا كثير، ولهذا المسجد صحن كبير جداً مشتمل على خصة ماء في وسطه، ويدور بها في سائر الصحن من أشجار النارج مائة وسبع عشرة شجرة؛ ويقابل موضع المحراب من الصحن منار المسجد، وهو منار كبير مبني بالحجارة، إلا أنه ليس بغاية الارتفاع كمنار طليطلة وإشبيلية. ومزال سقف المسجد وأبوابه باقية على حالها لم يحدث فيها شيء، إلا ما تكاد الضرورة إليه من إصلاح السقف، الذي يندأى إلى السقوط وشبه ذلك. وقد أحدث التصاري بوسط هذا المسجد مقابلاً لمحرابه قبة كبيرة مربعة، مشبكة بشبابيك من نحاس أصفر، جعلوا داخل هذه القبة صليلاً من صلبانهم، وكتب صلواتهم التي يحضرونها مع الموسيقى وشبهها.

وأبواب هذا المسجد باقية على حالها من البناء الأول والنقش بالكتابة العربية؛ وهذا المسجد هو أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيلاً^(١).

وزار قرطبة من بعده في سنة (١١٧٩ هـ - ١٧٦٥ م)، الغزال القاسي سفير سلطان المغرب أبي عبد الله المنصور باقر، إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث. وهو يصف لنا عاصمة الخلافة القديمة، وموقعها في الوادي قرب جبال "سيرمين" ويقول لنا إن أهل قرطبة، معظمهم من أهل الحرف، وأن المدينة في غاية النظافة، ومعظم سورها أيام المسلمين باقى على حاله. وفي ظاهرها الحدائق والغراس. ثم يصف جامعها الأعظم "الذي تجاوز في الارتفاع كل مبانيها واستدارتها بالأسوار الإسلامي" وهو من أعظم مساجد الدنيا في الطول والعرض والعلو ثم يقول:

"ومذ عبرنا هذا المسجد، لم تنفّر لنا عبدة، مما شاهدنا من عظمته، وتذكرنا ما كان عليه عهد الإسلام، وما فريء فيه من العلوم، وثبت فيه من الآيات، وأقيمت به من الصلوات، وقد تخيل في الفكر أن حيطان المسجد وسواريه تسلم علينا، وتهش إلينا، من شدة ما وجدنا من الأسف، حتى صرنا نخطب الجمادات، ونعائى كل سارية، ونقبل سوارى المسجد وجداره". ثم يصف المحراب وقوامته، وما نقش عليه من آيات، وكونه يحمل اسم منسئله، وهو الإمام

(١) رحلة الوزير محمد بن عبد الوهاب المسماة "رحلة الوزير في افتكالك الأسير" المنشورة بعناية معهد فرانكو

PDF Eraser Free

المستنصر بالله، وتاريخ إنشائه. ويقول لنا إن الإنسان قد بنوا في وسطه قبة ضخمة، وأنشأوا تحتها هيكلًا نصرانيًا^(١).

وفي جامع قرطبة عدة نقوش وكتابات، نزل على تواريخ إصلاحه والزيادات فيه، أقدمها نقش فوق الحافة العليا من عقد بابه الغربي، وهو يؤرخ تاريخ التجديد الذي قام به الأمير محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٤١ هـ.

بيد أن أهم نقوش المسجد الجامع، هما اثنان، أولهما يؤرخ ما قام به عبد الرحمن الناصر من إقامة واجهته، وقد نقش في لوحة رخامية ثبتت بالجانب الأيمن من باب النخيل، بخط كوفي جاء فيه ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، لطلال الله بقاءه، ببنين هذا الوجه وإحكام إنشائه، تعظيمًا لشعائر الله، ومحافظة على حرمة بيوته، التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل النخر، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله، في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاث مائة، على يد مولاه وزيره وصاحب ماله عبد الله بن بدر، عمل سعيد بن ليوب.

والثاني ما نقش بالكوفية داخل المحراب في أسفل القبلة، وهو يؤرخ، ما قام به الحكم المستنصر في إنشاء المحراب، وكسوته بالرخام وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين، أمر الإمام المستنصر بالله، الحكم، أمير المؤمنين أصلحه الله، بعد عون الله فيما شئد من هذا المحراب، بكسوته بالرخام، رغبة في جزيل الثواب، وكريم العاقب؛ فتم ذلك على يد مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رضي الله عنه، بنظر محمد تمليخ، وأحمد بن نصر، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب، عبيده، في شهر ذي الحجة من سنة أربعة وخمسين وثلاث مائة، ومن يسلم وجهه إلى الله فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور.

ويوجد في المحراب ثمة نقوش أخرى تتضمن بعض الآيات القرآنية، وهي جميلة مذهب. هذا ومن المعروف أن جامع قرطبة، كان موقعه قريبًا من القصور. وكان القصور يقع في جنوبه الغربي على ضفة النهر (الوادي الكبير) قرب النقطة القديمة، وكان يصل بين

^(١) من رحلة الغزال المسماة نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد بقلم أحمد بن المهدي الغزال الفاسي

PDF Eraser Free

القصر والجامع "المباط" أو الممر المقوف الذي تقدم ذكره والذي كان مخصصًا لوصول الأمير إلى الجامع مباشرة، بعيدًا عن أعين الكافة. ويبدو من الروايات والتحقيقات المختلفة، أن مواقع القصر كانت تشتمل على المكان الذي يقوم فيه اليوم القصر الأسقي "Palacio Episcopal"، والمعهد المقابل له، وبناء السجن الإقليمي وما يليه من الحدائق، التي تعرف اليوم بحدائق القصر "Huerta del Alcázar"، وهي تقع مكان حدائق القصر الأموي القديم، بين النهر، وبين الحي الذي يُسمى اليوم "حي القصر القديم" "Barrio del Alcázar viejo"، وقد كان هذا القصر مقام الأمراء منذ قيام الدولة الأموية، حتى أوائل عهد الناصر، وكان يضم مدافعهم أيضًا. ولم يبق اليوم شيء من آثار القصر الأموي القديم، ولا القصر الإسباني الذي أقيم إلى جانبه، في عصر الملك ألفونسو الحادي عشر، والذي استعمل فيما بعد محكمة وسجنًا لديون التحقيق.

وتقع القطر الأندلسية القيمة تجاه المسجد الجامع من الناحية الجنوبية، وهي قطرة رومانية الأصل، جدها المسلمون أيام السماح بن مالك أمير الأندلس، وجددت بعد ذلك غير مرة. وهي قائمة على ستة عشر عمودًا، وفي نهايتها الجنوبية تمثال مرتفع للقديس رفائيل حامي المدينة، وهي تربط قرطبة بضاحيتها المسماة "حي الروح القدس" الذي سبقت الإشارة إليه، وما زالت هذه القطر تحتفظ بكثير من معالمها الأندلسية.

PDF Eraser Free



جامع قرطية، الناحية الجنوبية المقابلة للقصر الأسفني



قرطية، القنطرة العربية على نهر الوادي الكبير

PDF Eraser Free

وإلى مقربة من الجامع يقع المتحف الأركيولوجي في أحد الأبرقة الصخرية، وقد



جمعت فيه طائفة كبيرة من اللوحات، والأحواض الرخامية والزخارف العربية، وكثير من القطع الخشبية الممبورة بالآيات القرآنية، ومعظمها مأخوذ من الجامع، ومجموعة من الأواني الخزفية الأندلسية، ومنها قطع بدعة الصنع والزخرف، وأتية جميلة للزينة وغيرها، وكذلك توجد به طائفة من مخلفات حقائر الزهراء، ومنها وعاء صغير مصنوع من النحاس الأسمر، وله في متحف الزهراء نموذج من الجص الأبيض.

وجامع قرطبة هو - بعد قصر الحمراء - أعظم الآثار الأندلسية الباقية.

قرطبة: باب المدور وهو بابها الأندلسي الوحيد الباقي

وهو في الوقت نفسه أضخم أماكن العبادة النصرانية، بعد كنيسة القديس بطرس في رومة؛ ولم يبق اليوم شيء في عاصمة الخلافة القديمة من الآثار الأندلسية الذهبية، سوى منارة صغيرة قديمة ترجع إلى أوائل القرن العاشر الميلادي، وقد جردت من نقوشها الحديثة لتعود إلى طرازها الأندلسي. وقد استأجرت اليوم إلى برج أجراس لكنيسة "القديس يوحنا أبلي الفوارس" "San Juan de los Caballeros".

ويقول العلامة جومث مورينو، إن هذه المنارة هي من منشآت عهد الرحمن الثاني، (عبد الرحمن بن الحكم)، وإن طرازها هو نفس طراز برج كنيسة سانتياجو (سنت ياقب) في قرطبة، وكنيسة سان سلفادور في إشبيلية^(١).

ولم يبق اليوم من أسوار قرطبة الأندلسية القديمة، سوى أطلال قليلة دارسة ليست لها أية أهمية أثرية.

بيد أنه يوجد من أبواب قرطبة القديمة موقع باب واحد، هو الباب الذي يُسمى باب المدور "Puerta de Almodovar"، وهو يقع في جنوب شرقي المدينة على مقربة من الجامع، وهو عبارة عن باب معقود في إطار كبير مربع يبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار،

PDF Eraser Free

وعرضه عشرة، وفي أعلاه شرفة كبيرة حريضة يبلغ ارتفاعها مثل ارتفاعه، وقد عليها مشارف نصرانية، وقد أقيم هذا الباب على أنقاض باب "بنتليوس" القديم، ويرجع بناؤه الأصلي إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي.

ومما يذكر أن قرطبة، كانت أيام المسلمين مشهورة ببراعة صائغيها وما ينتجونه من تحف فنية بدیعة. وهي مازالت إلى اليوم تحتفظ ببقية من هذا التراث حيث تُصنع بها التحف والآنية الفضية المزخرفة.

٢ - أطلال الزهراء

Medina Azzahra

تحتل سيرة مدينة الزهراء، وذكريت فخامتها الذاهبة، مقامًا ملحوظًا في تاريخ الأندلس المعماري والفني، وتُقرن عظمتها وروعة صروحها، بعظمة عصر منتهى الخلافة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ). وقد بدأ الناصر بإنشاء هذه الضاحية الملوكية الفخمة في سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) بعد أن ضاقت قرطبة عاصمة الخلافة، بما يتطلبه ملكه العظيم من استكمال الفخامة الملوكية، ووجود القصور والأبهاء والرياحن الشاسعة. وأُنشئت الزهراء في بقعة تقع على مقربة من غربي قرطبة شمال نهر الوادي الكبير، واستمر العمل في إكمال صروحها العظيمة، ومرافقها الفخمة، بقية عهد الناصر، ومعظم عهد ولده الحكم المستنصر، أعني زهاء أربعين عامًا. ولم يتخر الناصر جهداً ولا نفقة في تشييد حاضركه الجديدة، وتجميلها وزخرفتها، وأنشأ فيها قصر الخلافة العظيم، وقصوره الخاص المسمى بالمؤنس، وزودها بنفيس الرياض والتحف والخاثر النادرة، وأسبع عليها أروع ما تمخض عنه العصر، من صنوبر الرونق والبهاء.

بيد أن الزهراء لم تعمر طويلاً كقاعدة ملوكية. فقد لبثت منزل الخلافة الأندلسية زهاء أربعين عامًا فقط، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٥ هـ إلى نهاية عهد ولده الحكم المستنصر في سنة ٣٦٦ هـ. ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة الخلافة، ومنزل الملك، ولكن لأن تحولاً خطيراً وقع في سلطان بني أمية. فقد نهض متغلب جديد، هو الوزير محمد بن أبي عامر (الجانب المنصور)، وحجر على الخليفة هشام المؤيد بالله ولا الحكم، واستأثر بتأعسا بكل سلطة في الدولة. ثم بدله أن ينقل مركز الحكم إلى قاعدة جديدة تكون منزل سلاطنته. فأنشأ لنفسه ضاحية ملوكية جديدة تقع على مقربة من شرقي قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير، وذلك في سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م)، وسماها "الزاهرة". ونقل إليها خزائن الأموال والسلاح ودواوين الحكم، وبذلك اختتمت حياة الزهراء الملوكية.

ثم عفا عليها الزمن بعد ذلك تباعاً، حتى وقعت ثورات البربر، عقب انهيار الدولة العلمرية، في أواخر القرن الرابع الهجري، فاقطعت الزهراء، وقُوضت صروحها الفخمة، ونُهبت ذخائرها وتحفها، وشمرها الخراب والنسيان، ولم يمتص بعيد، حتى شاحس اسمها نفسه، من صحف التاريخ الأندلسي، فلا نكاد نظفر لها بذكر منذ أيام الطوائف.

PDF Eraser Free

ومنذ نحو قرن فقط عادت مسيرة الزهراء، وذكريات فخامتها الذاخرة، تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا المسلمة: المعماري والفني. واهتم العلماء الإسبان بالكشف عن معالمها وأطلالها، لما يلقوه ذلك الكشف من أضواء هامة، على أحوال الخلافة الأندلسية، ونظمها الإدارية والاجتماعية، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره. وعبرت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالي: بإجراء الحفريات الأثرية، للكشف عن صروح المدينة الخالفة، وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة، التي اضططعت بهذا العمل، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع، فقد استطاع الأثريون الإسبان، أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء، ومواقع صروحها وأبنائها الملوكية.

وقد أتبع لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة، وكانت آخرها في يناير سنة ١٩٦٠، وتقع هذه الأطلال الضخمة غرب قرطبة، على بعد نحو سبعة أميال منها، وشمال نهر الوادي الكبير على قيد ميلين، وتحتل منحدرًا صخريًا وعرا، يقع أسفل الأكمة، التي يحتلها دير "سان خيرنمو" الصغير. وتسمى هذه المنطقة التي تحتلها أطلال الزهراء قرطبة القديمة "Córdoba la Vieja".

وتشتمل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠، منطقة واسعة، تمتد ١٥١٨ مترًا من الشرق إلى الغرب، و٧٤٥ مترًا من الشمال إلى الجنوب. ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها، وما يزال على ذوي الشأن أن يبذلوا جهودًا فاحشة لإكمال مهمتهم، فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة، ومن نقوشها وزخارفها، التي مازال بعضها قائمًا في بعض الجدران، والتي تمثل بالأخص في مثل القطع الرخامية التي وجدت، يكفي لتكوين فكرة عامة عن هندسة المدينة الملوكية، ومناعتها وفخامة صروحها.

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث، مدرجة من أعلى إلى أسفل. وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخلفي والمقام الخاص. وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس. وتشمل المجموعة الثالثة ثلاثة أبناء كبيرة عالية ذات أعمدة ضخمة، وأروقة جانبية، وقد كانت حسبما يُظن، أبناء رسمية لاستقبال السفراء والشخصيات الملوكية، ومازال ت جدرانها تحمل بعض الزخارف الأصلية بألوانها الزاهية.

PDF Eraser Free



زخارف رعوس وفوائد أعمدة من العرمر الأبيض، معاً وجد في خفاش الزهراء

PDF Eraser Free

وقد تم الكشف عن المنطقة الأولى منذ سنة ١٩٢٥، وهي تمتد فيما بين البهو الأكبر أو "مجلس الغربية" ومجموعة المساكن الخليفة: أعني قصر الخلافة ومقام الخلفاء، وهي التي وُفِّقَ إلى كشفها الأسفل بلاكتيكت بوسكو. منذ سنة ١٩١٢، وكشفت الحفريات التالية عن الجدار الشمالي، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء، ثم البهو الكبير ذي الشرفة، وعن مساكن الحرس، والطريق المؤدي إلى البهو الغربي والمتصل بشرقيّه.

وترجع منطقة الجدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته، وهي من منشأته في العصر الأول من بناء الزهراء. وقد أصلحت على امتد سبعين مترًا. ويمتد القسم الأول منها فيما بين باب الطريق المعبد، وزاوية القصر الخلافي. وهذا الجزء من الجدار امتن بناء واحكم صنعًا من قسمه الذي بني فيما بعده في عهد الحكم المستنصر.

أما عن الفناءين المتمثلين أو الفناءين التوأمين، فيقع أولهما على قيد ثمانية أمتار أسفل القصر الخلافي، ويشتمل كل منهما على بهو كامل، وهذالك ما يدل على أن كلا منهما، كان يحتوي على مجموعة من المساكن المتمثلة، المخصصة لمكثي طائفة عامة من البطانة أو الجند. ويشغل الفناء الغربي رقعة تمتد من الشمال إلى الجنوب قدرها ٢٤,٢٠ مترًا، ومن الشرق إلى الغرب ٢٠ مترًا، وهي مساحة تبلغ نحو خمسمئة متر، وفيه بقايا أبنية تبدو أكثر أهمية من تلك التي كان يشتملها الفناء الشرقي. والفناء الشرقي مثل قريبه، ولكنه أقل منه نظامًا، ويحتوي على أربع غرف متمثلة تقريبًا، تطل أبوابها جميعًا على الفناء، وبه من الزاوية الشمالية غرفتان منحدرتان. ولم يستطع المكتشفون أن يحددوا موقع المدخل بالنسبة لهذين الفناءين الكبيرين، ولم يظهر فيهما مكان لباب صغير أو كبير. والظاهر أنهما يكونان معًا موقع مسكن لأحد الكبراء، وربما كان الفناء الشرقي موقع مسكن "للحریم"، أو بعباره أخرى جناح القصر الذي سكنه النساء والأولاد، ففيه غرف أليفة بعضها ملبط بالرخام، وأمكنة للفرائش ومطابخ ومرافق.

ولما الفناء الغربي، فالظاهر أنه مكان الجناح الخاص، الذي كان السيد يستقبل فيه الزوار، ويصرف الأمور ويضع تحفه ومكتبه. ويرى بعض المكتشفين أن هذا المكان، ربما كان مسكنًا للحاجب أو رئيس الوزارة.

وهذالك رولينان، تتعلق إحداهما بأخذ البيعة للحكم المستنصر في سنة ٣٥٠ هـ، وتتعلق الثانية بزيارة أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع للحكم في شهر صفر سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٢ م). وفي تفاصيل هاتين الروايتين، وفي أوصافهما، ما يلقي ضوءًا على أوضاع المدينة الخليفة، وما يدل على أن المعالم التي وردت فيها، إنما تحدد المكان نفسه وتؤكد، وقد كان الباب الرئيسي لمدينة الزهراء الذي جاز منه أردونيو هو "باب القبة"، ثم يليه عند المدخل "باب السدة".

PDF Eraser Free

وقد استقبله الحكم في "المجلس المؤنس"، وجرّاز بعد ذلك إلى الروشنيين الباقين، وانحنى أمام العرش الخليفي المجاور للبهو الغربي، أو "مجلس الغربية" الذي سبقت الإشارة إليه. وفي مكان يقع شمال هذا البهو، استقبله الحاجب جعفر المصحفي، الذي نكبه المنصور فيما بعد. وقد اكتشفت اليوم هذه المعالم كلها.

وفي شرقي القصر الخليفي فناء صغير، هو الذي اكتشفه الأستاذ بلاثكيت بوسكو منذ سنة ١٩١٤. وعلى قيد نحو ستة عشر متراً أسفل هذا الفناء المتواضع، يقع بهو ضخم مربع تقريباً يشغل مساحة قدرها ٤٦٠ متراً، وقد باطّ بقطع كبيرة من الرخام، ويحيط به رواق عرضه متران ونصف، تحفّ به أعمدة ضخمة قوية مربعة، سمك ضلعها نحو متر تقريباً، ويمتد من زاويته الشمالية الشرقية، نفق عرضه زهاء مترين يتجه نحو الجنوب الشرقي، وله بابان متعاقلان بينهما نحو مترين، وعلى مقربة من بابه يبدو سلم ضخم، يصعد نحو المدينة الخليفة، وقد اكتشف منه خمس درجات فقط. وهي مبنية بالحجارة الضخمة، التي بنيت منها مدينة الزهراء كلها. وربما كان هذا السلم، هو سلم قصر الخلفاء ذاته. والظاهر أن هذا الفناء ومتعلقاته كان مئوى لبعض الدواوين العامة، كديوان الخزانة أو نحوها، وهو متفق في ذلك مع الأوصاف العامة للمدينة الخليفة، حيث يوصف الجزء الأوسط منها بأنه مكان يضم في أعلاه المساكن الخليفة، ثم تليها الدواوين في الجزء الأوسط، ثم تقع الحدائق في الحيز الأدنى.

وأحدث ما كشفت عنه حفريات الزهراء، هي المجموعة الثالثة التي أشرنا إليها في صدر هذا الفصل، وقد تم هذا الاكتشاف في سنة ١٩٤٤، وكشف عن بهو عظيم، ذي أقبية ثلاثة، تقوم على عقود من الأعمدة، وقد تحطمت عناصره وشوّهت بشدة، ولكن وجدت سائر مواد وزخارفه تحت الأنقاض.

وقد شكك العلماء الكثيرون الإنسان منذ أعوام على إقامة هذا البهو وتنسيقه مما وجد من الأنقاض والأعمدة والعقود والزخارف المكتشفة، وهو يتكون من أربعة أروقة أو أبهاء متلاصقة، تبلغ واجهتها معاً نحو أربعين متراً، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاثة أروقة مستطيلة، يتوسطها رواق ذو عقود في الجانبين، وتبلغ عقود خمسة تقوم على سبعة أعمدة، اثنان يستند كل منهما إلى عقد الحائط، وخمسة حرة، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأضال من رءوس، وقواعد رخامية مزخرفة. ومن الرواق الثالث يفتح باب على بهو داخلي، قد أقيم على الطراز المفروض، وزين جانيبه بالزخارف الرخامية، وقسم إلى قسمين. ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً وعرضه نحو سبعة أمتار، وقد صيغت العقود كلها على نمط واحد، وزينت رءوسها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت، والتي توجد منها بين الأنقاض مئات القطع، وهذه الرءوس كلها من

PDF Eraser Free

طرار خلافي جميل من النسق الكلاسيكي، ووجد في إحدى هذه القواعد نقش كوفي جميل يشيد بذكر عبد الرحمن الناصر، ومؤرخ في سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م).

وعملت في كل من الرواقين الأول والثالث، كونان، كل منهما في طرف، والأربعة متقابلة متماثلة، ويجري البناء في تركيب مداخل جديدة قد زين بعضها بقطع الحجر الحمراء التي وجدت، وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار.

يقول الأستاذ كستخون أحد أعضاء اللجنة الأثرية المكشوفة: "إن هذا البهو الذي يمثل تناسبه الجميل، وعقوده القوية، وزخارفه الجميلة، لا بد أنه كان من تحف مدينة الزهراء الهندسية، وقد رأيت اللجنة نظراً لأنه لم يكن له اسم معين، أن تسميه بهو "عبد الرحمن الثالث" (الناصر)، لما وجد في رءوس أعمدته من إشارة بذكر هذا الخليفة، وكذلك على عقد مدخله الأوسط من ذكر له يرجع إلى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ - ٩٥٧ م)".^(١)



مدينة الزهراء: بعض العقود
والزخارف التي وجدت بين أنقاض
المجلس المؤنس بالقصر الخلفي،
وأعيد تركيبها بما يسميه الأثريون
الإسميان "بهو عبد الرحمن الناصر"
أو "بهو السفراء"

R. Castejón: Nuevas Excavaciones en Medinat Al - Zahra, El - Salon de Abd Al - (١)

Rahman III (Al - Andalus, Vol X (1945) Fase. I.

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال، تقع أعلى هذه الأبنية من اليسار، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل، وهي لا تفرق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية عامة، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها لثر الدهان واضحاً، وقد تبين أن لون الدهان الذي كان مستعملاً في هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض، يعلوه خط أحمر. وتبين كذلك أن البلاط المستعمل في أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحد منها أربعين سنتيمتراً، وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء، هي أحجار قوية كبيرة، بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً، وعرضه أربعون.

وقد عثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعة الضخمة المتنوعة، من أطلال المدينة الخلفية، بطائفة كبيرة من القطع الخزفية، والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية المتنوعة، ومئات من القطع والأواني الخزفية، والبللورية، وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل المدينة، وعرضت فيه بعض القطع، والأحواض الرخامية البديعة المزخرفة والنقوش، وبعض الأواني الخزفية المصححة. وأقيم إلى جانب المتحف بهول كبيران يغص كلاهما بالقطع الخزفية، والبللورية المتكسرة، التي يعكف الأخصائيون على قحصها وتصحيح ما يمكن تصحيحه منها.

وكان من أنفس ما عثر به المكتشفون بين أطلال الزهراء، تمثال وعمل من البرونز الأسمر الدقيق المزخرف، وهو يحفظ اليوم حسبما أسلفنا بالمتحف الأركيولوجي بمدينة قرطبة، إلى جانب عدة قطع رخامية بديعة، وجدت أيضاً بين أطلال الزهراء. ويوجد نموذج جصّي من هذا العمل محفوظ بمتحف الزهراء الذي سبقت الإشارة إليه.

وقد تفقدنا أطلال الزهراء مراراً، وتجوّلنا بينها ساعات طويلة، تحت شمس قرطبة المحرقة. وإذ لم يبق لنا من هذه المجموعة من الأبنية والأبنية والعقود، والأماكن والأنتق، إذا كانت تدلي بما كانت عليه المدينة الخلفية من ضخامة ومنعة، سواء بموقعها فوق المنحدر الجبلي الوعر، أم بضخامة حجارتها الصخرية الصلبة، ومثالة أطلالها المكتشفة، فإنها مازالت بعيدة عن أن تدلي بما كانت عليه مدينة الزهراء الملوكية من آيات الجلال والروعة التي تحدثنا عنها الروايات المعاصرة. على أن الحفائر المستقبلية، وهي مازالت رهين منطقة شاسعة، قد تكشف فيما بعد، عن كثير من ضروب الفخامة والجلال، التي تنقص اليوم أطلالها المائلة^(١).

^(١) رجعت في هذا البحث إلى مشاهداتنا الخاصة، وإلى تقارير الحفائر الرسمية التي أجريت تحت رعاية الحكومة الإسبانية:

- 1- Medina Azzahra y Alamiyya, por D. R. Velazquez Bosco (Madrid 1912).
- 2- Excavaciones del plan nacional en Medina Azahra (Córdoba) campana de 1943, por R. Castejón y Martínez de Arizala (Madrid 1945).

PDF Eraser Free



مدينة الزهراء: جانب آخر من الأطلال



مدينة الزهراء: بعض الأطلال التي أسفرت عنها
الحفريات



وعن الزهراء البرونزي المحفوظ بمتحف قرطبة

٣ - إشبيلية Sevilla

كانت إشبيلية أيام الدولة الإسلامية، أعظم مدن الأندلس وأجملها، وكانت أعظم وأجمل من قرطبة ذاتها. وقد سطعت أيام بني عباد، إذ كانت دار الملك، وعُدت أيام الموحدين مركز الحكم مرة أخرى، ولكنها لقوت مصرعها كقاعدة إسلامية أيام الموحدين أيضًا، وسقطت في أيدي القشتاليين في ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م)، أُنْهِي بعد سقوط قرطبة بانثي عشر عامًا، وعُدت من ذلك الحين حتى أوائل القرن السادس عشر، دار الملك في قشتالة.

وما تزال إشبيلية حتى اليوم أجمل مدن الأندلس، ولوفرها سحرًا، بل هي في الواقع من أجمل المدن الإسبانية، وقد أسيغت عليها غاية الدول والعصور المتعاقبة، طابعًا من الروعة والجلال، يُعْتَل في صروحها ومعابدها الفخمة، وآثارها التاريخية الكثيرة.

وقد سميت إشبيلية اشتقاقًا من اسمها اللاتيني "إشبالي" أو Hispalis وهي تسمى أيضًا في الأندلس "حمص". وذلك لأنه قد نزلها عبد الفتح جند حمص الشام^(١) وأطلقوا عليها هذا الاسم، فما لمعروف من شبه بين المدينيتين في الموقع والخطط والتربة، وإليها يشير أبو الطيب، صالح بن شريف الرندي في مرثيته حين يقول:

وإين حمص وما تحويه من نزهة ونهرها العذب فيفاض وملائن

وتعد إشبيلية اليوم بين المدن الإسبانية الكبيرة، ويبلغ سكانها نحو ربع مليون نسمة، وهي تأتي بعد بلنسية من حيث فخامتها وعدد سكانها، ويشقها نهر الوادي الكبير من جانبها الغربي، وبها ميادين جميلة وشوارع فسحة عامرة، ولا سيما في أحيائها الجديدة، الواقعة بين الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) والنهر، وأجمل ميادينها التاريخية، ميدان سان فرناندو المسمى اليوم "الميدان الجديد" "Plaza Nueva"، وتزدان إشبيلية بكثير من المنزهات الجميلة، وحدائق البرتقال اليلاعة، ولا سيما على ضفاف الوادي الكبير، وبها مصانع كثيرة للسجاد والزيوت والإسمنت والزجاج والخزف، وهي تحتفظ بالأخص بمصنع من أعظم مصانع الخزف، والأدوات الخزفية المزخرفة في إسبانيا. ويقع هذا المصنع العظيم على ضفة النهر في ضاحيتها المسماة "لاكارتوخا"، ويشغل به أكثر من ألف عامل، وتصدر منتجاته الأثينة

^(١) راجع معجم البلدان لياقوت الحموي تحت كلمة "إشبيلية"، وكذلك فروض المعطار من ٢٠ و ٢١.

PDF Eraser Free

ذات الألوان الزاهية إلى سائر أنحاء العالم. وقد زارنا هذا المصنع الشهير، وأعجبنا بما ينتجه من الأواني والتحف الخزفية المدهشة من كل ضرب ولون. وتصدر إشبيلية الزيوت والنبع والفواكه والمعادن، وبها حركة تجارية عظيمة.

وإشبيلية أيضاً مركز حركة ثقافية عريقة، وبها جامعة قديمة ترجع إلى قرنين، تحتوي على كليات للآداب والحقوق والعلوم وكلية مستقلة للطب، وتدرس العربية قليلاً بكلية الآداب.

وبها دار محفوظات الهند "Archivo general de Indias"، وهي تضم مجموعات قيمة من الوثائق المتعلقة باكتشاف أمريكا، وتاريخ المستعمرات الإسبانية الأمريكية وإدارتها، ويقصدها الباحثون من سائر البلاد ولا سيما أمريكا التي يعني علمائها بدراسة هذه المجموعات بتاريخ خاص.

وليس في إشبيلية من الآثار الإسلامية سوى القليل. وحتى هذا القليل يكاد يختفي تحت أثوابه النصرانية المجددة، بيد أنه يمثل في الوقت نفسه بروعته وأهميته الأثرية البالغة.

ويكتفي أن تحتفظ إشبيلية بديرها الإسلاميين الفريديين، وهما منارة مسجدنا الأعظم السالف، و"القصر" ذو الطابع الإسلامي الفريد.

ولتبدأ الحديث عن المسجد الأعظم ومنارته الباقية، والواقع إنه لم يبق من جامع إشبيلية اليوم وحدة قائمة بذاتها، كما هو الحال في جامع قرطبة، الذي تركت عقود ومخاربه، ونصبت في داخله الكنائس والهيكل الجديدة. ولكنه أزيل وأقيمت مكانه كنيسة إشبيلية العظمى، التي تعتبر بضخامتها وفخامتها، ثاني كنيسة في العالم بعد كنيسة القديس بطرس في روما، ولم يبق اليوم قائماً منه سوى صحنه القديم ومنارته.

وقد قام بإنشاء هذا المسجد عاهل المغرب والأندلس الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدي، ولد الخليفة الأكبر عبد المؤمن بن علي، وذلك في شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ (مايو سنة ١١٧٢ م)، أثناء إقامته بمدينة إشبيلية، وكانت يومئذ قاعدة حكم الموحدين بالأندلس. وكان مسجد إشبيلية الجامع المسمى بجامع ابن عثمن وهو المنسوب للقاضي عمر بن عثمن، والمفيد في سنة ٢١٤ هـ. أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم - قد ضلقت بزواده، نظراً لنمو المدينة وتكاثف سكانها، وكثرة الموحدين الوافدين عليها. وقد ترك لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين المعاصر، وشاهد العيان - وصفاً مسهباً لإنشاء هذا الجامع، يقول فيه، إن أمير المسلمين الخليفة أبو يعقوب قد "حاز النحر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس، فأسسه من الماء بالآجر والجوار والحصى والأحجار، على أعظم البناء والاقتدار، وأسس أرجله المعقودة بطاقت بلاطية تحت الأرض أطول مما فوق الأرض، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام، وإحضار الآلات من الخشب المعجول من سواحل

PDF Eraser Free

الغدوة، مما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله، فأعلى بنيته، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه، وأنفذ أمره العالي ببنيته في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمسمائة المؤرخة، لم يرقع البناء عنه قط في فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية، إلى أن كمل بالتسقيف، وجاء في أبيه المنظر الشريف، أعجز في بنيانه من تقدمه، وتغنى في ميزابه وخبره ورخمه مقدمه، قارب به جامع قرطبة في السعة. وليس في الأندلس جامع على ندره وسعته وعند بلاطه^(١).

وذكر لنا ابن صاحب الصلاة اسم الناظر على بناء المسجد وعرفائه، وهو العريف أحمد بن باسة، والناظر على النفقة، وهو أبو داود بلول بن جلداس خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال. ومن الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية، أبو بكر بن زهر، وأبو بكر الساقى، ثم يقول: إن سرب المدينة كانت تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع، فنكبت عنه، وحزفت إلى جهة الحوف على سرب واسع، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض، وعلى العرفاء ببناء القبة التي على محرابه وبجارتها أعظم عناية، وأقاموا عن يسار المحراب، سباطا في الحائط، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع لشهود صلاة الجمعة، وأفتن الصداق في عمل المنبر وصياحته من أكرم الخشب، وفي إيداع نقوشه، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج، وأبنوسه يتلألأ بصفائح الذهب والفضة، ولشكال في عمله من الذهب الإبريز، يتلألأ نوراً، ويحسبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً^(٢). ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة، وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه في أكثر الأيام، ومعه أشياخ مملكته، ويشير للمشرفين عليه بالجد في البناء وإتقانه، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس، وكمل التثقيب، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً، وسافر الخليفة أبو يعقوب إثر إتمامه إلى حضرته مراکش في شعبان سنة ٥٧٩ هـ. وافتتح الجامع المذكور للصلاة بصفة رسمية على يد والي إشبيلية السيد أبي إسحق إبراهيم بن الخليفة أبي يعقوب، وأقيمت به خطبة الجمعة لأول مرة في يوم الجمعة ٢٤ ذي الحجة سنة ٥٧٧ هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢ م)، وأزيحت من جامع ابن عديس من ذلك اليوم^(٣).

ولما عاد الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في أولئ سنة ٥٨٠ هـ، معزماً غزو الأراضي النصرانية في جيوشه لجزارة التي عبرت معه، أمر عك وصوله إلى إشبيلية عامله أبا داود بلول بن جلداس، أن يشتغل أثناء غيبته في الغزو، بإنشاء سور حصين لمقبرة

^(١) السفر الثاني من كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين لعبد الملك بن صاحب الصلاة (مخطوط أكسفورد)، لوحة ١٦٧.

^(٢) كتاب ابن صاحب الصلاة السلف لذكر لوحة ١٦٨ ب و ١٦٩ أ.

PDF Eraser Free

إشبيلية، وبناء صومعة (منارة) للجامع تكون متصلة بالنور وبالجامع، ثم خرج الخليفة في جيوشه، وغزا أراضي البرتغال الشمالية، وحاصر مدينة شنترين، ووقعت بينه وبين النصارى تحت أسوارها معركة شنيعة، هزم فيها الموحدون وقتل أبو يعقوب، وذلك في ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ (يولييه ١١٨٤ م).

فلما بويع ولده أبو يوسف يعقوب بإشبيلية بالخلافة، أمر بالكف عن بناء سور القسبة، ولكنه أمر بالاستمرار في إيفاء أمر أبيه ببناء صومعة الجامع، وكان العمل في بنائها قد بدأ بالفعل قبل ذلك ببضعة أسابيع، ووضع العريف أحمد بن بلمة أساسها لصق الجامع، وكان قد وافق بشرًا معينة، فردمت وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس وقام بالنظر على نفقها العامل محمد بن سعيد. ثم بدأ العريف بنائها بالحجر المسمى "بالطجون العبادي"، المنقول من سور قصر ابن عباد. ولم تمض بضعة أشهر حتى عزل ابن سعيد عن العمل، وتعطل البناء، إلى أن وصل أبو بكر بن زهر حافظ البناء من حضرة أمير المؤمنين بمرأكن في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م)، وقد أمر بإعادة بناء الصومعة، وبناء ما اختل من الجامع، فاستأنف العمل فيها، حسبما نذكر بعد ^(١).

ولما سقطت إشبيلية في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٤٨ م، حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة. وفي سنة ١٤٠٢ بُدِيَء بإنشاء كنيسة إشبيلية العظمى (الكاتدرائية) فوق موقع المسجد الجامع القديم، واستمر العمل في بنائها أكثر من قرن ونصف، حتى غدت برقعها الشاسعة، وعقودها المنيفة، وزخارفها البديعة، تلي كنائس العالم من حيث الضخامة والروعة، وهي تقع في جنوب المدينة، وبها تحت القبة العظمى، قبر كريستوف كولمبوس مكتشف العالم الجديد. وليس هنا مقام التحدث عن أوصاف هذه الكنيسة الباذخة، التي يحار البصر في تأملها، وإنما الذي يهمنا هو التحدث عما بقي حولها من آثار المسجد الجامع الذي بنيت مكانه؛ فقد بقي من مسجد إشبيلية أولاً صحنه، وهو ما يزال يحتفظ بشكله وموقعه القديم. وهو يقع شمالي الكنيسة ويبلغ نحو ربع مساحتها، وفي وسطه نافورة أندلسية، وقد وضعت فيه أنية التعميد الحجرية، وعُرس فيه أشجار البرتقال، ويعرف اليوم "بقناة البرتقال أو فناء النارنج" "Patio de los Naranjos"، وما تزال عقود الصحن قائمة من ناحية الشمال والغرب، ولكنها مسخت وبني فيما بينها. كذلك ما تزال ساريات الصحن القديمة قائمة، في هذين الجانبين. وقد بقي باب الجامع الرئيسي، الواقع في شمل الصحن، كما هو بعقده وزخارفه البرونزية الإسلامية، وقد نفقت على كل من قبضتيه الضخمتين ما يأتي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد"، ويبلغ عرضه نحو خمسة أمتار وارتفاعه عشرة. ومن الغريب أن هذا الباب الأندلسي

^(١) كتاب ابن صاحب الصلاة السلف لذكر لوحة ١٢٠ أ و ب

PDF Eraser Free

الشاهق، أضحى بالزعم من نقوشه الإسلامية، والآيات المرقومة عليه، يعرف بالإسبانية "ببواب الغفران" "Puerta del Perdón"، وهو يفضي إلى هيكل أقيم تحت عقده الداخلي، ونصب في جانبه تمثال للعدراء، ينحني أمامه طلاب التوبة والغفران.

ويصف الغزال الفاسي في رحلته كنيسة إسبيلية العظمى بإقاضة، ويسميتها "الجامع الأعظم الذي كان للمسلمين" ويعطف على صحن الجامع بقوله: "وبصحن الجامع خمس وعشرون شجرة من الدارنج، وخصتان، وضريح واحد به بيوت عدة يسكنها الفرائلية"^(١).



إسبيلية، الكنيسة العظمى (الكثدرالية)، وإلى ورائها "الخبر الدا" (برج الأجراس)



كنيسة إسبيلية العظمى.
باب الغفران من الداخل وقد ظهر من ورائه صحن الكنيسة

^(١) رحلة الغزال ص ٣١، والفرائلية جمع (فرائلي) Fraile أعلى القس.

PDF Eraser Free

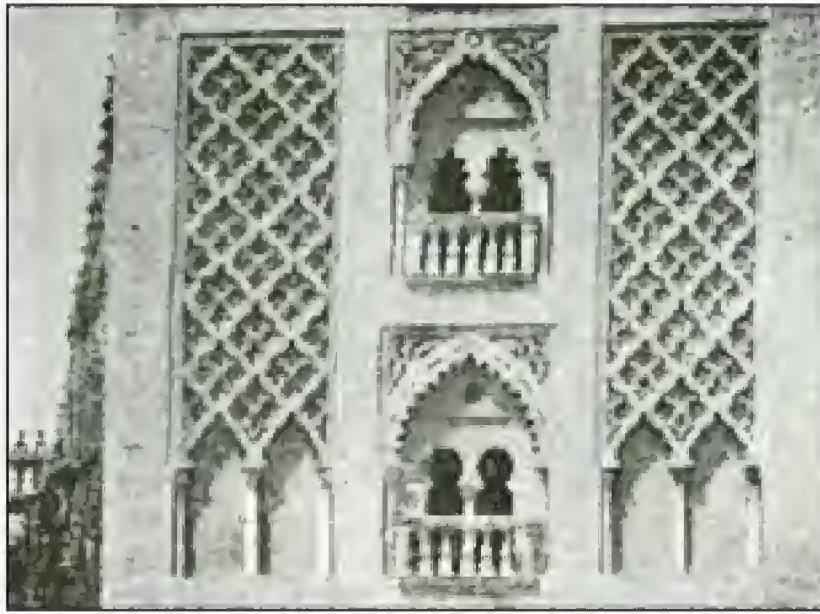
ويلى صحن الجامع جنوباً صرح "الكنائزية" الضخم، ويقع باليها الرئيسي المباش في الجهة الشرقية، وهو باب عريض ضخم، ويبدو أنه باب الجامع الكبير. ولها ستة أبواب أخرى شرقية وشمالية. وكلها ملبسة بالنحاس والنقوش العربية والآيات القرآنية. وهي بلا ريب من أبواب جامع إشبيلية القديم.

هذا، وأما عن جامع إشبيلية القديم وهو جامع ابن عدس الذي سبق ذكره فقد أقيمت فوق موقعه كنيسة سلفادور وهي من كنائس إشبيلية القديمة، وتحفظ في متحف إشبيلية الأركيولوجي لوحة إنشاء هذا الجامع حسبما نذكر بعد.

La Giralda الأخير الدا

وهي منارة أو صومعة مسجد إشبيلية الجامع المتقدم ذكره، وهي بروعتهما وجمالها تبدو لؤلؤة إشبيلية الأثرية، وتقع إلى جوار زلوية الكنائزية العظمى الشمالية الغربية، وفي جنوب غربي الصحن. وقد سبق أن ذكرنا كيف بُدئ بإنشاء المنارة المذكورة في أواخر عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف، ثم استأنف بنائها في عهد ولده الخليفة أبي يوسف يعقوب، وهو الملقب بالمنصور، وقد ذكر لنا ابن صاحب الصلاة أنها بنيت بغير أدراج، يصعد إليها في طريق واسعة للدواب والناس والسدنة، وأنه لما صدر أمر الخليفة بنائها، وبناء ما احتل من الجامع، وذلك في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م)، شرع في بنائها بالآجر الذي يؤخذ من بناء حجر سور ابن عباد المتقدم الذكر، وعني بالبناء لشد عناية، ودلم العمل في ذلك أهواماً، يجري البناء فيها أحياناً متقطعة، فإذا غادر الخليفة إشبيلية إلى الحضرة، تعطل البناء، ثم يستأنف متى حضر، وكان الخليفة المنصور يلازم الجلوس بنفسه على البدلين في المعد التي كان يعاود فيها البناء، واستمر ذلك إلى أن كانت موقعة الأرك الشهيرة^(١) التي أحرز فيها الموحدون بقيادة المنصور نصرهم الباهر على القشتاليين، وذلك في سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٥ م)، فحينما عاد المنصور إلى إشبيلية مكللاً بغار النصر، وكان بناء المنارة قد تم ولم تبق سوى أعمال التجميل، أمر بتزويدها بتفاصيلها الذهبية المشهورة. وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفاصيل ورفعها إلى أعلى المنارة في حفل كان من شهوده، قال:

^(١) وتعرف في الإسبانية بموقعة Alarcos



اشبيلية. تفاصيل من الزخارف الخارجية لمنارة المنصور (لاخير الدا)

فلما وصل أمير المؤمنين، وهزم الله له ألفونش الطاغية، أمر - رضي الله عنه - في مدة إقامته بالاشبيلية بعمل التكايف الغربية الصنعة، العظيمة الرفع، الكبيرة الجرم، المذهبة الرسم، الرقيقة الاسم والجسم، قرفت في منازلها بمحضرة، وحضر المهندسون في إعلائها على رأسه، وبلوغ وطرد، مركبة في عمود عظيم من الحديد، مرسى أصله في بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها، زنة العمود مائة وأربعون ربيعاً من حديد، موثقاً هناك، في تلاحك البنيان، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتكايف إلى الهواء، يكابد من زعازع الرياح، وصدمات الأمطار، ما يطول لتعجب منه من مقاومته وثباته. وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التكايف الثلاث الكبار والرابعة الصغرى، سبعة آلاف متال كباراً يعقوبة عليها الصياغ بين يدي أمير المؤمنين وحضوره. ولما كملت سترت بالأخشية من شقاق الكتل لتلاينها الناس من الأيدي والغبار، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة، بالتكبير عليها والتهليل، حتى وصلت ورفعت بالمندسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة، ووضعت في العمود، وحصلت فيه، وحصلت بمحضرة أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه، وبمحضرة ابنه وولي عهده أبي عبد الله المعيد الناصر ابن الله، وجميع بنيه، ولشياخ الموحدين، والقاضي، وطلبة الحضرة، وأهل الوجاهة من الناس، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر، بموافقة التاسع والعشرين من مارس العجمي عام أربعة وتسعين وخمسمائة، ثم كشفت عن أخشيتها، فكانت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز، وبشعاع رونقها⁽¹⁾.

⁽¹⁾ كتاب ابن صاحب الصلاة السلف الذكر لوحة ١٧١ أ و ب

PDF Eraser Free



إشبيلية. لآخر الدا La Giralda أو منارة جامع المنصور

PDF Eraser Free

ونريد نحن على ما تقدم أن منارة جامع إشبيلية، كانت قريبة لمذارتين شقيقتين فيما وراء البحر، هما منارة جامع الكتبية (أو الكتبيين) بمراكش، وهي التي مازالت تزدلن بها العاصمة المغربية القديمة حتى اليوم، ومنارة حسان (تور حسان) القائمة على مقربة من شاطئ المحيط بمدينة الرباط، وكلتاهما على نفس الطراز والنمط، في الداخل والخارج، وقد أمر بإنشاء المذارتين أيضًا الخليفة يعقوب المنصور، وقيل في شأن منارة الكتبية إنه بُدِيَء بإنشائها في عهد الخليفة عبد المؤمن، ولكنها لم تكمل إلا في عهد حفيده المنصور. وعلى أية حال فقد تم إنشاء الكتبية في سنة ٥٩٤ هـ، بعد تمام منارة إشبيلية بقليل^(١)، وأقيمت منارة حسان في نفس الوقت، ولكن بنائها لم يكمل، ووقف دون القمة العليا. وفي وسعنا بتأمل منارة الكتبية أن ننصوّر منظر منارة إشبيلية قبل تحويلها إلى برج الكنيسة.

ومازالت منارة إشبيلية، بالرغم من تحويلها إلى برج للأجراس، تحتفظ بكثير من روحها الإسلامية القديمة، وهي مربعة الشكل، بالغة الارتفاع، وقد اشتهرت عصورًا بجمال هندستها وروعة زخارفها، التي بقي الكثير منها حتى اليوم، واشتهرت بالأخص بتكليفاتها الذهبية، وكانت الوسطى منها بالغة الضخامة. ومما يذكر أن الذي قام بصنع هذه التكليف، ورفعها إلى أعلى المنار، هو المعلم أبو الليث الصقلي، وأن قيمة ما أنفق على تذهيب التكليف، بلغت من النقد مائة ألف دينار^(٢).



مراكش. منارة جامع الكتبية الشهيرة،
وهي قريبة لآخر الدار

(١) روض القرطاس لابن أبي زرع (طبعة تورلينج) ص ١٥١.

(٢) روض القرطاس ص ١٥١.

PDF Eraser Free

ويبلغ ارتفاع منارة المنصور أو "لاخير الدا" La Giralda كما يسميها الإسبان سنة وتسعين مترًا، ويُصعد إليها من الداخل، بواسطة ممرك منحدر صاعدة مرصوفة بالأجر، تبلغ أربعة وثلاثين، وبها في ثلثها الأوسط أربع طبقات من المخادع الجنيبة، لها نوافذ ومشرفات عربية، زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة، وتعلو هذه الطبقات الأربع، طبقة خامسة، ذات أروقة، ومشرفات عالية، والظاهر أنها كانت طبقة المؤننين، ثم تأتي بعد ذلك الطبقة الأخير، وهي اليوم برج أجراس الكنيسة. ذلك أنه قد وقع في الثلث الأعلى من المنارة تغيير عظيم، وكانت نوافذها الذهبية الأربعة قد سقطت في سنة ١٣٥٥ م، على أثر زلزال مروع هز أركانها بشدة، وغاصت في الأرض، وتلفت قشرتها الذهبية الزاهية. وفي سنة ١٤١٠ حولت قبئها العليا إلى برج متواضع للأجراس، ولما تم بناء كنيسة إشبيلية العظمى في سنة ١٥٥٨ م، بديء العمل في تحويل قمة المنارة إلى برج عظيم للأجراس فبقي هيكلها الرئيسي بطبقته الخمس على أصله، ثم بنى الإسبان فوقه برج الأجراس الحالي من طابقين على طراز عصر الإحياء، واستغرق بناؤه عشرة أعوام، ونصبوا فوق البرج تماثيل برونزياً للإيمان "Santa Fe" ارتفاعه نحو خمسة أمتار. وله شارة تكور عند هبوب الريح (يُدور بالإسبانية Girar)، ومن ثم فقد أطلق الإسبان على المنارة اسمها الذي تعرف به وهو "لاخير الدا" "La Giralda" أي "التوار".

ويشير الغزالي إلى "لاخير الدا" بقوله: "وصومعتها (أي صومعة الكنيسة) خارجة عن المسجد بقليل، تشاكل في التشييد صومعة الكتبية في العلو والضخامة، والصعود لها من غير مدارج، إلا أن هذه زانوا في قلعها علواً فأنحاء، على ما اقتضاء نظرهم محل النواقيس"^(١). وهكذا أصبحت منارة المنصور، برج الأجراس "Campanula" لكنيسة إشبيلية العظمى، بعد أن كانت منارة مسجد الجائع.

يقول العلامة الأثري الإسباني كوثريزاس: "إن "لاخير الدا" تبدو صريحاً كاملاً من الطراز العربي، وفيها تبدو مظاهر الفن الزخرفي الحقيقي. ومن الأسف أن هذا البرج الجميل، قد توج بجسم غريب عنه جداً، لا يسمح لنا أن نتصور وضعها القديم، وتفاصيلها الذهبية، وألوانها الزرقاء الزاهية"^(٢). وقد كان لطرز "لاخير الدا"، وجماله وافتقانه، أثر واضح في تطور الفن المعماري الكنسي، المتعلق بالأبراج الكنسية، فدرى في إشبيلية، وفي كثير من مدن

(١) رحلة الغزالي ص ٣١.

(٢) Rafael Contreras: Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada Sevilla y Córdoba. P. 129.

PDF Eraser Free

الأندلس الأخرى، كثيرًا من الأبراج الكسبية، قد أقيم على طراز شبيه بطراز لآخر الداء، وزخارفها وتقاسيمها الأندلسية.

وقد أتيح لنا أن نصعد إلى أعلى برج "لاخير الداء"، ولن نلقي على إشبيلية الحسنة، نظرة من هذا الارتفاع الشاهق، وهي تبدو رائعة مستبشرة الشكل، مكتظة بالشوارع، والدروب الضيقة، ومعظم منازلها بيضاء، وهو اللون المفضل في الأندلس، ويبدو الغداء الأندلسي في كثير منها، وفيه نخلة أو نخيل، وتظللها من الناحية الجنوبية: المقابلة للنهر، بعض السلال، وتبدو حدائق القصر، وحدائق أخرى من وراء "الكثرتية" رقعة خضراء بالغة.

وتنصب "لاخير الداء"، في قلب إشبيلية، بقامتها الرشيدة المشاهدة، باللغة الروعة والجلال، كأنها ملكة نزهة وتصاميم، وهي تشرف على إشبيلية كلها من نواحيها الأربع، وتشرف على نهر الوادي الكبير القريب منها، وعلى وادي الينابيع كلها، وتستطيع أن تراها وأنت بالقطار من مسافات بعيدة.

ومن آثار إشبيلية التي يبدو فيها الطابع الأندلسي قويًا واضحًا، كنيسة "سان ماركوس"، وقد صنع برج نواحيها، على طراز منارة الجامع، وهو يعتبر أجمل "منار" في إشبيلية بعد "الخير الداء".

قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla

ولا بد لنا أن نشير أولاً، إلى أن كلمة "القصر" "Alcázar"، أصبحت في إسبانيا، علمًا يطلق على الصروح أو القصور الملوكية الإسلامية، أو أطلالها الباقية، في قواعد الأندلس الذاكرة، عدا غرناطة التي اختصت قصورها الملكية باسم "الحصراء". وبالرغم من أن قصر إشبيلية معظمه من إنشاء الملوك الإنجليز، فإنه يسمى كذلك، لأنه أقيم على بقايا قصر إسلامي سابق، وأقيم على الطراز الأندلسي.

ويقع قصر إشبيلية، على مقربة من الكنيسة العظمى، وفي جنوبها الشرقي، والظاهر أن واجهة متخله من بقايا قلعة أندلسية قديمة، يتم عن ذلك طرازها ومشارفها العربية. وتقوم بعد الغداء الذي يلي المدخل، ثلاثة عقود قديمة، يبدو أيضًا أنها من عقود الصرح الأندلسي القديم، ثم يلي هذه العقود ساحة شاسعة، تقوم عقودها الجنوبية، على أعمدة رشيقة من الرخام الأبيض، ويبدو طرازها الأندلسي واضحًا.

وهذا يبدو لك الصرح الأندلسي بأبهائه وعقوده ومشرفياته وزخارفه العربية، في ذروة روعته وجماله، "والقصر" طابقان عظيمان: والطابق الأول، هو الذي يبدو في معظمه أندلسي

PDF Eraser Free

الأصل، وإن كانت قد أضيفت إليه أبنية حديثة، من إنشاء ملوك إسبانيا، والطابق الأعلى كله من صنع إسباني، أجري تقليدًا للنمط الأندلسي.

ويحتوي الطابق الأول على عدة أفنية وأبهاء، لكن منها اسمه الخاص، وهي: قاعة العدل، وفناء الصيد، وفناء العذاري، وبهو كارلوس الخامس، وبهو السفراء، وجناح فيليب الثاني، وفناء العرائس، وجناح الملوك الأندلسيين، وجناح الملوك الكاثوليك^(١). وأهم وأهم هذه الأبهاء "بهو السفراء"، وهو بهو شاسع فخم تغطاه قبة عالية جدًا معقودة على عمود ومقرنصت عربية بديعة الزخرف. وجدرانها مكسوة بالقيشاني الفخم، تتخلله نقوش عربية مقلدة في الغالب، وفي دائرة الجدران الوسطى، نقشت عبارة عربية مكررة في الدائرة كلها، وهي "القبطة المتصلة"، وإلى جانبها رسوم أسود صغيرة. وفي هذه الطبقة السفلى يبدو الطابع الأندلسي الأصيل قويًا، وفي أفنيئها وأبهائها عدة أبواب كبيرة وصغيرة، أندلسية الأصل بها نقوش عربية.

ويتخلل زخارف القصر المنجنية، كثير من العبارات والتحيات والأدعية الإسلامية، وبعض الآيات القرآنية، وهي مقلدة منقولة عن نظائرها في بعض الصروح الأندلسية المعاصرة.

وفي أبواب "قاعة السفراء"، نقشت عبارة "المك ش" يمينًا ويسارًا، على مصاريع الأبواب. وفي الجزء الأعلى من هذه الأبواب، توجد الكتابة المهمة الآتية، وقد نقشت في لوحة زرقاء:

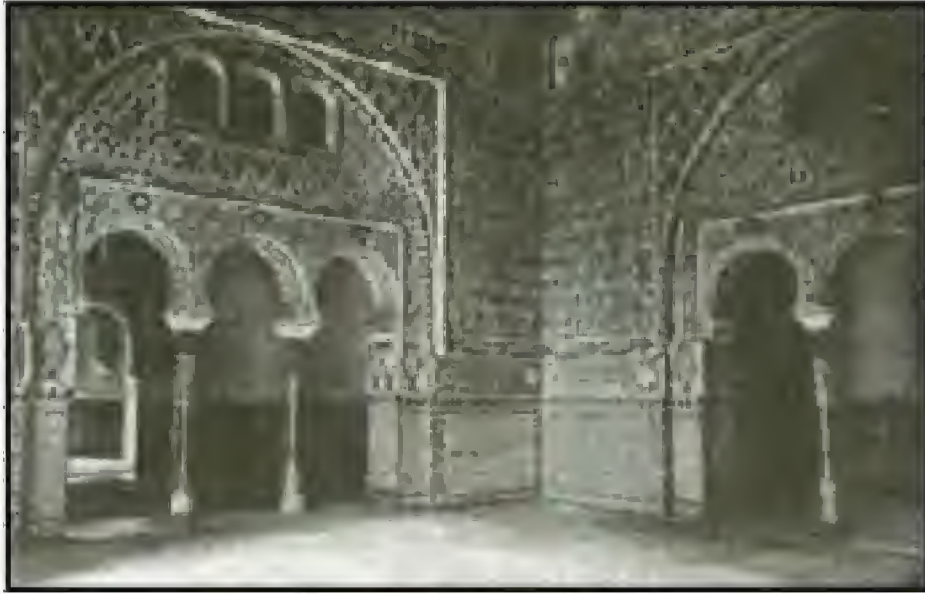
"أمر مولانا المعظم المرفع ضمن بضر، ملك قشتالة وليون، أدام الله سعده وهني أيامه، بعمل هذه الأبواب الجديدة، لهذه القبة السعيدة، بما لجلب من العزة والرفعة، من حشد السرور والسعود".

وفي هذه اللوحة بالذات توجد عبارة "ولا غالب إلا الله" (وهي شعار بني نصر ملوك غرناطة) منقوشة ثمانى مرات يمينًا وشمالًا، بالأزرق والأبيض، بخط كوفي جميل.

وفي قاعة السفراء ذاتها توجد العبارة الآتية منقوشة بالكوفية: "عن لمولانا ضمن بدر، أيده الله ونصره" وضمن بضر أو بدر هو ملك قشتالة بيدور الأول.

^(١) وهي بالإسبانية: P. de las Doncellas, P. de la Monteria, Patio de la Justicia P. de los Monecas, P. de Felipe II Salon de Embajadoras, P. de Carlos V, Dormitorio de los Reyes Moins, D. de los Reyes Catlicos.

PDF Eraser Free



قصر إشبيلية، بهو السفراء



إشبيلية، عقود من جناح الملوك الأندلسيين

PDF Eraser Free

وفي الجزء الأعلى من المصراع الأيسر الباب، توجد عبارة مشوشة مختلطة الألفاظ، تشير إلى أن الذي اضطلع بالعمل هم "المعلمون الطليطلون وذلك عام ألف وأربع مائة وأربع". ويرى المستشرق أمادور دي لوس ريوس، أن في هذه العبارة ما يدل على أن هذا القصر، لم يقد بإنشائه الفنانون الغرناطيون كما يظن البعض، بل قام بإنشائه أساتذة وصناع من المدجنين من أهل طليطلة^(١).

ونقش على الحزام الخارجي "لغناء العذارى" ما يأتي "الحمد لله على نعمه على نعمه على نعمه".

ونقش في البهو الأيمن المسمى "جناح الملوك الأندلسيين" في القبلة، هذه الأبيات الشعرية:

يا أيها المجالس الجديد	يا أيها الطالع السعيد
لأزالت الزهر خير مثوى	حتى أعود وهو عود
ومن ينل المحب عينا	وممات شيطنا... (٢)

وفي أفاريذ هذا البهو في مواضع مختلفة "المدة لله، العظمة لله، السعد والتوفيق نعم الرفاق"، ثم "عز لمولانا السلطان صن بطر...".

وفي البهو الخارجي لهذا الجناح في قوسه الأعلى، نقشت هذه العبارة مكررة "يا نقتي يا أملي: أنت الرجاء، أنت المولى، اختتم بخير العمل".

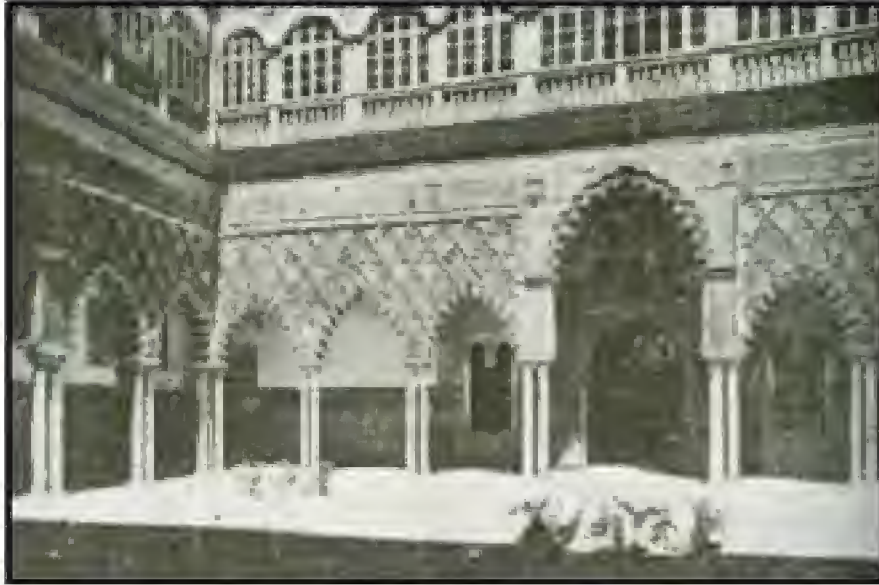
ونقشت على جدران الطبقة السفلى من القصر بصفة عامة، هذه العبارة مكررة بكثرة: "النعمة الشاملة"، وكذلك نقش في الحزام الختبي الأوسط هذه العبارات مكررة: "اليمين والسلام، العزة والكرامة، السعد الدائم".

ونقش في الساحة الكبرى "Patio Principal" عند المدخل "الحمد لله على نعمه"، ثم العبارات الآتية مكررة "عز لمولانا، الملك لله، اليمين والإقبال، ولا غالب إلا الله".

^(١) Amador de los Ríos: Inscripciones Arabes de Sevilla, p. 74.

^(٢) كلمة غير مقروءة.

PDF Eraser Free



قصر إشبيلية، مدخل فناء النذري



قصر إشبيلية، فناء النذري

ومما يلفت النظر بوجه خاص، أنه نقش في زاوية من فناء العرائش أية الكرسي «بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ...». ومن المعروف أن الصناع المحدثين كانوا ينقلون كثيراً من الآيات محرفة، بطريقة التقليد الوضعي فقط، حتى أنهم كانوا يشبهون بعض هذه الآيات، في زخارف الأبنية ذاتها، دون أن يشعروا أنها من القرآن، وقد شاهدنا مثلاً من ذلك، في مصلى الدين الملكي ببرخش، حسبما نذكر بعد عند كلامنا عن هذا النهر.

ولما الطبقة العليا من القصر فهي كلها من إنشاء الملوك الإسبان، وقد أنشئت تقليداً للطراز الأندلسي، وهي تحتوي على الأماكن الآتية: مصلى الملوك الكاثوليك، بهو الملوك، جناح الملك بيدرو، وبه عدة غرف وألباء ذات مشرفيات عربية بديعة، وقد فرشّت جميعاً بالآثاث والرياش الفخم، وزينت جدرانها بطائفة من الصور لأكابر الفنانين، والبناء كله من طراز أندلسي يحاكي الطابق الأول، وقد غطيت جدرانها كلها بالقيشاني الملون، ونقشت به أيضاً نقوش عربية مقلدة.

وتختلف الرواية في أصل "القصر" الأندلسي، ويرى البعض أنه يقوم في بعض أجزائه على أنقاض قصر المعتمد بن عباد، وقد كان موقعه قريباً من النهر في مثل البقعة التي يقوم عليها "القصر". وقد رأينا فيما تقدم عند الكلام على بناء صومعة جامعة إشبيلية (الخير الداء) أنها بنيت من أنقاض سور قصر ابن عباد، ومعنى ذلك أن بقايا قصر ابن عباد كانت قائمة حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، ومن ثم فإنه يبدو من المحقق أن معظم الأجزاء السفلى لقصر إشبيلية، قد بنيت في هذه الفترة بالذات، أعني في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، أيام الخليفة أبي يعقوب يوسف، وولده الخليفة المنصور الظاهر في معركة "الأرك" الشهيرة، وتضع الرواية الأندلسية تاريخ إنشاء هذا القصر في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٣ م) وقد بدأ بإنشائه الخليفة أبو يعقوب يوسف، وأنشأ في الوقت نفسه قنطرة من السفن على نهر الوادي الكبير، وأصلح أسوار المدينة، وما زالت تقوم إلى اليوم في إشبيلية بقية من الأسوار الموحدية، وابنى المسجد الجامع في نفس هذا التاريخ حسبما تقدم. وليس من المستبعد أن يكون هذا القصر الذي أنشأه الخليفة الموحدي، قد أقيم على بقايا قصر أندلسي سابق، ربما كانت بقايا قصر المعتمد بن عباد. ويذكر لنا الغزال سفير سلطان المغرب إلى ملك إشبيلية أنه حينما زار إشبيلية سنة ١٧٦٦، أنزل "بقصر إشبيلية"، وهو يقول "إن هذه الدار (أي القصر) نزع داخل قصبة أحد ملوك الإسلام، وقيل إنها كانت للمعتمد بن عباد رحمه الله". وإنها من الأبنية التي لم يكن مثلها بالبلاد الإشبيلية بالكلية، إلا ما كان بغرناطة على ما قيل، ثم يصفه القصر

PDF Eraser Free

وحداثته بحماسة وإعجاب^(١). وكان يحيط بالقصر أيام الموحدين، أسوار وأبراج مشيعة بنيت منها إلى اليوم برج وحيد على النهر، هو البرج المئمن المسمى "برج الذهب" "Torre de Oro" الواقع جنوب شرقي القصر، على ضفة نهر الوادي الكبير، على مقربة من قنطرة سان تلمو، وهو برج ذو ثلاث طبقات ويبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر متراً. وقد أنشئ هذا البرج في سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) بإشارة السيد أبي العلاء حاكم إشبيلية الموحدية يومئذ، وكان يربطه بالقصر سور، ويعتبر مركز دفاعي أمامي لباب القصر^(٢).

ولما افتتح الملك فرديناند الثالث الملقب بسان فرناندو مدينة إشبيلية في سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) لبقى "القصر" كما هو. ثم قام الملك بيدور الأول (بطرس) بتغييرات وإضافات كبيرة فيه، ما بين سنتي ١٣٥٣ و ١٣٦٥، وأصلح لبهاء الملك خوان الثاني، وابتنى فيه الملكان الكاثوليكيان فرديناند وإسماعيل، مصليات وقاعات جديدة. ثم جاء الإمبراطور شارلكن فقير كثيراً من معالمه. وأحدث فيه بعد ذلك تغييرات أخرى أيام فيليب الثالث وفيليب الخامس. ثم بذلت بعد ذلك مجهودات كثيرة لإعادته وإعادة نقوشه كما كان، قبل أن يتناولوه الملوك الإسبان بالتغيير والمسخ. ومع أن هذه التغييرات المموتالية، قد أفقدته كثيراً من معالمه الإسلامية، إلا أنه مازال بشكله الحالي يعتبر نموذجاً بديعاً للفن الأندلسي والفن المدجني أي الأندلسي النصراني.

يقول العلامة الأثري كونتريراس: "إن (القصر) يكتب الطابع الغرناطي، الذي لبغ في هذا الوقت بالذات على "بهو السباح" بينائه وزخارفه الرائعة". ثم يقول "وفي قصر يعقوب تغيط هيبة جيل من أجيال البطولة، وفيه تمثل حياة الملوك النصاري الذين عاشوا فيه، وأمدوا تاريخنا المجيد بآلاف الصفحات؛ إن الموحدين الذين طبعوا هذا الصرح بأنقى ذكرياتهم الإفريقية، قد تركوا في جدراته الآثار الخيالية التي اشتقوها من خرائب الشعوب المغلوبة"^(٣).

ويلحق بالقصر حدائق العظيمة البائعة، وهي منسقة على الطراز الأندلسي وبها كثير من أشجار البرتقال، والنخيل العربي، وتخللها روائن ساحرة كثيرة، والظاهر أنها قد أقيمت مكان حدائق القصر القديمة.

^(١) رحلة الغزال ص ٢٦.

^(٢) راجع رومن تفرطاس (طبعة تورينج) ص ١٦١ ومجلة Al - Andalus (1934) p. 372.

^(٣) R. Contreras: Estudio descriptivo de los Monumentos Arabes de Granada, Sevilla y

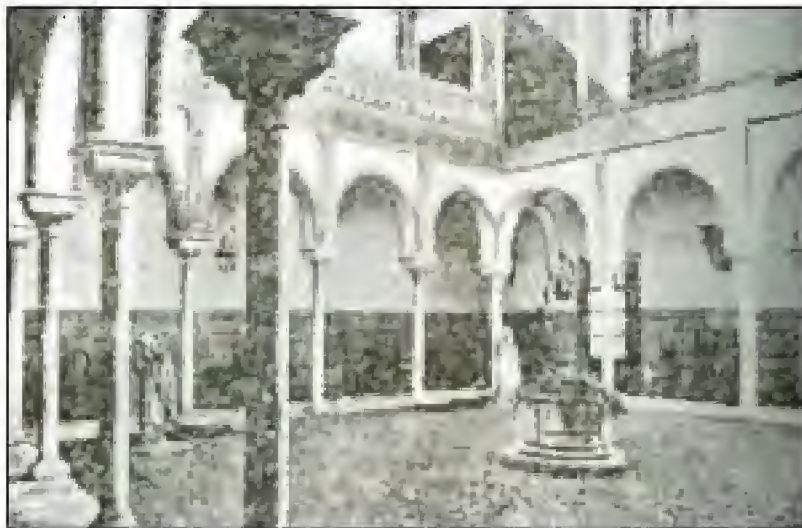
Córdoba, p. 102, 103 & 109.

دار پلاتوس

ليست هذه الدار أثرًا أندلسيًا، ولكنها قطعة من الفن الأندلسي الإسلامي الخالص، وهي كما يستفاد من لوحة في فائها من إنشاء سادتها الأوائل لسرة "مدينة سالي". وقد أنشئت في سنة ١٥٣٣، وتوالت في ملكيتها دوقات "مدينة سالي" وألبا. وقد ذكر في لوحة أخرى أن البناء قسوطي الطراز، وأن فناءه مصنوع على طراز أفنية قرطبة وخرناطة العربية. وفناءه أجمل ما فيه، وهو مربع ذو عقود عربية، ستة في الطول وخمسة في العرض، وفي وسطه نافورة مرمرية بدیعة، وقد كسيت جدرانه بالقيشاني الجميل المختلف النقوش والألوان، وقد نقش عليها العبارة الأثرية "الملك الدائم لهم، العز القائم لهم". ووزنه الفناء بهو في داخله مصلى صغير، وسقفه مصنوع من الخشب المقرنص، وبه زخارف بيضاء منجنية فوقها شريط به نقوش عربية لا تقرأ، وسقف البهو الداخلي الأصفر أيضًا من الخشب المقرنص، وبه زخارف عربية.



إشبيلية. فناء دار پلاتوس وعقوده العربية



إشبيلية. فناء دار عنى
الطراز الأندلسي

PDF Eraser Free

وفي الدور الأعلى أروقة ذات عقود تحمل على الغناء، ويؤدي إليها سلم عربي جميل، وفوقه قبة عربية بها زخارف مذهبة، وتحتها مربع من النقوش المدججة. وقد بُني هذا البناء بدار بلاتوس "Casa de Pilatos" حسبما جاء في لوحة إنشائه، تشبهاً بالقصر المماثل الذي كان في بيت المقدس للحاكم الروماني بلاتوس، وهو يقع في وسط مدينة إشبيلية وتفضي إليه دروب ضيقة.

بعض النقوش العربية الأخرى

وفي متحف إشبيلية الأثري (الأركيولوجي) توجد عدة لوحات وقطع رخامية عليها نقوش عربية، منها لوحة رخامية طولها نحو ثلاثة أمتار وعرضها أقل من نصف متر، وقد كتب عليها بالكوفية البدائية تاريخ إنشاء جامع ابن عثمن، وهو كما قدمنا جامع إشبيلية القديم، وذلك على النحو الآتي:

”بِرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المبين الأمر بنيان هذا المسجد على يدي عمر بن عثمن قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومئتين وكتب عبد البر بن هرون“.

وقد أثار ابن صاحب الصلاة، عند حديثه عن انتقال الخطبة إلى جامع إشبيلية الموحد، إلى هذه اللوحة، وقد كانت مثبتة في الغناء الخلفي للجامع، المقابل للمحراب، وذكر لنا أنه كان مكتوباً عليها بخط قديم هذا النص بذاته^(١).

ومنها لوحة جصية مأخوذة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة "سلفادور" وهي التي أقيمت فوق موقع مسجد ابن عثمن المتقدم الذكر. عليها كتابة كوفية فيها بعد البسملة بأن أعلى المنار قد أمر ببناؤه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد بن عبد، وذلك عقب تدمره بسبب الزلزال، في مستهل ربيع الأول سنة اثنين وسبعين وأربعمائة، كما توجد قطعة رخامية صغيرة عليها "أبو القاسم محمد".

ويذكر العلامة المستشرق أمادور دي لوس ريوس، أنه توجد في متحف إشبيلية الإقليمي لوحة رخامية، كانت محفوظة في الأصل بكنيسة "سان خوان دي لايالما" عليها بالخط الكوفي ما يلي:

^(١) كتب لمن بالإمامة على المستضعفين "لوحة ١٦٩ ب.



إشبيلية. برج الذهب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ
عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ. أَمَرْتُ السَّيِّدَةَ الْكُبْرَى
أُمَ الرُّشَيْدِ أَبِي الْحُسَيْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَمِدِ عَلَى
اللَّهِ الْمُؤَيَّدِ بِنَصْرِ اللَّهِ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ
أَدَامَ اللَّهِ تَأْيِيدَهُ وَأَمْرَهُ وَإِعْزَازَهُ بِإِقَامَةِ هَذِهِ
الصُّورِ مَعَهُ بِمَسْجِدِهَا، صَانَهُ اللَّهُ طَلَبًا لْجَزَائِلِ
الْأَجْرِ وَالتَّوَابِ. فَتَمَّتْ بِعَوْنِ اللَّهِ عَلَى يَدَيِ
الْوَزِيرِ الْكَاتِبِ الْأَمِيرِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ حُجَّاجٍ
وَفَقَّهُ اللَّهِ، وَذَلِكَ فِي شَعْبَانَ مِنْ عَامِ ثَمَانِيَةِ
وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ^(١). وَلَكِنِّي لَمْ لَوْفُقْ إِلَى
زِيَارَةِ الْمَتْحَفِ الْإِقْلِيمِيِّ هَذَا، وَلَمْ أَجِدْهُ مَذْكُورًا
بَيْنَ مَعَالِمِ إِشْبِيلِيَّةِ الْيَوْمِ.

الأسوار الموحدية

ولم يبق من أسوار إشبيلية القديمة الرومانية العربية داخل المدينة سوى أبراج القصر،
وبرج الذهب "Torre de Oro" الواقع على ضفة الوادي الكبير. وقد تكلم ذكره بيت أنه
ما زالت توجد خارج المدينة بقية كبيرة من الأسوار القديمة، يبلغ طولها نحو أربع مائة متر،
وارتفاعها نحو ثمانية أمتار، وتمتد من الباب المسمى "باب مكارينا" حتى قبالة دير
"الكايوسين"، ومنها جزء كبير يرجع إلى عصر الموحدين، ويخترقها عقدان قديمان إلى جانب
"باب مكارينا"، وبها ستة أبراج موحدية من أصل مائة وستة وستين برجًا كانت موزعة على
الأسوار كلها، ومنها أربعة ما زالت تحتفظ بكامل بنائها، وتمتد هذه الأسوار بهذا "شارع
الكايوسين" الفسيح، وهو من أعظم شوارع إشبيلية الخارجية، وما زالت تعرف حتى اليوم
بالأسوار الموحدية "Las Murallas Almohades".

* * *

Amador de los Rios: Incripciones Arabes de Sevilla, p. 107. Lévy – Provençal: ^(١)

Inscriptions Arabes d'Espagne, p. 40.

PDF Eraser Free

وإشبيلية، إذا استئينا غرناطة، أشد المدن الإسبانية احتفاظًا بالطابع الأندلسي، وربما كان ذلك لطول إقامة المسلمين بها، فقد حكموها أكثر من خمسة قرون، ومن ثم فإن خصلتها وأبنيتها تأثرت بالطابع الإسلامي إلى حد كبير. وما زالت ثمة بها أحياء برمتها على نسقها الأندلسي القديم، من حيث الدروب الضيقة، والمنازل ذات الأبواب المزودة والأقفال الأندلسية. وهذا الطراز من المنازل يحتوي على فناء مستدير، في وسطه نافورة، ويحيط به سياج من البلور أو ترزين جوانبه بالخزف الملون، ويتصل الباب الخارجي برواق رخامي، وفي الدور الأول تقام أروقة ذات عمد مطلة على الفناء، وهذا الفناء هو مجلس الإشبيليين



المفضل في الصيف، حيث يجتمعون حول النافورة الرطبة، ويبدو الطابع الأندلسي على أشده في حي "سانتا كروث" Santa Cruz أي الصليب المقدس، أحد أحيائها الشعبية القديمة. وهو أقرب أحياء إشبيلية شبهًا بحي البتازين الشهير في غرناطة، بل إن الطابع الأندلسي يبدو قويًا في أحياء إشبيلية وصروحها الحديثة. ففي كثير من المنازل والفنادق الكبيرة ترى الألفية الأندلسية البديعة، وفي وسطها النوافير والخضرة، وقد أطلت عليها المشرفات والشبابيك العربية، وتري الجدران، وقد زينت بالخزف الملون ذي الزخارف الأندلسية البديعة.

إشبيلية، جانب من الأسوار الموحية وأحد أبراجها

ويغلب الروح الأندلسي المرح على إشبيلية، وهي في ذلك على نقيض من غرناطة التي يسودها الجمود والتحفّظ؛ وفي إشبيلية تعرض أجمل مناظر الرقص الأندلسي، وتلقى الأغاني الأندلسية المرحية، وتعرض أجمل الأزياء والشيلان الأندلسية، وأبدع منتجات الخزف الأندلسي الملون، وعلى العموم فإن إشبيلية تثير بكل ربوعها وصروحها، ومعالمها وآثارها، ودروبها ومغانيها، في النفس كثيرًا من ذكريات المدينة الأندلسية الذهبية.

قلعة جابر

PDF Eraser Free

ويوجد في بلدة "قلعة جابر" الصغيرة "Alcáza de Guadaira"، التي تقع على مسافة قريبة من جنوب شرق إشبيلية، أثر أندلسي هام، هو عبارة عن قلعة جابر. وقد كانت من حصون إشبيلية الأمامية الشرقية، واشتهرت بحصانتها وأهميتها الدفاعية منذ عهد الطوائف وقد وسعت وجددت أيام الموحدين في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف وسقطت في أيدي القشتاليين عند حصارهم لإشبيلية في سنة ١٢٤٧ م. وقام النصارى خلال القرن الخامس عشر بعمل تعديلات، وإضافات كثيرة فيها، ولكن بقيت أجزاء كثيرة من بنائها الأصلي. وتقع قلعة جابر فوق ربوة عالية وتشرف على المدينة الصغيرة من الجنوب، وتشغل أطلالها منطقة



أطلال قلعة جابر

واسعة، وتتكون من فناءين كبيرين يشرف على كل منهما أبراج تبلغ نحو العشرة في الفناءين. ومنظر كل منهما عقد عربي. وتمتد مساحة للقلعة بعد ذلك إلى مسافة كبيرة، وتقوم من حولها بقية كبيرة من أسوارها القديمة، وهي ليست عالية. وقد أنشأ الإسبان في تلك المساحة بعض البنية حديثة ومتنزهات. ومنها كنيسة القديمة أجيبلا Sta Aguilá وهي حامية المدينة. ويوجد في نهاية المساحة الخارجية عقدان قويان وبقية أخرى من الأسوار. وتبلغ واجهة القلعة الرئيسية المطلّة على المدينة نحو مائتي متر، وبرجها الرئيسي ضخم مربع الشكل.

وقد كانت قلعة جابر أيام الموحدين من أهم النقاط الدفاعية الشرقية حول إشبيلية، وكان الموحدون قد أقاموا حول إشبيلية - وهي قاعدة حكمهم في الأندلس - سلسلة من الحصون القوية كانت قلعة جابر من أضخمها وأمنعها. فلما سقطت قلعة جابر في يد النصارى، شددت بدورها مركزاً للدفاع عن إشبيلية، عاصمة قشتالة الجديدة، ضد هجمات المسلمين.

٤ - قرمونة

Carmona

ويتبع الكلام عن إشبيلية، الكلام عن مدينتين، تقعان على مقربة منها، ولو لهما ليسنا من الناحية الاصطلاحية، من القواعد الأندلسية الكبرى، هما قرمونة وإسجة.

تقع مدينة قرمونة على مقربة من جنوبي نهر الوادي الكبير، في شمل شرقي إشبيلية، على قيد اثنتين وثلاثين كيلو مترًا منها، في بسيط من الأرض، وأقر الخضرة والخصب، كما في تلك الرقعة الكبيرة اليلعة التي يحتضنها الوادي الكبير في حنيته نحو الشرق، والتي تغمرها غلات الزيتون، وحقول القمح النضرة، وتعتبر بجمالها من أجمل رقاع الأندلس وأخصبها.

وقد كانت قرمونة أيام الدولة الأندلسية من أهم وأمنع مدن ولاية إشبيلية. وتتوه الرواية الإسلامية بعراقة قرمونة وحصانتهاء، وتتوه بالأخص ببابها الشهيرين الباقيين إلى اليوم، وهما باب إشبيلية، وباب قرطبة^(١). وقد قامت بها أيام الطوائف مملكة بني برزاق البربرية، ثم افتتحها بنو عباد، وضمت إلى مملكة إشبيلية، واستمرت تلعب دورها في تلك المنطقة من الأندلس الوسطى، حتى استولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة في سنة ١٢٤٧ م، قبيل استيلائه على إشبيلية بلشهر قلائل.

وقرمونة مدينة كبيرة، يبلغ سكانها نحو أربعين ألفاً، وقد بنيت أحياؤها الوسطى في بطن الوادي، وأحياؤها الجانبية من الناحيتين الشرقية والغربية على ربوعين صاعدتين، على هيئة ضلعي المثلث. والقسم القديم من المدينة، وهو الذي يحتل مكان المدينة الأندلسية، يبدو أنه هو المحصور ما بين باب إشبيلية جنوباً، وباب قرطبة شمالاً، وباب إشبيلية هو بداية الربوة الصاعدة حتى باب قرطبة، وتقع في داخلها ووسطها الكنيسة العظمى. أما المدينة الحديثة، فتمتد غرباً من باب إشبيلية حتى المقابر الرومانية التي تقع عند مدخل المدينة. وتكثف المدينة الداخلية شوارع طويلة ضيقة، وبها السوق الكبير، وهي تبدو على العموم ذات طابع أندلسي واضح.

^(١) راجع فروض قصطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٥٨

PDF Eraser Free



فرمونة. مدخل العتبة وقد ظهر فيه باب إشبيلية
وجزاء من أسوار القصبة



فرمونة. باب إشبيلية
وآخر بابها الغربي

الآثار الأندلسية

باب إشبيلية: وهو من أعظم وأروع الأبواب الأندلسية الباقية، وهو عبارة عن عقد ضخم يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، واتساعه من أسفل نحو خمسة، ومن أعلى نحو أربعة، ويعلوه من الأمام عقد أكبر مستدير، وفوق الباب بقية شرفة كبيرة عالية، تبلغ واجهتها نحو خمسة عشر متراً، ويبلغ ارتفاع الباب والشرفة معاً نحو العشرين متراً، ويبلغ عمق الباب أو سمرة نحو عشرة أمتار، وينتهي من الناحية الأخرى بعقد مماثل لعقد المدخل، وبينهما من الداخل عقد متوسط ثم يأتي بعد الباب وعقوده الثلاثة، وهي المغطاة، بنحو عشرة أمتار من العراء، عقد آخر عمقه نحو ستة أمتار، وإلى يمينه قطعة هائلة من السور الأندلسي يبلغ طولها نحو خمسة وعشرين متراً، وارتفاعها نحو ثلاثين، وتتوج العقود والشرفة من أعلى، السوراري العربية المعروفة، ويبدو الأثر كله في حالة رائعة من القوة والمناخ، ويتوسط بموقعه قسيمي قرمونة، القديم منهما والحديث، وقد سمي باب إشبيلية، لأنه يتجه نحو الجنوب الغربي إلى طريق إشبيلية.

باب قرطبة: وهو عقد ضخم مزيج عمقه نحو ثمانية أمتار، وعرضه نحو سبعة أمتار وارتفاعه نحو عشرة، وإلى كل من يمينه ويساره عضادة عرضها نحو ثمانية أمتار وارتفاعها نحو اثني عشر متراً، وبها ثلاثة أعمدة، ومن الواضح أنها إضافة متأخرة، ويوجد أيضاً إلى كل من يمين هاتين العضادتين ويسارهما، قاعدة برج ضخمة مستديرة الشكل، قد بنيت بالأحجار الكبيرة الصلدة، وهما تحتفظان بأصلهما العربي، وأما الباب فقد أدخلت عليه تغييرات، ولكن بقيت في أسفل الأحجار الصلدة التي يبدو أنها قديمة، وقد بنيت فوق أعلى الباب مقصورة نصرانية. وقد أقيم في الناحية الأخرى من الباب عن كل من يمينه ويساره، عمودان يرتفعان عن الأرض نحو مترين، ويظهر من موقع الباب، وكونه يطل على الوادي والحقول المجاورة، ويجاور الربوة الصخرية، أنه كل نهاية المدينة من الشمال، وقد سمي باب قرطبة، لأنه يتجه نحو الشمال الشرقي إلى طريق قرطبة، ومن المقرر من الوجهة التاريخية أن باب قرطبة يرجع في القديم إلى أصل روماني، ثم جدد أيام المسلمين، واتخذ طابعه الأندلسي، ثم توالى عليه بعد ذلك تغييرات وتجديدات قام بها ملوك قشتالة.

قصر مرشاة: ويطلق هذا الاسم على طلل ضخم تبلغ واجهته نحو مائة متر ويقع على ربوة عالية تطل على الوادي، وتبدو هذه المدينة بيضاوية الشكل، وفي وسطها الكنيسة العظمى، ومدخل هذا الطلل باب ضخم ذو ثلاث عقود متواصلة وعليه شرفة عالية، قد تآكلت

PDF Eraser Free

حافتها، وإلى يمينه برج مثلث، ومن وراءه مساحة صغيرة، يطلوها عقد آخر، وتبدو الأطلال داخل الصرح الفخم منتثرة في كل ناحية، ويبلغ عرضه من الداخل نحو ثمانين متراً، ومن الأطلال بقايا أبراج ولسوار، وبقايا شرف، كلها في حالة مطبقة من الخراب، والمعروف أن هذا الصرح الضخم، هو القلعة التي أنشأها الملك بطرس القلسي (بيدرو) ملك قشتالة (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م)، وكان بداخلها قصر أنشاء أيضاً، ولكن يبدو من ناحية أخرى، أن هذه القلعة قد أنشئت مكان القصبه الأندلسية القديمة وفوقها أنقاضها، وربما كان بين الأطلال الحالية كثير من أنقاض القصبه ولسوارها.

الكنيسة العظمى: وهي تسمى كنيسة سانتا مارياء وهي كنيسة صغيرة قديمة، ولكن جميلة ذات عقود قوطية عالية، ولها نوافذ من الزجاج الملون، وقد بنيت فوق مكان المسجد الجامع القديم، وقد بقي منه إلى اليوم صحنه الذي جعل صحناً للكنيسة، وبه ستة من عقود الجامع، وتبلغ مساحة هذا الصحن عشرين متراً في عشرة، وظاهر كذلك من باب الكنيسة المعقود، وتوسطه العقود العربية التي بالصحن، أنه كان أيضاً مدخل الجامع الرئيسي.

PDF Eraser Free



فزمونة، باب فرطبة وهو بابها الشرقي



فزمونة، أطلال "القصر" القديم وباب مرشافة

٥ - إستجة

Ecija

كانت إستجة أيام سيادة الرومان في شبه الجزيرة، من المستعمرات الرومانية الملحوظة، وسماها العرب "إستجة" من اسمها الروماني القديم Astigis.

وهي مدينة كبيرة، تقع على الضفة اليسرى لنهر شنيل، فرع الوادي الكبير، في بسط أخضر خصب من الأرض، ويبلغ سكانها نحو ثلاثين ألفاً، وهي من أعمال مقاطعة إشبيلية، وتبعد عنها نحو ثمانين كيلو متراً، وتبعد عن قرطبة نحو ستين. وفي الطريق إليها من قرطبة تكثر البساتين الخضراء تتخللها شجرات الزيتون وحقول القمح. وقد تعرضت المرتفعات أو المنخفضات هنا وهناك، ولكن الخضرة تغمرها دائماً، وتطلها الجبال من الشمال على مدى البصر.

وكانت لإستجة في عهدها الإسلامي، أسوار مزدوجة منيعة، تخترقها عدة أبواب كبيرة، وكانت كما هي اليوم، تحتل الرقعة الواقعة على ضفاف النهر^(١).

وإستجة اليوم مدينة جميلة مشرقة، تخترقها شوارع طويلة واسعة، وتبدو في ثوب من الأنفة والنظافة يميزها عن المدن الإسبانية المعتمة. وأشد ما يميز إستجة، هو طابعها الأندلسي العميق، فهي بخططها وتقاسيمها، تبدو مدينة أندلسية حقاً، ومنازلها جميعاً بيضاء، لا ترتفع إلى أكثر من طابق أو طابقين. ويوجد الفناء الأندلسي في كثير منها بدافورته ولشجاره، ويغطي جدرانها الزليخ الأندلسي الملون، وهذا ما حدا بالعلامة الأثري الأستاذ نوريس بالباس أن يصفها بحق بأنها "أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بالطابع الأندلسي".

ويقع الميدان الكبير في وسط المدينة، ويتفرع منه عدد كبير من الشوارع العريضة والضيقة. وتقع الكنيسة الكبرى على مقربة منه في درب ضيق يقضي إليه، وتسمى كنيسة "الصليب المقدس" Santa Cruz، ويسمى برجها المستقل القائم إلى يسارها مطلاً على الشارع بنفس الاسم، والكنيسة صغيرة، وهي حديثة البناء، ولكن تقوم إلى جانبها أطلال الكنيسة القديمة وعقودها العالية. ويبدو من هذه الأطلال، ومن وجود عقد عربي في صدر الفناء المجاور لها، أن الكنيسة وأطلالها القديمة كلها، تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وقد أقيمت الكنيسة القديمة، فوق أنقاض الجامع، في سنة ١٥١٢ م.

^(١) فروض تمعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٤ و ١٥

PDF Eraser Free



إربدة. منظر جزئي للمدينة



إربدة. الكنيسة العظمى
وبرج "سلطان كروث"



إربدة. عقد عربي
في فناء الكنيسة يقظن أنه من بقايا الجامع

PDF Eraser Free

ويقع العقد العربي المشار إليه في صدر الفناء الواقع إلى يسار الكنيسة، بينها وبين
البرج، وهو عقد واسع ومنخفض يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار، وسعته كذلك، وقد بقيت نقوشه
وزخارفه العربية في الزوايا.

وبالرغم من أنه لا توجد في إستجة آثار وأطلال أندلسية ذات شأن، فإنه توجد لوحتان
أندلسيتان، قد ثبتتا في أسفل برج الكنيسة في واجهته المظلة على الشارع، ويبدو من شكل
البرج وظرفاه أنه ربما كان منار الجامع القديم، وقد بقي نصفه الأسفل محفوظاً ببذاته القديم،
وحول نصفه الأعلى إلى برج للأجراس. ويقع هذا البرج، وهو يحمل نفس اسم الكنيسة -
سائتا كروث - في الناحية اليسرى لفناء الكنيسة الخارجي، ويطل على الشارع الضيق، ويبلغ
ارتفاعه نحو ثلاثين متراً من الأرض، وفي وسط واجهته الخارجية كوة مستديرة، والبرج
مربع الشكل، يبلغ ضلعه نحو ستة أمتار.

اللوحتان العربيتان

وقد ثبتت في أسفل واجهة البرج المظلة على الشارع لوحتان عربيتان على ارتفاع
نحو أربعة أمتار من الأرض، وبينهما لوحة لاتينية تباعد بينهما بنحو متر ونصف، الأولى
مستطيلة الشكل يبلغ ارتفاعها نحو ٦٠ سنتيمتراً، وعرضها ٥٠، والثانية مربعة الشكل، يبلغ
ضلعاها نحو ٥٥ سنتيمتراً.

وقد نقش في اللوحة الأولى بالخط الكوفي ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم. أمر أمير المؤمنين أعزاه الله عبد الرحمن بن محمد، ببناء
هذه السقاية، رجاء ثواب الله الجزيل (وأجره العظيم) فتم ذلك بعون الله على يدي مولاه
وعامله، أمية بن محمد بن شهيد، في شهر المحرم سنة ثمان مئتي عشر وثلاثمائة.

ونقل في اللوحة الثانية، وهي من الرخام، أحد عشر سطراً من الكتابة الكوفية، هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم. أمرت ببناء هذه السقاية أعزها الله والدة أم أمير المؤمنين
المؤيد بالله هشام بن الحكم، أطال الله بقاءه، رجاء منها ثواب الله الجزيل وأجره العظيم، فتمت
بعون الله وتأييده على يد صنيعتها صاحب الشرطة وقاضي أهل كورة إستجة وقرمونة
وأعمالها، أحمد بن عبد الله بن موسى، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ست وستين وثلاثمائة.

ومعنى ذلك أن اللوحة الأولى ترجع إلى أوائل عهد الناصر لدين الله، وأن اللوحة
الثانية ترجع إلى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر. وأم أمير المؤمنين المشار إليها في هذا
النص، هي صبيح البشكنسية جارية الحكم، وأم ولاء هشام المؤيد.

PDF Eraser Free

ويوجد في إسبجة عدا كنيسة "سانتا كروث" عدة كنائس أخرى يقع معظمها على مقربة من الميدان الكبير، ومنها كنيسة سانتا مارياء وكنيسة سان فرنسيمكو، ويوجد بها أيضاً عدد من الأديرة القديمة.

وقد حاولنا أن نتقصى آثار القطرنة الأندلسية التي أنشأها الحاجب المنصور على نهر شيل قبالة إسبجة، أي قبالة طرفها الشمالي، فوجدناها قد جددت تجديدًا كاملاً، ولم نجد في عقودها الحالية، ما يحمل على الظن، بأن منها ما هو قديم يرجع إلى العهد الإسلامي.

وقد سقطت إسبجة في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٣٧ م، في عهد فرناندو الثالث ملك قشتالة.

٦ - طليطلة

Toledo

كانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية، ثم كانت بعد فتح المسلمين للأندلس من أعظم وأهم القواعد الأندلسية. وقد لبثت أيام الدولة الإسلامية، مؤثلاً لتورات المولدين والبربر، وكان



طليطلة. باب الشمس

المولدون أو المسلمون الإسبان، هم عنصر سكانها الغالب، ومن ثم فإن ولائهم للحكومة الإسلامية لم يكن قوياً، وقد عانت حكومة قرطبة في إخضاعها وحكمها متاعب وصعاباً جمة. وفوق ذلك فقد كانت طليطلة بموقعها على المنحدرات الصخرية العالية، الممتدة حتى ضفاف الناجه، الذي يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب، وأسوارها الضخمة، وقلاعها الحصينة، من أمنع مدن العصور الوسطى، وهي ما تزال إلى اليوم متى تأملت موقعها الجبلي الوعر، وبقياس أسوارها وحصونها القديمة، ودروبها الصخرية القفرة، تذكرنا بحصانتها القديمة.

وهي تقع في منعطف نهر الناجه على بعد خمسة وسبعين كيلو متراً من مدريد، وتربطها بالعاصمة الإسبانية مواصلات حديثة منظمة، وكذلك طريق سيارات حسن، ويفد إليها السياح بكثرة من سائر البلاد.

وقد كانت طليطلة أولى قاعدة أندلسية هامة سقطت في أيدي النصارى، وكان سقوطها في شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٨٥ م) في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان هذا السقوط نذيراً خطيراً بتصدع صروح الدولة الإسلامية، وكان المسلمون حينها فتحوا طليطلة، قد استبقوا كثيراً من خططها ومعالمها وصروحها القوطية والرومانية القديمة، وجعلوا مسجدها الجامع مكان الكنيسة القوطية التي تقع في وسطها، ولكنها نعت وازدهرت في ظنهم، واشتهرت بصناعاتها الصليبية والحديدية، وأسلحتها الفاخرة. وبلغ سكانها أيام المسلمين نحو مائتي ألف نسمة، فلما سقطت في أيدي النصارى هجرها معظم سكانها المسلمين، وتضاءل سكانها ونشاطها الصناعي في ظل الحكم الإسباني، بالرغم من أنها كانت في وقت من الأوقات عاصمة إسبانيا النصرانية، وكانت مقراً لبلاط فرديناند وإسبيللا، وأحياناً لبلاط الإمبراطور شارلكن، واستمر تدهورها حتى غقت معظم صناعاتها القديمة، وأصبح سكانها اليوم لا يعدون ثلاثين ألف نسمة.

PDF Eraser Free



طليطلة. منظر جزئي لواجهة المدينة يبين موقعها على نهر التاجه



طليطلة. القنطرة الأندلسية المسماة قنطرة "القنطرة"

Alfenàtra القائمة فوق نهر التاجه

PDF Eraser Free

وطليطلة اليوم مدينة متواضعة، وهي ما زالت تحتفظ بخطوطها القديمة، بدروبها الضيقة المنحدرة ومنازلها الصخرية العتيقة، وما زالت بها بقية من أسوارها وأبراجها وأبوابها القديمة، ومنها الباب المسمى "باب بساجرا" "Puerta de Visagra" أو باب الفونسو السادس، وأصله من الأبواب الأندلسية القديمة، وكان يسمى "باب شرقي"، وقد جدد في منتصف القرن السادس عشر. وتقع القنطرة العربية القديمة على التاجه أمام شمال شرقي المدينة، وما زالت تسمى إلى اليوم "Puente de Alcá--tra" قنطرة القنطرة، وقد أُنشئت في سنة ٩٩٧ م أيام المنصور بن أبي عامر مكان القنطرة الرومانية القديمة، ثم جدها الفونسو السادس فأنشع طليطلة بعد أن كانت تهدم، وهي تقوم على عقدين ضخمين عميقين، وعليها باب قديم في أعلاه برج، وعلى الرتبة المقابلة لها من الشمال، يقوم الصرح المسمى "بالقصر"، وفي نهايتها باب آخر أحدث صنعاً.

وما زالت طليطلة تحمل إلى اليوم طابع العصور الوسطى، وتبدو حصانها القديمة في كل بقعة من بقاعها، وكل حي من أحيائها، والمدينة القديمة، المدينة القوطية الأندلسية، ما زالت قائمة بدروبها الضيقة المتشابكة، ومنازلها القديمة الصلدة وشوارعها المنحدرة، وحتى كنيسها العظمى (الكترائية) تقع في وسط شبكة من الدروب الضيقة. والمدينة كلها تتحدر بصخرتها المتباعدة نحو نهر التاجه الواقع في جنوبها، وتوجد في الضفة الأخرى من التاجه مما يلي قنطرة القنطرة، عدة شوارع ومبان حديثة، وهذه تعتبر المدينة الجديدة. وما زال نهر التاجه والمنحدر والأنوار والأبواب المشرفة عليه، تعين لنا معالم المدينة القديمة. ولا توجد في طليطلة ميادين كبيرة، وميادنها الرئيسي "الميدان الكبير" "Plaza Mayor" قريب من التاجه، ومنه تتفرع عدة دروب ضيقة يقضي إحداها إلى الكنيسة العظمى.

الكنيسة العظمى

وتقع كنيسة طليطلة العظمى (الكترائية) في وسط المدينة تقريباً، وهي تحتل مكان المسجد الجامع القديم، وقد كان هذا المسجد كنيسة قوطية قديمة، فحولها المسلمون وقت الفتح إلى مسجد طليطلة للجامع. ولما سقطت طليطلة في أيدي القشتاليين، كان من عهود التمسليم التي قطعها ملك قشتالة على نفسه أن يبقى للمسلمين جامعهم إلى الأبد، يؤدون فيه شعائرهم أحراراً. بيد أنه لم يمض على ذلك سوى شهرين، حتى قام لسقف طليطلة الجديد بتحويل الجامع إلى كنيسة بالقوة القاهرة، ونصبت فيه الهياكل، ولم يغن احتجاج المسلمين ولا هياجهم شيئاً. وفي شهر ديسمبر سنة ١٠٨٥ م نشنت الكنيسة الجديدة في حفل منوكي ضخم، واستمر بناء الجامع بعد تحويله إلى كنيسة قائماً زهاء قرن ونصف حتى أمر بهدمه الملك فرناندو

PDF Eraser Free

الثالث في سنة ١٢٢٧ م، وأمر بأن تبنى مكانه الكاتدرائية الحالية، وهي من أعظم وأغنى الكنائس الإسبانية. وقد كانت طليطلة وما زالت مقر الرئاسة الدينية العليا للكنيسة الإسبانية.

وقد بدأ بناء هذه الكنيسة في عصر فرناندو الثالث، ولكن بنائها استمر دهرًا ولم يتم إلا في سنة ١٤٩٢، في نفس الوقت الذي سقطت في غرناطة آخر القواعد الأندلسية، وتوجد في نهاية صحنها لوحة كتب عليها بالإسبانية ما يأتي: "في سنة ١٤٩٢ فتحت غرناطة وكل ممتلكاتها على يد الملكين فرديناند وإسبيللا. وفي نفس هذا العام في نهاية شهر يوليو، أخرج جميع اليهود من جميع ولايات قشتالة وأراجون وطليطلة. وفي السنة التالية - سنة ١٤٩٣ - كان إتمام هذه الكنيسة".

ويوجد تحت القبة الكبرى، في شريط الحظيرة التي تحيط بهو الهيكل الكبير، نقوش خشبية مصورة تمثل قصة حصار غرناطة وفتحها، ويبدو فيها فرسان معممون هم الفرسان المسلمون، كما تبدو مناظر الحمراء وقلاعها، وتبدو صور الملك فرديناند والملكة إسبيللا كل على جواده، وتسمى هذه النقوش "الفتح غرناطة في عصر الملكين الكاثوليكين" "Conquista de Granada en tiempo de los Reyes Católicos"، وتعتبر من أقيم ما يزدن به صحن الكنيسة.



طليطلة، الكنيسة العظمى

PDF Eraser Free

وفي ناحية أخرى من الكنيسة، توجد قاعة كبيرة لها مدخل زرين بنقوش وزخارف منجنية. وكذلك سقفها زرين بنقوش منجنية مذهبة. وقد رسمت على جدرانها الأربع صور جميع الأساقفة الذين تولوا كرسي طليطلة، منذ إنشائه حتى العصر الحالي. وتحفظ كنيسة طليطلة بطائفة كبيرة من الأتية الذهبية، والصلبان والتيجان الملوكية والأسقفية التاريخية الثمينة، تحفظ في غرفة خاصة في نهايتها.

وإلى جانب هذه الخاثر، التي تشتهر بها كنيسة طليطلة، يوجد معرض الصور والنياب الأسقفية في إبهاء "المقدس"، ويحتوي معرض الصور على مجموعة كبيرة من الصور الدينية، بريش أكبر الفنانين الإسبان وغيرهم، ومنها مجموعة رائعة من صنع ثومنيكو إل جريكو (اليوناني) الذي عاش في طليطلة في أواخر القرن السادس عشر وتوفي بها. وتضم قاعة النياب المقدسة، مجموعة كبيرة من الأنياب الأسقفية المذهبة، التي كانت لمختلف الأساقفة الذين تولوا كرسي هذه الكنيسة.

علما السلطان أبي الحسن المريني

على أن أهم ما يثير طنعة الباحث بين خاثر كنيسة طليطلة، هو علما السلطان أبي الحسن المريني، اللذان غنمهما الإسبان، في موقعة سالادو Salado أو موقعة طريف، وهي الموقعة التي نشبت بين الإسبان، وبين الجيوش الأندلسية والمغربية المتحدة، بقيادة السلطان يوسف أبي الحجاج والسلطان أبي الحسن المريني الذي عزز إلى إسبانيا لنجدة المسلمين، وذلك في ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م. (جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ) وهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة، وسقط معسكر السلطان أبي الحسن في يد النصاري، وكان من أسلحة هذان العلمان، اللذان مازالت تحفظ بهما حتى اليوم إسبانيا النصرانية، عنواناً لظفرها في ذلك اليوم المشهود. وقد علق هذان العلمان الإسلاميان، على جدران قاعة النياب المقدسة، وأولهما عبارة عن سجادة كبيرة مذهبة الجوانب، طولها ٣,٧٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً، ذات لون أصفر، وقد نقشت في شريطيها الأعلى والأسفل بحروف بيضاء هذه العبارة: "النصر والتكين والفتح المبين، لمولانا أبو الحسن أمير المسلمين".

ونقش في باطنها، في عدد من الدوائر بلغت ستة عشرة، العبارات الآتية بأحرف سوداء: "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم" "الحمد لله على نعمه" "الملك الدائم" "العز القائم" "اليمن الدائم" "العز القائم".

PDF Eraser Free

وفي ذيلها أنها صنعت للسلطان في المدينة البيضاء في شهر جمادى الآخر عام أربعين وسبعمائة.

وفي الشريط العمودي الأيمن ما يأتي: "تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله".
وفي الشريط الأفقي الأيسر تكلمة الآية: "ألمو لكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون".
وما النصر إلا من عند الله "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" نصر من الله وفتح قريب "وما توفيقي إلا بالله".

وفي الشريط العمودي الأيسر: "يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم".

ونقشت في الأهلة وعندها ستة عشر عبارة: "لا إله إلا الله" في ثمانية منها، و"محمد رسول الله" في الثمانية الأخرى، وعنده النجوم عشرون.

وفي ذيل هذا العلم، أنه صنع لأمر المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. في قصبة فاس، في شهر المحرم سنة ثني عشر وسبعمائة، والسلطان المذكور هو أبو يوسف المنصور الجد الثاني للسلطان أبي الحسن^(١).

وقد زار الوزير ابن عبد الوهاب سفير ملك المغرب، طليطلة سنة ١٦٩١ م، وهو يقيم لنا في رحلته التي سبقت الإشارة إليها، هذا الوصف للثقلى لطليطلة وكينيتها العظمى، وهو يسميها في وصفه بالمسجد، ويبدو في هذا الوصف عميق تأثره، بروعة منظرها وذاكرتها:

"وسوار هذه المدينة وحيطاتها وأزقتها، باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين، ولزرها لز الحضارة، إلا أن أكثر أزقتها ضيقة جداً، ودورها باقية على حالها من البناء الإسلامي ونقصيله، والنقش في السقف والحيطان بالكتابة العربية، ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا، إذ هو مسجد كبير مبني كله من الحجارة الصلبة، القريبة الشبه بالرخام، وسقفه مقبوء من الحجارة، وهو في غاية ارتفاع السمك، وعلوه في الجوى، وسواريه في غاية الضخامة والصناعة العجيبة، والنقوش، وقد أحدث النصارى في هذا المسجد من جوانبه، زيادة في الوسط بشبابيك من نحاس أصفر، وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركال، التي يضربون بها وقت صلواتهم، مع الكتب التي يقرعونها في الصلوات، شيء كثير. وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة المصلوب، وهو من ذهب يقابلونها

^(١) رجعت في إيراد هذه الأوصاف والنقوش، إلى مشاهدتها ودرستها الخاصة داخل كهراتبة طليطلة، وراجع

أيضاً في ذلك ما كتبه المستشرق أماتور دي لوس ريوس في رسالته:

Trofeos militares de la Reconquista, Estudio acerca Enseñas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos) y la Catedral de Toledo (Madrid 1893).

PDF Eraser Free

في صلواتهم. ولباب هذا المسجد طرية في الإنقاذ والصناعة. وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عرايدهم، التي لا يمكنهم تركها. ومن الزيادات المحدثه في جوانب هذا المسجد، بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال كثيرة، فيها من النخائر والأحجار الملونة، مثل الياقوت الأحمر والأبيض والأصفر والزمرد، والتيجان المرصعة بالتر الفلخر، والأحجار النفيسة التي لها بال ولا تقوم بعمل. ومع هذه النخائر تاج كبير من الذهب، ومعه سواران من ذهب، زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله^(١).

وكذلك تحدث الغزال الفلسي في رحلته عن كنز ثرية طليطلة. وقد زارها في سنة ١٧٦٥م، وأفاض في وصف ضخامتها وروعيتها، وما تحتويه من النخائر الجليلة، وهو يصفها



طليطلة . شارع داخل المدينة

بأنها "الجامع"، ويقول إنه من أعظم المساجد، وله طراز خاص غير مسجد قرطبة، وبناؤه وسواريه من الرخام، وبوسط المسجد قبة عظيمة، نصبت تحتها كنيسة وزينت جدرانها بأنواع الصور والرسوم، وعلفت عليها الصلبان. وبأركان الجامع خزائن مملوغة بالنخائر الإسبانية النصرانية، من تيجان وقلائد وخواتم وصبان وغيرها من الذهب وغيره، وبعضها مرصع بالحجارة الكريمة. وهذه النخائر تفوق نظائرها في إسكوريال (يقصد قصر الإسكوريال)، ثم يقول إنه مازالت بالمدينة مقبرة للمسلمين، وعليها ساريان من الرخام فيها أسماء وتواريخ بعض أكابر المسلمين^(٢).

ووصف الكنيسة العظمى فيما تقدم "بالجامع"، يرجع إلى كونها تحتل موقع المسجد الجامع القديم، ويقارنها الغزال في وصفه "بجامع قرطبة"، ولكن الواقع أن جامع قرطبة، بالرغم من تحويله إلى كنيسة بل كنائس، مازال يحتفظ بشكله ولوضاعه الإسلامية من عمد وبوآلك وغيرها. أما كنيسة طليطلة فهي أثر نصراني محض.

(١) رحلة لوريز في افنكك الأسير، السالفة الذكر، ص ١٠٥، ١٠٦.

(٢) رحلة الغزال السالفة الذكر، ص ٦٧ و٦٨.

الآثار الأندلسية

ولا توجد في طليطلة آثار أندلسية محضة، سوى بقايا المسجد الصغير، التي حولت إلى كنيسة تسمى اليوم "Cristo de la Luz". ويقع هذا الأثر في داخل المدينة، تقصى إليه دروب ضيقة منحدر، ويبدو لأول وهلة أنه بقية مسجد إسلامي، تتألف من ثلاثة عقود في مثلها بأعمدتها وزخارفها العربية. والظاهر أن المسجد كان صغيراً، وقد محيت نقوش القبلة الإسلامية ورسمت مكانها صورة شخص أو قديس. ورسمت في حنايا النوافذ القديمة، بعد أن سدت، صور العذراء، ولا يوجد بالمكان عيكل، ولكن يوجد صليبان متقابلان، وهو خال، وإلى جواره حذيفة مهملة ومساكن متواضعة.

وقد كان يطلق على هذا المسجد اسم مسجد "باب المردوم"، ويوجد في نقش واجبه العبرة الآتية: "بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حدي من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يدي موسى بن علي البناء وسعادة فتم في المحرم سنة تسعين وثلاث مائة: (٩٩٩) م".

ويوجد أيضاً من الآثار الأندلسية عدد من البيع اليهودية. ومعظمها مبني على طراز عربي واضح، وبعضها بُني على طراز المسجد، بعقوده وأروقته وأعمدته، وبها نقوش وزخارف عربية. ويبدو هذا الطراز واضحاً،



في الكنيسة المسماة اليوم سانتا ماريادي بلانكا Sta Maria de Blanca وهي تقع في نهاية طليطلة، على مقربة من منزل المصور (إل جريكو). وقد كانت بيعة يهودية، ثم حولت في سنة ١٤٠٥ إلى كنيسة، وأسس إلى جانبها دير للرابعات. وقد أصلحت في أواخر القرن الثامن عشر، ثم جعلت أثرًا قومياً، وهي مبنية على نسق المسجد بعقوده وبوائكه، وبها سبعة عقود في الطول وأربعة في العرض، وبها أربعة وعشرون عموداً سداسية الشكل، وفي مدخلها بعض نقوش عربية.

طليطلة، بقايا المسجد المسمى "كريستو دي لوث"

وكذلك كنيسة سان سالڤادور "San Salvador"، كانت في الأصل مسجداً، ثم حول إلى كنيسة في سنة ١١٥٩ م، بعد الفتح بنحو سبعين عاماً، واستولى عليه النصارى من الموحدين.

القصر وصروح أخرى

ومن أهم صروح طليطلة القديمة، التي تتصل بالعصر الإسلامي، "القصر" "Alcázar"، وهو بناء قديم ضخم، شيد على صخرة عالية تطل على نهر التاجه، أمام قلعة "القطر"، وكان أيام الرومان حصناً، فجده الملوك القوط، ثم جدد أيام المسلمين، وأنشأ به الحكم بن هشام أمير الأندلس في سنة ٧٩٧ م قلعة منيعة، لضبط مدينة طليطلة وقمع ثوراتها، وكانت تستعمل حصناً ومقرًا للحاكم. وهذه القلعة أو القصبه هي التي حولت فيما بعد إلى ما يسمى اليوم "بالقصر". وهو صرح عبوس منيع البناء والموقع. له فناء مربع معقود، وأربعة أبراج كبيرة، يقوم كل منها في ركن من أركان الأربعة.

ولما سقطت طليطلة في أيدي النصارى، استعمله الإسبان كقلعة لحصانته، ثم حوله الملوك الإسبان، في القرن الثالث عشر، إلى قصر للإقامة فيه، وأصلحه وزينه المملوك فرديناند وإسبيللا، ثم الإمبراطور شارلكان، ولعبت عليه الفخامة الملوكية، وعاش فيه ملوك وملكات، ولستقبل فيه عدد من مشاهير السفراء، وكان يتخذ مقرًا للبلاط من آن لآخر، ثم استعمل بعد ذلك سجنًا لليونان التحقيق. ولعب في الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة دورًا هامًا، حيث اعتصم به الملكيون أنصار الجنرال فرانكو، واستطاعوا الدفاع عنه حتى تم لهم الظفر على الجمهوريين.

وتوجد في ظاهر طليطلة، بقية من أسوارها الأندلسية القديمة، وقد عُثر كثير من معالمها في العصور التالية.

ومن آثار طليطلة القديمة أيضًا، البناء المسمى "حمام كابا" "Baffo de la Cava" وهو يقع غربي طليطلة على مقربة من النهر، وهو عبارة عن قلعة ومنزل معًا، وتنسب إليه أسطورة، تقول إنه كان مسكنًا لفلورندا الحناء ابنة الكونت بولين، الذي علون العرب على فتح إسبانيا، انتقامًا لاعتداء رديك ملك القوط على ابنته.

وتشتهر طليطلة بنوع خاص، بمنزل الفنان الكبير دومينيكو إل جريكو "D. el Greco" أي اليوناني. وهو مصور عبقرى من أصل يوناني، عاش في طليطلة في أواخر القرن السادس عشر، وتوفي بها (سنة ١٦١٤)، وقد غدا المنزل الذي كان يقيم فيه اليوم متحفًا قومياً، يزخر بصوره وأثاره. وهو يقع في نهاية طليطلة في شمالها، على مقربة من نهر التاجه، ويحج إليه زوار المدينة باستمرار.

PDF Eraser Free



طنيطلة. القصر Alcazar قبل تخريبه أثناء الحرب الأهلية



طنيطلة. بقايا الأسوار الأندلسية

PDF Eraser Free

وتوجد في طليطلة مصانع رسمية للسلاح والذخيرة، وقد حافظت طليطلة على شهرتها القديمة، في صنع الأسلحة والآلات القاطعة، وكذلك صنع الأقمشة الحريرية، وكانت صناعة الأسلحة الطليطلية، من أزهر الصناعات أيام المسلمين، وقد شاهدنا من منتجاتها السيوف، والمدى الفاخرة، التي رُبنت مقابضها بالعاج والأحجار الثمينة، كما شاهدنا تحفاً كثيرة دقيقة الصنع يفتخر الطليطليون بها.

ومما يجدر ذكره أن طليطلة تشتهر بصنع الحلوى الأندلسية القديمة المسمّاة "ماتابلن" "Mazapan"، وهي تكثر في الأعياد والمواكب الدينية، وترسل إلى سائر مدينة إسبانيا.

٧ - بلنسية

Valencia

بلنسية هي اليوم ثالثة المدن الإسبانية بعد مدريد وبرشلونة، وهي مدينة ضخمة، تخرقها ميادين فضيحة وشوارع مديدة، وتقع في منطقة زراعية وصناعية هامة، على مقربة من الشاطئ الغربي الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، على بعد ٤٩٠ كيلو متراً من مدريد، ويبلغ سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٢٧، ٣١٢ ألف نفس، ولكنهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثمائة وخمسين ألفاً.

ومن محاصيلها الزراعية، الأرز و الذرة و القطن و البقول و الفواكه و الأزهار. ومن بين منتجاتها الصناعية الأسمدة و زيت الزيتون، و الكوكو، و الخروع، و المشروبات الروحية، و الآلات الموسيقية، و الحرير و الصوف، وبها حركة تجارية كبيرة.

وقد سقطت بلنسية في أيدي الإسبان في سنة ١٢٣٨ م (٦٣٦ هـ)، وبالرغم من أنها كانت أيام الدولة الإسلامية، من أعظم القواعد الأندلسية، وقد احتفظت بطابعها الإسلامي حتى منتصف القرن الثالث عشر، ولبتت من بعد ذلك عصرًا آخر، منزل جماعات كثيرة من المندجنين، وبالرغم من أنها من بعد سقوط الأندلس النهائي (سنة ١٤٩٢ م)، قد لبنت نحو قرن من أعظم مراكز الموريسكيين أو العرب المنتصرين - بالرغم من ذلك كله فإنك لا تلمح بها اليوم لمة مسحة أندلسية أو موريسكية واضحة، بل ترى نفسك في قلب مدينة أوروبية عصرية محضة، ذات ميادين وشوارع عظيمة وأبنية شاهقة حديثة. وأعظم ميادينها "ميدان الزعيم" "Plaza del Caudillo" القريب من محطتها الحديدية، وأعظم شوارعها شارع خوسيه أنطونيو "Avenida de José Antonio"، وشارع فرديناند الكاثوليكي "Gran Vía de Fernando el Católico"، وشارع كولمب "Calle de Colón" وشارع البارون دي كارثير "Av. de Baron de Career" وغيرها، وكلها شوارع مديدة فضيحة تزخر بالمناجر، و المقاهي و الفنادق و المباني الشاهقة، و مما يلتفت النظر أن من بين شوارعها شارع يسمى شارع الرصافة، وحي يعرف بحي الرصافة "Calle de Ruzafa"، ويذكرنا هذا الاسم الأندلسي برصافة قرطبة الشهيرة، وقد كان في بلنسية أيام المسلمين حي يسمى بهذا الاسم^(١). ولنا ندري إن كان حي الرصافة هذا، الذي يوجد في بلنسية الحديثة، قد خلف مكان سميّه

^(١) راجع فروض الصعطار ص ٥٢.

PDF Eraser Free

القديم في المدينة الأندلسية. وعلى أية حال فقد سمعنا من البنسنيين أنه من أقدم خطط بنسنية وهو شارع تجاري عام، يمتد من "مسرح الثيران" على مقربة من المحطة، طويلاً إلى داخل المدينة، وينتهي بحي متوسط الظاهر هو حي الرصافة، ويتقاطع في نحو منتصفه مع شارع "خوسيه أنطونيو". وهو من أهم شوارع بنسنية، ويقوم في وسطه مرور تظله أشجار النخيل الجميلة، كما توجد عدة شوارع وميادين أخرى في بنسنية تزينها أشجار النخيل.



بنسنية. الكنيسة العظمى وبرجها المسمى "المجلتي"

ويشقي نهر توريا "Turia" المدينة من الشمال، وتقع في الناحية الأخرى الحدائق الملكية، وهي حدائق غناء حسنة التنسيق.

على أننا نستطيع بالرغم من هذا الطابع الأوربي العميق، الذي يطبع مظاهر بنسنية وخططها، أن نلمح مسحة أندلسية أو موريسكية باهتة في بعض دروبها القديمة الضيقة، وفي طرز بعض مساكنها العتيقة. أما عن الآثار الأندلسية الباقية، فإنه لا يوجد في بنسنية أي أثر أندلسي أو موريسكي ذو شأن، اللهم إلا بقايا حمامات عربية، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى (الكنزالية)، في شارع صغير يسمى شارع حمامات الأميرال "Calle de los Bafios del Amirante" وهي تقع داخل منزل قديم، وتحوي على أربع قباب قديمة من قباب الحمامات العربية، ذات كوات نجمية الشكل، وقد أنشئت إلى جانبها بعض الحمامات الحديثة، وهي معروفة بأنها الأثر الإسلامي الوحيد في بنسنية.

ومن الصروح الأثرية البارزة في بنسنية كنيسة العظمى، وكان مكانها قبل الفتح الإسلامي كنيسة قوطية قديمة فحولها العرب إلى مسجد جامع، ولما افتتح السيد الكمبيادور (الكنيطور) المدينة في سنة ١٠٩٤ م حول المسجد إلى كنيسة، ثم ردت الكنيسة مسجداً بعد أن عادت المدينة إلى سلطان المسلمين في سنة ١١٠٢ م. ولما افتتح خايمي الأول ملك

PDF Eraser Free

أراجون بلنسية من أيدي المسلمين في سنة ١٢٣٨ م، قلب هذا المسجد الجامع إلى كنيسة، سميت باسم "ماريا العالية القداسة" "Santissima Maria" وبُنيء بإنشاء الكاتدرائية في أواخر القرن الثالث عشر، وتم بناؤها في سنة ١٣٧٦، وهي على الطراز القوطي، وليست كبيرة الحجم، وقد جددت في معظم أجزائها، ما عدا قسم صغير منها يبدو أنه أقدمها، أما برجها الشهير الذي يسمى "المجلتي" "El Miguelete" فقد أنشئ في نهاية القرن الرابع عشر منفصلاً عنها، وهو شاهق يبلغ ارتفاعه خمسين متراً، ويشرف على المدينة من سائر نواحيها.

ومن أقدم كنائس بلنسية، كنيسة القديس أندريس "San Andrés"، وقد كانت قائمة أيام المسلمين.

وأهم آثار بلنسية الأخرى، القلعة المسماة "برج الجبلين" "Torre de Serranos" وهي تقع تجاه النهر في الميدان المسمى بهذا الاسم، وهي قلعة حصينة أنشئت في نهاية القرن الرابع عشر، والبرج المسمى "برج الكوارتو" "T. del Cuarto" وهو يقع في غربي المدينة، وقد أنشئ في سنة ١٤٤٤، وكان يستعمل فيما بعد سجناً للنساء، ودار البورصة المسماة "لونها" "La Lonja"، وهي بناء جميل على الطراز القوطي، يستعمل مركزاً للتعامل بالجملة في المحاصيل، وإلى جانبه قاعة ضيقة قديمة هي دار المحكمة التجارية.

ويقع على الضفة الأخرى من النهر متحف الفنون الجميلة، ويحتوي على مجموعة كبيرة من الصور الدينية وغيرها، من صنع أكبر المصورين في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وتتميز بلنسية بأنها مركز من مراكز الثقافة الإسبانية، ففيها جامعة قديمة ترجع إلى خمسة قرون، وتضم كليات للأدب والحقوق والطب، ويلحق بها مكتبة عظيمة تسمى "المكتبة الجامعية والبلدية" وبها أكثر من مائة ألف مجلد، هذا عدا مكتبات فرعية أخرى، مثل مكتبة البلدية ومكتبة الحقوق والمكتبة الشعبية وغيرها. وبها داران للمخطوطات والوثائق التاريخية، هما "مخطوطات مملكة بلنسية" "Archivo del Reino de Valencia"، وهي تضم كثيراً من مجموعات الوثائق الخاصة بأحوال الموريسكيين (العرب المنتصرين)، وديوان التحقيق، وقد أطلعنا فيها على الأوامر الملكية الصادرة من فيليب الثاني في سنة ١٥٥٣، بتحريم حمل السلاح على الموريسكيين. وقد كانت بلنسية، بعد سقوط الأندلس النهائي من أعظم مراكز الموريسكيين. وهناك أيضاً دار المحفوظات البلدية، وهي تحتوي على كثير من الوثائق المتعلقة بتاريخ بلنسية.

PDF Eraser Free

وقد زرت ميناء بلنسية، التي تصل إليها من طريق شائع يقع على ضفة النهر الأخرى، وتقوم على ضفتيه الأشجار الباسقة، ويسمى "متنزه بلنسية" "Paseo de Valencia"، وهي ميناء صغير ترسو في خليجها الهادئ، سفن الصيد الكبيرة وسفن الشحن، وبعض سفن قليلة للركوب من ذوات الأحجام المتوسطة، ولا ترسو به السفن الكبيرة، والحركة فيه قليلة هادئة.

وعلى مقربة من الميناء في شمال المدينة، تقع القلعة التي بناها الإمبراطور شارلكان للدفاع عن المدينة ضد غارات أمير البحر التركي خير الدين بارباروس، وهي التي كان يقوم بها بمعاونة الموريسكيين ووحدهم، لكي يسهل لهم سبل الهجرة والفرار من اضطهاد ديوان التحقيق الإسباني ومحاكماته المروعة.

وقد كانت بلنسية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، في بداية عهد المرابطين، مسرحاً لمغامرات الفارس الإسباني الأشهر الميد الكبيطور "El Cid Campeador"، وقد استولى عليها في يونيو سنة ١٠٩٤ م وحكمها حيناً، بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أنه ليس بالمدينة أي أثر أو تمثال للسيد، أو أية آثار أخرى تتعلق بهذا العهد، مع ما عرف عن الإسبان من المبالغة في تخليد ذكرى أبطالهم، ولا سيما أولئك الذين أبلوا في محاربة المسلمين.

وما زالت بلنسية تحتفظ بشهرتها القديمة في صنع الأواني الخزفية، وبها مثل إشبيلية صاحبتها المصممة مانيس "Manises" مصنع من أعظم مصانع الخزف الإسبانية.

PDF Eraser Free



بلنسية، قلعة "الجبليين"



مريبطر (بلنسية)، باب محفوظ من إطلال حصن "العشيرة"

ساجنتو

هذا وقد زرت ضاحية ساجنتو "Sagunto" الواقعة في شمال بلنسية، على قيد خمسة وعشرين كيلو متر منها، وهي مدينة قديمة، وبها فوق منحدر التل بقية مسرح روماني قديم، ومتحف صغير للأواني الخزفية، وعلى مقربة من المسرح الروماني فوق الزبوة، توجد بقايا قلعة ومساكن الأندلسية، وما زال بها ثمة باب كبير ذو عقد عربي، وفوقه مشارف وكوكات عربية.

ونفسير ذلك واضح، وهو أن ضاحية ساجنتو هذه ليست إلا مدينة مربيطر الأندلسية القديمة "Murviedro"، وقد كانت أيام الطوائف، مركز إمارة صغيرة مستقلة، وتوجد حول بلنسية، على مسافات بعيدة، مروج بانعة، وقد أقيمت بها حدائق البرتقال، ومزارع القطن الخصبة. وهو ينمو هناك متأخرًا نحو شهرين أو ثلاثة عنه في مصر نظرًا لحرطوبة الجو.

وبلى بلنسية عدة من الضواحي القريبة، التي ترتبط بتاريخها الإسلامي، وتحمل أسماء ترجع إلى أصل عربي، مثل الكدية "Alcudia"، والداية أو الضيعة "Aldaya"، وبني فري "Beniferri"، وبني قاسم "Benicasim"، وبوئال "Puzal" وغيرها.

وترتبط بلنسية بمديرد بمواصلات حديدية منظمة، وترتبط كذلك ببرشلونة، وتغور الأندلس مثل لقات، وقرطاجنة، والمرية، ومالقة، بمواصلات برية وبحرية حسنة.

٨ - مرسية

Murcia

مرسية هي اليوم من مدن إسبانيا الكبرى، في مرتبة إشبيلية، وقرطبة، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وتقع في بسيط أخضر في وادي شقورة، ويشقها نهر شقورة "Segura" من الوسط، وهي على نقيض بانسية مدينة عتيقة الطراز في شوارعها وميادينها وطراز مساكنها، وليست لها تلك المسحة الأوربية، التي تبدو واضحة في خطط بانسية ومعالمها، ومعظم مدينتها منخفضة ذات طبقتين أو ثلاث، وبالرغم من أن بها بضعة شوارع كبيرة عريضة، فإن شوارعها التجارية الداخلية ضيقة، ولا سيما شارعها الرئيسي وهما "Calle de la Piateria"، و "C. de la Traperia"، حيث يغص كلاهما بالمتاجر والمقاهي المتقابلة، وأكبر ميادينها هو ميدان الدستور "Plaza de la Constitución"، ويصل قسميها الكبيرين على ضفتي نهر شقورة قطرة كبيرة حديثة، وعلى الضفة الأخرى من النهر طواحين كثيرة تدار بقوة لتحدر الماء، وتوجد قطرة حجرية أخرى تصل المدينة بضاحية سان بنيتو التي يقوم بها مسرح النيران (الكوريدا).

ومرسية مدينة زراعية صناعية وتجارية معاً، ومن أهم منتجاتها الدقيق والخمور والفواكه، وبها صناعات الصوف والكتن والقطن والبارود، وقد نما سكانها في العهد الأخير نمواً عظيماً، وهم يبلغون اليوم نحو ربع مليون نسمة.

وقد سقطت مرسية في يد الإسبان في ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م)، ومع ذلك فإنها مازالت تحتفظ بطابع مدن العصور الوسطى، ولا توجد اليوم في مرسية أثر أندلسية ذات شأن، ولم يبق من أسوارها وأبوابها وصروحها القديمة شيء، ولا توجد سوى بقايا بعض الحمامات العربية^(١)، وبعض أطلال قديمة مشوهة بذير سانتا كلارا، غير أن مسحة مرسية القديمة ومعالمها مازالت تتم عن طرازها الأندلسي، ولا سيما أسواقها الرئيسية، فهي بدروبها الضيقة، وحوالياتها المكتظة المتقابلة، تشبه القيسرية القديمة، ثم إنه مازالت تعكس على ضفة النهر أسواق عامة على الطريقة الشرقية، تعرض بها الطيور والخضر والفواكه والمأكولات

(١) كانت هذه الحمامات توجد بالمنزل رقم ١٥ من شارع Calle de la Madre de Dios وقد ضمت أخيراً إليها خدمت.

PDF Eraser Free

والملاهي والمنشآت الريفية. وقد حضرنا هذه السوق ذات صباح، ورأينا في مناظرها، ملامح العهد الأندلسي القديم وروحه وتقاليده.

وتقع كنيسة مرسية العظمى في وسطها، في ميدان صغير على مقربة من النهر، وقد



بنيت على موقع المسجد الجامع، الذي حوله النصاري عند افتتاحهم للمدينة إلى كنيسة مؤقتة، ويرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الرابع عشر. وهي جميلة، وطرزها قوطي، وبه مزيج من طراز عصر الإحياء. وتقع خارج مرسية، على قيد نحو فرسخ من شمالها الشرقي. أطلق حصن أندلسي قديم، يطلق عليه اليوم اسم حصن "مونتى أجودو" Castillo de Monte Agodo وهي تقع فوق ربوة عالية منعزلة مشرفة على الحقول. ومما هو جدير بالذكر أن هذا الحصن كان أيام الطوائف، من المراكز الدفاعية الأمامية لمرسية، وفيه حاصر الوزير ابن عمار، حينما هاجم مرسية في سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م)، صاحبها أبا عبد الرحمن بن طاهر، وتغلب عليه.

مرسية. شارع معقود الجوانب

ومرسية كبيرة الرقعة مترامية الأطراف، تحيط بها حدائق ورياض متصلة، وأكثرها حدائق البرتقال والزيتون والليمون، وتحدها من الغرب والجنوب سلسلة من التلال العالية. ومما يلفت النظر في مرسية كثرة النخيل بها على نحو ما كان أيام المسلمين، وكذلك مناظرها الريفية المانجة، التي تبدو جنبًا إلى جنب مع ملامحها الأوربية، فقد ترى مثلاً في شوارعها قطعاً من الغنم. وإلى جانبه تسير حسناء فوق دراجة، أو تسوق سيارتها.

وفي مرسية طائفة خاصة من الجنائين، لها عوائد وأغان خاصة، ولها مواكب وحفلات مأثورة، وفي مواسمها تفيض مرسية بالوافدين عليها من كل صوب.

ومرسية مركز ثقافي أيضاً، وبها جامعة صغيرة، تضم كليات ثلاث للعلوم والحقوق والآداب.

PDF Eraser Free



مرسية. الكنيسة العظمى



مرسية. القنطرة الحجرية على نهر شقورة

PDF Eraser Free

الكتاب الثاني الشجر الأعلى وشرق الأندلس

١ - سرقسطة

Zaragoza

كانت سرقسطة - وقد حُرف اسمها العربي عن اسمها الروماني Caesar Augusta - أيام الدولة الإسلامية، عاصمة الثغر الأعلى، ثم عُدت خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، قاعدة للتوار والخوارج على حكومة قرطبة. ومنذ أوائل القرن الرابع، تغدو مركزاً لسلطان بني نجيب في الثغر الأعلى، وقد حكموها إلى ما بعد انهيار الخلافة، وقيام دول الطوائف بقليل حتى سنة ٥٣٠ هـ (١٠٣٩ م)، ثم خلفهم في حكمها بنو هود، وعُدت سرقسطة في ظلهم قاعدة لإمارة أو مملكة قوية من ممالك الطوائف، واستمروا في رياستها زهاء ثمانين عاماً، من سنة ١٠٣٩ م، حتى سقوطها في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في سنة ١١١٨ م (٥١٢ هـ).

وكان لموقع سرقسطة في الشمال الشرقي، بعيداً عن قلب المملكة الإسلامية، وقربها من القواعد النصرانية، وسقوطها في يد النصارى في وقت مبكر، تأثير واضح في اختفاء صفاتها الإسلامية ومعالمها الأندلسية بسرعة. ومن ثم فإننا نجد سرقسطة منذ القرن الثاني عشر، مدينة إسبانية نصرانية، ونجدها اليوم مدينة أوروبية حديثة، قد خالعت عنها طابع العصور الوسطى، الذي ما يزال يبدو في مدن أندلسية أخرى، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة.

وسرقسطة مدينة كبيرة ذات شوارع وميادين فسيحة، ومبانيها عالية ضخمة، ويخترقها نهر إبرو (إبرة)، عند نهايتها، على مقربة من الكنيسة العظمى؛ والنهر ليس عريضاً في تلك الجهة، وقد أقيمت عليه هنالك قنطرة رومانية، عربية الطراز، ترجع إلى القرن الخامس عشر، تسمى قنطرة الحجر "Puente de la Piedra"، وعلى الضفة الأخرى من النهر، أحياء متواضعة وأرض قفرة، ويبدو نهر إبرو في تلك الجهة، تقريباً على نحو ما يبدو عليه نهر الوادي الكبير في قرطبة، من حيث موقعه وراء الجامع.

وسرقسطة مركز تجاري وصناعي هام، تربطها مواصلات حديثة حسنة، مع مدريد وبرشلونة وبلنسية. ومن منتجاتها الزجاج الصيني والآلات والمصنوعات الحديدية. ويبلغ سكانها اليوم مائتان وثمانون ألف نسمة.

وقد أشرنا إلى أن سرقسطة، فقدت صفاتها الإسلامية والأندلسية، في عصر مبكر جداً، والواقع أن سرقسطة لا تحمل أية مسحة أندلسية. بيد أنه يوجد بها مع ذلك، بعض الآثار الأندلسية التي تستحق الذكر والتعريف.

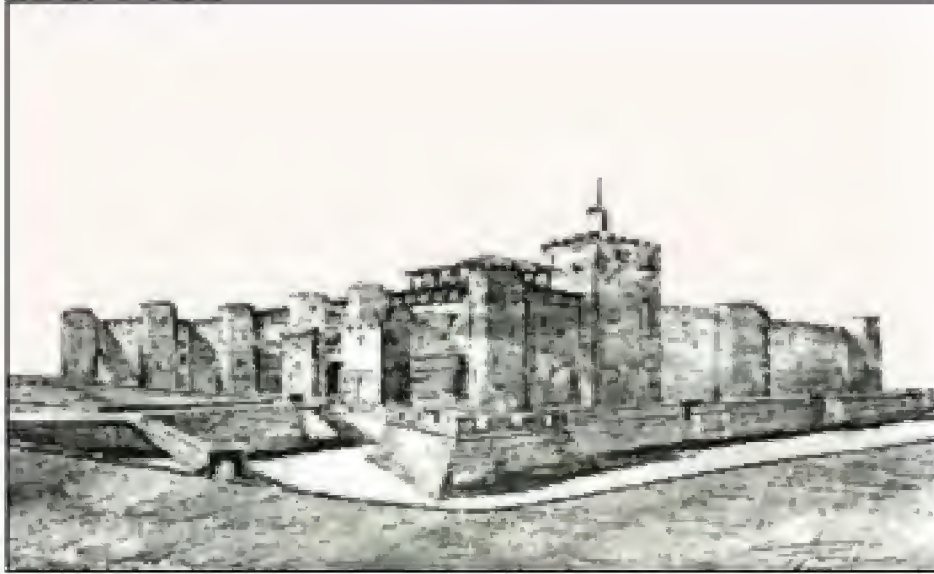
قصر الجعفرية

ولنبدأ بالحديث عن الصرح المسمى بقصر الجعفرية "Palacio Aljaferia" وهو يستعمل الآن كنكتة عسكرية ومخزنًا للسلاح، ويقع هذا الصرح الضخم في شرقي سرقسطة، على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إيبرو، وهو يقوم فوق بقايا الصرح الأندلسي القديم، وقد كان يضم القصر والقصبة، ويرجع بناؤه حسبما يجيء إلى القرن الحادي عشر الميلادي، ثم توالى عليه بعد ذلك تغييرات وإضافات كثيرة، على يد الملوك النصارى، حتى غدا يمثل في أجزائه المختلفة عصورًا مختلفة.

ويتمثل العصر الإسلامي في صرح الجعفرية، في بعض الأماكن الداخلية التي مازالت تعرب عن طرازها الشرقي، وفي بقايا المسجد، التي مازالت قائمة في داخله، وهي عبارة عن قاعة صغيرة بها عقدان عربيان، وشريط به نقوش كوفية، وقد أحرق المكن من الداخل، ولم يبق منه إلا زخارف العقود، والمقوّل إن الفرنسيين هم الذين أحرقوه أيام الغزو النابليوني.

على أن الذي يهمنا من هذا الصرح، هو جناحه الأيسر، وهو القصر الملكي، الذي أسس على بقايا القصر الأندلسي، وأدخلت فيه بعض أجزائه، ومن حسن الحظ، أن الرواية الإسبانية قد حفظت لنا اسم القصر الأندلسي، وهو "Aljaferia" أو بعبارة أخرى قصر "الجعفرية"، إن هذا الاسم يذكرنا في الحال بقصر بني هود ملوك سرقسطة المسلمين، وهو القصر الذي أنشأه أعظم ملوكهم، أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر، وقد حكم المقتدر مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عامًا، من سنة ٤٣٨ - ٤٧٤ هـ (١٠٤٦ - ١٠٨٦ م)، وكان من أعظم ملوك الطوائف، واشتهر ببراعته في العلوم الفلسفية والرياضية. وسمي قصر المقتدر بقصر "الجعفرية"، نسبة إلى كنيته، وهي "أبو جعفر"، وكان من أعظم وأفخم القصور الملكية في تلك العصور، وقد اشتهر في تاريخ الفن الإسلامي باسم "دار السرور"، وكان أروع ما فيه، بهو الرائع الذي زينته جدرانه بالنقوش الذهبية البديعة، والذي كان يسمى لذلك بالبهو الذهبي أو مجلس الذهب، وفيه يقول منشئه المقتدر:

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يجر ملكي خلافكما لكان لديّ كفاية الأرب



سرقسطة. واجهة قصر الجعفرية القديم حسبما يظن من خطط ورسوم قديمة

ولما سقطت سرقسطة في يد الإسبان، شوحت معالم هذا القصر البديع، كما شوحت معالم معظم الصروح والقصور الأندلسية الأخرى. وقد تعاقب عليه ملوك أراجون، أيام كانت سرقسطة عاصمة المملكة، بالتغيير والتبديل. ثم جاء من بعدهم الملك الكاثوليكيان فرديناند وإسبيللا، ثم فيليب الثاني، وقد أحدث أولئك جميعاً تغييرات وإضافات في هذا القصر الأندلسي، حتى هذا مزيجاً من طرازات مختلفة، من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر. وفي القصر كثير من آثار الملكين الكاثوليكين، وفيه بالأخص عدة من شعارهما الملكي، تبرز فيه رموز إسبانيا المتحدة. وفيه أيضاً لوحة تذكارية بملوك إسبيللا ملكة البرتغال في سنة ١٢٧٢ م. وقد كانت هذه الألباء والقاعات الملكية تؤلف المسكن الملكي، يذل على ذلك فخامته وسقوفه المذهبة. وكان ملوك أراجون وملكاتهما يتزوجون في هذا الصرح الملكي، في حفلات باذخة.

PDF Eraser Free



سرقسطة. منظر عام للقصر الجعفرية كما هو الآن



سرقسطة. كنيسة العمود. والميدان العطلة عنيه

PDF Eraser Free

وفي سنة ١٤٨٥، اتخذ ديوان التحقيق الأرجوني مركزه في هذا الصرح، ويوجد في الجانب الأيمن من القصر، برج منيع ذو سلم عريض وحرف جانبية من الحجر الصلد. وكانت هذه المخادع الصخرية تستعمل سجنًا للمتهمين، كما أن حفلات "الأوتو دا فيه" "Auto-da-fé" - كانت تقام في الفناء الخارجي، ومنه يخرج المحكوم عليهم إلى الميدان، حيث ينفذ فيهم حكم الإعدام حرقًا.

ثم استعمل منذ أواخر القرن الثامن عشر كنكة عسكرية، وهدمت أسواره القديمة، وأزيل مصلى بيدرو الرابع، وقُضي بصفة نهائية على محله وبدلته العربية. يقول الأستاذ مورينو: "وهو عمل بربرية من أشد ما وقع في تاريخنا حزينًا"^(١)، وقد نقلت من مخلفاته إلى متحف مدريد، قطع من العقود والزخارف البديعة، ورجوس الأعمدة التي كانت بالبهو الذهبي^(٢).

ويستعمل قصر الجعفرية الآن أيضًا مخزنًا للسلاح، وقد رأينا فيه كميات وافرة من البنادق والمدافع.

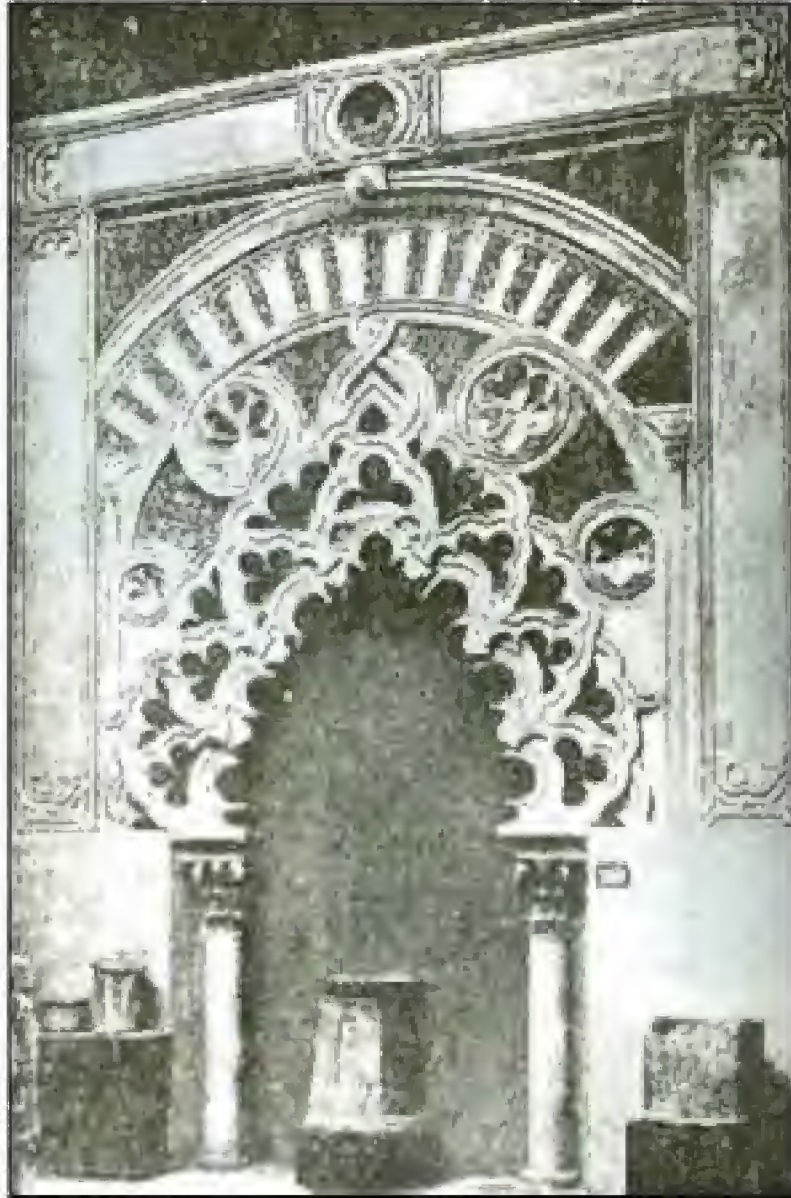
آثار أخرى

ومن الآثار الأندلسية القليلة في سرقطة. العقد العربي الكبير المسمى "عقد العميد" "Arco del Déan"، وهو يقع في حي الكنائس، على مقربة من الكنيسة الشهيرة المسماة "لاسيو" في درب عتيق، وهو عبارة عن أربعة عقود ضخمة متوالية يفصل كل منها عن الآخر نحو خمسة أمتار، وبذلك يبلغ طول الممر كله ١٥ مترًا، وارتفاعه نحو سبعة أمتار، وقد شيد فوقه مبنى عتيق، وإلى جواره أيضًا مبنى آخر مماثل، عليه مسحة طراز عربي. ولا يوجد في سرقطة أي أثر آخر يحمل الطابع العربي الخالص سوى هذا العقد.

^(١) الأستاذ جومث مورينو في كتابه للمالك الذكر: (El Arte Árabe Español) وهذه عبارته الإسبانية التي يندد فيها بما أصاب هذا الأثر الإسلامي القديم: "Acto de barbarie de lo más señalados en desdoro de nuestra historia" (ص ٢٢١).

^(٢) هنا، وقد نشر الأستاذ ف. إنيغيث ألمش F. Iniguez Almech رسالة عنوانها: Así fué la Aljafería (Zaragoza, 1952) "هكذا كان قصر الجعفرية" جمع فيها عدة تخطيطات ورسوم تاريخية مما عمل لمواقع قصر الجعفرية وأحدثه في عصور متعاقبة، كما ضمه عدة صور لبعض عقود وزخارفه الموجودة بمتحف مدريد، وعدة رسوم متخيلة ليوم النهي وعجابه وولجته. وقد نقلنا هذا بعضها.

PDF Eraser Free



مرفضة. عقد زخرفي من عقود قصر الجعفرية القديم
محفوظ بمتحف مدريد الوطني

PDF Eraser Free

أما كنيسة "لاسيو" "La Seo" هذه التي يقع وراءها العقد العربي، فهي أقدم كنائس سرقسطة ومعنى اسمها "الكنيسة العظمى". وقد أقيمت فوق موقع المسجد الجامع القديم. وكان في هذا الموقع كنيسة رومانية قديمة وقت الفتح، فحولها المسلمون إلى مسجد، وفي عهد بني هود وسع المسجد، وحول إلى مسجد جامع عرف "بالجامع الأبيض". فلما دخل النصارى سرقسطة، حولوا مسجدها الجامع في الحال إلى كنيسة. وسلمها الفونسو المحارب ففتح سرقسطة. إلى

الرهبان البرناردين، ثم أنشأ بها المصلى والهيكل (سنة ١١١٨ م). ومع أن كنيسة "لاسيو"، ليست هي كنيسة سرقسطة العظمى (الكاتدرائية)، فإنها تحتل المكانة الأولى بين كنائس سرقسطة.



وتقع الكاتدرائية على مقربة من "لاسيو"، في صدر الميدان الكبير. وتسمى "كنيسة العمود" "Sta Maria del Pilar" وهي حديثة نوعاً، إذ يرجع بنائها الحالي إلى أواخر القرن السابع عشر، وهي شاسعة منيرة، ويقال إنه كان يقوم في مكانها كنيسة بهذا الاسم، حينما افتتح المسلمون سرقسطة. ويقول المستشرق كوديرا في بحث وضعه في هذا الموضوع، إن موسى بن نصير حينما دخل سرقسطة في سنة ٧١٣ م، أمر بتجريد هذه الكنيسة من أبنيتها وتحفيها^(١).

سرقسطة. الكنيسة العظمى (لاسيو)

وهذه الكاتدرائية الفخمة، تطل واجهتها الخلفية على نهر إبرو، ويقع إلى جانبها الأثر المسمى "لونجا" "La Lonja" أعني قاعة المعاملات التجارية.

وإلى جوار الكاتدرائية من الناحية اليسرى، يقوم البرج الأثري المسمى "La Zuda" (الزودا)، وهو عبارة عن برج وحيد للأجراس، بُني على الطراز المتجني، وبشبه المنارة في مجموعته، وهو يرجع إلى عصر قديم جداً.

^(١) Fr. Codera: Despojo de la Sta Capilla de Nuestra Sta del Pilar de Zaragoza por Muza en el año 713. (V. La Lectura Católica 1879).

PDF Eraser Free

والى جانب هذا البرج، توجد بقية صغيرة من أسوار عقبة، يقال إنها بقية من الأسوار الرومانية أو العربية القديمة.

وقيل لي حينما كنت في سرقسطة، إنه يوجد قبر في منزل خاص، يقع في شارع



سرقسطة الكبير، المسمى شارع كوسو "Cosso"، توجد به بقايا حمامات عربية، ولكني لم أستطع مشاهدة هذا الأثر.

وكذا رأيت في متحف سرقسطة، قسماً صغيراً للآثار الإسلامية، يحتوي على عدة عقود وزخارف ولوحات زخرفية، أخذت من قصر الجعفرية، ولكني لم أعر فيها على كتابات عربية. ويوجد بهذا القسم أيضاً مصحف صغير قديم، أو هو جزء من مصحف، وخاتم، ومفتاح حديدي ضخمة، يبدو أنه كان مفتاحاً لباب أحد الحصون أو المنازل الكبيرة، وجرة عربية كبيرة بلا زخارف ولا كتابات.

سرقسطة. عقد "العبيد"

كما أنه توجد صفحة وحيدة من الورق، كتبت عليها ستة عشر سطراً، هي عبارة عن آيات قرآنية.

ضوء على تاريخ المدجنين

بيد أنه توجد في كتراية سرقسطة، مجموعة من وثائق عربية، تلقي ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم في مملكة أراجون، منذ القرن العاشر الميلادي إلى القرن الخامس عشر، وهي عبارة عن ستة عشر وثيقة، كلها عقود بيع وشراء ووديعة وغيرها، عقدت بين أفراد من المدجنين، وبين المدجنين والنصارى، وبها وثائق محررة بتاريخ متأخرة في سنتي ١٤٨٤ و ١٤٩٦ م، ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين في مملكة أراجون، كانوا إلى هذا العصر المتأخر، وحتى بعد سقوط غرناطة في يد الإسبان، يحتفظون بدينهم الإسلامي، وأنه كانت ما تزال ثمة بعض مساجد قائمة، في بعض أنحاء ولاية سرقسطة. وقد استعرضنا محتويات بعض هذه الوثائق، في كتابنا "نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين" ^(١).

^(١) راجع الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٤٩ و ٥٠.

٢ - تطيلة

Tudela

وتقع مدينة تطيلة شمال غربي سرقسطة، على قيد سبعين كيلو مترًا منها، على الضفة اليسرى لنهر إيبرو، وفي منتصف الطريق بينها وبين بنبلونة. وهي مدينة متوسطة الحجم، تمتد فوق بسيط أخضر، ومن ورائها التلال. وهي مستطيلة الرقعة بخرقها شارع طویل ضخم تتفرع منه شوارع جانبية ضيقة، ويقع النهر إلى يمينها، وهو واسع تغطي ضفته الحدائق الغناء.

وقد سقطت تطيلة في يد النصارى، قبل سقوط سرقسطة بعام أو اثنين، في سنة ١١١٧ م (٥١١ هـ).

وليس في تطيلة آثار أندلسية ظاهرة، ولكن الأبحاث الأثرية الأخيرة أثبتت أن كبرالية تطيلة، قد أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع، وهو الذي أقامه موسى بن موسى بن قسي في القرن التاسع الميلادي، وكان يضارح في الفخامة مسجد سرقسطة، الذي كان يسمى "المسجد الأبيض"، وتبين أيضًا من الأبحاث الأثرية في مكان "المقدس" بهذا الكنيسة، أنه لما جددت الكنيسة في أواخر القرن الثاني عشر، استعملت في تجميله عقود من سقف جامع تطيلة؛ كما أنه توجد بها نافذة ذات قوسين توهمين؛ وبها من أعمدة المسجد، عمود كامل، وعدة رموس أعمدة، كبيرة وصغيرة.

* * *

وعلى مقربة من مدينة تطيلة، تقع بلدة "روطة" "Ruod"، وقد كانت أيضًا من قواعد مملكة سرقسطة الإسلامية. وهي تقع في أسفل الجبل فوق بقعة صخرية حصينة على ضفة نهر خالون أحد الفروع الإيبرو الجنوبية، وبها كنيسة حسنة، وتصلها عن تطيلة منطقة وعرة قفرة. وقد اشتهر حصن روطه بمناعبه أيام المسلمين في حروب "الثغر الأعلى"، وكان في عهد بني هود، ملاذًا وملجأً للأمراء بني هود يهرعون إليه وقت الخطر الداهم، من ثورة داخلية أو هزيمة حربية أو غيرها، وكانت روطه بعد سقوط سرقسطة، منزل عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة، ثم ولده سيف الدولة المستنصر بالله، وهو آخر سليل حكمها من بني هود، وقد تنازل عنها لألفونسو ريمونديس ملك قشتالة في سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م).

٣ - لاردة

Lérida

كانت لاردة أيام العصر الإسلامي، من قواعد ولاية "الثغر الأعلى" التي كانت عاصمتها مدينة سرقطة. ونظراً لموقع "الثغر الأعلى"، بعيداً عن الحاضرة الأندلسية (قرطبة)، فقد كان ولاته وأمرأؤه في كفاح دائم مع النصارى المحيطين به من الشمال والشرق والغرب.

ولما نهارت الخلافة الأندلسية، وقامت دول الطوائف، قامت مملكة بنى هود في سرقطة وما حولها من القواعد، مثل وشقة ولاردة وتطيلة وإفراشة وطرطوشة وطركونة. ولكن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة، لم تثبت طويلاً أمام هجمات النصارى المستمرة، فأخذت قواعدها تسقط في أيديهم تباعاً. وسقطت لاردة في يد كونت برشلونة رامون برنغار الرابع، في سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م)، وعبر إليها المسلم ابن هلال البحر، متجاً إلى أمير ميورقة.

وتقع لاردة تحري ثغر برشلونة، على قيد نحو مائة وخمسين كيلو متراً منها، وتصل بينهما منطقة تغلب عليها الوعورة، وتكثر فيها الجبال العالية. ومع ذلك فإن هذه الهضبة تغطيها الخضرة والأشجار المختلفة، وتتخللها البساتين من أن لآخر، خاصة بالزروع والكروم. وفي ظاهر لاردة، تكثر البساتين الخضراء، وشجرات الزيتون والكروم والبقول البائعة، وتظللها الجبال من ورشها في الأفق البعيد.

ولاردة مدينة كبيرة مستطيلة الرقعة، تمتد على الضفة اليمنى لنهر "سجري" أحد أفرع نهر إيجرو، ويشرف عليه شارعها الرئيسي، وهو شارع "الكونيليو" بأشجار الظليلة، ويخترقها من الوسط "الشارع الكبير" "Calle Mayor"، وهو شارعها التجاري الذي يغص بالمتاجر والمقاهي، ومنه تتفرع الشوارع الجانبية إلى الداخل، صاعدة من الجانب الآخر نحو الزبوة الصخرية، التي تقع عليها أطلال القسبة الأندلسية والكنائس القديمة.

وهذه القسبة هي كل ما تحويه لاردة من الآثار الأندلسية، وتسمى بالحصن "El Castillo". وهي عبارة عن مجموعة من الأطلال الخربة، تقوم فوق بقية أسوار قوية عالية، يبدو أنها كانت أسوار القسبة الخارجية، المتصلة بأسوار المدينة، ولا يوجد منها في السطح



لاردة، أطلال القسبة الأندلسية

الأعلى سوى عقدين كبيرين، بدت عليهما مظاهر العفاء، ويوجد إلى جانب هذه الأطلال الباقية من قسبة لاردة، ثكنة عسكرية يبدو أنها تحتل الساحة السفلى التي كانت للقسبة الأندلسية.

وتقوم فوق نفس الربوة، تجاه أطلال القسبة، أطلال الكنيسة العظمى القديمة، المقبول بأنها تقوم فوق موقع مسجد قديم، وهي قوطية بيزنطية، وقد شيدت في أوائل القرن الثالث عشر، ومما يلفت النظر أن عقودها وجدرانها، تحمل كثيراً من الزخارف المنجنية الشبيهة بالعربية، مما يدل على أن أثر الفن الإسلامي، كان ما يزال قوياً في هذه المنطقة، في القرن الثالث عشر.

وإذا صح أن كنائس لاردة القديمة، تقوم فوق أنقاض مسجد القسبة القديم، فإنه يبدو أن هذه القسبة، كانت تضم في نفس الوقت الحصن والقصر، ولها كانت مقر الأمير أو الحاكم المسلم.

ويوجد في لاردة بضعة كنائس قديمة أخرى، تقع بالأخص في المنحدر النازل من الربوة إلى داخل المدينة مثل كنيسة "La Zuda"، التي يظن أنها شيدت فوق أنقاض مسجد قديم، وكنيسة



لاردة، أحد عقود القسبة الأندلسية

"La Anuciata"، وبها زخارف منجنية، كما يوجد بها المارستان القديم، وهو بناء يرجع إلى القرن الخامس عشر.

ولم نشاهد على نهر سجري أثراً لقطرة عربية قديمة، والظاهر أن القطرة العربية قد اندثرت منذ بعيد، وتقوم مكانها اليوم على النهر قطرة حديثة جداً.

ونقدم لاردة إلى جانب أحيائها القديمة، ذات الشوارع العتيقة المزدهمة التي تتجه من الشارع الكبير نحو الربوة، طائفة من الأحياء الحديثة التي تشقها شوارع جميلة منسقة.

PDF Eraser Free

وتحيط بالمدينة بسائط فضيحة من الحقول البانعة والحدائق الغناء، وقد علمت من محادثتي مع بعض العارفين أن نظام الري الذي يسمونه ولاية لاردة كلها، مازال يقوم على نفس النظم والمنشآت التي وضعها المسلمون، وقد رأينا بعض طوائف العجر في لاردة، وكذلك رأينا العجر على مقربة من بلدة "إسبولا" "Espula" القريبة، يقيمون في حصى سور صخري في شعب الجبال، ويبلغ سكان لاردة أكثر من أربعين ألف نسمة.

٤ - طركونة

Tarragona

تقع مدينة طركونة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، جنوب شرقي برشلونة، وتبعد عنها نحو مائة كيلومتر. وتبدو المنطقة الواقعة بين برشلونة وطركونة، مما يلي شاطئ البحر، من أجمل المناطق الإسبانية. تغلب عليها الخضرة، وتكثر بها الحدائق الينعة، وكثير من نواعها يقصده الناس للاصطياف والتنزه، وتوجد التلال والأكام على جانبيها، ولكنها تبدو أيضًا في معظمها خضراء، تغطيها أشجار الزيتون، وتكثر بها حدائق الكروم الأرضية، ويبدو شاطئ البحر على مقربة من طركونة، بسيطًا أخضر تغطيه الأشجار، ومحاصيل النخلة والقطن والخروع وأشجار الزيتون.

أما المنطقة التي تقع بين لاردة وطركونة، فهي بالعكس منطقة وعرة نوعًا، تكثر فيها التلال والربي الصخرية. بيد أن البساتين تتخللها في نفس الوقت، تغطيها الكروم والزروع وغابات الزيتون. فإذا اقتربت من طركونة، بدت هذه الغابات الزيتونية في كثرة تلفت النظر، ثم تعقبها قبيل المدينة غابات النخيل الجميلة.

وطركونة مدينة كبيرة ذات شوارع طويلة فسيحة، ويشقها شارعها الأعظم المسمى "رملة القائد الأعظم" "Rambla del Generalísimo"، الذي تظله الأشجار الينعة، وهي تقع على منحدر صخري يمتد حتى البحر، وتشرف عليه إشرافًا بديعًا، ومن أسفل الربوة، تقع على خليج مستدير ذي لسان يمتد داخل البحر، ومن ورائه خليج آخر تحف به الجبال. ومن الناحية الأخرى تشرف المدينة على وادٍ أخضر، تحده بعد ذلك سلسلة من الجبال العالية.

وتبدو طركونة في ثوب مدينة أوروبية متوسطة، وتمزج كمعظم المدن الإسبانية بين القديم والحديث، وتضم إلى جانب أحيائها الحديثة، وشوارعها الفسيحة، طائفة من الأحياء الصخرية الضيقة، ذات المباني العتيقة الطراز، ومن بينها حي صغير يسكنه العجزة. ويبدو النخيل في بعض منازل المدينة على النحو الأندلسي، كما تبدو في بعض أطرافها ومنحدراتها. وقد سقطت طركونة في أيدي النصارى في وقت مبكر، وانتزعها من المسلمين برنجار الثالث كونت برشلونة، في سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٩ م).

PDF Eraser Free

وكان طرركونة أيام الرومان شأن، وكان يقصدها بعض الإمبراطورة للأصطياف بضواحيها الجميلة، وما زال هذا الطابع الروماني يغلب عليها من الناحية الأثرية، فكل ما تضمه حتى اليوم من الآثار القديمة، يرجع إلى العصر الروماني.

وفي مقدمة هذه الآثار الأسوار الرومانية، وهي أسوار ضخمة عالية يبلغ طولها نحو كيلو متر، وهي تقع على مقربة من الكنيسة العظمى، وقد شيدت من أحجار ضخمة، وليس بها أبراج، وهي تبدو رائعة المنظر.

ويغص متحف المدينة بالقطع الأثرية الرومانية، وقد ذكر لي مديره أنه لا توجد في طرركونة، أية لوحات أو نقوش عربية من أي نوع، وأن كل ما فيها من الآثار يرجع إلى العصر الروماني.

وكنيسة طرركونة العظمى (الكثرائية)، هي صرح عظيم فخم ذات واجهة رائعة، وقد بنيت على الطراز الروماني القوطي، وبنيء بإنشائها في أواخر القرن الثاني عشر، ومن المرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد طرركونة الجامع، يدل على ذلك قدمها، وموقعها في وسط المدينة القديمة. ويوجد في أحد أروقة الكنيسة الداخلية على مقربة من المدخل، الأثر الأندلسي الوحيد الذي يوجد في طرركونة، وهو عبارة عن محراب رخامي صغير يبلغ طوله نحو متر وربع وعرضه نحو ثمانين سنتيمتراً، وقد بُنيت في مكان عالٍ من جدار الديرة، وفي إفريز عقده من الجانبين ومن أعلى كتابة كوفية، هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله لعبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بعمله على يدي جعفر فتاة ومولاه سنة تسع وأربعين وثلاث مائة.

ومن المرجح أن هذه اللوحة، تتعلق بأعمال أو إصلاحات أجريت في جامع طرركونة، الذي أقيمت فوق موقعه الكنيسة، وذلك بأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر.

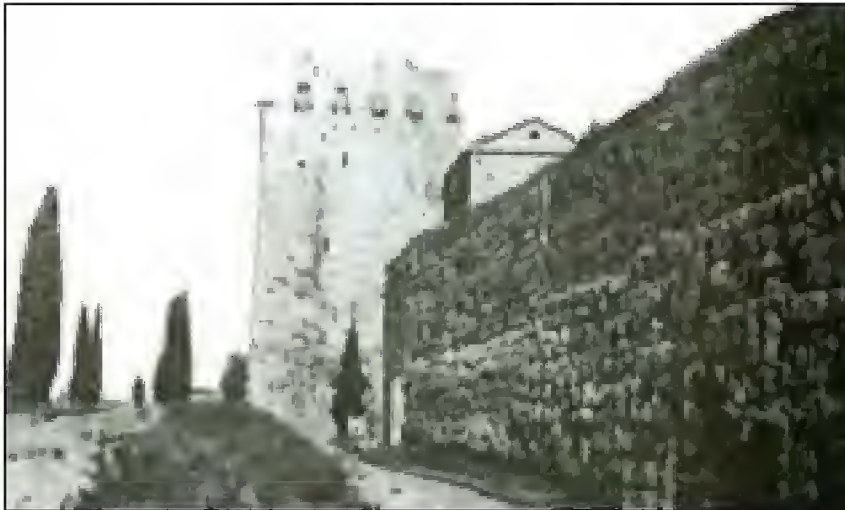
كذلك يوجد في متحف الكنيسة العظمى، إنجيل عربي لاتيني مطبوع في القرن السابع عشر.

ويبلغ سكان طرركونة أربعة وثلاثين ألفاً.

PDF Eraser Free



طركونية. واجهة الكنيسة العظمى



طركونية. الأسوار الرومانية

٥ - طرطوشة

Tortosa

تبعد مدينة طرطوشة نحو خمسين كيلو مترًا من طركونة، وتقع على نهر إيبرو (إبرة) الذي يشق ولاية أراجون كلها، على مقربة من مصبه في البحر الأبيض المتوسط.

وهي تشغل رقعة كبيرة شبه مستديرة، وتحف بها الجبال عن كثب، وتضم من السكان سبعة وأربعين ألفًا، ويشقها النهر نحو نصفين، النصف الأيمن أو الشرقي، ويشمل الأحياء الزاوية والمصالح والمتاجر الهامة، والنصف الأيسر أو الغربي، ويشمل الأحياء المتوسطة والمتواضعة، كما يشمل عددًا من المزارع النضرة، والتربة هنا وافرة الخصب، وتنمو بها الذرة والكروم والحبثاق النضرة، وتوجد حقول الأرز على النهر بكثرة، وكذا تبدو شجيرات النخيل كثيفة ساحرة.

وتبدو طرطوشة من الناحية العمرانية مدينة أوربية حديثة، لا يبدو فيها ما يذكرنا بماضيها الإسلامي، بيد أنه يلاحظ أن في أطرافها المجاورة لأطلال القلعة، توجد شوارع قديمة ضيقة صخرية صاعدة، ولا سيما من ناحية الكنيسة العظمى. ويلاحظ لنا أن المدينة الأندلسية كانت تشغل بالأخص هذه المنطقة على يمين النهر، خصوصًا متى ذكرنا أن الكنيسة العظمى تشغل مكان الجامع القديم. وقد كان يقوم عادة في وسط المدينة.

وقد سقطت طرطوشة في أيدي النصارى، قبيل سقوط لاردة بقليل في سنة ١١٤٣ هـ (١١٤٨ م). وكانت في أواخر عهدها الإسلامي مشوى للمجاهدين والمغامرين، من رواد الحملات البحرية، التي تنحدر في شواطئ الأمم النصرانية المجاورة، فدعا البابا إلى تاليف حملة صليبية لفتحها، واجتمعت قوات النصارى من الإسبان والبيزانيين والجنوئين وقرسان المعبد بقيادة الكونت رامون برنجار الرابع أمير برشلونة، واضطر المسلمون إلى تسليم المدينة صلحًا في آخر سنة ١١٤٨ م، مشترطين الاحتفاظ بمساجدهم وأماكنهم. ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم، أكثر من ثلاثين أو أربعين عامًا، ثم اضطروا إلى تسليمها لحكامهم الجدد.

وليست في طرطوشة آثار أندلسية ذات شأن، ولكن أطلال قلعتها التي تسمى "La Zuda" (السودا) تمت بلا ريب بصلة إلى العهد الإسلامي، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الأطلال من أسوار وبقياء أبراج، تشغل مساحة كبيرة، فوق ربوة عالية، تقع في وسط

PDF Eraser Free

المدينة، وتشرف من الخلف على النهر. ويرجع الأثريون أصل هذه القنعة إلى العصر الروماني. ولكن المرجح أنها جددت واستعملت خلال العصر الإسلامي، وكانت تؤدي وظيفة القنصة الأندلسية من الناحية الدفاعية، وموقعها يعاين في تقصى خطط المدينة الأندلسية.

وتقع الكنيسة العظمى (الكثولائية) في وسط المدينة، على مقربة من القلعة، وهي



كنيسة قديمة تمتاز بواجهتها وزخارفها الداخلية، ويتقدمها دير يلفت النظر بصحنه، المبني على الطراز القوطي العربي. والمعروف من تاريخ هذه الكنيسة، التي ترجع إلى القرن الثالث عشر، أنها أنشئت فوق موقع جامع طرطوشة، الذي بُني في أوائل القرن العاشر الميلادي، ولم يبقَ كثيرًا من أنقاض الجامع استعملت في بنائها.

ومما يلفت النظر في شأن هذه الكنيسة، أنه قد بُنيت في جدارها الخلفي من الخارج، لوحة حجرية إسلامية مربعة تقريبًا، ضلعها نحو خمسين سنتيمترًا، وقد نقش عليها عشرة أسطور من الكتابة العربية التي محبت نوعًا وهذا نصها:

طرطوشة، واجهة الكنيسة العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بإنشاء هذه الدار عدة للصناعة والمراكبة، عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أيده الله فتم بناؤها على يد قائد وعبد عبد الرحمن بن محمد، بعون الله ونصره، في سنة ثلث وثلاثين وثلاث مائة وكتب عبد الله بن كليب...".

وقد رأيت من هذه اللوحة صورة من الجص في متحف طرطوشة، وأخرى مماثلة في متحف طرطوشة، وعلمت من مدير متحف طرطوشة الدكتور بايزي، أنه لا توجد في طرطوشة، أية لوحات أو نقوش عربية أخرى، أو وثائق عربية من أي نوع.

* * *

PDF Eraser Free

وقد اشتهرت طرطوشة في عهدها الإسلامي بنشاطها العلمي والثقافي، وإليها ينسب أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب "سراج الملوك" المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م). وهو من كتب السلسلة الملكية المشهورة.

وهي مازالت تحتفظ اليوم بسمعتها الثقافية القديمة، وفيها يقوم مرصد طرطوشة الشهير.

ويقع هذا المرصد على الضفة الأخرى من النهر، في طرف المدينة الغربي، على ربوة عالية بجوار النهر، ويشرف عليه الآباء اليسوعيون. وبه قسم للطبيعة وآخر للكيمياء، وثالث للأرصاد الجوية، وقد جهز كل قسم منها بأحدث الآلات العلمية الدقيقة، وأنشئت به مكتبة علمية عظيمة.

وقد استقبلني فيه الأب الشاب أوريول كرويس، وطاف بي مختلف أقسامه، وأطلعني على عمل الآلات المختلفة.

ويتبع هذا المرصد من الناحية الإدارية "المجلس الأعلى للعلوم" في مدريد، ويعد الطلاب لنيل الدكتوراه في العلوم. ولكن ليس به طلاب منتظمون، وإنما يعمل فيه الآباء والعلماء فقط. وهو على صلة بسائر مراصد العالم، ومنها مرصدنا المصري بحلوان، وبه أحدث الأجهزة لرصد الزلازل وحركات الشمس، وكثافة الأمطار، والحرارة، والأرصاد الجوية، وغيرها.

ولما غنيت بذكر هذه الكلمة عن مرصد طرطوشة، للتدليل على نواحي النشاط العلمي والثقافي الممتاز، الذي يقوم به الآباء في مختلف الميادين.

PDF Eraser Free



طرطوشة، اطلال القسبة الأندلسية



طرطوشة، فناء الدير المجاور للكثرتانية ذو العقود العربية

٦ - ميورقة

Mallorca

حرصت على أن أجبر البحر إلى جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية (جزائر البليار)، وأن أقضي فيها أياماً، أنقضى آثار العصر الإسلامي في تلك الجزيرة الكبيرة الساحرة.

وكان عبوري إلى ميورقة بطريق الجو، وقد أتاحت لنا الطائرة، وهي تجوب الجزيرة على ارتفاع منخفض نوعاً، أن نشهد سطح الجزيرة عن قرب، وأن نتعرف مجمل خواصها الطبيعية.

إن جزيرة ميورقة تغلب على سطحها الصفة الصخرية، وخصوصاً من أطرافها؛ فهذه الأطراف هي هضاب تغلب فيها الجبال والربى، وفي المناطق الوسطى توجد وديان مشيطة ومنحدرات خضراء، ويحتوي محيط الجزيرة على خلجان عديدة، منها ما يصلح مرافئ بدوية لإيواء السفن. وتغطي الأشجار الباسقة وغطات الزيتون، معظم البساط والمنحدرات بالجزيرة، يحوطها على مدار الشاطئ سياج صخري أصفر، وجبال ذات أكام متوسطة الارتفاع.

وإلى جانب جزيرة ميورقة، توجد جزيرة "Menorca"، وهي تقع في شمالها الشرقي، وباسية "Ibiza" وتقع في جنوبها الغربي، وعدة أخرى من الجزائر الصغيرة.

ويبلغ سكان الجزائر الشرقية كلها نحو ثلاثمائة وثمانين ألف نسمة، وهذه الجزائر بالرغم من غلبة الهضاب على طبيعتها، غنية بالزجاج الخصبة، وفيما خلا مدينة ميورقة، فإن معظم سكانها يحترفون الزراعة، ويجود بها القمح والكتان والفواكه، ولا سيما التين والبرتقال، ومن أعظم صادراتها زيت الزيتون، حيث تغطي غابات الزيتون مساحات واسعة منها.

وعاصمة الجزائر كلها هي مدينة ميورقة، أو مدينة بالمادي ميورقة كما تسمى بالإسبانية، وهي تقع في غرب ميورقة، على خليج يتخذ صورة القوس، وفي منتصفه لسان يحمي الميناء، وفي جانبه الأيمن تمتد المدينة في لسان طبيعي، وفي شمال القوس، وفي طرفه تنساب أحياء المدينة الكبيرة. وتبدو الجبال عن بعد تظال البساط الخضراء، التي تلي المدينة من الشرق والشمال، ويحيط هذا السور الجبلي بموقع المدينة من طرفي القوس.

ومدينة ميورقة مدينة ضخمة، يبلغ سكانها مائة وخمسين ألفاً، معظمهم من القطلان، ويؤلف القطلان أغلبية بين سكان الجزائر الشرقية، وهم أيضاً أغلبية في مدينة برشلونة

PDF Eraser Free

العظيمة وأحوازها، ويلاحظ أن القطان جنس أرقى مدنية وثقافة. وأكثر حيوية وإنتاجاً من الإسبان، ولهم لغة وآداب خاصة، والمدينة قسمان. فأما قسمها الذي يشغل طرفي القوس فيقع في بقاع مستوية. وتشقه شوارع وميادين ضخمة، ويبنو عليه طابع الجدة والحداثة.



ميورقة. منظر عام للمدينة والميناء

وأما قسمها الآخر، وهو الذي يشغل الوسط، ويمتد من البحر شمالاً، فيقع معظمه فوق مرتفع من الأرض يمتد صاعداً حتى يستوي في نهاية المدينة، وتخترقه شوارع عديدة ضيقة، يبدو عليها طابع العصور الوسطى، ولا غرو ففي هذا القسم توجد معظم معالم ميورقة الأثرية، وتوجد به أيضاً معظم الأحياء التجارية، وتتمركز معظم حركة الأعمال.

وكانت الجزائر الشرقية قبل العصر المسيحي، في يد المستعمرين القرطاجيين، ثم الرومان، وعرفها العرب في عصر مبكر قبل افتتاح الأندلس، وغزاها عبد الله بن موسى بن نصير سنة ٧٠٨ م. بيد أن المسلمين لم يسيطروا سيادتهم على تلك الجزائر قبل منتصف القرن التاسع الميلادي، حينما بعث عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس، حملة بحرية إلى ميورقة في سنة ٨٤٧ م أخضعها، وفرضت عليها الجزية. وفي سنة ٩٠٣ م كان الفتح الحقيقي للجزائر على يد زعيم مجاهد يدعى عضام الخولاني، فلا في عصر الأمير عبد الله، حملة من المجاهدين، وافتتح ميورقة، واستعمرها المسلمون وحكموها من ذلك الحين على يد الولاة المتعاقبين. وفي سنة ١٠٦٤ م افتتحها مجاهد العامري أمير دانية، وضمها إلى مملكته المستقلة، واستمر في حكمها حتى وفاته في سنة ١٠٤٤ م. وسميت مدينة ميورقة في عصره مدينة مجاهد، وحكمها ولده على من بعده حيناً، ولما سقطت مملكة دانية في يد بني هود أمراء سرقسطة في سنة ١٠٧٦ م، استردت الجزائر استقلالها في ظل ولايتها من المسلمين، واستمرت إمارة مستقلة، تصارع حملات النصارى المتعاقبة عليها من الجنوبيين والبنزيين

PDF Eraser Free

والقطان، حتى سقطت نهائياً في أيدي النصارى بقيادة ملكهم خابيمي الأول ملك أراجون والملقب بالفاتح، وذلك في سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ).

وكانت الجزائر الشرقية ليم المسلمين، ولا سيما كبراهها ميورقة عاصمة بالمسكان، عاصمة زاهرة تتمتع بوسط كبير من الرخاء والتمدن، وكانت لها علاتق تجارية عظيمة مع شعور المغرب.

* * *

وانعد الآن إلى مدينة ميورقة عاصمة الجزائر، ومستودع الآثار والذكريات الأندلسية، فنقول إنها مازالت تحتفظ بكثير من معالم العصر الإسلامي وآثاره، وإن كانت هذه المعالم والآثار، تكاد تختفي اليوم تحت أبواب التجدد أو أثر الإهمل والعفاء.

ومازالت ثمة بعض المعالم الأثرية، تحدد لنا مواقع المدينة الأندلسية، وقد كان هذا الموقع يمتد من البحر شرقي الميناء شمالاً حتى نهاية المدينة الحالية، وشرقاً حتى ميدان الفتح "Plaza de la Conquista"، وميدان إسبانيا "Pl. de Espana" وشارع پريمودي رئيساء، وغرباً حتى شارع الجمهورية الفضية، وتشغل هذه الرقعة بالضبط وسط مدينة ميورقة الحالية، وهو الجزء الواقع فوق الرقعة المرتفعة، التي تطل من جنوبها على البحر، عند الكنيسة العظمى وبقيّة الأسوار الأندلسية.

وقد كان للمدينة الأندلسية في العصور الوسطى، ستة أبواب ورنّت أسماؤها جميعاً، في وثيقة تقسيم ميورقة العربية اللاتينية التي نتحدث عنها فيما بعد، وهي "باب البلد" في الشرق، و"باب الكحل" و"باب البلياط" و"باب السراجب" في الشمال، و"باب برتئين" في الغرب، و"باب الجديد" في الجنوب الغربي مما يلي البحر، وكان يخرق المدينة الأندلسية من وسطها الشارع الكبير، وهو الذي يحتل مكانه اليوم "شارع الفتح"، ثم "الميدان الكبير" "P. Mayor"، ثم شارع سان ميجيل حتى "باب البلياط" في الشمال.

المعالم الأثرية

ونقوم كنيسة ميورقة العظمى فوق موقع المسجد الجامع، على مقربة من البحر، تجاه "القصر" الذي نتحدث عنه بعد، وتسمى الكاتدرائية "La Seo"، وقد لعبت عقب افتتاح النصارى لميورقة، في أواسط القرن الثالث عشر، والمعروف أن مصلاها العسمى "بالعصلى الملكي" "Capital Real"، وهو أقدم أجزاءها، يقوم فوق جزء المسجد الذي كان به المحراب، وهي كنيسة عظيمة مبنية على الطراز القوطي، وقد استغرق إنشاؤها بضعة قرون، ويسمى بابها الذي يطل على ناحية البحر "باب المنظرة" "Puerta del Mirador"، وهو عقد قوطي شائع.

PDF Eraser Free

وتوجد في ميورقة خلف الكنيسة العظمى، عدة كنائس أثرية أخرى في مقدمتها كنيسة القديس ميغيل "San Miguel"، الواقعة في الشارع المسمى بهذا الاسم، على مقربة من "الميدان الكبير". والمعروف من تاريخها أنها كانت مسجداً، وحُولَ إلى كنيسة عند دخول النصارى الفاتحين المدينة.

كما يوجد دير سان فرنيسكو، وقد أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر، وله صحن ذو عقود على الطراز الأندلسي.

قصر المُدِينَة: "Almudaina" وهو صرح قديم ضخم، يقوم قبالة الكنيسة العظمى من ناحية الغرب، وهو اليوم مقر القيادة العسكرية ودار المحفوظات العامة، وتُدلى واجهته العتيقة، وبلاؤه الوعر الحصين، بأنه كان حصناً وقصراً.

والمعروف من تاريخه أنه كان قصراً للولادة والأمراء المسلمين، شيد فوق أنقاض صرح روماني قديم، واستمر مقراً لهم حتى سقطت ميورقة في يد النصارى، وعُدَّتْ هذا صرح "المُدِينَة" مقاماً للملوك النصارى، ومثل بلاؤه ومُجَرَّ مرآه حتى صار إلى وضعه الحاضر.

وفي داخل قصر المُدِينَة فناء كبير مربع، ذو عقود عريضة من الناحيتين، وفي وسطه



ميورقة، واجهة قصر المدينة

النخيل على الطراز الأندلسي، ولم يبق في هذا الصرح العتيق من عهده الأندلسي سوى القليل، من ذلك في فناءه الداخلي الذي يسمى "فناء الملكة" نافذتان لهما عقود عريضة، وحوض نافورة عربي الطراز، وهيكل عقد عربي يقوم في أعلى الجدار في أحد معرته، وتوجد أيضاً عدة قطع زخرفية من أعمدته القديمة ملقاة في الحديقة المجاورة.

ويقوم القصر على نفس الرتبة المرتفعة التي تقوم عليها الكاتدرائية، ويحيط به من الناحية اليمنى سور حصين مبني بالحجارة الضخمة، منحدر إلى أسفل، وفي نهايته برج قد يرجع إلى العصر الأندلسي.

وعلى ذكر الأسوار نقول إنه لم يبق من أسوار المدينة الإسلامية، سوى الجزء الذي يقع جنوب الكاتدرائية على البحر، ويحمي ساحاتها المطلة عليه والمسماة "بالمنظرة"، وبقيّة أخرى في الناحية الشرقية، في الشارع المسمى "باب البحر" على مقربة من موقع "باب البحر" القديم. وفي هذه الجهة توجد أيضاً قلعة عربية صغيرة، تقع في ميدان المعبد "P. de Temple" القريب، كان يحتلها فرسان المعبد "عقب الفتح النصراني".

PDF Eraser Free



ميورقة. الكنيسة العظمى وقصر المدينة،
ولقد ظهرت بقية الأسوار العربية مشرفة على البحر



ميورقة. فناء الملكة داخل قصر المدينة

PDF Eraser Free

عقد المدينة: ولم يبق من عقود الأبواب الأندلسية القديمة سوى عقد باب المدينة وهو يقع في وسط شارع المدينة "C. Almudaina". ويعتبر هذا الشارع الصخري العتيق من أقدم شوارع ميورقة، وهو بقية ظاهرة من المدينة الأندلسية حيث يبدو طراز الأندلسي، في شكله وفي منازل من الجانبين، وفي أبوابها ذات العقود العربية.



ولما عقد المدينة فهو عقد حجري، يبلغ سمكه من الداخل مترين، وارتفاعه نحو ثمانية أمتار، واتساعه أربعة، وهو اتساع الشارع، وتعلوه غرفة حجرية ذات كوة صغيرة، وفي هذا الشارع تقع عدة منازل قديمة، ترجع إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وبها أفنية وشرفات ونوافذ يغلب عليها الطابع الأندلسي، ويوجد في هذا الشارع أيضًا متحف صغير، هو متحف الجمعية الأثرية المسماة "كوليتا"، وقد شاهدنا فيه رأس محراب عربي له عمودان رفيعان من الرخام، وبضعة شواهد أو قطع من شواهد قبور إسلامية، على بعضها نقوش كوفية باسم المتوفى أو عام وفاته.

ميورقة . عقد باب المدينة

ويفضي شارع المدينة إلى شبكة من الدروب العتيقة الضيقة، مثل شارع موري "Morey". وشارع سرا "Serra"، وشارع "النقاء"، "Pureza"، وهي كلها من طراز شارع المدينة، وكلها تدلّ بأنها كانت من أحياء المدينة الأندلسية القديمة.

PDF Eraser Free



ميورقة، فناء دير سان فرانسيسكو ذو العقود العربية



ميورقة، حصن بلفير (المنظر الجميل)

PDF Eraser Free

الحمامات العربية: وفي إحدى هذه الشوارع وهو شارع سراء تقع الحمامات العربية، وهي بقية خربة مشوهة من حمامات أندلسية، يبدو عليها أثر الاحتراق، وهي عبارة عن مربع في كل ضلع من أضلاعه، ثلاثة عقود، ويحتوي جميعًا على اثني عشر عقدًا رفيعة، وتعلوه قبة صغيرة قد جردت من نقوشها، ولم نر بها أية نقوش أو كتابات؛ لأن النار قد أتت على قشرتها الخارجية. وفي وسط الفناء فجوة كبيرة قديمة.

وتقع هذه الحمامات داخل حديقة منزل خاص، هو منزل السيد بيدرو موريل "Don Pedro Morel"، والمقرن بها ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي أو الخامس الهجري. في المتحف الأسقي، ويحفظ المتحف الأسقي "Museo Diocesano"، بلوحة حجرية من العصر الإسلامي حجمها نحو ٥٠ × ٣٠ سنتيمترًا، وهي عبارة عن شاهد قبر لمن يدعى سليمان بن منصور، وعليه كتابة كوفية ساذجة جدًا، وقد كانت تسمى بهذا نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الناس إن وعد الله حق، هذا قبر سليمان بن منصور رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه، إنه توفي اليوم الأحد لست وعشرين يومًا خلون من ذي القعدة من سنة سبع وخمسين وثلاث مائة".

وتوجد في الطابق الأعلى لهذا المتحف قطعتان كبيرتان من الخشب، طول كل منهما نحو خمسة أمتار وعرضها متر، وقد زينتا بنقوش مدجنية، على شكل نجوم مضلعة، بارزة في إحدهما، ومحفورة في الأخرى.

كما توجد قطعة خشبية أخرى ذات زخارف مدجنية، وأطباق خزفية جميلة مذهبة من عصر المرينيين، وأباريق خزفية أندلسية.

وعلمت أنه توجد ببلدة ماناكور لوحة حجرية أخرى، قد نقش عليها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

الأثر المسمى باللونجا "Lonja": وهو عبارة عن قاعة قوطية كبيرة، على شكل صحن الكنيسة، تقع في شارع "ساجريرا" "Paseo Sagrera" الضخم الممتد على طول البحر، والذي يتوسطه صفان من النخيل المثمر، وهو يرى بكثرة في شوارع ميورقة ومياديناها.

وقد كانت اللونجا في العصور الوسطى، كمثيلاتها في كثير من المدن الإسبانية، تستعمل لتعامل البيع والشراء، وهي اليوم تستعمل متحفًا للصور. وقد رأينا من بينها صورة بريشة سوريانو موريللو، يصور فيها أبا عبد الله آخر ملوك الأندلس وهو سائر في ركبته مع أمه وزوجته وابنته، على مقربة من غرناطة، في الموضع الذي يسمى إلى اليوم "زفرة العربي".

الأخيرة، وهو يبكي وأمه تنحى عليه باللائمة "لأنه يبكي كالنساء ملكاً لم يستطع أن يدافع عنه كالرجال".

ويوجد في ضاحية ميورقة، الحصن المسمى حصن "المنظر الجميل" "Belver" وهو يقع على ربوة تطل على المدينة، وله فناء ذو عقود، ويتكون من طابقين بيضاويين ويطالان على الفناء، وله برج عال. وهو من إنشاء الملوك النصارى، أنشأه الملك خايمي الأول في بداية القرن الرابع عشر.

وثيقة عربية

بتقسيم أراضي ميورقة

وتحتفظ دار المحفوظات البلدية بمدينة ميورقة، بوثيقة عربية وحيدة ترجع إلى عصر الفتح النصارى، وهي عبارة عن عقد أو اتفاق لتقسيم الأراضي بمدينة ميورقة بين زعماء النصارى الفاتحين، يتكون من تسع ورقتين مستطيلة (حجمها نحو ٣٠ × ١٥ سنتي)، وأمام كل صفحة مقابلها باللغة اللاتينية واللغة القطلونية، ويكون المجموع كراسة كبيرة مستطيلة. وتعرف هذه الوثيقة في تاريخ ميورقة، بكتاب أو عقد تقسيم ميورقة "Repartimiento de Mallorca".

وتعني الوثيقة أولاً ببيان الأقسام المختلفة وأصحابها على النحو الآتي:

- ١ - القسم الخاص بالأقطاع وشركائهم فيه.
 - ٢ - ويقسم هذا القسم إلى أربعة أقسام يعطى كل قسم منها إلى اثنين:
 - أ - ققط ثلثوا جزين.
 - ب - بثب برشلونة وشركاؤه.
 - ج - الققط لأبرياش.
 - د - جليام ماجورة وشركاؤه.
- ثم تعود الوثيقة فتبين هذه الأجزاء تباعاً بالتفصيل (ورقة ١ و ٢).

وتحدث الوثيقة بعد ذلك عن تقسيم "جميع الأراضي التي بخارج المدينة" إلى قسمين: الأول "وهو النصف الواحد الذي صار إلى الري ربحون وشركائه".

ثم تسمى الأعيان الداخلة في هذا القسم، وتقسّمه بعد ذلك إلى أربعة أقسام، وتعدد الأعيان والمزارع الداخلة في ذلك.

ثم تقول "وقسم رابع منها وهو الربع الواحد الذي صار لجليام ماجورة".

PDF Eraser Free

ثم "القسم الرابع الواحد الذي صار إلى القمط أنبريش".

تقول "ويقسم جميع ما بمدينة ميورقة، على ثمانية أقسام تحت صورها" "قسم وهو النصف الواحد... وهو الذي صار إلى الري رشون وشركائه. من صعد المليون إلى مسجد عبد الملك إلى جنة المصامدة...".

وقسم "وهو النصف الواحد أيضًا، ويحوزه من صور المدينة من برج الحمام على الطريق من باب المدى إلى المسمى، وحفير الصور إلى برج الحمام، بمقرية مخزن الضياع، إلى الوادي إلى باب البلياط بطول الصور إلى باب المدى.

"وقسم ثاني منها وهو الربع الواحد الذي صار للبشب برجلونة وشركائه فيه، ويحوزه من مسجد الزنقة إلى دار الحاج داود إلى قنطرة باب الغدر إلى الصور إلى باب الجديد".

"وقسم ثالث منها وهو الربع الواحد، وصار لجليام ماجورة منقادة وفرسانة شنجيشه وأصحابهم، ويحوز من حائط رياض أبو يحيى الملاصق باب البلياط بطول شارع الكدية إلى مسجد بريقة، إلى دار الحاج داود إلى باب الغدر من ناحية الجوف".

ويرد خلال تحديد البقاع والأماكن المقسمة، كثير من أسماء الخطط والأعيان والضياح الميورقية في العهد الإسلامي، مثل رحي الشجر، رحي النب، رحي السفاح، رحي اللوزة، رحي ابن مدرك، جنان الصباغ، جنان الطرطوشي، رحل الصفار، رحل ابن الأصفر، رحل ابن قطيعة، رحل بشير، رحل الفخار... إلخ.

ومن أسماء الأبواب: باب الكحل، باب البلد، باب البلياط، باب المدى.

وجاء في صفحة ١٢ من الوثيقة في الثالث الأول منها ما يأتي:

لما وقع الاتفاق على أن تقسم جميع أراضي جزيرة ميورقة بخارج باب البلد على نصفين سويين، وينقسم كل نصف على أربعة أقسام، وقع الاتفاق على أن يبقى من خوز الأحواز للمدينة من الوادي إلياس إلى رحل المعبرة بقطين إلى الرابطة بمربين إلى حد رحل القرارة...".

وتحدد الوثيقة بعد ذلك الأقسام "التي صارت للقمط نسوا، والتي صارت للبشب برجلونة وأصحابه، والقمط أنبريش وشركائه، ولجليام ماجورة منقاده وشركائه".



مبورة. الصفحة الأولى من مخطوط وثيقة التقسيم العربية المحفوظة

بدار محفوظات مبورة

PDF Eraser Free

وليس لهذه الوثيقة تاريخ. ولكن يستفاد من موضوعها أنها ترجع إلى ما بعد فتح
النصارى لميورقة بقليل، وقد وقع هذا الفتح بين سنتي ١٢٢٩ و ١٢٣٢ م.

ولمنا نعرف من جهة أخرى سبباً لكتابة هذه الوثيقة بالعربية، وهي تختص بتقسيم
الأماكن المفتوحة بين النصارى، مقابل نصها اللاتيني والقطائني، إلا أن يكون ذلك لتعيين
الأعيان والحدود بأسمائها العربية الصحيحة، التي لم تكن قد حُيرت أو حُرِفت بعد، ولتعريف
الأثنية الممنوحة بدقة تلقى الاضطراب والنس.

وعلى أية حال فإن محتويات النص العربي لهذه الوثيقة، تلقي أعظم ضوء على خطط
مدينة ميورقة الإسلامية، وعلى حدودها ومعالمها.

وما زالت توجد إلى اليوم بجزيرة ميورقة، عدة بلاد وقرى تحتفظ بأسمائها الإسلامية،
مثل بني سالم أو بني عبد السلام "Benisalem" والكنية "Alcudia"، وبني علي أو بني
العلي Beniali وغيره؛ كما أنه توجد أسماء ميورقية ترجع إلى أصول عربية واضحة، مثل
Bennasar وهو ابن نصر، و Beniatzar ولعله بني الزار أو بني الزرع، وغير ذلك.

ومما يجدر ذكره أنه يوجد بين سكان ميورقة بعض الفجرة، وهم يعيشون في بعض
الشوارع القريبة من الكندرية والقريبة من "اللونا". وقد علمت أنه توجد منهم أقليات تعيش
في أنحاء الجزيرة، ولكني لم أقف على حقيقة عددهم.

مدينة سوليير

وقد زرنا مدينة سوليير Soller، وهي مدينة صغيرة تقع شمالي ميورقة على مقربة
من البحر، وتبعد عنها نحو ساعة بالقطار. وهذه المنطقة التي تفصل بين البلدين، تختلف بين
البساتن والتلال، وتتمو بها غابات الزيتون بكثرة. وتقع سوليير نفسها في منطقة جبلية في واد
عميق تحيط به الجبال، وهي مدينة حديثة أنيقة المظهر، ولكن تخترقها من الجانبين شوارع
ضيقة، وتبدو بها أشجار النخيل والكروم، وليس بها من الآثار ما يزار، ولم نلمح فيها ما
يذكرنا بالطابع الأندلسي سوى دروبها الضيقة الملتوية. والظاهر أن هذه البساتن الخضراء
الجميلة الواقعة بين ميورقة وسوليير، وهي التي تكون المثلث الشمالي الغربي من الجزيرة،
كانت مهبطاً طبيعياً للمستعمرين المسلمين.

٧ - قسطلونة

Castellon

تقع مدينة قسطلونة، في منتصف المسافة بين طرطوشة وبلنسية، وهي إلى بلنسية أقرب، وهذه الرقعة الساحلية التي تمتد بين طرطوشة وقسطلونة، تختلف في البداية من الخضرة اليانعة ومناطق الكروم وشجرات الزيتون، إلى منطقة، تتخللها التلال، ويغلب عليها انقعر، ثم تضيق الرقعة قبيل قسطلونة فيما بين البحر والجبال، وتغلب عليها الخضرة.

وقسطلونة من مدن الأندلس الشرقية، التي يرتبط تاريخها معظم الوقت بتاريخ بلنسية، وهي اليوم تبدو في ثوب مدينة لوربية حديثة، وتشغل السهل بعد أن كانت أيام المسلمين تشغل الربوة التي تقع شمل مكائنها الحالي، ومن ثم كان اسمها الحديث وهو "قسطلونة السهل" Castellon de la Plana.

وهي مدينة متوسطة الحجم، مثانة الرقعة، تقع على مقربة من مصب نهر مخارس Mijares، وتخترقها شوارع طويلة منسقة ومباني فيسحة، ويترى النخيل في شوارعها وميادينها، ويبلغ سكانها خمسة وثلاثون ألفاً.

ولا توجد في قسطلونة أية معالم أثرية أندلسية أو غيرها، وحتى كنيسها القديمة الرئيسية أحرقت أيام الحرب الأهلية؛ وكل ما هنالك أنه توجد بقايا القطعة العربية فوق نهر مخارس، على بضعة كيلومترات من المدينة، وهي قطعة صخرية تحمل إليها الماء من مصب النهر، وقد أكد لي السنيور كادينا أمين المتحف والمكتبة البلدية، أنه لا توجد في قسطلونة أو أحوارها أية أطلال أو نقوش أندلسية أو موريسكية، وأن المنطقة كلها فقيرة جداً في هذه الناحية. أما المتحف فإنه يضم بقايا آنية خزفية، وبضعة أطباق وأوان أندلسية مصححة، عثر عليها في حفائر قسطلونة، ومنها ما يرجع إلى عصر الخلافة، ويرجع بالقياس إلى عصور متأخرة، ولا سيما العصر الموريسكي، وقد أطلعنا السنيور كادينا على هذه البقايا الخزفية، فوجدناها خالية من كل كتابة عربية، وليست لها أهمية أثرية تذكر.

وقد سقطت قسطلونة في يد النصارى في أوائل القرن الثالث عشر قبل سقوط بلنسية بقليل.

* * *

وعلى مقربة من قسطلونة، في طريق بلنسية، تقع بـريانة Burriana، وهي بلدة أندلسية عربية، وهي اليوم بلدة صغيرة حديثة المظهر والمخطط، وليس بها آثار تذكر. ويترى بها النخيل، وتمتد من بعدها في الطريق إلى بلنسية، حدائق البرتقال اليانعة إلى مسافات بعيدة.

٨ - شاطبة

Jativa

كانت شاطبة من القواعد الأندلسية العريقة، وكانت أيام المسلمين مدينة عامرة زاهرة، وقد بكاهها أبو الطيب الرندي في مراثيه الشهيرة:

فأسأل بنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

أما اليوم فإن شاطبة بلدة صغيرة متواضعة، يغلب عليها طابع القصب، ولا يتجاوز سكانها خمسة عشر ألفاً.

وتقع شاطبة على قيد نحو خمسين كيلو متراً جنوب غربي بنسية، على مقربة من البحر الأبيض المتوسط، ويمتد فيما بين البلدين بسط جميل خصب يغص بالحقول البانعة، وتعم فيه محاصيل الذرة والأرز والبقول، وغابات الزيتون وحدائق البرتقال. وتحد الجبال هذا البسيط الأخضر من الجانبين، ولكن على بعد شامع، وهذه البقعة المنصورة هي من أخصب ما شهت من البساتن الإسبانية.

وقد لفت نظري أسماء عدة من البلاد، التي تقع في طريق شاطبة وعلى مقربة منها، وهي أسماء عربية واضحة مثل "الجزيرة" Aleira، و"الخيمسي" Algemisi، و"بني فايز" Benifays، و"بني مسلم" Benimuslem، و"البريق" Alberijue وغيرها.

وعلى مقربة من شاطبة تبدو لشجار النخيل في سائر القرى، عالية مبشرة هنا وهناك، وتبدو في ظاهرها حقول الأرز بكثرة تلفت النظر، كما تبدو حدائق البرتقال الجميلة، وتمتد هذه المنطقة حتى مشارف المدينة. بيد أنه تتوسطها بقعة مجذبة، تتخللها الجبال والمستنقعات. ويقع هذا البسيط الأخضر على ضفة نهر "البضياء" Albaida، الذي يجري على مقربة من المدينة، وهو أحد أفراغ نهر شقر.

وشاطبة من أقدم المدن الإسبانية، ويرجعها التاريخ إلى عصر الفينيقيين، وقد كانت في العهد الروماني مدينة عامرة مزدهرة. واحتفظت بأهميتها وزخايرها أيام القوط. وزادت في ظل العهد الإسلامي أهمية وازدهاراً، واشتهرت بمزارعها وحدائقها البانعة، ولبت من أهم قواعد الأندلس الشرقية، تلي بنسية ومرسية في الأهمية حتى افتتحها النصارى، بعد أن حاصروها مراراً متوالية، على يد ملكهم خليمي الأول في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م).

PDF Eraser Free

وتبدو شاطبة اليوم في ثوب مدينة أثرية، لما تحتويه من أديرة وقصور قديمة. وهي تقع في حمى الربوة العالية. وهي متوسطة الحجم مستطيلة الرقعة يخترقها شارع عريض ضليل، ومعظم شوارعها قصيرة تظللها أشجار التوت العتيقة، وبها عدة ميادين أثرية يزدهن بعضها بالنوافير والتماثيل، وشوارعها الصاعدة المتجهة إلى الربوة ضيقة ملتوية تنم عن أصلها القديم، ومنازلها منخفضة لا تزيد عن طابقين أو ثلاثة، وهي تتخذ على العموم طابعاً خاصاً يغلب عليه القدم واللون الأثري. وهي من ناحية طابعها الخاص وطرزها الأثري المخضرم، تبدو على شاكله قريبتها مرسية.

الحصن والأسوار

وأهم معالم شاطبة الأثرية، هو الحصن الكبير الذي يشغل منطقة شاسعة، فوق حافة الربوة الصخرية الوعرة، التي تشرف على المدينة من ناحية الغرب، والتي تعرف بجبل برنيسا Bernisa. وهي عالية جداً ترتفع عن البسيط الذي تقع عليه المدينة، زهاء ألف وثمانمائة متر، ويصعد إليها بواسطة طريق معد تخترقه السيارة. وقد صنعت إليها برفقة الأستاذ العلامة الدكتور كارلوس سارتاوي كاريزس عضو أكاديمية التاريخ، وهو أمين متحف شاطبة ومؤرخها، وقد كتب عن حصنها مؤلفاً تاريخياً واثرياً قيماً.

ومن التجاوز أن يقال الحصن، إذ يوجد في الواقع حصنان، ومجموعة كبيرة مختلفة من الأطلال والأسوار. ويعرف أحد الحصنين بالحصن القديم Castillo Viejo، والآخر بالحصن الجديد Castillo Nuevo. وتحيط بهذه المجموعة الأثرية أسوار واحدة. ويقع الحصن القديم، وهو أصغر الحصنين في الطرف الأيسر للربوة، فوق أكمة منعزلة يصعب الوصول إليها، وهو يرجع فيما يبدو إلى العصر الروماني أو إلى عصر القوط. وتقع أطلال الحصن الكبير في الناحية اليمنى، وهي تحتوي على مجموعة متنوعة من الأبراج والساحات والمسالام. وفي هذه المجموعة، نلمح بعض مظاهر العمارة العربية. والمرجح من الناحية التاريخية في شأن الحصن أو الحصنين، أنهما يرجعان إلى العصر القديم، وأنه قد توالى عليهما خلال مختلف العصور المتعاقبة، من الرومان والقوط والعرب ثم الإسبان، إضافات وتغييرات كثيرة. بيد أنه يغلب عليهما الطابع القوطي الأندلسي. وموقع الحصن الكبير على الربوة العالية المشرفة على المدينة، شبيه بموقع القصبات الأندلسية التي سوف يأتي ذكرها، في مالقة والمرية وغيرهما، من عورة الموقع ومنعته، وتحكمه في المدينة من الناحية الدفاعية. وإذا فقد كان هذا الحصن أيام المسلمين، هو قصبة شاطبة. ومما يؤيد صحة هذا الفرض، أنه مازال يوجد في أسفل الربوة باب معقود أندلسي الطراز.

PDF Eraser Free



شاطبة. الجبل الذي يقع الحصن في أعلاه



شاطبة. أحد أبراج الحصن



شاطبة. اطلال الحصن

ويوجد فوق مرتفع بارز بين اطلال الحصن الكبير، مصلى تاريخي أقامته إحدى ملكات إسبانيا، في القرن الخامس عشر.

كما أنه يوجد به سجن ملكي قديم، وهو مما أنشأه فيه الملوك الإسبان، وهو عبارة عن غرفة داخلية مظلمة شديدة المنعة، وقد سجن في هذا المطبق، عدة من الأمراء والأكابر الإسبان، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وأحييت سيرهم ومحنهم بطائفة من القصص المشجى.

ولما سول شاطبة فقد بقي منها جزء كبير، مما يحيط بالحصن من الزوايا، وهي مزيج مما شيدته الرومان ولقوط والعرب، ثم الإسبان بعد استرداد المدينة.

الكنيسة العظمى: من المحقق أن كنيسة شاطبة العظمى المسماة "La Seo"، تقوم فوق موقع المسجد الجامع، وهي تقع في وسط المدينة من ناحيتها الجنوبية، في ميدان كبير، وكان الإسبان حينما استولوا على المدينة في سنة ١٢٤٩ م، قد حولوا المسجد كعادتهم إلى كنيسة، ثم هم المسجد، وأنشأت مكانه كنيسة عظيمة فخمة في القرن الرابع عشر، تمثل بزخارفها الرائعة من طراز عصر الإحياء، وفي خلال الحرب الإسبانية الأهلية، أحرقت الكنيسة وأصابها تلف كبير، ثم أصلحت وجددت في الأعوام الأخيرة.

وفي ميدان الكنيسة تمثال للبابا كالستوس الثالث، الذي تولى عرش البابوية من سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٥٨ م، وهو إسباني من أبناء شاطبة، ومما هو جدير بالذكر أيضًا أن البابا إسكندر السادس أو إسكندر بورجيا، هو أيضًا من أبناء شاطبة، وهو ابن أخي الباب كالستوس، وكلاهما من أسرة "بورخا" "Borja" الشهيرة، التي حُرف اسمها فيما بعد إلى "بورجيا" "Borgia"، ثم إن بلدة جانديا الصغيرة التي تقع على البحر شرقي شاطبة، هي التي اتخذها إسكندر السادس فيما بعد لقبًا لإمارة ابنه الكبير حيث سماه "دوق جانديا".

ويبدي مؤرخو شاطبة من أبنائها اعتزازًا في تواريخهم، بأن بلدتهم قدمت إلى الكرسي الرسولي اثنين من البابوات وسبعة كرادلة من أبنائها.

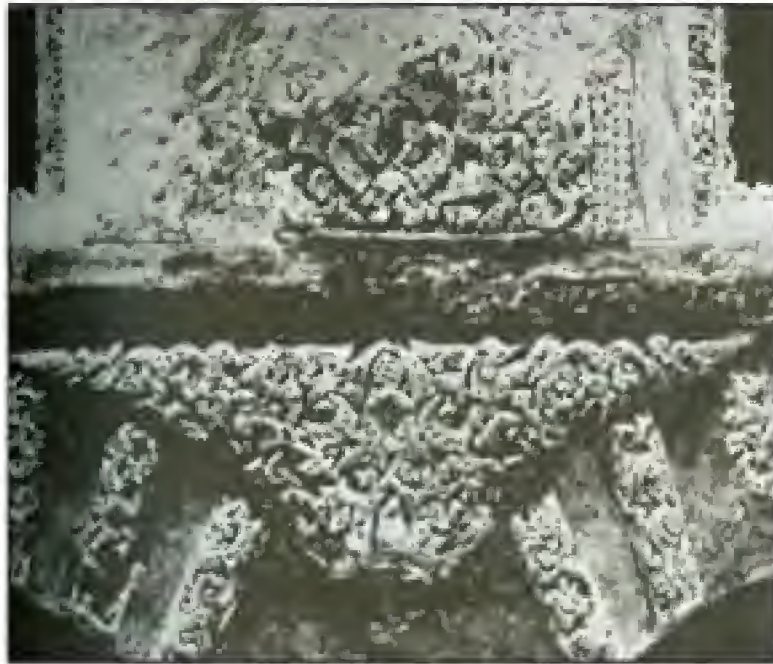
PDF Eraser Free

ويوجد في شاطبة بضع كنائس أخرى، وعدد من الأديرة والقصور التاريخية، التي ترجع كلها إلى العصر النصراني.

في متحف شاطبة: وفي شاطبة متحف يضم طائفة نفيسة من النخائر الأثرية، إبيرية ورومانية وأندلسية، من تماثيل وأحواض وأحجار ونقوش ولوحات وأنية خزفية. وقد رليت فيه المتحف الأندلسية الآتية:

أولاً: عقد مزوج من الرخام وفوقه كوتان، وفي أفاريظه نقوش مدجنية من أحرف عربية، تؤولف كلمات لا معنى لها. وقد انتهت بعد فحصه إلى أنه ليس من آثار شاطبة الإسلامية، وأنه من صنع عصر متأخر ونقوشه مدجنية بارعة. ويؤيد ذلك ما ذكره لي الأستاذ سارثاويو من أنه أخذ من قصر أحد الدوقات الإسبان.

ثانياً: يوجد أيضاً عقد عربي لحمام مكون من ثلاثة عقود وعمودين، وهو فيما يرجح من صنع أندلسي إسلامي بيد أنه لا يحمل أية كتابة.



متحف شاطبة، زخارف عقد الحمام العربي

ثالثاً: والأثر الذي يلفت النظر حقاً، هو حوض من الرخام على جوانبه نقوش وصور شبه رومانية، تتكون من أشخاص وطيور ووحوش. وقد أكد لي الأستاذ سارثاويو أنه من صنع عربي أندلسي، وأنه بنقوشه الفذة يعتبر قطعة نادرة من النخائر العربية المصورة في إسبانيا. وقد وجد في مدينة الحامة. هذا ويوصف هذا الحوض في دليل المتحف أيضاً بأنه من الآثار العربية. بيد أنني لم أقتنع بهذا الرأي.

PDF Eraser Free

ويوجد أيضًا في متحف شاطبة، عدة قطع رخامية من رجوس أعمدة ولجبرها مزينة بالزخارف العربية، وهي من أصل إسلامي لا شك فيه.

* * *

وفي وسعنا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية من موقع الكنيسة العظمى، وهي تتوسط نصف المدينة الغربي، ومن طبيعة أحيائها القديمة الواقعة في سفح الربوة التي يقع عليها الحصن، ولما امتداد المدينة الحديث فإنه يبدو في شطرها الشمالي، الذي يخترقه الطريق العريض الظليل "Almeda"، وينتهي بمحطة البكة الحديدية.

٩ - دانية

Denia

لم تكن دانية من القواعد الأندلسية المشهورة التي يتردد ذكرها كثيراً في تاريخ الأندلس، ولم يسطع اسمها إلا في فترة قصيرة، في أواسط القرن الخامس الهجري، حينما عدت أيام الطوائف عاصمة لمملكة مستقلة.

وتقع دانية في ركن منعزل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، قبالة جزيرة يابسة إحدى الجزائر الشرقية، وفي منتصف المسافة بين بنسبة ولقنت. ويربطها بقلنت خط حديدي خاص، يخترق رقعة ضيقة يحدها البحر من ناحية، وتحدها الجبال من الناحية الأخرى، وتختلف من البساتن إلى التلال، ومن الخضرة إلى القفر، وعلى مقربة من دانية يبدو البسيط الأخضر. محصوراً بين الجبال من الناحيتين تغطيها غابات الزيتون، فإذا أشرفت على دانية، اتسعت جوانب البسيط الأخضر، ورأيت إلى جانب أشجار الزيتون، حقول الأرز وحدائق البرتقال والكروم، ويمكن السهل وراء الجبال إلى مرمى البصر.

وتقع في هذه الرقعة بلاد قليلة متباعدة معظمها من القرى البحرية، وليس بينها بلاد كبيرة سوى ضاحية سان خولن، وهي مصيف ذو شاطئ بنيع، وبلدة "التيا"، بيد أن الذي يلفت النظر حقاً هو أنه يوجد في هذه المنطقة عدد من القرى، التي ترجع أسماؤها إلى أصول عربية، مثل بنى مرفول، وبنى لوبه، وبنى دورم، وبنى الشدوى، وبنى جاسر، وبنى عيسى، وبنى دليج، وبنى أربع^(١)، وعروبة هذه الأسماء ظاهرة بالرغم من تحريف بعضها.

ودانية بلدة قديمة، وكانت تعرف أيام الرومان باسم "Dianium"، وهي اليوم مدينة بحرية صغيرة لا يجاوز سكانها ستة عشر ألفاً، ولا يكاد منظرها المتواضع، يذكرنا بأنها لعبت في العصر الإسلامي دوراً ذا شأن، وكانت أيام الطوائف عاصمة لمملكة عظيمة، تضم الجزائر الشرقية "جزائر البليار"، فيما بين سنتي ٤٠٥ - ٤٣٦ هـ (١٠١٤ - ١٠٤٤ م)، تحت رئاسة مجاهد العلوي، ثم ولده على الملعب بإقبال الدولة الذي حكم من بعده حتى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م). وكانت دانية إبل تلك الفترة، وحتى انتهاء الدولة الموحدية في سنة ١٠٧٦ م، من أعظم قواعد الأندلس الشرقية، وكانت مركزاً هاماً لتجمع الأساطيل الغازية، التي كانت تجوب مياه البحر الأبيض حتى شواطئ قرنصاء وجزيرتي كورسيكا وسردانية.

^(١) هي بالإسبانية على التوالي: Benisadevi, Benidonn, Benilloba, Benimarfill, Beniargeig, Benidoleig, Benisa, Benigosar.

PDF Eraser Free

وقد سقطت دائية في يد الإسبان في سنة ١٢٥٣ م، وفقدت من ذلك الحين أهميتها ورخاءها تباعاً، حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم.



دالية. منظر ناحية من القصبة

وهي اليوم بلدة صغيرة عتيقة الطراز، ذات شوارع عريضة تظلها أشجار التوت، ولكنها ساذجة غير مرصوفة، ويحدها البحر من ناحية مع جزء من الجبل، ويحدها المريج الأخضر والجبل أيضاً من الناحية الأخرى، ويبدو الطابع الأندلسي في دروب دائية ومساكنها ذات الطبقين أو الثلاث، وذات السقوف المستوية والشرفات العربية؛ ولا يرى النخيل كثيراً في دخالها، ولكن يرى في خارجها. والمدينة تشرف على مرج جميل أخضر في شكل نصف دائرة طرفها إلى البحر، ووسطها تحت الصخرة، وطرفها الآخر يحاذي المريج الأخضر، وهو مرج وافر الخصب والخضرة، وبه حدائق البرتقال والكروم وعطبات الزيتون.

ولما من الناحية الأثرية فإنه يوجد في دائية الحصن أو القصبة فيما يبدو، وهي تقع كالعادة فوق الزبوة الصخرية، التي تشرف على المدينة من الوسط، ويحدها البحر من ورثها، وهي اليوم مجموعة من الخرائب المتفرقة، ومنخلها عقد عربي، يليه قبيل الفناء الأعلى عقد آخر قصير متدرج في الارتفاع، وتطل من شرق على المريج الذي يحاذي المدينة، وفي نهايتها تطل يقال إنه يرجع إلى العصر اليوناني، يليه تطل آخر يسمى "القصر" "Palacio" وهو خرب، وليست به إمارات تكل على أصله العربي، ويبدو هيكل الأبراج المنيع في هذه المجموعة من الخرائب، كما يوجد جزء من الأسوار القديمة المتصلة بها.

وينوء صاحب الروض المعطر بمناخة لسوار دائية، ومناخة قصبتها^(١).

(١) قروض المعطر (صفة جزيرة الأنتس) ص ٧٦.

PDF Eraser Free

وأغلب الظن أن هذه المجموعة من الأطلال، تعين موقع القسبة الأندلسية القديمة، وموقع القصر الملاصق لها.

بيد أنه لا يوجد في دالية كنائس قديمة، يمكن أن تعين إحداها موقع المسجد القديم. ولقد تم كنائس المدينة ترجع إلى قرنين أو ثلاثة. أما الكندرية القديمة التي كانت بها، إمام أن كانت دالية مركز أسقفية، فقد تضررت؛ ويقال إن موقعها كان بجوار الحصن. وليس في دالية أية آثار أخرى، وليس بها متحف.

ولدالية ميناء كبير، ولكنه قليل العميق، ولا تلاوي إليه سوى سفن الصيد، والسفن التجارية الصغيرة، التي تتردد بين دالية والجزائر الشرقية، وبينها وبين الثغور المغربية.

١٠ - لقنت

Alicante

إن هذه البسائط المبهية الطبيعية، التي تمتد من بلنسية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى لقنت، تعتبر من أجمل بقاع إسبانيا الشرقية.

وهي تختلف بين بسائط خضراء وافرّة الخصب، تغطيها حقول الأرز وحدائق البرتقال المتواليّة، وعلبات النخيل، وتظللها الجبال عن بعد، ثم تعقبها هضبات تمتزج فيها البسائط بالثلال وبالقفر أحياناً، وتبدو فيها علبات الزيتون والكروم الضئيلة، وتستمر هذه الطبيعة المتواضعة حتى تصل إلى لقنت.



لقنت. أطلال القسبة العسماة حصن القديسة بربارة

ولقنت هي مدينة جميلة مشرقة، تقع على خليج مستطيل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، في حمى تل ضخم يظلها من الشمال، ويطلق عليه اسم يبدو عربي الأصل هو "Benacontil" (بني قنديل؟)، وهي من أهم ثغور إسبانيا الشرقية، لما تتمتع به من مرفأ بحري بنيع. وقد شهدنا بها حين زيارتنا لها للمرة الثانية في صيف سنة ١٩٥٤، عدة من سفن الأسطول الأمريكي راسية في مرفئها.

PDF Eraser Free

وهي مترامية الرقعة، بيضاوية الشكل، عليها مساحة حديقة محضة، وتشقها شوارع كبيرة فسيحة وميادين فخمة، ويزدان كثير من شوارعها وميادينها، بصفوف من أشجار النخيل؛ وأهم وأجمل شوارعها هو بلا ريب شارعها البحري الكبير، الذي يمتد من أولها إلى آخرها على طول الميناء، ويسمى "شارع النخيل" "Calle de las Palmas"، وهو يزدان فعلاً بصف طويل مزيج من النخيل القصير، وتقع فيه أهم المصالح والمتاجر والفنادق والمقاهي. وفي المساء يغتو هذا الشارع الجميل متنزه القوم، وتبدو فيه أنوار الكهرباء معقودة بين النخيل، في أوضاع ساحرة.

ويبلغ سكان لقنت نحو مائة ألف وخمسة آلاف نسمة.

وتتمتع لقنت بحركة صناعية وتجارية طيبة، وتصدر المصنوعات القطنية والصوفية. وهي إلى جانب ذلك، تعتبر من أجمل المشاتي الإسبانية، ويقصدها كثير من عشاق النفاة من سائر الأندلس، إذ لا تنقص درجة الحرارة فيها في يناير عن ثمانية عشر أو عشرين. بيد أنها في الصيف يلفحها حر لا يطاق.

ولما من الناحية التاريخية، فإن لقنت ترجع إلى العصر القديم، وقد كشفت بعض حفريات الأثرية الأخيرة، عن أثر يدل على أنها ترجع إلى العصر الإيبيري، وكانت لنام الرومان تسمى مدينة "لوكنتم" "Lucentum". ولما فتحها المسلمون أطلقوا عليها اسم "لقنت"، وهو الذي حرفه الإسبان إلى "Alicante". واستمرت تحت حكم المسلمين، حتى استردها النصارى في عهد خابمي الفتح في سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)، بعد سقوط بلنسية بعشرة أعوام.

ولا توجد في لقنت آثار أندلسية واضحة. ولكن توجد بعض أطلال القسبة الأندلسية القديمة، بين أطلال حصنها الذي يسمى حصن القديسة بربارة "Santa Barbara". وتقع أطلال هذا الحصن على الزبوة الصخرية التي تشرق على المدينة من الشمال والمسماة (بني قنديل)، على ارتفاع نحو ثلاثمائة متر فوق سطح البحر، وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الألفية والأبراج المتصلة والمتدرجة، ويرجع الأثريون إنشاءه إلى العصر اليوناني، إلى نحو سبعة قرون قبل الميلاد؛ وقد جدد المسلمون واتخذوه "قسبة" للمدينة. وكانت قسبة لقنت فيما يبدو من أمتع القصبات الأندلسية، وإليها يشير صاحب الروض المعطار في كلامه عن لقنت بقوله: "ولها قسبة مشيعة جداً في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب"^(١). والمعروف أن البرجين الرئيسيين في أطلال الحصن، هما من بقايا القسبة الأندلسية.

^(١) روض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٧٠.

PDF Eraser Free

وليس في لفتت آثار أخرى أندلسية أو غيرها، سوى حصن سان فرناندو وهو حديث الإنشاء. وليست بها كنائس كثيرة؛ لأنها ليست مركزاً لأسقفية. وأقدم كنائسها هي كنيسة سانتا



ماريا "Santa Maria" المقول بأنها تقوم فوق موقع المسجد القديم، وهي تقع على مرتفع من الأرض، وقد بنيت في القرن الرابع عشر على الطراز القوطي، ولها واجهة جميلة، وهي صغيرة ولكن فخمة.

وتحيط بهذه الكنيسة شبكة من الشوارع الضيقة الصاعدة نحو الصخرة ذات الحصن. والظاهر أن هذه المنطقة، وهي الجزء القديم من المدينة، تقوم على أنقاض المدينة الأندلسية القديمة. ويوجد خارج لفتت على البحر، شابات نخيل كثيرة، تمتد نحو كيلو متر على مقربة من الشاطئ، ثم تليها شابات الزيتون وحدائق التين والزمان إلى مدى طويل.

لفتت. واجهة كنيسة سانتا ماريا

مدينة ألش

Elche

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن لقنت، أن ننسى ضاحيتها الجميلة "ألش"، وهي إحدى مدينة أندلسية عريقة.

وتقع ألش في جنوب غربي لقنت، على قيد عشرين كيلو مترًا منها، وللك لثري قبيل ألش وعلى طولها، أروع منظر يمكن تصوره، من شابات النخيل المتجمعة، فإن هذه الغابات الرشيقة الباسقة، تمت أحياناً في رقاع كثيفة منسقة من النخيل العالي المثمر، الذي يقدر عدده بنحو مائة ألف نخلة، والذي يعتبر ثمره أهم موارد مدينة ألش.

ووجود هذا النخيل في ألش ظاهرة قديمة، يشير إليها ياقوت عند ذكر المدينة، ويقول لنا "وفيها نخيل جيد لا يفلح في غيرها من بلاد الأندلس"^(١).

وألش مثل لقنت مدينة قديمة، ترجع إلى العصر الروماني، وكانت أيام المسلمين مركزاً من مراكز العلم في شرق الأندلس، وإليها ينتمي بعض أكبر العلماء.

ويوجد في ألش أثر أندلسي هام، هو البرج المسمى "برج قلعة"، وهو يقوم فوق باب ألش القديم.

ويوجد كذلك الصرح المسمى "بالقصر" "El Alcázar"، وقد كان قلعة من قلاع سور ألش القديم، فحوله الملوك الإسبان إلى مقام ملكي حصين. والظاهر أنه يرجع قبل تغييره وتجديده على يد الإسبان إلى أصل أندلسي، حسبما قد يدل عليه اسمه العربي المستعار.

^(١) معجم البلدان تحت كلمة ألش.

١١ - أوريوالة

Orihuela

تقع مدينة أوريوالة بين النش ومرسية، على قيد عشرين كيلو مترًا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، في بسيط أخضر يانع تغطيه الحقول والحدائق الغناء وتبدو فيه أشجار النخيل العالية، وتحصنها الجبال من الأمام والخلف، وهي مستطيلة الرقعة يخرقها نهر شقورة من الوسط، وتجمع في طرازها بين مظاهر القديم والحديث، فأحيطوها الأمامية ما بين المحطة والنهر، حديثة الطابع ذات شوارع واسعة ظليلة، وأحياؤها التي تلي النهر ضيقة قديمة الطراز، وشارعها الكبير الممتد من المحطة إلى وسط المدينة، تظله الأشجار الباسقة من الجانبين، وفي وسطه كورنيش جميل مرصوف، أقيمت على جانبيه أشجار الزينة والمقاصير الجميلة.

ويبلغ سكان أوريوالة زهاء خمسة وثلاثين ألفاً.

ولأوريوالة في تاريخ الأندلس قصة خاصة، فقد كانت قاعدة لمملكة تدمير القوطية، ولما حاصرها المسلمون عقب الفتح بعامين، دافعت عن نفسها ببسالة، واستطاع أميرها تيودمير أن يعقد مع عبد العزيز بن موسى أول ولاية الأندلس صلحاً، يحتفظ فيه باستقلال مدن مملكته المبعدة، وفي مقدمتها أوريوالة، نظير دفع جزية معينة.

وكانت أوريوالة بعد انهيار الخلافة الأندلسية، وقيام دول الطوائف تتبع على الأغلب إمارة مرسية، وظلت كذلك حتى سقطت في أيدي النصارى على أثر انهيار الأندلس الشرقية، وسقوط بلنسية ومرسية، وذلك في سنة ١٢٦٢ م، (٦٦١ هـ).

وتقوم أطلال القسبة الأندلسية القديمة، فوق قمة صخرة عالية وعرة تشرّف على طرف المدينة الخلفي، وقد صعدنا الصخرة إلى أقرب نقطة ممكنة من القسبة، وهي عبارة عن أطلال، يبنو منها جزء من الواجهة وقواعد لبعض الأبراج، ومن تحتها لوار قديمة يغلب عليها البلى، ولم يبق لهذه الأطلال الدارسة قيمة أثرية تذكر، اللهم إلا ما تكلي به من تحديد موقع القسبة القديمة. ويوجد فوق الزبوة مقابل الحصن نهر ومعهد ديني كبير، ترى من شرقه المدينة من على منظر رائع.

PDF Eraser Free

وإلى هذه القصة يشير صاحب الروض المعطار في حديثه عن أوريوالة بقوله: "ولها قصة في نهاية من الامتناع على قمة جبل"^(١).

وقد كانت قصة أوريوالة وأسوارها الإسلامية، ما تزال قائمة حتى لواخر القرن الثامن



عشر، حسبما يدل على ذلك قول الغزال حين زيارته لأوريوالة: "وقد أحاط بالمدينة سور من عمل المسلمين رحمهم الله من الجهات الثلاث، ينتهي من طرفه بجبل شاهق عليه قصة للمسلمين أيضًا"^(٢).

ومن المعروف أيضًا أن كنيسة أوريوالة العظمى، تقوم فوق موقع المسجد الجامع، وهي كثرائية ولاية لقت؛ لأن أوريوالة مركز الأسقفية، وهذه الكثرائية تقع في طرف المدينة الأيمن، وهي صغيرة قوطية الطراز، وليست لها مميزات فنية ذات شأن، وبها معرض للصورة يضم صورة لبلانكيت، ويرجع إنشاؤها إلى القرن الرابع عشر.

أوريوالة. أطلال القصة الأندلسية فوق الجبل

بيد أن أقدم كنائس أوريوالة هي كنيسة سانتياجو، وهي كنيسة صغيرة جميلة قوطية الطراز، وبها تماثيل وزخارف من طراز عصر الإحياء، وهي تقوم أيضًا على موقع مسجد قديم. وقد كان هذا المسجد قديمًا بجوار كنيسة قوطية صغيرة وبينهما جدار فاصل. فلما استولى النصارى على المدينة أمر الفونسو العاشر ملك قشتالة بإزالة هذا الجدار، وأدخل المسجد في حظيرة الكنيسة. وما زال أثر الفصل القديم يبدو في عدم تناسب عقود هذه الكنيسة التاريخية.

ويوجد أيضًا في أوريوالة دير ومعهد سان دومنجو القديم، وهو معهد ديني وجامعة أدبية، ويمتاز بصرحه القديم الأثري، وهو من الضخامة بحيث يسمونه "الإسكوريال الصغير". ومما يلفت النظر صحنه ذو العقود الأندلسية.

(١) لروض المعطار، ص ٣٤.

(٢) رحلة الغزال، ص ٧٢.

PDF Eraser Free



أوريولة، دير معهد سنّ يوحنا نوح العقود العربية

ومما لفت المدينة الأندلسية القديمة، ظاهرة الخطط والأوضاع في أحياء أوريولة، الواقعة فيما بين النهر والزبوة الصخرية، فهناك تكثّر الدروب الضيقة الصاعدة نحو الزبوة، بمنازلها المنخفضة العتيقة الطراز. ويتجه هذه الدروب القديمة كلها من ضفة شقورة إلى الداخل، ويمكن النهر على طول هذه الأحياء، ضيق المجرى، تطلّ عليه نوافذ المنازل وشرفاتها، على نحو ما تطلّ المنازل على الشوارع العالية في مدينة البندقية.

١٢ - قرطاجنة

Cartagena

قرطاجنة من أقدم ثغور إسبانيا الشرقية، أنشأها هزدروبال القائد القرطاجني الشهير، سنة ٢٤٣ قبل الميلاد، وقد لعبت دوراً كبيراً في الحرب البونيقية الشهيرة بين القرطاجنيين والرومان، وذلك لما تكتص به من مناعة موقعها البري والبحري.

وهي تقع جنوبي مرسية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، في نهاية منطقة يغلب عليها القفر، وتقل فيها البساتين وتكثر التلال، وليس فيها من الخضرة إلا غابات الزيتون القليلة.

وتتمتع قرطاجنة بموقع بحري بديع فوق خليج مستطيل، تحجبه الجبال من أمامها، والمدينة من خلفها، وهو مرفأ طبيعي للسفن. ولهذا فإن قرطاجنة هي المركز الرئيسي للأسطول الإسباني، يزور بها قسم كبير منه، وهي مركز بحري ذو أهمية خاصة، وتضم عددًا من الثكنات والمصانع البحرية الكبيرة، ويعتبر مينائها أهم ميناء إسباني بعد ميناء ثغر شيجو.

وقرطاجنة مدينة لوربية حديثة بكل معاني الكلمة، وهي كبيرة الرقعة ذات شوارع طويلة شاسعة، وميادين ضخمة، وأجمل ميادينها هو ميدان الميناء، وهو ميدان ضخم تتخلله المتنزعات ذات النخيل القصير، وتري منه المرفأ البحري المدهش، والسفن الحربية العديدة التي يلوئها، وهو يغتو في المساء منزه القوم، ويغص بعشرات الألوف من المتزهين، من مختلف الطبقات والأعمار. ويبلغ سكان قرطاجنة الآن نحو مئة وعشرين ألفاً، وهي من حيث الضخامة والأهمية البحرية والتجارية، تعد بعد بلنسية ثانيه ثغور إسبانيا الشرقية "El Levante"، وتقع على مقربة من قرطاجنة مناجم الحديد والرصاص والنحاس الشهيرة، وهي من أعظم مواردها، وفيها يعمل آلاف مع أهلها.

وقد كانت قرطاجنة أيام العصر الإسلامي، تمتاز أيضاً بأهميتها البحرية والتجارية، وكانت ثغر مرسية وما والاها، ومخرج التجارة الأندلسية في هذا الركن من الأندلس، وكانت أيضاً مركزاً من مراكز الجهاد والغزو البحري، تجهز فيها الحملات البحرية المجاهدة، المتجولة في مياه البحر الأبيض الغربية والوسطى، وكانت تسمى "قرطاجنة الخلفاء".

PDF Eraser Free

وسقطت قرطاجنة في أيدي القشتاليين في سنة ١٢٤٣ م (٦٤٠ هـ) في نفس الوقت الذي سقطت فيه مرسية، وكان فاتحها فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقدوس فرنالدو، ولكن المسلمين استعادوها وبقيت في أيديهم عصوراً آخر، ثم استردها النصارى نهائياً في سنة ١٢٧٦م، على يد خليمي الأول ملك أراجون.

* * *

على أن قرطاجنة مع أهميتها البحرية والعسكرية التاريخية، تخلص من المعالم الأثرية



الأندلسية الهامة. ولم يلفت نظرنا فيها سوى الحصن المسمى "بحصن الأندلسيين" "Castillo de los Moros" أو معسكر سبيون، وهو يقع على ربوة عالية في نهاية المدينة من الشمال، وفي مواجهة الجبل الذي يحمي الميناء، وهو عبارة عن محيط من الأسوار القوية في مجموعتين متصلتين مربعيتين، ومن حولهما أنقاض أسوار قديمة. ويسكن في السفح الأسفل للربوة جماعة من العجوز. ولم نلق لهذا الطلل الضخم على تاريخ محقق، ولا يدلي بصلة للعهد الإسلامي والمسلمين سوى اسمه، وإن كان اسمه الآخر وهو "معسكر سبيون" يدلي بصلة بالعصر الروماني، وسبيون هو القائد الروماني الذي انتصر آخر الأمر على القرطاجنيين.

قرطاجنة. حصن الأندلسيين

PDF Eraser Free



فرطاجنة. منظر الميناء تحميها الجبال



فرطاجنة. حصن "لاكسيبيسون"

PDF Eraser Free

ويوجد بقرطاجنة حصن آخر يسمى "حصن كسبسيون" "C. de la Concepción"،

وهو يقع على ربوة عالية في منتصف الطريق الضخم، الذي يشقها من الميناء إلى الشمال.

أما كنيسة قرطاجنة العظمى أو الكاتدرائية، فالمعروف من تاريخها أنها ترجع إلى العصر المسيحي، ومن المحقق أنها تحولت إلى مسجد عند فتح العرب للمدينة، ثم أصبحت كنيسة عند استرداد النصارى للمدينة.

وهذه الكاتدرائية اليوم هي بناء خرب، لأنها أحرقت إيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة، وهي تقع فوق ربوة عالية في أحد الدروب القريبة من الميناء، وهي صغيرة الحجم ولا تلي أطلالها بأية مزايا فنية.

وقد زرنا متحف قرطاجنة الأثري، وهو يحتوي على مجموعة نفيسة من القطع الرومانية، ولكننا لم نعث فيه على أية قطع أو نقوش أندلسية.

وبالرغم من الطابع الأوروبي الحديث الذي يغلب على مظاهر قرطاجنة، فإنها تحتوي على بعض أحياء قديمة الطراز، ذات دروب ضيقة صاعدة، ونعتقد أن المدينة الأندلسية القديمة، كانت تشغل بالأخص موقع الأحياء القريبة من البحر.

الكتاب الثالث

مملكة غرناطة وما إليها

١ - غرناطة

Granada

كانت غرناطة "Granada"، ومعناها بالإسبانية "الزمنة" وهي شعارها التاريخي، الذي مازال مثلاً على باب قصبة الحمراء الرئيسي، في شكل ثلاث رموز صخرية كبيرة - كانت آخر القواعد الأندلسية الداهية، التي توج سقوطها ظفر إسبانيا النهائي، باسترداد أرضها القديمة، والقضاء على دولة الإسلام في الأندلس، وقد سقطت بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكين، فرديناند وإسabella في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ - ٢ يناير سنة ١٤٩٢، وهي نفس السنة التي اكتشف فيها كولومبوس العالم الجديد.

وقد مضى على سقوط غرناطة في يد إسبانيا النصرانية، إلى اليوم أربعة قرون ونصف، ولكنها مازالت بالرغم من تحويلها إلى مدينة أوروبية حديثة، تحتفظ أكثر من لية قاعدة أندلسية أخرى، ببقوة حسنة من خططها ومعالمها وآثارها الأندلسية، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها كانت آخر القواعد الأندلسية الداهية، وإلى كون السياسة الإسبانية، رأت أن تبقى على بعض هذه الآثار الأندلسية، لا من أجل قيمتها التاريخية والأثرية فقط، ولكن بالأخص لكي تبقى على مر العصور تذكراً خالداً لظورها.

ولغرناطة منزلة خاصة في نفوس الإسبان وفي التاريخ الإسباني، فهي إلى كونها خاتمة الفتوح المظفرة التي توجت حروب الاسترداد الإسبانية "La Reconquista" تعتبر بتاريخها المؤثر أبهى المدن الأندلسية، ويعتبر سقوطها في أيدي الإسبان، فاتحة عصر إسبانيا الذهبية. ومن ثم فقد اتخذت غرناطة، مثوى لهدى لفتحها الملكين الكاثوليكين، وكانت حظوة من رعاية ملوك إسبانيا اللاحقين، وفي مقدمتهم الإمبراطور شارلكان، الذي أسس جامعها الشهيرة.

وقد زرت غرناطة ثماني مرات متواليات، وتجولت كثيراً في جنباتها وأحيائها وضواحيها، ووقفت طويلاً أمام صروحها الأندلسية الباقية وأطلالها الدارسة، وصروحها النصرانية، التي حلت مكان صروحها الإسلامية الداهية. وتقصيت معالمها الأندلسية القديمة، من خلال خططها الحديثة، ووقفت على كثير من طبائع أهلها وتقاليدهم، مما يمت إلى تقاليد شعبها الأندلسي المغلوب بصلات وثيقة، ورأيت بعد هذه الدراسة الشاملة، أن أقدم إلى القارئ صورة واضحة من خططها ومعالمها ومظاهرها الحديثة، وصوراً مما تبقى من معالمها

PDF Eraser Free

وأثارها الأندلسية، لكي يستطيع أولئك الذين يشجعهم تاريخ الأندلس، وقصة سقوطها النهائي، أن يستعرضوا الدور هذه الماسة في جوهر الحقيقي، وفي المواطن التي اقترنت بسيرها.

* * *

غرناطة هي اليوم ولاية ومدينة، أما ولاية غرناطة الحديثة فتشمل مساحة قدرها خمسة آلاف ميل مربع، وتحدها من الشمال ولايات قرطبة وجيان والبسيط، والبحر من الجنوب، ومن الشرق ولايتا المريّة ومرسية، ومن الغرب ولاية مالقة، وتحترقها وتظلها جبال سيرا نفادا (جبل الثلج)، ويزويها نهر الوادي الكبير، وفرعه نهر شنيل، وكذلك نهر "ريو جراند" الصغير، وجوها حار ولا سيما في الوديان المنخفضة، وباردة في التلال، وترتبطها خصبة جدًا، ولا سيما في الغرب والجنوب، وفي شرقها تمتد سهول واسعة معظمها جرداء، ويبلغ سكان الولاية أكثر من ثمانمائة ألف نسمة. وتضم من المدن عدا غرناطة، بسطة، وأشكر، وفادي آش، وسنغافيه (سنتفي)، ولوشة، وحصن النور، ومونتي فريو، والحامة، وأجير، وأرحبة، والمنكب، وشلوبانية، ومتريل.

ومدينة غرناطة هي عاصمة الولاية، وهي تقع في واد عميق، يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبال سيرا نفادا، وتظلها الأكام العالية من الشمال والجنوب، ويحدها من الجنوب نهر شنيل فرع الوادي الكبير، وهو ينبع من جبال سيرا نفادا، ويخترق فرعه المسمى نهر حدر المدينة من الوسط، وإلى يمينه يقع حي البيلازين ومعظم المدينة الحديثة، وتقع قصبة الحمراء، في الناحية الأخرى، ثم يلتقي بشنيل في جنوب المدينة. وقد كان شنيل وفرعه حدر أيام المسلمين يفيضان بالماء، ولا سيما في الصيف حين تنوب الثلوج، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تزخر بالحدائق الغناء. أما اليوم فقد جف مجرى شنيل، وأقفر ضفافه، وقلمما يجري فيه الماء. وأما فرعه حدر، فيخترق المدينة من الشرق، من سفح التل الذي تقع عليه الحمراء، ويتصل بشنيل عند قنطرة شنيل في جنوب المدينة، وهو يكاد يختفي اليوم، ولم يبق من مجراه داخل المدينة سوى جزء صغير، تشرّف عليه ربي الحمراء، وعلى ضفافه بقايا قناطر وسواقٍ قديمة. وأما جزؤه الذي كان يخترق وسط المدينة، فقد غُطى اليوم، بشارعها الرئيسي الأوسط، المسمى شارع الملكين الكاثوليكين، وامتداده من الميدان الكبير المسمى "Puerta Real" (الباب الملكي) حتى قنطرة شنيل.

وتشمل غرناطة الحديثة ثلاثة أقسام إدارية كبيرة، هي النكرويل، وغرناطة، والبيلازين. ويشمل الأول أحياءها الواقعة في الجنوب الغربي والتي يحيط بها نهر حدر، ويقع حي البيلازين أو ربض البيلازين في شمالها الشرقي، ويليه حي غرناطة في الشمال الغربي.

PDF Eraser Free

وقد كانت غرناطة وما زالت إلى اليوم تجمع بين الزراعة والصناعة، وتزرع في مرجها وبساتينها الخضراء، الحبوب والكرز والخضر بوفرة، وبها مصنع كبير للبارود، ومن بين صناعاتها الصلب والحديد، والزنك والزيوت، والدانتلا الجميلة والخمر والسكر، ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الصناعات يرجع إلى أصل موريسكي، ويحتفظ بكثير من أصوله وطرقه القديمة. وقد كانت غرناطة الإسلامية، وهي التي تقوم اليوم على نفس خططها غرناطة الحديثة، تشمل على عدد كبير من الأحياء. فتقع الحمراء در الملك في جنوبها الشرقي، ويلها بسط السبيكة، ثم الحي المعروف بغرناطة اليهود، وهو المقول بأنه أصل غرناطة، وربض الفقارين، وربض قمارش، وربض المنصور، وهذه تؤلف نصفها الجنوبي، وأما نصفها الشمالي فكل يشغله ربض البيضاء، وربض البيازين، والنقصة القديمة، وربض المرابطين، وبعضة أرباض أخرى.

أما اليوم فقد اختلفت معظم خطط غرناطة الإسلامية، وقامت على أنقاضها مدينة لوربية حديثة. ولم تبق من منشأتها ومعالمها القديمة سوى بقية يسيرة، تجتمع بالأخص في قسمها الشرقي حيث تربض الحمراء فوق هضبتها العالية، بيد أن السطح المتأمل، يشعر حينما يسرح البصر في جنباتها، أنها تتشح بطابع خاص من التحفظ والنبذ، وأن معالمها الأندلسية، تكاد تطالعه من وراء خططها الحديثة، هذا فضلاً عما بقي من أحيائها الأندلسية القديمة، التي ما زالت تحتفظ بدروبها الضيقة، ومنازلها ومشرفياتها الأندلسية.

PDF Eraser Free

وتشمل غرناطة الحديثة عدة شوارع فسيحة، وميادين شاسعة، ويخترقها من قلبها شارعها التجاري الرئيسي المسمى شارع الملكين الكاثوليكين "Calle de los Reyes Católicos"، ويبدأ من الميدان الجديد "Plaza Nueva"، الذي يتفرع منه مرتفع بني شمارة "Cuesta de Gómeres" المفضي إلى مضبة الحمراء، وينتهي من الناحية الأخرى بميدان الباب الملكي "Puerta Real". ومن هذا الميدان يمت جنوباً طريقان شاسعان متوازيان تفصلهما الحدائق، هما طريق شليل "Carreta del Genil" وطريق حدرء "Acera de Darro". وتقع على جانبي شارع الملكين الكاثوليكين أهم أحياء غرناطة، ومنها ميدان باب الرملة "Plaza Bibrambla" لشهر ميادين غرناطة القديمة، والقيصرية القديمة بدروبها الضيقة، ومتاجرها التي مازالت تحمل الطابع الشرقي، والمدرسة الإسلامية القديمة. ويمتد من الميدان الجديد شارع غرناطة القديم على ضفة نهر حدرء، إلى حي البيازين، ثم بعد ذلك إلى خارج المدينة حيث يفضي إلى حي "العجر" ثم إلى نير ساكرومونت.

ويخرج من منتصف شارع الملكين الكاثوليكين، شارع كولون الكبير "Gran Via Colón" أفخم وأحدث شوارع غرناطة الحديثة، ثم يتصل بشارع فخم آخر هو شارع سوتيلو "Avenida Sotelo"، الذي ينتهي إلى محطة السكة الحديدية. ويقع على جانبه ميدان مسرح الثيران "Plaza de Toros"، وعلى مقربة منه يقع ميدان باب البيرة "Puerta de Elvira"، وميدان النصر "Paseo del Triunfo".

وتشرق غرناطة من ناحية الجنوب الشرقي، على بساط خصب، هو المرج الشهير أو الفحص "La Vega"، وقد كان أيام الدولة الإسلامية قطعة من الجنان، تغص بالزروع اليانعة والحدائق الغناء، وكان مرتع النزهة الشائقة ليام الربيع، وليالي الصيف. أما اليوم فقد زالت معالمه ومغايه اليانعة، وإنك لتسرح البصر فيه، من مشارف قصر الحمراء العالية، فلا ترى من بساطه الخضراء سوى القليل، وقد حفت بها لو تخلصها الرقاق الجرداء.

وتشرق على غرناطة من الشمال الغربي جبال سيرا نفاذا الشامخة (وبالعربية جبل شليل أو جبل الثلج)، ويصلها بالمدينة ترام كهربائي، يقطع في شعب الجبال نحو عشرين كيلومتراً. وهي شعب وعرة تظللها قمم عالية، وبها مساقط مياه كبيرة تستخدم لتوليد الكهرباء. وفي سفح الجبال توجد مزارع خضراء؛ وتوجد في بطونها محلات وقرى صغيرة. وتغطي الأشجار الخضراء رقاعاً كثيرة، من المنحدرات الصخرية، ولا تخلو أعماق الجبال رشم ومحركاتها من الزروع والكروم والأشجار البرية العالية، وفي أسفلها يسير مجرى شليل نحو منابعه.

PDF Eraser Free

ويبلغ سكان مدينة غرناطة اليوم مائة وثلاثين ألف نسمة. وقد كانت أيام الدولة الإسلامية أكبر رقعة، وأوفر عمرانًا وسكانًا، وقد بلغ سكانها في ظل الدولة النصرانية أكثر من مائتي ألف نسمة، منهم كثير من اليهود والفشتاليين والجنوبيين والبنادقة، الذين يشتغلون بالتجارة والأعمال المالية. ولما ضعفت مملكة غرناطة، وأخذت أطرافها تسقط في أيدي الإسبان، وهرع المسلمون إلى العاصمة الإسلامية من كل صوب، زاد سكان غرناطة، حتى غشوا في لوأخر عهدا الإسلامي زهاء نصف مليون، وكان في مقدورها يومئذ، أن تجهز وحدها للقتال من سكانها نحو مائة ألف مقاتل. ولما سقطت غرناطة في أيدي الإسبان، وغادروها عشرات الألوف من أهلها المسلمين إلى المغرب، كان عدد سكانها نحو مائتي ألف، ثم تضاعف سكانها تبعًا بالهجرة والتشريد، وألفت سياسة التصير والاضطهاد المستمر كثيرًا منهم، ثم نفى سكانها المورييسكيون أو العرب المنتصرون بعد ذلك، وأقفررت العاصمة الإسلامية القديمة تبعًا، حتى هبط سكانها في القرن الثامن عشر إلى عشرين ألف نسمة. وفي أوائل القرن التاسع عشر بلغ سكانها نحو خمسين ألفًا، ثم زادوا تبعًا حتى بلغوا في أوائل هذا القرن ثمانين ألفًا، وبلغوا وفق إحصاء سنة ١٩٢٠ مائة ألف وثلاثة آلاف، وهم يبلغون اليوم مائة وثلاثين ألفًا.

وتمتاز غرناطة بكثرة منشآتها العلمية والفنية والاجتماعية. وقد كانت أيام الدولة الإسلامية، أعظم مركز للعلم والعرفان في الغرب الإسلامي. وقد حرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت، مركز العلوم في جنوبي إسبانيا، فأنشئت جامعة غرناطة في سنة ١٥٣١ في عصر الإمبراطور شارلكان، وروعي في إنشائها، أن تكون مصدر التنقيف العقلي والديني، للشعب الأندلسي المنتصر، وأن يقضى على البقية الباقية، من تراث الأندلس الفكري، وأن تتوطد روح العصر الجديد في ظل السيادة النصرانية، وبارك المشروع البابا كليمنت السابع، وأصدر مرسومًا بإنشاء الجامعة الجديدة، على أن تكون على غرار الجامعات النصرانية العريقة في بولونيا وباريس وشلنقة، وبدأت جامعة غرناطة بدراسة اللاهوت والفنون والطب والقانون، وسيطر رجال الدين على إدارتها والتكريس فيها، في عصورها الأولى. وأصبحت في عهد فيليب الثاني بهزة عنيفة، من جراء ثورة المورييسكيين، وسادها الركود مدى حين، ولما عاد الهدوء إلى غرناطة، عاد إليها الانتعاش، وتواتت عليها هبات القادرين، وتوطدت أحوالها، واستطاعت منذ أوائل القرن التاسع عشر أن تنهض قدمًا، وأن تتحرر من نفوذ الكنيسة نوعًا، وأن تحرز قسطًا من الاستقلال، وتضم الجامعة اليوم خمس كليات، هي كليات "الفلسفة والآداب" و"العلوم" و"الحقوق" و"الطب" و"الصيدلية". وتقوم في بناء الجامعة القديم الذي أسس أيام شارلكان كليات الحقوق والعلوم،

PDF Eraser Free

وإدارة الجامعة، وقسم النشر والمكتبة العامة، وهي مكتبة قيمة تضم عددًا كبيرًا من الكتب، التي ظهرت حتى القرن الثامن عشر. وتقوم كلية الآداب في بناء جديد خاص بها، وكذا كلية الطب. ولكل كلية مكتبة خاصة بها، ويعني قسم النشر بنشر البحوث والكتب والمجلة الجامعية، وبالجامعة فرع للمجلس الأعلى للبحوث.

ويلحق بكلية الآداب معهد هامان، هما "معهد تاريخ الملوك الكاثوليكين" "Seminario de Historia de los Reyes Católicos"، وقد أنشئ في سنة ١٩٤٣، العناية بتدريس هذه الفترة الهامة من تاريخ إسبانيا، ودراسة حياة هذين الملوك، اللذين يعتبران مؤسسي عظمة إسبانيا، وأحداث عصرهما ومؤثراته، دراسة وإلهة. والثاني هو مدرسة الدراسات العربية بقرنطة "Escuela de Estudios Arabes de Granada"، وتعنى بدراسة الحضارة الإسبانية الإسلامية، واللغة والآداب العربية، وكانت تعنى أيضاً بإعداد الموظفين الإسبان الذين يعملون بالمنطقة الخليفة من مراكش^(١). وهي تعمل بالتعاون مع مدرسة "ميجيل آسن" للدراسات العربية بمدريد، ويصدران معاً "مجلة الأندلس" - "Al Andalus"، وتقوم هذه المدرسة في بناء أندلسي قديم بحي البيلازين يسمى "Casa del Chapiz"، وعلى مقربة منه منزل آخر، خصص لإقامة الطلبة المغاربة الذين يتلقون الدراسة بقرنطة.

ويقع بناء الجامعة القديم في وسط قرنطة في الميدان المسمى باسمها، وقد أنشئت إلى جوارها كنيسة جميلة الطراز، على طراز الجامعات الإسبانية، التي تقوم الكنيسة داخلها أو بجوارها، وفي وسط الميدان تمثال حديث الصنع للإمبراطور شارلكن.

وتقوم في قرنطة إلى جانب جامعتها العريقة، مدارس عديدة أولية وثانوية، ومعاهد دينية. وبها أيضاً عدة متاحف هامة، في مقدمتها متحف الحمراء، والمتحف الأثري (الأركيولوجي)، وهما يضمان لوحات وزخارف عربية كثيرة، ونقوشاً وتحفاً أندلسية عديدة، ومتحف البلدية، والمتحف المسمى "Casa de los Tiros" وسوف نعود إلى ذكرها كما أنها تضم مستشفيات ودوراً خيرية عديدة.

^(١) هي منطقة الحماة الإسبانية سابقاً. وقد اعتزلت إسبانيا باستقلال مراكش ووحدةها الإقليمية منذ إبريل ١٩٥٦. وأصبحت المنطقة الخليفة السابقة جزءاً لا يتجزأ من المغرب لمرحمة.

معالمها وآثارها الأندلسية الباقية

إن حمراء غرناطة هي بلا ريب أعظم الآثار الأندلسية الباقية، وهي مازالت كما كانت منذ عصوره، تتحرف بأبراجها وقبابها المنيفة من هضبتها العالية، على المدينة الإسلامية القديمة من ركنها الجنوبي الشرقي، فتسبح عليها آيات من الروعة والجلال، وإلى يمين الحمراء، وعلى مقربة منها، يقوم قصر جنة العريف بأروقته الأنيقة وخمائله المزهرة، ونوافيره الفضية الساحرة.

ولن نتحدث هنا عن الحمراء ولا جنة العريف، وقد تحدثنا عن كل منهما فيما بعد، في فصل خاص.

ولما نتحدث هنا بادئ ذي بدء، عن معالم غرناطة القديمة، التي مازالت رغم أحداث الزمن، تسفر عن طابعها وملامحها الأندلسية الواضحة.

حي البيازين

ولا ريب أن حي البيازين "Albaiaín"، وهو ما يزال إلى اليوم أكبر أحياء غرناطة، هو أكثر أحيائها احتفاظًا بطابعه الأندلسي، بل لا نبالي إذا قلنا إن هذا الحي، ما زال محتفظًا بسائر خططه ودروبه الأندلسية الضيقة، لم يطرأ عليها سوى تحول ضئيل.

ويقع حي البيازين في شمال شرقي غرناطة، تجاء هضبة الحمراء، ويفصله عنها نهر حدره، ويمتد صاعدًا على سفح التلال حتى أسوار المدينة القديمة، وشوارعه ضيقة متقاطعة، وما زال كثير من منازلها محتفظًا بطراز الأندلسي، وقد شاهدنا الكثير من هذه المنازل، وهي تمتاز بأفنياتها الداخلية، ونوافذها العربية المطلة عليها، وشاهدنا بالأخص في بداية أحد الشوارع، حمامًا كبيرًا على الطراز العربي، ما يزال بأعمدته وحناياه وقبابه ذات الكوك النجمية - في حالة جيدة، كما شاهدنا منزلًا أندلسيًا مازال يحتفظ بدوافده ونقوشه وزخارفه العربية كاملة. وقد نقشت على مشارفه وحافاته، عبارة (الحمد لله على نعمة الإسلام)، مكررة في سائر مواضعه، وهو اليوم مركز لأحد أقسام البوليس.



غرناطة. باب فحص اللوز داخل حي البيلازين

وفي حي البيلازين ثلاثة من أبواب غرناطة الإسلامية. مازالت قائمة بعقودها العربية. وهي باب البيلازين "Puerta de Albaicin"، ويقع في نهايته في داخل السور القديم، وباب فحص اللوز أو فحص اللوزة "Arco, Puerta de Fajalauza"، وباب الزيادة "Puerta de las Pesas"، وكلاهما ذو عقدين. ويقعان داخل الحي. ويقع الباب الأخير في ميدان لو رحية باب الزيادة.

وقد حوّل المسجد الكبير، الذي كانا بحي البيلازين أيام المسلمين، إلى كنيسة. فبنيت كنيسة سان سالڤادور "San Salvador" على أنقاض المسجد الجامع، ومازالت في مؤخرتها ثمة بقية من أسوار الجمع، وعدة من بوائكه، وجزء من صحنه. وبنيت كنيسة سان خوسي "San Jose" (سنة ١٥٢٥ م) على أنقاض مسجد المرابطين، وقد كان من أقدم مساجد غرناطة (وكان موقعه بحي القصبة الملاصقة لحي البيلازين)، وتقع الكنيسة في نفس الشارع المسمى باسمها ومازالت منارة المسجد القديم قائمة، وقد حولت إلى برج لأجراس الكنيسة.

وكذلك حوّل مسجد ثالث في البيلازين هو مسجد التائبين، إلى كنيسة سميت سان خوان دي لوس ريس "San Juan de los Reyes"، وهي مازالت تحتفظ بمنارة الجامع كما كانت، ولفظ أضيف إليها برج الأجراس. وهذه المنارة من عصر الموحدين، مربعة الشكل، على طراز منارة المنصور في إشبيلية (لأخيرالدا) ويصعد إليها بمنحدر متدرج. وأسمت كنيسة سان لويس "San Luis" القديمة، الواقعة على مقربة من باب فحص اللوز، أيضًا على موقع مسجد قديم.

PDF Eraser Free

ويمتد حي البيازين على الرابطة القائم عليها، شمالاً حتى الأسوار القديمة، وفي نهائيه



غرناطة. بقية من عقود جامع البيازين

مما يلي الأسوار، توجد مسالك ودروب ضيقة على المنحدر، يسكنها قوم من العجر، يعيشون في أكواخ وكهوف بدائية، تنبعث منها روائح منفرة. وهؤلاء العجر يؤلفون أقلية كبيرة في غرناطة، وبشغلون، فضلاً عن مؤخرة البيازين، معظم أجزاء الطريق الطويل، الممتد من غرناطة إلى دير ساكرومونتي. ولكن مساكنهم في هذه البقعة أفضل، وظروفهم المعيشية أرقى، ويشغل الكثير منهم بالعزف والرقص، ولهم براعة خاصة في تأدية الرقصة الأندلسية الشهيرة المعروفة بالثامبرا "La Zambra"، وأصلها العربي "الزمر".

وقد كان حي البيازين أيام غرناطة الإسلامية من أكبر وأهم أحيائها، وكان منزل عند كبير من الأسر الغنية ذات العصبية، وفيه نشبت الثورة غير مرة ضد سلاطين غرناطة، ومنه بدأ الزحف غير مرة على قصبة الحمراء دار الملكة، فلما استولى الإسبان على غرناطة، غادرتها الأسر الشريفة وعالية القوم، وأقفر حي البيازين من كثير من سكانه القدماء، وسكنته الطبقات الدنيا. بيد أنه لبث بعد التنصير، أعظم الأحياء الموريسكية في غرناطة، ولم يفقد تقاليده القديمة في تحريك الجموع، والتمرد على كل ظلم واستبداد. وفيه أضرمت الشرارة الأولى، في ثورة الموريسكيين الجارفة، التي نشبت ضد الإسبان في سنة ١٥٦٧، أيام فيليب الثاني، وكان لها أعظم شأن في تطور السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين، والاتجاه إلى نهائهم النهائي من إسبانيا.

واليوم يغدو حي البيازين منزل الطبقات المتوسطة والمتواضعة، ولكنه مع ذلك مازال محتفظاً بسمعته التاريخية القديمة، ومازال يعتبر من أحياء المدينة الهامة.

ميدان باب الرملة

ويسمى بالإسبانية "Bibrambla" وقد كان أعظم ميادين غرناطة الإسلامية، وكانت تعقد به الحفلات القومية العامة، ولا سيما حفلات الفروسية. وهو يقع على مقربة من الكاتدرائية وراء شارع الملكين الكاثوليكين، من ناحيته التي تتصل بميدان الباب الملكي. وما يزال إلى اليوم من أكبر ميادين غرناطة، وفي وسطه نافورة كبيرة مزدوجة، في أعلاها تمثال لأحد القديسين، ومن حولها ساحة كبيرة مغطاة بالرخام، وعلى جانبيها المقاهي ومظلات بائعات الزهر وغيره. ويتفرع منه عدة شوارع مازالت تحمل أسماء أندلسية، مثل شارع "Zacatin" (المقاطين) وشارع "Boabdil" (أبي عبد الله)، وعلى مقربة منه شارع الفندق "Alhondiga".

القيصرية

وفي مواجهة باب الرملة من الجهة الغربية، تقع القيصريّة "Alcaiceria" الشهيرة، وقد كانت سوق غرناطة الممتاز. ومازالت إلى اليوم بدروبها الضيقة، وحوالياتها المتلاصقة، التي تزخر بالبضائع الحربية، والتحف المعدنية الدقيقة، وغيرها من مختلف السلع المختارة، تحمل نفس طرازها الأندلسي القديم. وقد أحرقت القيصريّة الأندلسية القديمة، التي كانت تقوم في نفس الموقع، في سنة ١٨٤٣، ثم أعيد تخطيطها وبنائها، على نفس نظامها القديم تقريباً. وكانت للقيصريّة القديمة عدة أبواب كبيرة، تحول دون مرور الخيل والعربات إليها، ثم غُلِقَ لحفظها في المساء، ولم يبق من هذه الأبواب اليوم سوى بابين أو ثلاثة، وتتصل القيصريّة بشارع كولون بדרך ضيق، يمر بالكاتدرائية الكبرى والمدرسة القديمة.

الكنيسة العظمى

وعلى مقربة من ميدان باب الرملة والقيصريّة تقع الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى. وقد بنيت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع، وفقاً لسياسة الأخبار الإسبان، التي قضت بأن يحول المسجد الجامع في كل مدينة أندلسية مفتوحة، إلى كنيسة جامعة أو كاتدرائية. وهي كنيسة ضخمة رائعة ذات قبة عظيمة. وقد بنيت تخليداً لذكرى الملكين الكاثوليكين فرديناند وإسبانيلا فاتحي غرناطة، وكذا قد أنشأ في هذا الموقع مصلى ملكياً في سنة ١٥٠٥، وهو الذي مازال قائماً بجوارها. وبُنيء بناء الكاتدرائية سنة ١٥٢٩، في عهد الإمبراطور شارلكن. وافتتحت للعبادة سنة ١٥٦١، ولكن لم يتم بنائها إلا في سنة ١٧٠٣. وتحت قبتها مدفن فرديناند وإسبانيلا، وهو عبارة عن نابوسين كبيرين من الرخام، تحتهما قبر أودع فيه تابوتا الملكين

PDF Eraser Free

الكاثوليكين، الملكة على اليمين والملك على اليسار، وإلى جوارهما من اليمين تابوت لهنّهما يوحنا، وإلى اليسار تابوت لفرديناند.

وفي مواجهة القبر هيكل عظيم به تمثيل صغيرة للرسول. وعلى جانبي الهيكل صور بارزة من صنع القرن السادس عشر، ظهرت في إحداها صور نساء موريسكيات، يرتدين أثواباً طويلة وقد وضعن الحجاب، والقس يباركنهن بالماء المقدس. وظهرت في أخرى صور لموريسكيين يرتدون الملابس العربية، وعلى رؤوسهم شبة الغمامة، وتمثل هذان الصورتان مناظر التنصير بالجملة.

وتوجد صورتان أخريان، إحداهما تمثل خروج لبي عبد الله آخر ملوك الأندلس سائراً ومن ورائه فرسه، ومعه مفاتيح الحمراء، ليسلمها إلى قاهره الملك فرديناند. وظهر في الصورة الأخرى فرديناند وإسبانيلا، ومن ورائهما القوسان النصارى.

وعند مدخل المدفن، يوجد معرض تاريخي لمخلفات الملكين الكاثوليكين، به صندوق زجاجي يحتوي على تاج إسبانيلا وصولجان الملك وسيفه، وصندوق صغير يحتوي على حلي الملكة وأثرها، ومن ذلك الإتحيل الذي كانت تقرأ فيه. وعرضت لؤلؤ لفرديناند الكاثوليكي، ولؤلؤ أخرى لأكابر الأخبار في هذا العصر، كما عرضت الأعلام التي استعملت في حرب غرناطة الأخيرة، وهي حمراء مزركشة بخطوط عريضة مقصبة.

المدرسة والخان والمنازل الأندلسية

ومازل موقع مدرسة غرناطة القديمة، قائماً في الدرب الضيق المحاذي لشارع الملكين الكاثوليكين، تجاه المدفن الملكي. ولكن بنائها القديم أزيل منذ أوائل القرن الثامن عشر، وأقيمت البناية مكانه بناءً جديداً. ولم يبق من البناء القديم سوى الجناح الذي يحتوي على المحراب. وقد نزع لوحات ونقوش عربية كثيرة من المدرسة، ونقلت إلى مختلف المتاحف. ويحتفظ متحف غرناطة الأركيولوجي بعدد من هذه اللوحات، ومنها عدة قطع رخامية يتكون منها بعض ما جاء في لوحة إنشاء هذه المدرسة، ويجري نصبها كما يلي:

أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونوراً، وأدامها في علوم الدين على الأيام، أمير المسلمين أظله الله بعونه، العلي الشهير الكريم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد أبو الحجاج يوسف بن العلي الكريم الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدس الأرضي أمير المسلمين وناصر الدين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر كافي الله في الإسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتم (ذلك) في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة".

PDF Eraser Free

وقد كانت هذه المدرسة أو الجامعة، من مفخر غرناطة الإسلامية، وقد أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج في سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م)، حسبما جاء في النص المتقدم، وكانت تسمى بالمدرسة النصرية، أو الجامعة النصرية.

ولما الخان أو الفندق فيقع في درب ضيق، شرقي شارع الملكين الكاثوليكين هو "C. Mariana Pineda"، الواقع على مقربة من دار البريد الحالية. وهو عبارة عن بناء عربي قديم ذي باب معقود ضخم، قد نُقِشت في عقده بالكوفية سورة (قل هو الله أحد)، ونُقش على الجائين عبارة "الماء الدائم العز القائم" مكررة. ونُقش في جانبي المدخلين "يا تقى يا أمانى أنت الرجاء أنت الولي، فيا للنبي المرسل اختم بخير عملي". ومن داخل هذا الباب دهليز، يفضي إلى فناء واسع مربع الشكل، ضلعه نحو ثلاثين مترًا، وبه قاعات عديدة. وفي أعلاه جناح آخر، تتقدمه فوق عقد الباب قاعة ذات مشرفة عربية كبيرة.

وقد اختلف في أصل هذا البناء. والمرجح أنه أنشئ في أواخر عهد الدولة النصرية، ليكون فندقًا أو خانًا، يؤمه التجار الواردون، وكان يسمى يومئذ الفندق الجديد "Alhóndiga Guedida"، ثم استعمل بعد ذلك مخزنًا للفحم، ومن ثم كان اسمه الذي يعرف به اليوم وهو دار الفحم "Casa del Carbón" وكان حتى العهد الحديث ملكًا لبعض الأفراد. ولكني علمت أنه يلحق اليوم بإدارة قصر الحمراء.

وهناك أيضًا بناء أندلسي قديم يقع في شارع "Pavaneras"، ويطلق عليه اسم "Casa de los Tiros" (دار الرماية)، وهو صرح كبير في حالة جيدة من الحفظ، ويبدو من سلمه العريض، ولهبائه الشاسعة الجميلة، أنه كان قصرًا لأحد الكبراء، وهو يستعمل اليوم متحفًا، تعرض به طائفة من الصور التاريخية، ويتخذ مركزًا لمكتب السياحة الحكومي.

هذا وتوجد في غرناطة إلى اليوم في مختلف أحيائها غير حي البيلايين، منازل كثيرة تحتفظ بأصلها العربي أو الموريسكي أو ببقية منه. ومنها كثير ما يزال يحتفظ بفناءه الأندلسي، ومشرفياته العربية، وقد رأينا الكثير منها. ومازالت الطراز الأندلسي والموريسكي، يبدو في كثير من أحياء غرناطة المحدثنة، وبنوع الخص في أحيائها القديمة، الواقعة في جنوبها الشرقي، ما بين الحمراء وحدائق طريق شليل.

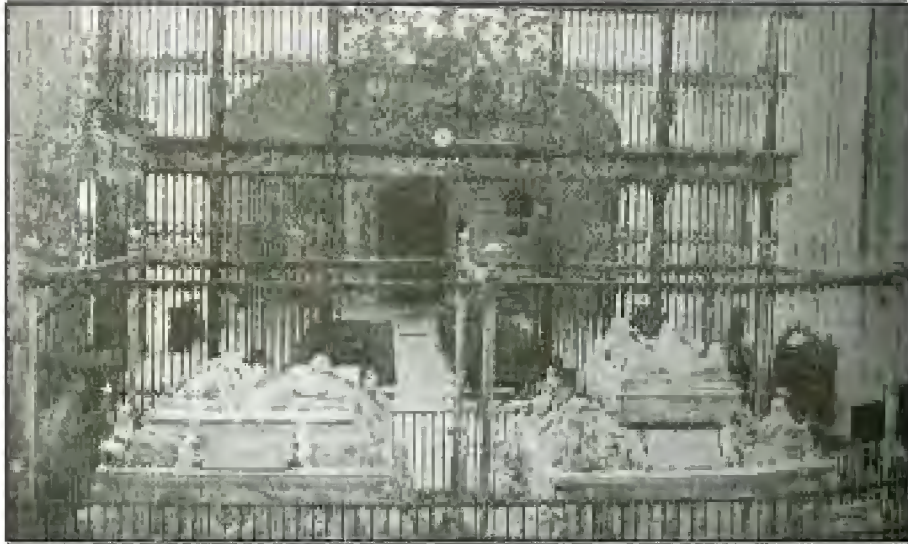
PDF Eraser Free



غرناطة. واجهة العنصر العنصر



غرناطة. واجهة الكنيسة العظمى



ضريح فرديناند وإسabella داخل الكنيسة العظمى

الأبواب والأسوار

كان لغرناطة الإسلامية عشرون بواباً لم يبق منها اليوم سوى القليل، وقد أُنشِدت إلى أبوابها الثلاثة، التي مازالت قائمة في حي البيازين، وهي باب البيازين وباب فحصى السور وباب الزيادة. وتوجد ثمة بضعة أبواب أخرى ما تزال في حالة جيدة، أهمها باب البيرة "Puerto de Elvira" الواقع في شمال غربي المدينة، وهو يقع اليوم على مقربة من ساحة الثيران، وقد بقي هيكله كاملاً على ارتفاع نحو اثني عشر متراً، وإلى جانبه بقية من السور القديم، وفي أعلاه مشارف عربية، وليست عليه أية نقوش أو كتابة. ومنه يبدأ شارع البيرة، الذي مازال يحمل اسمه العربي "C. de Elvira".



غرناطة. باب البيرة

ويسير بهذا الشارع كولون الكبير حتى يصل إلى الميدان الجديد "P. Nueva". ثم باب البيرة، وهو يقع على مقربة من باب البيرة وفي شرقيّه، ثم باب سيدة، وهو شرقي باب البيرة، وكلها تقع على خط الأسوار الشمالية القديمة. وهذا عدا أبواب قصبة الحمراء، وهي حدة، وقد ذكرناها في موضعها.

ولما أسوار غرناطة الإسلامية، فقد بقيت منها أجزاء كبيرة، وبالأخص قسماً من الجهة الشمالية الغربية حيث تمتد نحو كيلو متر، وتتقطع قبل باب البيرة بقليل، وكذلك بقيت أجزاء كبيرة من الأسوار الشرقية، وهي تُرى على مد البصر من أعلى ربوة الحمراء. وقد طُغنا بهذه الأسوار، وهي متينة كثيفة، وهي صفلى داخلية وخارجية. وتدل بقاياها على متانة التحصينات الغرناطية القديمة.

قصر شنيل

ومن الآثار الأندلسية الباقية بمدينة غرناطة، بقية الصرح المسمى "قصر شنيل" "Alcázar Genil"، وهو يقع خارج المدينة على الضفة اليسرى من نهر شنيل، في بقعة خضراء منعزلة تسمى ضاحية "أرميليا" "Armilla"، أو حدائق الملكة، وهو بناء أو بالحري بقية بناء ذي باب عربي معقود، على رأسه رقعة نقش عليها "ولا غالب إلا الله" ونقش في عقد المنخل ما يأتي:

يا نقتي يا أُملي أنت الرجاء أنت الولي
فيا للنبى المرسل الختم بخير عملي

ويفضي هذا المنخل إلى بهو مربع، به أربعة عقود جميلة، في كل جانب عقدان، وله قبة عالية مزينة بالمقرنصات، على مثل زخارف قبة بهو بني سراج بقصر الحمراء، ويبلغ ارتفاع القبة نحو اثني عشر مترًا. وقد نقش على جوانب البهو العبارة الآتية في رقاع عدة "عز لمولانا السلطان" مكررة حول المربع، ونقشت كذلك في الحزام الأعلى. ونقش في الحزام الذي يليه هذه العبارة مكررة "الحمد لله على نعمة الإسلام"، كما نقش هذه العبارة في جوانب العقود الأربعة. ونقش في الحزام الأخير حول المربع "ولا غالب إلا الله" مكررة كذلك. ونقش في توابل مختلفة هذه العبارات "من حسن كلامه وعز إكرامه" "عز لمولانا السلطان" "الملك العادل المرتبط".

وتقسم واجهة هذا الأثر وبهوه، بطابع مؤثر من الجمال والنبيل، مما يدل على أنه كان صرحًا ملوكيًا ذا شأن. والحققة أنه بقية من قصر شنيل الذي أنشاه الأمير الموحد السيد إسحق بن الخليفة أبي يعقوب يوسف في سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) خارج غرناطة، على مقربة من نهر شنيل، حسبما يروي لنا صاحب كتاب "الحلل الموشية"، وحسبما جاء أيضًا في كتاب "الإحاطة" لابن الخطيب^(١)، وقد كان يسمى عندئذ "قصر السيد". وقد غالب عليه هذا الاسم أيام مملكة غرناطة، وكان يستعمله ملوك بني نصر قصرًا للضيافة. وفيه أقام "الإنفانت" فيليب أخو الملك ألفونسو العاشر، حينما ثار عليه، والتجأ مع نفر من الفرسان النصراني، إلى سلطان غرناطة، محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه، وذلك في سنة ١٢٧٠ م.

وأما قنطرة شنيل فتقع على نهر شنيل عند ملتقاء بفرعه حدره في نهاية الشارع الكبير المسمى طريق حدره Acera de Darro، وهي من أشهر القناطر الأندلسية، وقد بنيت فوق خمسة عقود على مثل القناطر الرومانية، وبقيت على أصلها الأندلسي، حتى أضربها الفيضان العزم في أوائل القرن السابع عشر، فجددها الإسبان، ولكن على طرازها الأصلي. وما زالت إلى اليوم تحمل اسمها الأندلسي القديم "قنطرة شنيل" "Puente de Genil".

(١) "الحلل الموشية في الأخبار المراكشية" وهو لمؤلف مجهول (طبع تونس) ص ١٢٦. وراجع كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" (لقاهرة ١٩٥٦) ص ١٢٥ و ٣٢٤ و ٥٦١ حيث يجري ذكر هذا القصر.

PDF Eraser Free



عمود قصر شنيبل



غرناطة. واجهة قصر شنيبل



غرناطة. فناء منزل اندلسي قديم



غرناطة. عمود مدخل القنديل أو فناء الفحم

متاحف الآثار والصور

وتوجد في غرناطة عدة متاحف أثرية هامة، في مقدمتها متحف الحمراء، وهو قائم في عدة أبناء علوية، واقعة عند مدخل قصر الحمراء، في مواجهة قصر شاركان، ويحتوي على طائفة كبيرة من القطع واللوحات الأثرية، معظمها من مخلفات قصر الحمراء، وبعضها من مخلفات قصر جنة العريف، وقد شاهدنا من بينها الأشياء الآتية:

١ - لوحة رخامية كبيرة، في حجم باب متوسط، نصبها الأعلى ببضاي، ونصبها الأسفل مستطيل، وقد سجل فيها إنشاء المارستان (المستشفى) النصري، على يد السلطان الغني بالله، وهذا نصها:

"الحمد لله، أمر ببناء هذا المارستان، رحمة واسعة لضعفاء مرضى المسلمين، وقربة نافعة إلى شاء الله لرب العالمين، وخذ حسنة ناطقة باللسان المبين، وأجرى صدقته على مر الأهوام وتوالي السنين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين: المولى الإمام، السلطان الهمام، الكبير الشهير، الطاهر الظاهر، أسعد قومه دولة، وأمضاهم في سبيل الله صولة، صاحب الفتوح، والصنع الممنوح، والصدر المشروح، المؤيد بالملائكة والروح، ناصر السنة، كهف الملة، أمير المسلمين الغني بالله، أبو عبد الله محمد ابن المولى الكبير الشهير، السلطان الجليل، الرفيع المجاهد العادل الحافل، السعيد الشهيد المقنس، أمير المسلمين أبي الحجاج ابن المولى السلطان الجليل لشهير الكبير، المعظم المنصور، هازم المشركين، وقاصم الكفرة المعتدين، السعيد الشهيد أبي الوليد بن نصر الأنصاري الخزرجي، أنجح الله في مرضاته أعماله، وبلغه من فضله العميم، وثوابه الجسيم آماله، فاخترع به حسنة لم يسبق إليها من لدن دخل الإسلام، واختص بها طراز فخر على عائق حلة الجهاد، وقصد وجه الله بابتغاء الأجر، والله ذو الفضل العظيم، وقدم نوراً يسعى بين يديه ومن خلفه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وكان ابتداء بنائه في العشر الوسط من شهر المحرم، من عام سبعة وستين وسبعمائة، وتم ما قصد إليه ووقف الأوقاف عليه، في العشر الوسط من شوال من عام ثمانية وستين وسبعمائة، والله لا يضيع أجر العاملين، ولا يخيب سعي المحسنين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وآله وأصحابه أجمعين".

والمعروف من تاريخ هذا المارستان، أنه كان قائماً على الضفة اليمنى لنهر حدر، وقد هدم في القرن الماضي فقط، وعملت له قبل هدمه رسوم وخطط ولوحات كاملة⁽¹⁾.

⁽¹⁾ راجع مقالاً عن هذا المارستان وتاريخه في مجلة الأندلس: Al - Andalus (1943), p. 482.

PDF Eraser Free

- ٢- لوحين كبيرين من المرمر، طول كل منهما نحو مترين وعرضها ٦٠ سنتيمتراً، وقد نقشت على حوافها زخارف عربية بدئية، وشعر بني نصر "ولا غالب إلا الله".
 - ٣- صحن لفورة كبيرة، وبه بقية من عطاء مرمرى أخضر، يبلغ قطره نحو متر ونصف.
 - ٤- خمس لوحات خشبية مستطيلة، أصلها من مختلف فناء الأسود، وعليها زخارف عربية بدئية، منها ثلاث في حجم ١,٣٠ × ٠,٣٥ متراً، واثنان في حجم ١,٦٠ × ٠,٥٠ متراً، وقد سقطت من حافة البهو الخشبية.
 - ٥- لوحة خشبية من قصر جنة العريف، وعليها نقوش وزخارف بدئية، وعبارة "ولا غالب إلا الله".
 - ٦- لوحة خشبية مذهبة أخذت من قصر جنة العريف، وتنسب لأسرة (بنيفش) Los Venegas، الذين تنصروا غلب سقوط غرناطة، وعليها خمس رموز هي شعر غرناطة النصرانية، وشعر بنيغش، وقد نقش فوقها هذه العبارة اللاتينية Cris Viacit، ومعناها "المسيح هو الغالب"، وقد أريد بها على ما يظهر، أن تعارض شعر بني نصر "ولا غالب إلا الله". وفوقها باللاتينية Serve Dio Regnares، ومعناها "خدمة الله هي الكفاح". وهي لوحة ذات مغزى عميق.
 - ٧- جرة (زراعة) كبيرة زرقاء من الخزف الفاخر، عليها نقوش رائعة وآيات قرآنية، وتعتبر من أروع نماذج هذه الصناعة الخزفية، التي امتازت بها الأندلس المسلمة. وطائفة كبيرة أخرى من اللوحات والزخارف، ومن قطع الفسيفساء الملون (المزايك)، ومعظمها من صنع موريسكي.
- وأما المتحف الأثري (الأركيولوجي)، فيقع في واجهة حي البيازين، على طريق ساكرومونت، في منزل قديم هو منزل آل ثفرا Zafra الذين كان عميدهم فرناندو دي ثفرا سكرتيراً للملكين الكاثوليكين، واشترك في وضع معاهدة السليم.
- وهو يحتوي على طائفة كبيرة من اللوحات الخشبية والزخامية والأقواس، وقطع عديدة من أبواب وشبابيك عربية، ومنها عدة لوحات زخامية من مدرسة غرناطة من بينها بضع قطع من لوحة إنشائها على يد السلطان يوسف أبي الحجاج، وفيها لن إنشاءها قد تم في المحرم سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م)، وباقيها آيات قرآنية. كما توجد قطع زخرفية عديدة تمثل نماذج الزخارف الإسلامية في غرناطة، وغيرها من مدن الأندلس، في عصرها الأخير^(١).

^(١) وقد نشر الأستاذ ليفي بروهسال في كتابه Inscriptions Arabes d'Espagne صور كثير من القروح الموجودة في هذين المتحفين.

PDF Eraser Free

وإلى جانب هذين المتحفين الهامين، يوجد متحف ثالث للصورة هو القائم في الدار المعروفة باسم Casa de los Tiros "دار الرماية"، وهي دار أندلسية قديمة، واقعة في شارع Pavaneras، وتحتوي على عدة أبياء عرضت بها طائفة من الصورة، من بينها عدد من الصور التاريخية، التي كانت تحفظ من قبل بمتحف جنّة العريف. وكان قصر جنّة العريف، على مثل قصر الحمراء، يضم متحفاً في الطابق الأعلى منه، في الجناح المعروف بجناح الملكية إيسابيلا. ويحتوي هذا المتحف على مجموعة تاريخية من الصور، منها صورتان للملكين الكاثوليكين، وصورتان لأبي عبد الله آخر ملوك الأندلس كلاًهما لمصور مجهول، وإحدهما توجد بالمتحف منذ عهد بعيد، ويشك في أنها صورته، ويقال إنها صورة المتوكل ابن هود، والأخرى أهديت إلى المتحف، من أسرة "فرناندث جيرار" الغرناطية، وقد كانت تحتفظ بها من أجيال، وسيف أبي عبد الله، وصورة يحيى النبار بطل المربة، وشجرة نسب لملوك سرقطة وغرناطة، وصور آل بنيغش الذين عاشوا حيناً في القصر. وكان قصر جنّة العريف ومحتوياته، ملكاً خاصاً لأسرة إسبانية إيطالية هي أسرة Durazzo Pellivinci ففي سنة ١٩٢١ ألفت هذه الأسرة مع السلطات المسؤولة، على تسليم القصر إلى الحكومة الإسبانية، واحتفظت بمعظم محتويات المتحف المذكور من لاث وصور، ونقلتها إلى إيطاليا، وكان منها فيما يظهر صورة أبي عبد الله، وعلى أية حال فإنه لا يوجد اليوم في متحف دار



متحف الحمراء، زلعة خزفية رائعة الزخرف

الرماية "بغرناطة، من محتويات جنّة العريف السابقة، سوى صورتَي الملكين الكاثوليكين، وصورة أبي عبد الله المهدلة من أسرة فرناندث جيرار" وهي صورة حجمها ٤٠ × ٢٧ سنتيمتراً، وفيها صورة نصفية لأبي عبد الله، ويبدو فيها وعلى رأسه تاج، وفي عنقه سلسلة، هي عنوان أسره؛ لأنها صورت أثناء أن كان في أسر الملكين الكاثوليكين بقرطبة بين سنتي ١٤٨٣ - ١٤٨٥ م^(١)، وصورة السيد أسرة بنيغش الأندلسية المنتصرة Los Venegas المسمى سيدي يحيى، أو الشوق بيدور دي جرانادا أُنجلِس، وهي كبيرة الحجم، وفيها يبدو بملابس عسكرية قشتالية مزركشة، وتبدو على محياة مسحة المسلمين، وقد أمسك سيفه بيده.

^(١) نشرنا صورتَي أبي عبد الله، الأولى في فاتحة الكتاب، والثانية في مجموعة الحمراء بعد ص ٢٠٨

PDF Eraser Free

والخيرًا يوجد متحف البلدية، عرضت فيه بعض الصور، ومنها صورة كبيرة حديثة للمصور Paradillo (سنة ١٨٨٢)، عُرض فيها منظر خيالي لتسليم غرناطة، وفيه يبدو أبو عبد الله ركبًا جواده، ومن وراءه بعض جند معتمين، وقد ارتدى عباءة سوداء، وأمسك بيده مفتاح المدينة، وأمامه في الناحية الأخرى الملك فرديناند ركبًا جواده، وإلى جانبه الملكة إيسابيلا فوق جواده. تحف بهما طائفة من السادة والجنود النصاري.

وعناية السلطات في غرناطة بأمر المتاحف، ترجع إلى نفس الفكرة التاريخية، وهي الحرص على جمع سائر الآثار والتحف، التي تتعلق بعصر الفتح والاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الأندلسية.

وصف الغزال لغرناطة

وقد ترك لنا الغزال الغاسي، الذي زار إسبانيا في سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) سفيرًا من قبل سلطان المغرب المنصور بالله أبي عبد الله، إلى ملك إسبانيا كارلوس الثالث، وتجوّل في قواعد الأندلس الذاهبة - وصفًا لمدينة غرناطة وآثارها، يقول فيه: إنها تقع على مقربة من واد منبسط فيه أجنة من الزيتون والكروم وجميع الفاكهة، وبساتين عظيمة، مما يدل على أن مرج غرناطة، كان ما يزال حتى ذلك العصر محتفظًا بخصبه ونضرتة، ثم يقول: إنه رآها تخالف سائر المدن الإسبانية التي زارها في بنين دورها وشوارعها، وأنها مازالت على حالها التي كانت عليه في الإسلام، وهي أقرب المدن شبهًا بقلن، في بنائها وجريان الأودية بجدرانها، ثم القناطر المضروبة عليها، وما اشتملت عليه النيار من الخصاص والتزييج والدرايز من اللوح المستتيرة بمباحات الطبقة الثنية، المشرفة على صحن الدار، والبيوت والغرف والسقوف والأبواب، كل ذلك مشاكل لمدينة قلن.

ثم يذكر لنا الغزال أنه توجد بغرناطة عدة مساجد صارت كنائس، ولها قباب، وفي صحنونها أنشئت المصليات النصرانية، ويفيض في وصف "الجامع" الذي به مقابر ملوكهم، ووصف قبته العظمى، وما بها من تصاوير وصلبان (وهو يقصد بلا ريب الكنيسة لـ أو الكنيسة العظمى التي بها قبر فرديناند وإيسابيلا)، بيد أنه يقول لنا إنه رأى بالمدينة في نفس الوقت، بعض المساجد التي بقيت على بنائها الإسلامي.

ويصف الغزال بعد ذلك وادي شليل، وما يحتويه من الحدائق والمنتزهات والمقاصد الكبيرة، وما يمتاز به من كونه منتزه أهل غرناطة، ومسرح أسماهم في الليالي الصافية^(١).

ويبدو من أوصاف الغزال، أن غرناطة كانت ما تزال حتى لواخر القرن الثامن عشر، تحتفظ بكثير من خططها ومظاهرها الأندلسية، والواقع أن معظم التغييرات والإصلاحات الحديثة، التي طرأت على خططها ومعالها قد وقعت منذ أوائل القرن التاسع عشر، أي بعد العصر الذي يتحدث عنه الغزال بنحو نصف قرن.

^(١) رحلة الغزال الثالثة لذكر من ٨١ - ٨٣.

قصر الحمراء

Alhambra

إن أول ما تضطرم به مخيلتك، حينما تصل إلى مدينة غرناطة، هو أن ترى درة الأثر الأندلسية الفريدة - قصر الحمراء، وهو الذي حرف الإسبان اسمه، فأصبح يعرف في العالم الغربي باسم Alhambra.

وقصر الحمراء لا يرى من داخل المدينة لأول وهلة، ولكنك تستطيع متى جئت إلى الميدان الجديد Plaza Nueva، وسرت في طريق نهر "حذرة" Carrera de Darro، أن ترى إلى يمينك أبراج الحمراء مشرفة من هضبتها العالية، على مجرى النهر القديم الذي غطي معظمه الآن.

ومن الميدان الجديد، يسير المرء في طريق صاعدة تسمى "مرتفع بني شعارة" C. de Gomeres، حتى باب القصبية الأول المسمى "باب الزمل" Puerta de Granadas، ومنه تدخل هضبة الحمراء.

وباب الزمان ليس من أبواب الحمراء الأندلسية، ولكن بُني في عهد الإمبراطور شارلكن على طراز عصر الإحياء، وهو عبارة عن عقد حجري ضخم، يقوم طرفاء على عمودين كبيرين، وقد نصبت في أعلاه ثلاث زملات على هيئة منقش. وكان يسمى في البداية "باب بني شعارة"، ولكن سُمي فيما بعد باسمه الحالي وهو "باب الزمل"، وهو شعار غرناطة المشتق من اسمها.

وتبدو من وراء باب الزمان عتبة رائعة، تحرك بالشجارها الباسقة، وخريز الماء المتدفق في جوانبها، وشو البلال التي تملأ الحاصلها، وتتفج أمامك ثلاثة طرق عريضة، يقضي أولها وهو الأيمن إلى "الأبراج الحمراء"، والأوسط إلى قصر "جنة العريف"، والثالث وهو الأيسر يقضي إلى "باب الشريعة" أول أبواب الحمراء.

والطريق المقضي إلى باب الشريعة، طريق صاعد مجهد، صفت على جانبيه المقاعد الحجرية، وقد أنشئ في ناحيته اليسرى قبيل الباب بقليل، حوض مستطيل مزخرف نقشت فوقه صور لبعض الأساطير اليونانية، وهو يرجع إلى عصر الإمبراطور شارلكن.

PDF Eraser Free



غرناطة. باب الرمان منخل الحمراء الرئيسي



الحمراء. ميدان باب الشريعة عند نهاية الطريق الصاعد

PDF Eraser Free

ويجب أن نذكر أولاً، أن هذه الغاية الفخمة، وطرقها العريضة الرائعة هي من عمل الإنسان، ولم تكن موجودة أيام المسلمين، بل كانت هذه الرقعة الثمانية التي تشغلها الآن، أرضاً براراً في أسفل الحمراء، كانت تسمى في ذلك العصر "بالسيكة"، وهو اسم يتردد كثيراً في أخبار مملكة غرناطة، ولا سيما في عصرها الأخير.

وفي منتصف هذا الطريق الصاعد، يوجد ميدان صغير يطل عليه باب الشريعة، وهو أشهر أبواب الحمراء، وهو اليوم منخلها الرئيسي، وقد كان هذا الباب كما يدل عليه اسمه مجازاً لذوي المظالم، وفي الساحة التي تليه يجلس السلطان أو نائبه للفصل في المظالم في يوم معين، جرياً على تقاليد خلفاء الأندلس وملوكها السابقين.

ويبلغ ارتفاع باب الشريعة نحو خمسة عشر متراً، وقد صنع عقده المزخرف على مثل حدود الجواد، ونقش على قوسه سطران، كتب فيهما بخط أندلسي متشابك، اسم منشئه وتاريخ إنشائه على النحو الآتي:

"أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة، أسعد الله به شريعة الإسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافي الله في الإسلام صدائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية، فتمس ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عزاً وافية وكتبه في الأعمل الصالحة الباقية".

ويوافق هذا التاريخ "٧٤٩ هـ" سنة ١٣٤٨ م. والسلطان يوسف أبو الحجاج المشار إليه، هو أعظم سلاطين مملكة غرناطة، وقد حكم من سنة ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م، وهو الذي شيد أجمل وأفخم أجنحة الحمراء.

ووراء باب الشريعة مجاز معقود، به في الناحية اليمنى محراب وضع فيه تمثال للعداء، وفي نهايته مصلب أقيم به هيكل، وقد صنعت به لوحة رخامية تشير فيها إلى حصار غرناطة، وسمايتها الملكين الكاثوليكين في ٢ يناير سنة ١٤٩٢.

PDF Eraser Free



الحمراء، باب الشراب



الحمراء، باب الشريعة



الحمراء، برج الحراسة أعظم أبراج القصبة

PDF Eraser Free

وبلى ذلك درب صغير يتجه غربًا، وقد أقيمت على جانبه الأيمن بضعة حوائط لبيع الصور والتحف الغرناطية. ثم يتجه شمالًا، وفي نهايته من الناحية اليسرى، يوجد باب معقود أطلق عليه اسم "باب النبيذ" أو باب "الشرب" Puerta del Vino، وكان أيام المسلمين يسمى باب غرناطة أو باب الحمراء، ولذا نعرف سبب تسميته بهذا الاسم.

وفي شمال هذا الدرب الصاعد، يطالعك ميدان شاسع أطلق عليه الإسبان اسم "ميدان الأجناب" Plaza de los Aljibes. ومنه ترى لأول مرة أهم مجموعة من الصروح والأماكن الأثرية التي تضمها قصبة الحمراء.

فإلى يمينك ترى القصر الذي أنشاه الإمبراطور شارلكان، في جنوب قصر الحمراء، وإلى يمينك ترى الساحة التي يطلق عليها اسم "القصبة" أو الحصن، وفي نهايتها البرج الضخم الذي يسمى "برج الحراسة" Torre de la Vela، وهو من أعظم أبراج الحمراء، وهو يشرف عاليًا على مرج غرناطة كله. وهذا البرج هو الذي اختاره الإسبان عند دخولهم لرفع الصليب، وما يزال هذا الصليب الذي وضع في أعلاه يوم دخول الإسبان غرناطة قائمًا في مكانه، وهو صليب خشبي كبير وضع في الزاوية الشمالية.

وأمامك ترى جانبًا من قصر الحمراء. وهو الذي يسميه الإسبان "القصر العربي" Palacio Árabe.

* * *

أجل هذا هو قصر الحمراء.

هذا هو قبله الرواد من سائر أنحاء الأرض، وهذا هو خاتمة المطاف لرواد إسبانيا ورواد الأندلس.

أجل هذا كانت ثمة مملكة، وكان ثمة ملك وعرش، وبين جدران هذا القصر، كان يقام سلاطين مملكة غرناطة الإسلامية آخر الممالك الأندلسية، وهذا كان رجالاً هذه الأندلس الأخيرة، يوجهون مصائر شعب عظيم مسلم. أجل كانت الحمراء معقل مملكة إسلامية عظيمة، استمر تاريخها يدوي في الأفق، زهاء مائتي عام، وعنوان مدنية إسلامية زاهرة، تركت آثارها الخالدة في الربوع التي تألفت فيها. ثم كانت الحمراء بعد ذلك قبراً لهذه المملكة وهذه المدينة. وفي بعض ليله الحمراء وقع أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس ووزرائه، معاهدة تسليم غرناطة والحمراء، وحكموا بذلك على دولتهم بالمحو، وعلى أمتهم بالقضاء.

وبين هذه الجدران الصامتة، التي يكاد الأسى يرسم على رخايفها العربية، ونقوشها الإسلامية، يضطرم الخيال بهذه الفكر وأمثالها، بل يكاد الذمغ يغالبك وأنت تجوس خلال هذه

PDF Eraser Free

الأهباء الملوكية الفخمة، وتقرأ في كل ركن منها تلك العبارة الموسومة، التي لبثت شعار بني نصر ملوك غرناطة حتى انتهاء دولتهم!

"ولا غالب إلا الله"

ولا بد لنا قبل أن نجوز إلى داخل هذا القصر الملكي، الذي يضم تاريخ مملكة بأسرها، أن نقول كلمة عن تاريخه.

إن قصر الحمراء لم يكن سوى جزء صغير فقط، من مدينة الحمراء أو كما تسميها الرواية الإسلامية "قصة الحمراء". وكانت القصة تشمل عادة قصر الحاكم والقلعة أو القلاع التي تحميها، ونور الوزراء والحاشية. وأحياناً تنمو هذه المجموعة حتى تغدو قاعدة ملوكية محصنة. وكان هذا شأن الزهراء، التي أنشأها الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر، في أواسط القرن الرابع الهجري، وكذا كان شأن مدينة الزاهرة، التي أنشأها المنصور بن أبي عامر (الحاجب المنصور) عقب إنشاء الزهراء في سنة ٣٦٨ هـ. وعلى هذا المنوال نشأت الحمراء، ونمت وتطورت، حتى أصبحت مدينة ملوكية حقة.

ويرجع قيام الحمراء إلى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). فإن الرواية الأندلسية تشير إلى قلعة تسمى قلعة الحمراء، بنيت فوق الهضبة الواقعة على ضفة نهر حדרه اليسرى، وكان لها شأن أيام الحروب الأهلية، التي اضطرت في منطقة غرناطة، بين العرب والبربر والمولدين في هذا العصر. ولما تولى باديس بن حبوس زعيم البربر حكم غرناطة، على أثر قيام دول الطوائف في أوائل القرن الخامس، أنشأ سوراً منيعاً حول الهضبة التي تقع عليها قلعة الحمراء، وأنشأ داخله قصراً ومركزاً لحكومته، وسميت بالقصة الحمراء، وشدت هذه القلعة معقل غرناطة الرئيسي.

ولما غلب محمد بن الأحمر النصري على غرناطة سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) اتخذ مركزه في "القصة"، وأنشأ داخل أسوارها قصره المحصن الذي أطلق عليه اسم الحمراء القديم، واتخذ قاعدة للملك، وجنب إليه الماء من نهر حدره، وأنشأ حوله عدة أبراج منيعة، منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة T. de la Vela الذي سبقت الإشارة إليه، وابنتى حوله سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة. ومن المرجح أنه بنى مسكنه الخاص في الجنوب الغربي من الحصن، أعني في نفس المكان الذي يقوم عليه اليوم قصر الإمبراطور شارلكن. وسميت القصة الجديدة "بالحمراء"، جريئاً على اسمها القديم، الذي هو أصل التسمية. ومن الخطأ أن يقال إن إطلاق اسم "الحمراء" عليها، يرجع إلى اسم منشئها "ابن الأحمر" أو أنه يرجع إلى لون الأجر الأحمر الذي بنيت به الأسوار الخارجية؛ ذلك لأنه ثبت أن هذا اللون الأحمر الذي نبدو به الأسوار، يرجع إلى العصر الحديث، وأنه من صنع الإسبان.

PDF Eraser Free

وفي أواخر القرن السابع الهجري، أنشأ محمد بن محمد بن الأحمر ثلثي سلاطين غرناطة، الملقب بالغالب بالله، الحصن الجديد والقصر الملكي، وأنشأ ولده محمد إلى جوار القصر مسجدًا، هو الذي تحتل موقعه اليوم كنيسة "سانتا ماريا". ثم جاء السلطان أبو الوليد إسماعيل، فراد في القصر وفي تجميله. بيد أن الحمراء تدين بفخامتها وروعيتها بالأخص إلى ولده السلطان يوسف أبي الحجاج، المالك الشاعر والفنان الموهوب، فهو الذي بنى معظم الأجنحة والأبهاء الملوكية. التي مازالت تسبع على الحمراء روعتها الخالدة، وهو الذي ألحق عليها زواجر الفن والزخرف، وبنى باب الشريعة الشاهق الذي سبقت الإشارة إليه.

وتقع مدينة الحمراء فوق هضبة مرتفعة، يبلغ طولها ٧٣٦ مترًا، وعرضها نحو مائتي متر، وبحيط بها سور ضخيم بقيت منه إلى اليوم أجزاء كبيرة. ويتخلل السور عدة أبراج ولباب بقي معظمها إلى اليوم. وأهم أبراجه الباقية: هي برج الحراسة الواقع في الطرف الغربي من الهضبة، وهو الجزء الذي مازال يسمى إلى اليوم "بالقصة"، وبرج قمارش Torre de Comares، الواقع فوق قاعدة السفراء التي سبقتي ذكرها، وبرج المنزّين T. del Peinador، وبرج العقائل T. de las Damas، وبرج الأكل T. de los Picos، وبرج الأسيرة T. de la Cautiva، وبرج الأميرات T. de las Infantas. وهذه الستة الأخيرة تقع كلها في شمال الهضبة، وتطل على غرناطة والمرج La Vega. وبرج الماء T. del Agua، وهو يقع في طرف الهضبة الشرقي، وبرج الرعوس T. de las Gabezas، وهو يقع في جنوب الهضبة. ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأسماء هي من وضع الإسبان. وأما أهم أبواب الحمراء الباقية، فهي باب الغدور Puerta de las Pozas، وباب الطبايق السبع Puerta de Siete Suelos، وبرجه المسمى بهذا الاسم، وهو الباب الذي تقول الرواية إن أبا عبد الله آخر ملوك الأندلس استقبل فيه الفاتحين يوم التسليم وطلب أن يُبنى مكانه حتى لا يجوزة إنسان بعده، وقد نزل الإسبان عند هذه الرغبة وبُني الباب، وهو يبدو اليوم مغلقًا ببناؤه القديم. وباب الشريعة الذي سبقت الإشارة إليه. وكلاهما يقع في جنوبي الهضبة. وباب السلاح Puerta de las Armas الواقع في شمال القصبة على مقربة من برج الحراسة، وباب الشبذ الذي سبقت الإشارة إليه وهو داخل الأسوار.

PDF Eraser Free

وتقع بعد "القصبه" في الطرف الغربي من الهضبة، قلعة قديمة تسمى "حصن الأبراج الحمراء" Castillo de Torres bermejas.

وموقع هضبة الحمراء ذو جمال طبيعي نادر، فهي تشرف من الشمال والغرب من موقعها المنيع الشاهق، على مدينة غرناطة، وعلى فحوصها أو مرجها الشبير La Vega وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرا Nevada، التي تعرف في الرواية الأندلسية بجبل شبير أو جبل النج، وهي أقرب ما يكون إلى أحياء المدينة من جانبها الشمالي الغربي، إذ تشرف من عل على مجرى نهر حذرة وعلى حي البيارين.

* * *

ولنعد الآن إلى قصر الحمراء.

إن قصر الحمراء، أو بالحري ما تبقى منه، هو أعظم وأروع الآثار الأندلسية الباقية، كما أنه يعتبر من أروع الآثار الإسلامية، التي لبقت عليها حوادث الزمن. وهو يبنو بعقوده وسقوفه ذات الزخارف البديعة، وأعمدته الرخامية الرشيقة، وأناقته المتناهية، من أجمل ما تقع عليه العين من الصروح الأثرية، وهو مشرق منير بغمرة الضوء والهواء. بيد أنه مما يسترعي النظر أن هذا الإشراق، تطبعه لمحة من الأسى والكتابة، يحس بها المتأمل في جنباته الصامتة، وكأنه إنما يرتك في حمرة وأسى إلى عهد السيادة والعزة، أيام أن كان قاعدة الملك لمملكة عظيمة.

ويطلق الإسبان على قصر الحمراء، اسم القصر العربي Palacio Arabe ويجوز الزائر إليه من مدخل متواضع، يقع في مواجهة قصر الإمبراطور شارلكان، وتقع إلى يمين ويسار هذا المدخل عدة أبواب عليها يشغلها "متحف الحمراء".

ويمكن أن نقسم إبنية قصر الحمراء إلى جناحين كبيرين: الأول، جناح قمارش الذي يضم قاعة السفراء وبرج قمارش الذي يعلوها وجناح الأسود الذي يتوسطه فناء الأسود. وسوف نتناول تباركاً كل جزء من أجزاء القصر بالوصف، ثم نورد ما رسم على جدرانه من نقوش.

فناء الريحان

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر، وتتقدمه الساحة المعروفة باسم فناء البركة Patio de Alberca، أو فناء الريحان Patio de los Arrayanes. وهو عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف، تتوسطه بركة من الماء، تظللها أشجار الريحان، وهو يستقي منها اسمه الحالي. والظاهر أن هذه الأشجار كانت تزرع من قديم على حافة الماء في هذا الفناء. وقد نُقشت في زوايا فناء الريحان العبارة الآتية: "النصر والتمكين، والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين".

والآية الآتية: "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم".

ونُقشت على الإفريز الرخامي الأوسط لهذا الفناء، قصيدة من اثني عشر بيتاً رباعية، وبها كثير من الأغلط. ويرجع ذلك كما سنرى، إلى أن كثيراً من نقوش الحمراء الحالية هي من صنع محدث، نقلت بالرسم عن النقوش القديمة، تحت إشراف الأثريين الإسبان، وتسربت إليها عند النقل أغلط كثيرة. وهذا مطلع القصيدة المشار إليها:

فبارك من ولاك أمر عباده	فلولى بك الإسلام فضلاً وأعمالاً
فكم بلدة لل كفر صبحت أهلها	وأصبحت في أعمارهم متحكماً

ومنها عن يمين الباب الشمالي المفضي إلى البهو المجاور:

ولو خير الإسلام فيما يريد	لما اختار إلا أن تعيش وتسلم
لقد لاحت أنوار الجلال ببابك	يقتز منها الندى بشراً والنسما
وتلك آثارها في كل مكرمة	لدى ولوضح بذراً إذا انتظما

وعن يسار الباب:

فيا ابن العلي والحلم والبلد والندى	ومن فلق آفاق النجوم إذا انتما
طالعن بلفق المليك رحمة	لجاسو ما قد كان بالظلم لظلم
فأمنت حتى الغصن من نفحة الصبا	وأرهبت حتى النجوم في مجد السما
فإن رهشت زهر النجوم فخيفة	وإن سال حصن البان شكرك يما

وقد نُقشت فوق الآليات المذكورة وتحته عبارة "ولا غالب إلا الله" باستمرار.

وفي النهاية الجنوبية لهذا البهو، يوجد باب عربي ضخمة، هدمت الأبنية التي كانت من ورثته، ولم يبق منها سوى بقية خربة، وتوجد في هذه الأطلال بعض النقوش، منها "ولا غالب إلا الله" "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله". ويظن أن هذه الأطلال هي بقية الجناح

PDF Eraser.Free

السلطاني الخاص، وهو الذي هدمه الإمبراطور شارلكن فيما بعد، ليُفتح مكانًا لقصره الذي ابتداءً إلى جوار الحمراء.

ويُفضي باب فناء الريحان الشمالي، إلى بهو صغير يسمى بهو البركة، به قبلة زينت بنقوش جميلة، وقد نُقش على جانبها الأيمن ما يأتي:

أنا محلاة عروس	ذات حسن وكمال
فلنظر الإبريق تعرف	لمنل صدقي في مقال
واعتبر رثاجي تجده	مشبهًا تاج الهائل
وابن نصر شمس فلك	في ضياء وجمال
دام في رفعة شأن	أمنًا وقت الزوال
وعلى جانب القبلة الأيمن ما يأتي:	
وأنا فخر الصلاة	سمعت سمعت السعادة
تحتسب الإبريق فيها	قايمًا بقضي عبادة
كلما تفرغ منها	وجفت فيها الإحادة
وبمولاي ابن نصر	شرفه الله عبادة
قد نماء سيد الخز	رج سعد ابن عبادة

PDF Eraser Free



الحمام، ساحة البركة (أو فناء الريحان)



الحمام، قاعة الأخشاب

بهو السفراء

ويفضي هذا البهو الذي يلي فناء الريحان، من الناحية الشمالية، إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء، وهو البهو المسمى بهو قمارش أو بهو السفراء Salón de Embajadores. وبهو قمارش هو أعظم أبهاء الحمراء، من حيث سعته وارتفاع قبة الشاهقة، وهو عبارة عن مستطيل مساحته نحو ثمانية عشر مترًا في أحد عشر، وله قبة خشبية فخمة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرين مترًا، وقد حفر في زخارفها على شكل النجوم، وزخرفت الجدران على نفس الطراز، وفي هذا البهو كان يعقد مجلس العرش، ويعلم بهو السفراء برج قمارش، وهو مستطيل في مثل مساحته.

وقد بدأ بإنشاء قصر قمارش السلطان أبو الوليد إسماعيل في أوائل القرن الثامن الهجري، وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج، فأنشأ برج قمارش وبهو، وأنشأ جناح الحمامات السفلى القريب منه، وأنشأ ولده محمد الغني بالله بهو البركة الذي سبق وصفه، كما أنشأ قصر السباح الذي نَصِفُه بعد.

وأروغ ما في بهو قمارش زخارف قبة، التي لبثت محتفظة بنقوشها الأصلية، أما نقوش الجدران، فلها مع جمالها، ليست إلا تجديدًا مقلدًا لنقوشها القديمة، قام به الفنانون الإسبان. وقد نُقِشت في عقد باب بهو السفراء العبارات الآتية: "الحمد لله على نعمة الإسلام" "عز لمولانا أبو الحجاج عز نصره".

ونُقِشت الآيات الآتية في جانب العقد الأيمن بعد عبارة "الحمد لله":

فقلت الحسان بحليتي وبتاج	وهوت إلى الشهب في الأبراج
يبدو لواء الماء في كعابدي	في قبلة المحراب قام بتاج
ضمنت على مر الزمان مكارمي	ذي الألوام وحاجسة المحتاج
فكلني استقرت آثار الندي	من كف مولانا أبي الحجاج
لا زال بدرًا في سلمي لا يحا	ما لاح بدر في الظلام الداج

ونُقِشت الآيات الآتية على جانب العقد الأيسر بعد عبارة "الحمد لله":

رقمت أنامل صناعي ذيلاجي	من بعد ما نظمت جواهر تاج
وحكيت كرسى العروس وزنته	لبي ضمنت سعادة الأزواج
من جاعني بشكر الظما فموردي	صرفت الزلال العذب دون مزاج
فكلني قوس الغمام إذا بدا	والشمس مولانا أبو الحجاج
لا زال محروس المهابة ما غدا	بيت الإله مثابة الحجاج

PDF Eraser Free

ونقش في الدائرة العليا للهيو، العبارة الآتية مكررة باستمرار "عز لمولانا السلطان أبي الحجاج".

ونقشت في أسفل مدار القبة بحروف بيضاء نص صورة تبارك كلها. ولولها ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خائباً وهو خبير.﴾

ونهيتهما: ﴿ قل أرأيتم إن أهلكنني الله ومن معي أو رحمتنا فمن ينجي الكافرين من عذاب أليم. قل هو الرحمن أمناً به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين. قل أرأيتم إن أصبح مآلukum غوراً فمن يأنبكم بما معين.﴾

ونقرأ في جدار المشرقية، وهو الجدار الشمالي للهيو هذه العبارة منقوشة في أسلاك النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين نصره الله مكررة مراراً. ثم نقرأ كذلك هذه العبارة في النوازل العليا لجدران الهيو مكررة: "عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبي الحجاج عز نصره".

ونقش في محيط الهيو بكثرة ظاهرة شعار بني نصر: "ولا غالب إلا الله".

ونقشت الأبيات الآتية في إحدى فجوات القبة السفلى:

تحييتك من حين تصبح أو تمشي	تغور المنى واليمن والسعد والألمس
هي القبة العليا ونحن بذاتها	ولكن لي التفضيل والعز قبي جنسي
جوارح كنت للقلب لا شك بينها	وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس
وإن كل أشكالي بروج سماتها	ففي عدا ما بينها شرف النفس
كساني مولاي المؤيد يوسف	ملابس فخر واصطناع بلا لبس
وصيرني كرسي ملك فأبيت	علاء بحق النور والعرش والكرسي

ونقشت في الفجوات الأخرى مقابل هذه الأبيات العبارة الآتية "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المسلمين بإذن الله أمره وعز نصره".

* * *

ويفضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلي يعرف بفناء السرو، وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو. وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر، فهو من صنع الإسبان.

PDF Eraser Free

والى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية، وهو عبارة عن عدة حمامات رخامية تتخللها أبنية صغيرة، وما زالت بها أماكن الأحواض ظاهرة، وكذلك أماكن المولير والصنابير، ولا يخلو هذا الجناح أيضًا من بعض النقوش، فمنها عبارة "ولا غالب إلا الله" و"الله عذو لكل شدة" و"النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين".

وفي نهاية هذا الجناح من الداخل نقش في فجوة صغيرة من الرخام قصيدة من سنة أبيات أولها:

أعجب شيء حادث لو قديم مرابض الأسد بيت التميم
وأخرها:

من كلبى الحجاج سلطاناً لازال فى نصر وفتح عظيم

قاعة الأختين

وتقع شرقي فناء البركة قاعة الأختين، وتصل إليها من باب الفناء الشرقي، من رواق طويل مظلم. وقد سميت بهذا الاسم - قاعة الأختين Sala de las dos Hermanas - لأن أرضها تحتوي على قطعتين من الرخام فريديتي في ضخامة الحجم، وقد نقش عند مدخلها بالكوفية "ولا غالب إلا الله" مكررة ونقشت هذه العبارة أيضًا حول جدرانها في أسفل وأعلى، ونقش تحتها هذه الأبيات وهي مقبسة من قصيدة الوزير ابن زمرق الشهيرة في وصف الحمراء وهي:

تبيت له خنس الثريا معبد ^(١)	ويصبح معقل النوليم رواقها
فبين يدي مولاي قامت لخدمة ^(٢)	ومن خدم الأعلى استقاد المعالي
وكم من قسي في ثراء ترفعت	على عمد بالنور باتت حواليا
به المرمر المجلو قد شف نوره	فيجلو من الظلماء ما كان داجيا ^(٣)

وكذلك نقش على الجدران هذه العبارة مكررة: "النصر والتمكين لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين".

(١) في نقوش هذه القصيدة تحريف، ويورد المقري هذه الشطرة كالآتي: تبيت لهم كف الثريا معبد.

(٢) وصحة الشطرة وفقًا للمقري "فبين يدي مثلك قامت لخدمة".

(٣) راجع قصيدة ابن زمرق بأكملها في فتح الطبيب (بواقي) ج ٤ ص ٧٠٥ - ٧٠٩.

فناء الأسود

وتنحني قاعة الأخشين من بابها الجنوبي: إلى أجنل وأشهر أجنحة الحمراء، ونعني فناء الأسود أو بهو الأسود وما إليه.

وقد قام بإنشاء هذا القصر أو هذا الجناح، الذي يسبق على الحمراء أكبر قسط من الروعة والفخامة والبهاء، السلطان محمد الغني بالله الذي تولى العرش في سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) وتوفي سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م)، والذي مازال اسمه مثلاً في مواضع كثيرة من هذا الجناح.

ويعتبر فناء الأسود أو كورة السباح "Patio de los Leones"، بطراز المصقول، وقبابه المضلعة، وأعمدته الرشيقة، وزخارفه البديعة، وناقورته الفريدة التي تحملها الأسود، أروع أجنحة الحمراء، وأوفرها رواء وسحرًا. وهو عبارة عن فناء مستطيل مكشوف طوله خمسة وثلاثون مترًا وعرضه عشرون، تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود، تحملها مائة وأربعة وعشرون عمودًا من الرخام الأبيض، صغيرة الحجم، متناهية في الجمال والرشاقة، وعليها أربع قباب مضلعة، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل، ثلثان منها تتقابلان شرقًا وغربًا، والأخريان تتقابلان شمالًا وجنوبًا، وهي متعائلة الصنع والزخرف كأنها رواشن، ويحمل كل منها عدد متمثل من الأعمدة.

وفي وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة، وهي عبارة عن نافورة ماء، يحمل حوضها المرمري المستدير الضخم اثنا عشر لنداء صفت على شكل دائرة، ونحتت من الرخام الأبيض الذي لمر بمضى الزمن، وهي ليست بارعة المطابقة، ولكن تبدو عليها مخالل التوثب والشجاعة.



الحمراء، جقب من عقود فناء الأسود

PDF Eraser Free

وتوجد في فناء الأسود طائفة من النقوش التي كتبت بالخط النسخ أو الكوفي الجميل،
على الجدران والأعمدة والنافورة تفصلها فيما يلي:
نقش شعار بني نصر "وَلَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ" بالنسخ والكوفي، في الجانب القبلي وراء الأعمدة،
وفوق رأس كل عمود من الأعمدة التي تحمل القبة، وكذلك على رؤوس جميع العُمد الأخرى.



الحمراء، قبة فناء الأسود الوسطى المواجهة للنافورة

ونقشت العبارة الآتية على كل عمود ثان: "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله".
ونقش على الأعمدة التي تحمل القبة المواجهة -أي القبة البحرية- "وَلَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ".
"وَلَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ". ونقش على رؤوس الأعمدة في المجموعتين الآخرين "عز لمولانا
السلطان أبي عبد الله الغني بالله".
ونقش في الداخل، وراء القبة، في صدر البهو الصغير الذي يلحق بالفناء من الناحية
البحرية العبارات الآتية: "أبو عبد الله أمير المسلمين". "النصر والتعكين والفتح المبين لمولانا
أمير المسلمين". "وَلَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ".

PDF Eraser Free

ونقش على رءوس مجاميع الأعمدة التي تزيد عن اثنين ما يأتي: "عز لمولانا السلطان العادل المجاهد أبي عبد الله الغني بالله".

وإلى جانب هذه الأعمدة التي تشيد بذكرى منشي هذا القاء، قد نقشت قصيدة رائعة فوق دائرة صحن الدافورة التي تحملها الأسود، تضم اثني عشر بيتاً وهي من نظم الوزير ابن زمرك، ومنها أبيات وردت في قصيدته في وصف الحمراء، وهذا نصها:

تبارك من أعطى الإمام محمداً	مغاني زانت بالجمال المغاني
وإلا فهذا الروض فيه بدائع	أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانياً
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها	تحلى بمرفض الجمال النواحي
يذوب لجين سأل بين جواهر	لها مثلاً في الحسن أبيض صافياً
تشابه جوار العيون بهامد	فلم ندر لئلا منهما كان جارياً
ألم تر أن الماء يجري بصفحتها	ولكنها منبت عليه المجارياً
كمش محب فاض بالدمع جفنه	ولخص بذلك الدمع إذ خاف وثراً
وهل هي في التحقيق غير غمامة	تفيض إلى الأسد منها السواقيا
وقد أثبتت كيف الخليفة لا طبت	تفيض إلى أسد الجهد الأوابيا
فيا من رأى الأسد وهي روابض	عداها الحيا عن أن تكون عوابيا
ويا وارث الأنصار لا عن كلاله	ترك جلال يستخف الزوابيا
عليك سلام الله فسلم مخلداً	تجدد أعيناً وبالي أعابيا

قاعة بني سراج

وفي منتصف الداحية الجنوبية من بهو الأسود، يوجد مدخل قاعة بني سراج "Sala de los Abencerrajes"، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة، التي لعبت دوراً كبيراً في حركات غرناطة الأخيرة، ويقول البعض إن اسم الأسرة هو "بنو السراج" وليس بني سراج، وهذه القاعة عبارة عن مستطيل مساحته نحو اثني عشر متراً في ثمانية، شطبت أرضه بالرخام المرمرى، وفوقه قبة عالية، مضغوطة الدائرة، وفي جوانبها كوات صغيرة هي التي تمتد للقاعة بالضرورة، وفي كلا الجانبين الأيمن والأيسر عقد عربي بنيع، وقد زين عقد الباب وهو من الخشب المعقود، بزخارف عربية جميلة، وحفرت في داخل دائرة القبة مقرنصات مثلاة، ليحت هي زخارفها الأصلية، بل هي من صنع الإنسان، وترجع إلى القرن الثامن عشر، وقد نقش في دائرة القبة الوسطى عبارة: "ولا غالب إلا الله" بالنسخ والكوفي، ونقش في دائرتين في الجهتين اليمنى واليسرى، هذا البيت وهو من نظم ابن زمرك:

PDF Eraser Free

فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظلم عمود الصباح إذ لاح بانها
ونُقش في جدار الصدر في مواجهة الداخل هذا البيتان:
ثبتت له خمس الثريا معبدة ويصبح معقل النولسيم رواقيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك في أفق السماء جواريا
وهما أيضا من نظم ابن زمرك.

وفي وسط قاعة بني سراج، حوض نافورة مرمرية مستدير، وفي قاعه بعض بقع
داكنة ثابتة، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء أسرة بني سراج، الذين دبر لهم السلطان
كمينًا، واسترجعهم إلى الحمراء، ودبر مقتلهم في هذه القاعة واحدًا إثر الآخر.
وقد كان لهذه القاعة منذ آخر مواجه لمخلها، فسده الإسبان بالبناء.

قاعة الملوك

وفي الناحية الشرقية لفناء الأسود، متخل القاعة التي تسمى قاعة الملوك "Sala de
los Reyes" أو قاعة العدل، ومخلها عقد بديع مثث الجوانب، وبها ثلاث عقود أو حنايا.
رسمت في سقف الحنية الوسطى منها، صور عشرة سادة مسلمين يلبسون العمام، ويجلسون
على وسائل، ولهم لحي، وهياتهم تشع بالوقار والعزة. ويرى بعض الباحثين، أن هذه صور
ملوك غرناطة العشرة الذين سبقوا أبي عبد الله في تولى العرش، أولهم محمد الغني بالله،
وآخرهم السلطان أبو الحسن والد أبي عبد الله.

ونقشت في سقفي الحنيتين الآخرين، صور فرسان ومناظر فروسية، ومناظر صيد
يطارد فيها دب وخنزير.

ويرى فريق من الأثريين، أن المرجح في شأن هذه الرسوم أنها من صنع بعض
الفنانين النصراني، وقد رسمت قبل سقوط غرناطة، في القرن الخامس عشر.

منظرة اللندراخا

وفي شمال فناء الأسود، وشمال قاعة الأخوين، يقع البهو المسمى منظرة اللندراخا
"Mirador de Lindaraja". وقد اختلف في تفسير هذا الاسم. ويرى بعض المستشرقين
الإسبان، أنه في الأصل تحريف لثلاث كلمات عربية هي "عين دلة عائشة"، وأن عائشة هذه
كانت من ملكات غرناطة في القرن الرابع عشر الميلادي، (وهي غير عائشة الشهيرة والسدة
أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس) وأن كلمة عين، هنا تعني "نافذة". وهذه القاعة هي عبارة
عن بهو صغير مضلع، يفضي إليه رواق ذو نافنتين، ومخله عقد بديع الزخرفة، وله نافذة

PDF Eraser Free

ذات عقدين في أعلى، وعقدين آخرين على الجانبين، وهي تطل على قضاء المجاور، والذي يحمل نفس الاسم، وهو عبارة عن قضاء سفلي، تبلغ مساحته نحو عشرة أمتار في ثمانية، وبه نافورة وبضع أشجار، ويطلق عليه اسم قضاء النذراخا.

وفي عقد المدخل فجوتان نقشت بينهما عبارة "ولا طالب إلا الله" ونقشت في كل منهما أربعة أبيات تبدأ اليمنى منها بهذين البيتين:

كل صنع أهدي إلى جماله	وحبلى بهلؤد وكماله
من رأسي يطشني كالسبي	تخطب الإبريق تبغى أن تاله
وتبدأ الأربعة اليسرى بهذا البيت:	

لست وحدي قد أطلع الروض مني	عجباً لم تر العيون مثاله
ونقش تحت الأبيات المشار إليها ما يأتي:	

"عز لمولانا السلطان أبي عبد الله ابن مولانا السلطان أبو الحجاج".

ونقشت حول النافتين اللتين بالرواق قصيدة من اثني عشر بيتاً تبدأ من النافذة اليمنى وهذا مطلعها:

وجك بها برد الهواء نسيمها	فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية	نقبس عنها الشهب في الأفق الأهلا

ونقش في العقد الأعلى للنافذة الأمامية بالكوفية ما يأتي: "عز لمولانا السلطان أبي عبد الله الغني بالله، يد الله أمره وأدام سعده" وغيرها من الأدعية المماثلة. وتدل هذه النقوش على أن هذه المنظرة قد نشئت في لواخر القرن الرابع عشر في عصر السلطان محمد الغني بالله (١٣٥٤ - ١٣٩١ م).

ونقش على صحن نافورة قضاء النذراخا قصيدة من تسعة عشر بيتاً هذا مطلعها:

أنا حقاً فلنك الماء بدا	للأمام ظاهراً لم يحجب
لجنة عظمى ساجداها	من يدع المرمم المنتخب

ومن المعروف أن قضاء النذراخا قد أنشئ أيام الإمبراطور شارنكر، وأن صحن النافورة فقط هو الذي يرجع إلى صنع أندلسي.

متزين الملكة

وهذا لك رواق بين قاعة الأخوين وبين منظرة الحمراء به باب يقضي إلى ساحة مستطيلة، لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية، ولكنها أُنشئت أيام الإمبراطور شارلكن، وفي هذه الساحة بابان صغيران، يقضي كلاهما إلى الطبقة العليا، التي تقع فوق جناح الحمامات السفلي، ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يقضي إلى "متزين الملكة" "Peinador de la Reina"، وهو عبارة عن جناح علوي صغير، يقع في نهاية الطرف الشمالي للحمراء، تحت البرج المسمى برج "المتزين" "Torre de Peinador". وهو برج يرجع إلى عصر السلطان يوسف أبي الحجاج، ويحتوي متزين الملكة على بهو صغير منخفض السقف، وقد أُنشئ في القرن السادس عشر، أعني بعد سقوط غرناطة بعصره، ورسمت على جدرانه صور وزخارف نصرانية، من ريش بعض أكابر الفنانين الإسبان في هذا العصر. وتطل شرفة المتزين على مدينة غرناطة وعلى مرجها، ويبدو منظر المدينة من هذا الارتفاع شاهق ساحراً رائعاً.



الحمراء، منظرة الملكة وبرج فلارش، وفي أسفل حي البيلايين

ومما هو جدير بالذكر، أن الجناح المجاور لساحة الإمبراطور شارلكن من الجنوب، والذي يقع فوق جناح الحمامات، وهو مكون من عدة غرف، يحمل لوحة رخامية تذكارية، تفيد أنه كان مقاماً للكاتب والمؤرخ الأمريكي واشنطن إيرفينج وذلك في سنة ١٨٢٩، وقد اشتهر بكتابه "فتح غرناطة" و"قصص الحمراء"، وترجم كلاهما إلى الإسبانية^(١).

^(١) Conquest of Granada, The Alhambra Tales.

الزاوية والروضة

وقد زرت في بعض جولاتي بقصر الحمراء، برفقه الأستاذ سبستيان لومبريرو، وكيل متحف الحمراء، ناحية صخرية مهجورة من القصر تقع في غربيه، ولا تفتح للزائرين العاديين، وهي تنم بأثارها عن أنها كانت زاوية أو مصلى، ففيها مكان مضاءة ومجاريها، وقاعدة مثانة صغيرة فيما يظهر. والظاهر أن هذا الجناح، المحتوي على زاوية ومصلى صغير، كان مخصصًا لقراء الحضرة، أو مخصصًا لصلاة الحشم؛ لأنه يلي القصر مباشرة. وزرت خرائب "الروضة" أو مدفن ملوك بني نصر، ملوك غرناطة، وهي واقعة خارج القصر، في جنوب شرقي فناء السباح، وعلى مقربة من كنيسة سانتا ماريا، التي بنيت فوق موقع مسجد الحمراء؛ ورأيت بها آثار القبور السلطانية، في ثلاثة مواضع، كل منها يحتوي على عدة لحود، وذكر لي الأستاذ لومبريرو أن الحفريات في هذه المنطقة، أسفرت عن العثور على هيكل عظمي واحد رد إلى مكثه.



الحمراء. كنيسة

سانتا ماريا وهي مكان مسجد الحمراء

والظاهر أن المر في عدم العثور على رفات ملوك بني نصر، يرجع كما يقال، إلى أن لها عبد الله آخر ملوك الأندلس، حمل عند تسليم غرناطة، فيما حمل من المتاع، بقايا آباءه وأجداده، لتدفن في منطقة البشرات، التي تقرر انتقاله إليها، ولا يُعلم إذا كان بعد ذلك قد حملها معه إلى فاس، حينما غادر إسبانيا نهائيًا إلى المغرب، أم أنها قد بقيت حيث ووريت في أرض البشرات. وقد وجدت في الروضة عدة شواهد رخامية لقبور ملوك غرناطة، ولكنها ضاعت جميعًا، ويورد لنا ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة"، نصوص النعي المنقوش على بعض منها؛ وقد كتب معظمها بأسلوب بليغ مؤثر يفيض توجعًا ولى (١).

(١) راجع كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" ج ١ (قاهرة ١٩٥٦) ص ٤٠١ و ٥٤٩ و ٥٦٢، و ج ٢ ص ٦٦ حيث يورد نصوص هذه النقوش. وراجع أيضًا الأستاذ ليفي بروفنسال Inscriptions Arabes d'Espagne ص ١٢٥ - ١٥٣ حيث يفتل هذه النصوص.

المسجد والكنيسة

وكان مسجد الحمراء يقع في وسط القصبه، جنوبي الروضة، في نفس المكان الذي تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا، وقد أمر بإنشائه السلطان محمد المخلوع، المعروف بمحمد الثالث ملك غرناطة (سنة ١٣٠٢ - ١٣٠٩ م)، أنشاء على أمدح طراز، وزوده بالعمد والزخارف والتريات الفخمة، فكان على صغر مساحته، من أفخم مساجد غرناطة^(١).

ولما احتل الإسبان غرناطة، تركوا المسجد على حاله عسرا، بعد أن أقاموا فيه هيكلاً واستعملوه كنيسة، ثم هدم في سنة ١٥٧٦، في عصر فيليب الثاني ولد الإمبراطور شارلكان، وأقيمت مكانه الكنيسة التي سميت باسم "كنيسة سانتا ماريا" وقد بنيت على شكل صليب لاتيني، وهي ذات برج شاهق يعلو كل صروح الحمراء.

ولم يبق من أثر مسجد الحمراء القديم، سوى مصباح برونزي بنوع الزخرف، يحفظ الآن بمتحف مدريد الوطني.

نقوش الأبراج

وقد سبق أن أشرنا إلى ما بقي من أبراج قصبة الحمراء، ونزيد هنا أن البرج الذي يسمى اليوم ببرج الأسيرة Torre de la Cautiva، توجد به نقوش وأبيات شعرية كثيرة، تشيد بأهمية هذا البرج وحصانته، وتدل في نفس الوقت على أن الذي أنشاء هو السلطان يوسف أبو الحجاج.

وكذلك يوجد في البرج الذي يليه من ناحية الشرق، وهو برج الأميرات T. de las Infantas، نقوش بالدعاء للسلطان أبي عبد الله المستغني بالله وهو على الأغلب السلطان محمد الغني بالله.

ومما هو جدير بالذكر أن معظم الأسماء التي تطلق على أبراج القصبه، كمعظم الأسماء التي تطلق على أبراج الحمراء وأقربيتها، هي من ابتكار الإسبان، ولا يطابق منها الأسماء الأصلية سوى القليل.

(١) أثار ابن الخطيب إلى إنشاء هذا المسجد في النسخة الندرية ص ٥٠. وفي الإحاطة ج ١ ص ٥٥٤

PDF Eraser Free



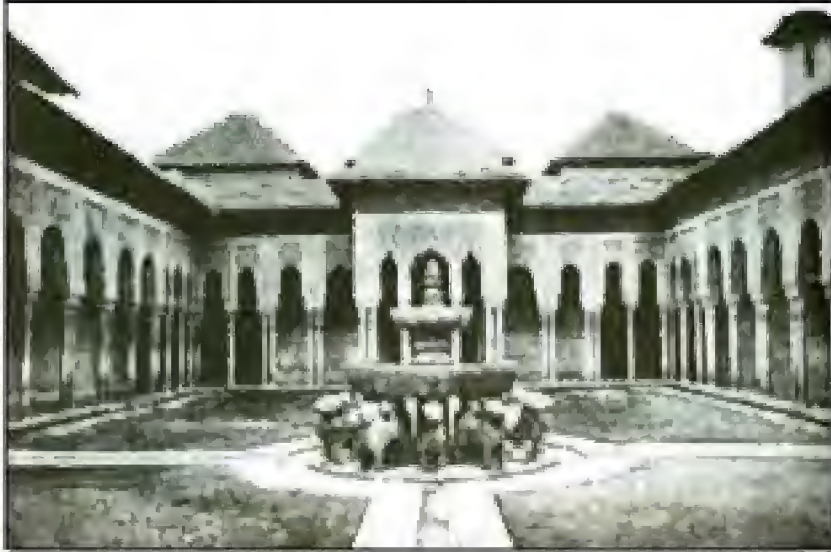
أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة المحفوظة بمسحف الدار الرمائية Casa de los Tiros بغرناطة

PDF Eraser Free



الحمراء. تفاصيل من زخارف بنو السقرام (بنو فهارش)

PDF Eraser Free



الحمراء. منظر عام لقناة الأسود وشاهورته



الحمراء. يهو الزبحان (يهو البركة) وبرج قلارش

PDF Eraser Free



الحمراء. منخل بهو السفراء أو بهو قمارش



الحمراء. بهو بني سراج

قصر الإمبراطور شارلكان

لقد أصيب ثراث الأندلس الأثري، على يد الإمبراطور كارلوس الخامس أو شارلكان بمحن جمّة، فهو الذي جنى على جامع قرطبة بتصريحه بإقامة الهيكل الكبير، الذي أصاب الجامع بكثير من المسخ والتشويه، وهو الذي هدم جزءاً كبيراً من قصر الحمراء ليفتح مكاناً لقصره، ولشأ في الحمراء بعض الأبنية الخيلة حسبما فصلنا فيما تقدم.

وهدم شارلكان، وفقاً لأرجح الفروض، الجزء الجنوبي الشرقي من قصر الحمراء، وهو الذي كان يلي فناء البركة، ويستعمل حسبما يرى كثير من الباحثين مقاماً شتوياً لملوك غرناطة، وذلك لكي يقيم مكانه قصراً جديداً، وهو الذي مازال يقوم حتى اليوم بجوار قصر الحمراء.

وقد أنشئ قصر شارلكان في سنة ١٥٢٧، وبُني على الطراز الروماني، فوق مربع يبلغ ضلعه ثلاثة وستين متراً، وبه من الداخل ساحة كبيرة مستديرة، تعلل عليها أروقة القصر العليا فوق دائرة من القمّة، وهو يبدو على العموم في شكل المسرح الروماني القديم، وقد زينت واجهته برسوم رومانية ويونانية.

وقد حجب قصر شارلكان واجهة الحمراء الجنوبية الغربية، وهو اليوم في حالة شبه خربة. وفي بعض أبيانه العليا توجد "محفوظات الحمراء".

وكان عمل شارلكان في التجني على صرح الحمراء، حافظاً للملك فيليب الخامس (١٧٠١ - ١٧٤٦)، على القيام بحملة تخريب وتشويه جديدة لهذا الصرح الإسلامي الفريد، فعمل على مسح طرازه العربي، واستبدل الزخارف العربية في معظم الغرف بزخارف إيطالية، وأتم تشويبه بإقامة حواجز تحت المنافذ والطرق بين مختلف أقسامه، وأفقته كثيراً من جماله وحسن نظامه.

ولفضلاً عن هذا التجني المنظم على قصر الحمراء، فإن الحكومة الإسبانية قد تركته عسراً في زوايا الإهمال، وأسلمته إلى العفاء والتخريب، ولم تكن بإصلاحه أو ترميمه في البداية، سوى مرة واحدة في أواسط القرن السادس عشر. وفي سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق، تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور فاصابها بأضرار كبيرة. ومنذ القرن السابع عشر تغلب على الحمراء مظاهر الخراب، ويسودها النسيان والوحشة، وفي سنة ١٨٠٢ -

PDF Eraser Free

أيام الغزو النابوليوني لإسبانيا - نصف الفرنسيون بعض أبراجها، ولم ينج القصر إلا بأعجوبة. ولم تلق الحكومة الإسبانية من سبائها الطويل إلا في أواخر القرن التاسع عشر، حيث عنيت بإصلاح الحمراء وترميمها. واستمرت أعمال الترميم والإصلاح زهاء نصف قرن، أولاً تحت إشراف المستشرق والعلامة الأثري رافيل كونييراس، ثم بعض الأثريين الآخرين. وتبدو الحمراء اليوم في ثوبها المجدد، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة في معظم الأبنية، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة، ولكن تتخللها أخطاء النقل في مواطن كثيرة.

وقد أثارت هذه السياسة الغاشمة، نحو تراث الأندلس الأثري سخط العلماء الإسبان أنفسهم، ونشر العلامة الأثري الأستاذ جومث مورينو الكبير في سنة ١٨٧٤، كتاباً عنوانه "الأثار والصروح الفنية التي فقدتها غرناطة في قرن"^(١) ذكر فيه عدداً كبيراً من الصروح والأثار الغرناطية الفنية، التي هُدمت أو شُوِّعت، بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة. وأشار من بعد كارديناس في أوائل هذا القرن في بعض بحوثه، إلى أبنية موريسكية كثيرة، هُدمت في حي البيارين وغيره من الأحياء الغرناطية، وإلى أنه قد اكتُشف تحت هذه الأبنية، كثير من القبور الإسلامية، والأواني الأندلسية واللوحات الخشبية التي تحمل نقوشاً عربية. ونوه بما بلغت سياسة الهدم والإتلاف للصروح الأثرية من حدود مروعة^(٢).

ولكن الحمراء مازالت، بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال، تعتبر أعظم الأثار الأندلسية الباقية، وهي اليوم علم على غرناطة، تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة في سائر الأفاق، ويهرع إليها الزوار من كل صوب، ليصعدوا إلى هضبة الحمراء، وليقتضوا لحظات في تأمل صرحها الرائع.

^(١) Gomez Moreno: Monumentos y Obras de Arte que ha perdido Granada en lo que va de Siglo (Madrid 1874).

^(٢) Antonio Almagro Cardenas: Los Monumentos Granadinos (1911).

قصر جنة العريف

Generalife

في ركن منعزل، وفوق ربوة مستقلة عالية، تقع في شمال شرقي قصبة الحمراء، يقوم صرح أندلسي آخر، هو قصر جنة العريف الذي يعرفه الإسبان باسم "Generalife".

وتصل إلى قصر جنة العريف من طريق طويلة صاعدة تظللها الأشجار الباسقة، ثم تجوز إلى أخرى تظللها أشجار السرو المتلاصقة، وتقطع في الطريقين من الحمراء إلى قصر جنة العريف زهاء ستمائة متر.

ويشرف قصر جنة العريف من ربوته العالية، على صروح قصبة الحمراء وتبدو من ورائه آكام جبال سيرا نقادا الشاعقة ظليلا كالعمام، وهو عبارة عن صرح لائق المنظر، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى، بما أنشأ الملوك الإسبان فوقها من أبنية دخيلة، وتجوز إليه من مدخل بسيط متواضع، وقد نُقِشت سورة الفتح، على لوحة خشبية كبيرة، تحيط بالجزء الأعلى من رواق المدخل.

ويفضي هذا المدخل إلى ساحة فسيحة، يبلغ طولها خمسين متراً، وعرضها ثلاثة عشر، وعلى جانبيها رواقان ضيقان طويلان، وفي وسطها بركة ماء، وفي جميع جوانبها نوافير رشيفة، وقد عُرست حولها الرياحين والزهور الساحرة.

وفي صدر هذه الساحة، مدخل ذو ثلاثة عقود عربية جميلة الزخرفة، وقد نُقِشت في مربعاتها القصيدة الآتية:

لاحت عليه جلالة السلطان
وهمت سحاب جوده الهتان
وشباً كمثل أزاهر البستان
عند الزلف بحمى القنان
نزل اختفاء خليفة الرحمن
من نخبة الأملاك من قحطان
أنصار خير الخلق من عتقان
منه جمال مصانع ومبان
هو بالحقيقة آية الإيمان
في نور إرشاد وظل أمان

قصر بديع الحسن والإحسان
راقت محاسنه وأشرق نوره
رقمت يد الإبداع في أرجائه
فكل مجلسه العروس تبرجت
وكفاء من شرف رفيع القدر أن
خير الملوك أبو الوليد المنقبي
المقتدي بالطاهرين جوده
لحقته منه غاية قد جدت
في عام نصر الدين والفتح الذي
لأزائل معنواً بسعد خالده

PDF Eraser Free

كما نقشت آية الكرسي في الجزء الأعلى من هذا العقد.

ويبدو من نص هذه القصيدة، أن قصر جنة العريف قد جدد وزين على يد السلطان أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة، الذي حكم من سنة ١٣١٤ إلى سنة ١٣٢٥ م. ومعنى ذلك أن القصر قد أنشئ في تاريخ سابق، والمرجح أنه أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر. ويفضي هذا المنخل إلى بهو كبير، يماثل البهو الذي يقع بجوار المنخل.

وتوجد ثمة نقوش عديدة متفرقة، فوق أعمدة العقود، وفي عقود النوافذ، وفوق الجدران، وفي دوائر صغيرة منها:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله"	"ولا طاعة إلا لله"
"العز القائم الملك الدائم لله"	"الغبطمة المتصلة"
"الحمد لله على نعمة الإسلام"	"الملك لك الله وحده"

وهذه الطبقة السفلى من قصر جنة العريف، تكون وحدها الصرح الأندلسي. ولكن الملكة إسماعيل الكاثوليكية، قامت عقب افتتاح غرناطة، بإنشاء طبقة عليا فوق البناء العربي، تتكون أيضًا من رواقين طويلين، ومن جناحين متقابلين، لها أسقف مضلعة. وكان الجناح الشمالي، الذي يقع فوق بهو الصدر، يضم من قبل متحفًا فيه عدة صور تاريخية لبعض ملوك قشتالة والملكين الكاثوليكين، وصورة يقال إنها صورة أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس، وأخرى لزعيم آل بنيغش Los Venegas، وهي الأسرة الأندلسية التي تنصرت عقب سقوط غرناطة، وسكنت قصر جنة العريف حيناً. وقد استمر هذا المتحف قائماً حتى سنة ١٩٢١، ونقلت بعض محتوياته إلى متحف آخر في داخل غرناطة، واختفى البعض الآخر، وحملته الأسرة التي كانت تملك القصر معها إلى إيطاليا، حسبما فصلنا ذلك في كلامنا عن متاحف غرناطة.

PDF Eraser Free



الحمرء. واجهة قصر جنة العريف



البهو الداخلي بقصر جنة العريف

PDF Eraser Free



الاحمرام، عقود البهو الداخلي بجنة العريف

ويغلب الخراب على الطابق الأعلى، وقد نزعنا نوافذه، ولكن الصرح الأندلسي،
ما زال بالرغم من هذا التشويه، يبدو بطرازه الإسلامي ساحراً رائعاً، ويبرز في هذا السحر، ما
يتخلل القصر وما يحيط به، من الأشجار والخمائل المزهرة البديعة.
وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو، مصيفاً أو منتزهاً لسلطين غرناطة، يؤمنه
للاستجمام والراحة، والاستمتاع بجمال موقعه، وروعة المناظر الطبيعية التي تحيط به.

٢ - وادي آش

Guadix

تقع مدينة وادي آش التي تسمى بالإسبانية "Guadix"، في شمال شرقي غرناطة على قيد ستين كيلو مترًا منها، وفوق منحدر ربوة صخرة عالية، تمتد من الناحية الأخرى، على الضفة نهر "وادي آش"، وهو فرع صغير من نهر الوادي الكبير، وتظلها من ورائها الأكام العالية، ويصل بينها وبين غرناطة طريق جبلي وعرة، يبدأ منخفضًا أمام وادي آش في بسيط أخضر، وبين الحقول والحدائق المنخفضة، وغطات الزيتون هنا وهناك. ثم يرتفع تدريجيًا حتى تبدو غرناطة من ورائه في بطن الوادي، وقفما يخترق هذا الطريق بسائطه، ولكن تظلله التلال والمرتفعات الصخرية الوعرة، ولا ترى فيه سوى بعض القرى الجبلية النقراء.

ولقد كان لوادي آش في مأساة سقوط الأندلس الأخير شأن يذكر، فقد كانت من بعد غرناطة، مقر مملكة الأمير محمد بن سعد أخي السلطان أبي الحسن، وعم أبي عبد الله، وهو المعروف بمولاي "الزحل"، وكان الزحل يحكم منها جنوب الأندلس؛ فلما توالى سقوط قواعده، ولما سقطت مملكة ثغر الأندلس الأول، ثم بسطة، في يد العدو، اضطرب مولاي الزحل، بعد أن استنفذ كل وسائل المقاومة الباسلة، أن ينزل على حكم الظروف القاهرة؛ ولأن يسلم مدينة وادي آش إلى الإسبان، وكان ذلك في شهر صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير سنة ١٤٩٠ م) أخلى قبل تسليم غرناطة بعامين.

وما زالت وادي آش تبدو في منعها القديمة، فهي تقع من الشرق على نهر وادي آش، ومن الغرب على صخرة منبوعة عالية تشرف على واديهما الأخضر، وتبدو من بعد جبال سيرا نفادا الشاهقة، على قيد اثني عشر كيلو مترًا منها، وما زالت أبراج قلعتها القديمة المسماة "بالقصة" "Alcazaba"، تدلي بما كانت عليه من قوة وحصانة، أيام الصراع الأخير بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة.

ومظاهر وادي آش مزيج بين القديم والحديث، وقسمها القديم هو الواقع في السهل في أسفل الربوة، وأما قسمها الآخر الواقع فوق الربوة، فيشمل معظم أحيائها الحديثة، وفيه تقع الكثرائية على حافة المرتفع مشرفة على السهل، كما تقع مبانيها الرسمية، وشوارعها في هذا القسم حديثة فسيحة، ويشقها شارع طويل واسع تظلله الأشجار، وبها متاجر وأواق حسنة، وتبدو خططها على وجه العموم في شكل صليب كبير، يمتد طرفاء الشرقي والغربي بين النهر

PDF Eraser Free

والسهل، وكان سكان المدينة في سنة ١٩٢٠ يبلغون أكثر من ستة عشر ألف نسمة، وهم يبلغون اليوم زهاء ثلاثين ألفاً، وكانت أيام المسلمين تضم أضعاف هذا العدد.

ووادي أش مدينة زراعية صناعية معاً، ومحاصيلها القمح والذرة والخضر، وبها من المعادن الحديد والنحاس، ومن مصنوعات السكر والخمور والأبسطة، وهي من مراكز الثقافة الدينية في شرقي الأندلس، إذ يوجد بها معهد ديني كبير "Seminario"، وتصدر بها صحيفة يومية، وصحف أخرى أسبوعية.

وأهم آثارها الأندلسية الباقية هي "القصبة" أو القلعة القديمة، وهي تقع في غربها فوق الزبوة، بجوار معهدها الديني، الذي يتصل بناؤه بها بقنطرة خاصة، وهي عبارة عن بقايا قلعة أندلسية عالية، بها برج كبير، وبرجان صغيران في قبالتها، يتصلان بسور ذي مشارف عربية، كما يوجد برج رابع في زاوية منعزلة منها، وقد رمت أطلالها وزالت ألوانها القديمة بالطلاء الحديث، وأقيم فوق البرج الكبير تمثال قديس، ولا توجد بهذه الأطلال أية نقوش عربية، والظاهر أنها اختفت تحت أعمال الترميم والطلاء.

أما الكنيسة العظمى (الكاتدرائية) فتقع في وسط المدينة، بين قسميها الأعلى والأسفل، على حافة الزبوة، وتشرف على المزرع الأخضر من عل، وقد بنيت فوق موقع المسجد الجامع القديم، ويرجع بناؤها الحالي إلى القرن السابع عشر، وبرجها مربع متوسط الارتفاع، يرى من السهل على بعد مسافة كبيرة، وتبدو فيه ملامح من طراز منارة المسجد القديم، وفي أسفل الزبوة، وعلى مقربة من الكنيسة، تقع أطلال قديمة يظن أنها بقايا برج أندلسي.

وموقع القصبة هو أعلى مكان في الزبوة، وتشرف أبراجها على المدينة كلها، وكانت القلعة فيما يبدو أعلى بناء فيها أيام المسلمين.

وقد تجولت في أنحاء المدينة، ولمحت مساحة ضئيلة من الطابع الأندلسي، تبدو في بعض دروبها المتواضعة. وقيل إنه يوجد ثمة بها بعض منازل ما يزال داخلها على الطراز الأندلسي، وبها بعض البقايا الأندلسية، ولكني لم أستطع أن أرى شيئاً منها.

PDF Eraser Free



وادي آتش، لطلال بناء اندلسي



وادي آتش، بعض لبراج القصبة الاندلسية



وادي آتش،
الكنيسة العظمى

٣ - مكلين

Moclin

أتيح لي، وأنا بمدينة غرناطة للمرة الثامنة^(١)، أن أزور منطقة الحصون الغرناطية القديمة، التي اشتهرت أيام الدولة الإسلامية بمناعتها، والتي لعبت دوراً كبيراً في المعركة الأخيرة، التي انتهت بسقوط غرناطة، وانتهاء دولة الإسلام في الأندلس.

ومن أشهر حصون هذه المنطقة وآثارها الأندلسية الباقية حصن مكلين، وهو يقع في منطقة جبلية وعرة، على قيد اثنين وثلاثين كيلو متراً من شمال غربي غرناطة، ويوصل إليه عن طريق بلدة بنوط Pinos – Puente، التي تبعد عن غرناطة نحو عشرة كيلو مترات، وقد شاهدت في بلدة بنوط القنطرة الأندلسية القديمة، وهي قائمة فوق نهر كوبيلاس الصغير، وهي صغيرة ذات عقدتين قويتين من الحجر. واخترقت من بنوط إلى مكلين طريقاً جبلياً صاعدة، تحف بها الجبال الشاهقة أحياناً، والوديان السحيقة أحياناً أخرى، وكلما اقتربنا من مكلين، كلما ازدادت المنطقة وحشة ووعورة، وبدأت آكام الجبال شاهقة مجللة بالثلوج.

ويقع حصن مكلين على ربوة هرمية عالية جداً، في نهاية سلسلة من الجبال، وتشرف من ارتفاعها الشاهق على سائر الوحد والبساتن المجاورة، وفي أسفل الهضبة توجد شلالات الزيتون، وتري أمامك نحو الشمال، عن بعد، قلعة يحصها Alcála la Real، على ربوتها العالية يظللها الغمام، وتري إلى الجنوب آكام جبل الثلج Sierra Nevada، تجليها الثلوج الكثيفة، والمنطقة كلها عبارة عن هضاب وعرة، تظللها الجبال الشاهقة، والرقاع الخضراء بها قليلة.

وفي أسفل الحصن تقع قرية مكلين، وهي عبارة عن محلة صغيرة مستطيلة، تمتد في سفح الربوة نحو ثمانمائة متر، وعرضها نحو مائتين، يخترقها شارع واحد طويل، ولا يعدو سكانها ألف نفس، وأمامها الوادي والهضبة.

^(١) كان ذلك في أواخر شهر يناير سنة ١٩٦٠

PDF Eraser Free



مكنين. جليب آخر من اطلال الحصن



مكنين. اطلال الحصن مشرفة على القرية



مكنين، أحد أبراج الحصن الكبرى



مكنين. الكنيسة القائمة فوق مشارف الحصن

PDF Eraser Free

الحصن: وتبدو أطلال الحصن رائعة من فوق الربوة العالية، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة من الأطلال المفردة من الأسوار والأبراج والبوارج، ترتفع عن مستوى الهضبة نحو أربعمئة متر، وتقع متدرجة على منحدر صخري وعز. وهي طبقتان، تعلو إحداهما الأخرى، وعلى منحدر الطبقة السفلى تقوم كنيسة هي كنيسة القرية الوحيدة، وهي كنيسة صغيرة جميلة ذات ثلاثة عقود متقبلة، وهي تقع في صدر الحصن. وتبدو واجهتها البيضاء من بُعد، وقد علمت من القس الشاب المتولي أمرها، أنها بنيت على هذا الارتفاع وفوق هذا المنحدر، لكي تحتل موقع مسجد القصبة القديم. والواقع، وهو ما يتصل بوجود الكنيسة في هذا الموقع القفر الوعر، أن فناء الطبقة العليا من الحصن، وهي تقع على ارتفاع شاهق، قد حولت إلى مقبرة للقرية، وأنشئت بها قبور ومصليات عديدة. وتطل أطلال الحصن من الناحية الأخرى على منحدر سحيق يصل إلى الوادي. وقد بقي من أبراجه نصفين برجين في الطبقة السفلى، وتدل بقايا الأبراج المتناثرة، على أنه كان يضم اثني عشر برجاً، وقد بقيت من الأسوار السفلى قطع عديدة، ومنها في الناحية الأخرى قطعة كبيرة، ما زالت تحتفظ بسلامتها.

وقد لعب حصن مكين في حرب غرناطة الأخيرة دوراً بارزاً، وكان من أمع خطوط الدفاع الشمالية الغرناطية. وفي شهر شعبان سنة ٨٩٠ هـ (يوليو سنة ١٤٨٥ م)، نشبت تحت أسواره معركة شديدة بين المسلمين بقيادة الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل، وكان يومئذ ملك غرناطة، وبين جيش مهاجم من القشتاليين بقيادة الكونت دي قبره، فهُزم القشتاليون وردوا بخسارة فادحة. وفي شهر جمادى الثانية من العام التالي، ٨٩١ هـ، سار فرديناند (فرناندو) الخامس ملك قشتالة إلى حصن البورة فاستولى عليه، ثم قصد إلى حصن مكين، وضرب حوله الحصار، ورماء بالأنفاط بشدة (والأنفاط هي المدافع البدائية)، قتلتم أسواره، وهدمت أبراجه، واضطر المدافعون عنه من المسلمين إلى تسليمه بالأمن، والخروج بأسلحتهم وأمتعتهم إلى غرناطة (يوليو سنة ١٤٨٦ م) ^(١) ومازالت آثار نلم الأسوار والأبراج بفعل الأنفاط، ترى حتى اليوم ماثلة في أطلال حصن مكين.

^(١) راجع كتاب أخبار العصر في القضاء تولة علي نصر ص ٢٠ وكتاني نهاية الأثر في طبعة الثانية ص

٤ - جيان

Jaén

فاسال بنسية ماشان مرسية وابن شاطبة أم ابن جيان
(أبو الطيب الرندي في مرثية الأندلس)

تقع مدينة جيان في قلب الأندلس المسلمة القديمة، في بقعة لبنت أندلسية دهرًا، وتقع في جنوبي البسيط الممتد من ضفة الوادي الكبير، وتكثر في شمالها، فيما بينها وبين النهر، الرقاق الخصبة وغابات الزيتون، وتحدها التلال العالية من الجنوب الشرقي ومن الغرب، حيث يقع حصنها الضخم فوق ربوة عالية، تشرّف عليها. ومدينة جيان الحديثة هي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم، وهي مدينة كبيرة يبلغ سكانها نحو سبعين ألفًا من الألفس، وتقوم فوق رقعة مترامية، يقع قسمها القديم في الجنوب، في ذيل المدينة الحديثة، وتتوسطه الكنائرية، وهي تقوم كما هو معلوم فوق موقع المسجد الجامع القديم. وإلى جوار هذا الجزء نفسه تقع الشوارع الضيقة الصاعدة متجهة نحو الحصن أو القسبة، يلي هذا القسم أحياء المدينة الحديثة، التي تحلّ الوادي العميق الذي تحده التلال المتقدمة الذكر، وجيان من المدن الأندلسية القديمة التي مازالت تحتفظ بطابع خاص من ملامحها الأندلسية، ويرسم هذا الطابع بوضوح في خططها وشوارعها، وطراز منازلها.

وقد كانت جيان أيام الدولة الإسلامية من أعظم قواعد الأندلس الوسطى، ونشيد الرواية الإسلامية بأهميتها وعمرانها وحصلتها قصبتها^(١). وقد لعبت في تاريخ الأندلس أدوارًا ملحوظة، وكانت أيام الطوائف، أحيانًا من أعمال مملكة غرناطة، وأولًا من أعمال مملكة المرية، وأخرى من أعمال مملكة إشبيلية. ولما انهارت الدول الإسلامية في الأندلس، عقب انهيار سلطان الموحدين، وقامت مملكة غرناطة في الجنوب تضم ما بقي من أنقاض الأندلس الكبرى، كانت جيان من القواعد التي دخلت في حوزة المملكة الإسلامية الجديدة، ولكنها لبنت هي وما حولها من البلاد هدفًا لهجمات النصارى المستمرة. واضطر محمد بن الأحمر سلطان غرناطة أخيرًا أن ينزل عنها فيما نزل من البلاد إلى فرنانكو الثالث ملك قشتالة، وذلك في معاهدة الصلح التي عقدت بينهما في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م)، ودخل القشتاليون جيان، واستولوا عليها في العام التالي - سنة ١٢٤٦ م - هي وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار.

^(١) راجع التوضيح المعطّر عن ٧٠ و ٧١.

PDF Eraser Free

وعجزها من بلاد هذه المنطقة. بيد أن جيان لبثت بعد ذلك عسراء باعتبارها مدينة من مدن الحدود بين مملكتي قشتالة وغرناطة، وهدفًا لغزوات الجيوش الغرناطية، وقد اقتحمها مرارًا.

المعالم الأثرية

وأهم معالم جيان الأثرية، هو بلا ريب الحصن أو القسبة الأندلسية، وتشييد الرواية كما تقدم بذكر قسبة جيان وحصانيتها، وموقع القسبة ذاته فوق الزبوة العالية التي تشرف على المدينة، وما تبقى من الأسوار والأبراج والأطلال الضخمة، تؤيد هذه الحقيقة، وتمت هذه الأطلال فوق الزبوة من الناحية الغربية محاذية لمعظم رقعة المدينة، وتسمى باسمها الإسباني، "حصن سانتا كاتالينا" Castillo de Sta Catalina، وقد أوضحت لنا سبب هذه التسمية القديمة، الفقرة الآتية التي نقشت بالإسبانية فوق لوحة ثبتت على يمين أحد العقود الداخلية للحصن، وهذا نصها:

"Segun tradición el XXV de Noviembre de MCCXLVI, día de Santa Catalina, Alahmar rey de Granada entregó este Castillo a Fernando III el Santo Quedando desde este Día proclamada la Santa Patrona de Jaén".

ومعناه "أنه وفقًا للرواية المتواترة، في يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٢٤٦، وهو يوم القديسة كاتالينا، سلم ابن الأحمر ملك غرناطة هذا الحصن إلى فرناندو الثالث المقدس، وأصبحت من ذلك اليوم تعتبر القديسة حامية مدينة جيان".

ويذكرنا موقع قسبة جيان، وأطلالها الضخمة المتراصة، بأطلال القصبات الأندلسية الشهيرة في المرية ومالقة. وتشتمل هذه الأطلال على مجموعة كبيرة من الأبراج الضخمة، والعقود المنيعه، بيد أن ما أدخل على القسبة الأندلسية من التغيير والإضافة على يد الملوك الإسبان، قد أصداح الكثير من معالمها القديمة.

PDF Eraser Free



جبل. البرج الأعظم بالقصبة



جبل. أطلال القصبة الأندلسية
المسماة الآن حصن سائنا كاتالونيا



جبل. الحمامات العربية

PDF Eraser Free

ويقع برج القصبه الأعظم وسط هذه الأطلال، وهو مربع الشكل، ويبلغ ضلعه في العرض نحو خمسة عشر مترًا وارتفاعه نحو ثلاثين، وفي أسفله مثلث من العقود الضخمة، تستند إلى دعامة سميكه، وتقوم فوق البرج قبة عظيمة ذات دائرتين متقاطعتين، وفي كل جانب منه نافذة عظيمة، وتعلوها قبة أخرى أقل ارتفاعًا، ثم يلي ذلك السطح والمشارف، وتبلغ المساحة التي تعلوها القبة نحو اثني عشر مترًا في مثلها، ويوجد وراء هذا البرج فناء شاسع به مجموعة من أطلال الأسوار، وعقود وأبراج صغيرة، وإلى شرقيه برج آخر أصغر منه، يتصل به بممر خاص.

ويستند الحصن من وراء إلى صخرة منبوعة من الأحجار الزرقاء الصلدة، وينتهي عند الجنوب ببرج صغير ذي عقد، وأمامه ساحة في أسفلها طبق من ثلاث غرف يبدو أنه كان يستعمل سجنًا.

وهذا في هذه الساحة، تقع العين على طلل أندلسي مؤثر، هو بقايا مصلى عربية قديمة، تعلوها قبة صغيرة، ومنخلها عقد عربي، وجوانبها الثلاثة، ثلاثة عقود، والظاهر أنها كانت مصلى خاصة لحاكم القصبه.

وفي نهاية الحصن من الجنوب تقوم سارية ثبت فوقها صليب كبير أبيض يطل على المدينة.

الكثريّة: هي صرح ضخّم ذو واجهة رائعة، وتحتوي على برجين عظيمين متماثلين، وهي تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وكان فرناندو الثالث على أثر دخوله مدينة جيان في سنة ١٢٤٦ م، قد حول الجامع في الحال إلى كنيسة، ثم هُدم بعد ذلك، وأقيمت في مكانه الكنيسة الحالية، وقد أقيمت على طراز عصر الإحياء، وهي شاسعة من الداخل، تقوم على صفيّين عظيمين، من العقود الضخمة العالية، وقد زينّت بتمثيل وزخارف فخمة، وزودت بمجموعة ثمينة من الصور الدينية، موزعة في حظائر هياكلها. وتقوم كثريّة جيان في ميدان شاسع، وأمامها شبكة من الدروب الضيقة، وقيامها مكان المسجد الجامع يحدد موقع المدينة الأندلسية القديمة.

ويوجد إلى مقربة من الكثريّة، العقد المسمى "عقد سان لورنزو" وهو عقد يبلغ عمقه نحو عشرة أمتار، وقد أحيط بسياج قوي من البناء، وهو يمتاز بمئانته ومناحته، وقيل لنا إنه يرجع إلى أصل أندلسي. وقيل أيضًا إنه مدجني الأصل والطراز، وإلى جانبه بناء يحتوي على قبر الملك فرناندو الرابع.

PDF Eraser Free



جبلان. جانب من أبراج القصبية



جبلان. المصلى العربي داخل القصبية



جبلان. واجهة الكنيسة العظمى (الكثولائية)

PDF Eraser Free

الحمامات العربية: وقد شاهدنا في القسم القديم من المدينة، وهو الذي يتميز بدروبه الضيقة، اثنين: أحدهما أندلسي الأصل، والثاني يضم بمسحة أندلسية قوية. فأما الأول فهو



"الحمامات العربية" Baffios Arabes، وهي تقع داخل البناء المسمى "ملجأ العجزة" وهي عبارة عن قبو تسع ذي عقود متعددة قائمة في صفين، وفي بعض قباب هذه العقود، نوافذ نجمية، مما قد يدل بأنها كانت بالفعل حمامات. بيد أنه يلوح لنا أن هذا الوصف إنما هو وصف خاطئ، وأن هذه العقود إنما هي على الأرجح عقود مصلى أو مسجد صغير. يؤكد ذلك أنه ما زالت تقوم في أسفلها حظيرة "الميضأة". وفي الرواية المتواترة أن هذا البناء الذي يحتوي على هذه العقود هو بقية من بيوت الملوك الأندلسيين، وأنه يرجع إلى سنة ١٥٠٥ م، بيد أنه يبدو لنا من عقود ساحته ومن نوافذه أنه بناء مسيحي على الأرجح، أو أنه قد عدل إلى هذا الطراز.

جبان. كنيسة سانتا مجدالينا وبرجها الموريسكي

ولما الأثر الثاني، فهو كنيسة "سانتا مجدالينا"، وهي أقدم كنائس جبان، وهي كنيسة صغيرة ساذجة، تقع في الطرف الآخر من المدينة بجوار الحمامات العربية، وهي تقوم من الداخل على صفين من عقود ثلاثة، ويغلب عليها الطابع العربي الموريسكي، وقد بنى برجها الخارجي على طراز المنارة الموحدية، وهي ترجع إلى القرن الثالث عشر.

المعالم الأخرى: وهناك في جبان كنيستون أخريان، أولهما كنيسة "سان ألفونسو"، وهي كنيسة صغيرة قديمة، قد بنيت على طراز القوطي، وتمتاز بزواياها وفخامة مظهرها، ويقال إنها قد بنيت على موقع أحد المساجد القديمة.

والثانية هي كنيسة "سان أندريس"، وهي داخل المدينة القديمة، في أحد شوارعها الضيقة، وهي صغيرة، وقد بنيت عقودها القليلة على طراز مسجدي.

٥ - بياسة وأبدة

Baeza – úbeda

تضم ولاية جيان، وإلى الشمال الشرقي من مدينة جيان، مدينتين أندلسيتين قديمتين هما بياسة وأبدة، يبعدن عن جيان نحو خمسين كيلو مترًا، وتفصلهما مسافة يسيرة. أولاهما مدينة بياسة، والثانية مدينة أبدة، وهي تبعد عن بياسة نحو عشرة كيلومترات. وهذه المنطقة التي تقع في وسطها المدينتان الأندلسيتان، يغلب عليها السهل المنبسطة، وتمتد سهولها إلى مسافات بعيدة، ثم تظللها التلال في النهاية، ومعظم رقاعها خضراء منزرعة، وقد كانت وقت اختراقها في قلب الشتاء، تغطيها طبقة خفيفة من الجليد، ومما يجدر ذكره أن هذا القطاع، يتصل من الشمال بولاية "لامنشا" التي تكثر في سهولها الكروم الأرضية، فإذا ما تركت سهول "لامنشا" ونفذت إلى ولاية جيان، تغيرت الطبيعة، وظهرت الوهدة والهضاب، وإن لم تكن وعرة، ثم تبدأ شجبات الزيتون، وحقول القمح الخضراء، وتمتد هذه الرقاع الخصبة إلى مسافات بعيدة.

وقد كانت بياسة من مدن هذا القطاع الذي يفصل بين الأندلس الشرقية والوسطى، وسقطت في أيدي النصارى لأول مرة في سنة ١١٤٦ م، ولكن المسلمين استردوها، ثم تبادلها الفريقان بعد ذلك غير مرة، وأخيرًا استولى عليها فرناندو الثالث في سنة ١٢٢٧ م، وضمت بذلك نهائيًا إلى مملكة قشتالة، وحاول المسلمون استردادها في سنة ١٣٢٤ م في عهد المنطلي أبي الوليد إسماعيل ملك غرناطة، وحاصروها حتى سلمت، ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، وحاصروها مرة أخرى في سنة ١٤٠٧ م، ولكن دون جدوى.

وتقع بياسة في بسيط من الأرض على الطريق الممتد من لينارس إلى أبدة، وهي مدينة متوسطة، مستطيلة الرقعة، ذات شوارع طويلة، وعليها مساحة حديثة، ويبلغ سكانها نحو خمسة عشر ألف نفس، وليست بها أية آثار أندلسية. وتقع مدينة أبدة على مسافة قليلة من بياسة، وتفصلهما هضبة تختلف بين السهل والوعر، وتظللها التلال من ناحية الشمال، وتكثر بها شجبات الزيتون، وتقع بها في الطريق إلى أبدة أربع قرى هي تريس لوليفارس "Tres Olivares" و"كارينا" Carena، و"روس" Rus، و"يبرا" La Yebra، ويربط هذه المحلات حتى أبدة ترم كهربائي متواضع. وقبيل أبدة، يزداد البسيط من الأرض وتكثر شجبات الزيتون والرقاع الخصبة كثرة ظاهرة.

PDF Eraser Free



أبدء. أطلال القسبة الأءلسفة وفف ناءفبفها البعفف باب ءرناطة



أبدء. باب ءرناطة وهف بابها الباقف ءءل لسور القسبة

PDF Eraser Free

وقد سقطت لُدة في أيدي النصارى في عصر مبكر، في سنة ١٢١٢م، عقب موقعة العقاب التي هُزم فيها الموحدون هزيمة شديدة، وتضعفت من بعدها قوى إشبانيا المسلمة، وساد بها الاضطراب والفوضى.

وأكدت مدينة كبيرة تخترقها شوارع طويلة واسعة، تجتمع صاعدة إلى الربوة الوسطى التي يحتلها وسط المدينة، ومنها تتساقب الشوارع منخفضة إلى أطرافها، وتجمع خلجتها ومبانيها بين القديم والحديث، ويبلغ سكانها نحو أربعين ألف نفس.

وتقع لُدة على ارتفاع كبير عن سطح البحر، جنوبي سلسلة من الجبال الواقعة على ضفة الوادي الكبير، وتهب عليها رياح باردة، تجعلها في الشتاء "لُرد مدينة أندلسية"، وقد قاسينا فيها روعة بردها القارس عند زيارتنا لها في قلب الشتاء في منتصف شهر يناير.

هذا وما زالت لُدة تضم بعض الأثر الأندلسية الهامة. وهي تتمثل في بقية من أسوارها الأندلسية، وفي عقدين، أو بابين من أبوابها القديمة.

الأسوار الأندلسية: وتقع بقايا الأسوار الأندلسية على مقربة من الكنيسة العظمى، في نهاية المدينة، وهي بقية كبيرة يبلغ طولها نحو ثمانين متراً، وارتفاعها خمسة عشر أو أكثر في بعض أجزائها، وفي وسطها عضادة قوية عالية. وفي طرفها الأيمن عقد يسمى "باب خرداطة"، وقد كان هذا فيما يبدو هو نهاية المدينة الأندلسية، ويقع من وراء هذه الأسوار عدد من الدروب الصخرية الصلدة. وأما باب خرداطة هذا فهو عقد عتيق منخفض نوعاً ما يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة وعمقه أربعة كذلك، وإلى يمينه توجد بقية صغيرة أخرى من الأسوار.

عقد روسال Puerta del Rosal: على أن عقد روسال هو أهم آثار لُدة الأندلسية. ويقع هذا العقد في الناحية الأخرى من المدينة وهي الناحية الجنوبية، وتوجد في جانبه، وفوقه بقية أسوار أندلسية منيعة، وهو عقد مزدوج، بين منخله وعقده الداخلي، نحو مترين ونصف، وهو يفضي إلى درب صاعد ضيق ويبلغ ارتفاعه نحو ثمانية أمتار، واتساعه أربعة، وفي منتصف كل من ناحيته، عضادة تقوم على عمود رقيق، وفي أعلى منخله عقد معلق، يبدو عليه القدم والمنعة، ويقع هذا الطلل كله فوق مرتفع صغير يسمى "مرتفع الرحمة"، Cuesta de la Merced، ومن وراء العقد تقوم قطعة كبيرة من الأسوار عمل قبي أسفها "هيكل" صغير.

PDF Eraser Free



أيدو. كنيسة سانتا ماريا (الكنيسة العظمى)



أيدو. القفد العربي المسمى باب رومال

PDF Eraser Free

وتمتد من يسار العقد، بضعة أزقة صغيرة تنحدر إلى واد صغير يقع في شرق المدينة، وتقوم في طرفه الآخر ربوة عالية بنيت فوقها بعض المساكن.

الكنيسة العظمى: وتسمى كنيسة سانتا ماريا، وهي تقع في نهاية المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية، فوق ربوة صغيرة، وأمامها ميدان كبير، وهي قديمة ثم جددت، وفي داخلها يقوم دير قوطي، ويبدو كذلك وفقًا للقاعدة التاريخية الماثورة، أنها تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وإلى مقربة منها، تقوم بقية الأسوار العربية التي سبق ذكرها.

وفي أبدة كنائس تاريخية أخرى مثل كنيسة "سان بابلو"، وعدة صروح أثرية نصرانية.

٦ - لورقة وبسطة

Lorca – Baza

تقع بين مرسية وقرطبة ثلاث مدن، لها في تاريخ الأندلس شأن يذكره هي لورقة "Lorca"، وبسطة "Baza" ووادي آش "Guadix"، وهي تقع على مسافات متقاربة، فبين مرسية ولورقة نحو ستين كيلو متراً، وبين لورقة وبسطة ثمانين، وبين بسطة ووادي آش ستين. وبينها وبين قرطبة مثل هذه المسافة.

فأما لورقة فهي مدينة كبيرة عتيقة الطراز، تقع على سفح مرتفع تشرف عليه قلعة قديمة، ربما كانت القصبنة الأندلسية، ويشقها من الوسط فرع لنهر شقورة، وتحيط بها الجبال من الغرب، وتتخللها الحدائق الباسقة والنخيل المثمرة، وقسمها القديم تتخلله شوارع وديروب ضيقة، ثم عن طرازها الأندلسي. ولكن قسمها الحديث تشقه شوارع عريضة، ومبانيها منخفضة وأغلبها ذات طابقين أو ثلاثة، وسكانها خليط بين الحضار والريف، ويلبها من الجنوب بسيط أخضر من الحدائق والمروج، ومما يلفت النظر عدا كثرة النخيل بها، أن أشجار التين الشوكي المعروف بمصر، تنمو بها وبالمناطق المحيطة بها بكثرة ظاهرة.

وكانت لورقة في العهد الإسلامي قلعة مدينة مرسية، فيما ينشأ من حروب بين المسلمين والنصارى. وقد سقطت في أيدي النصارى عقب سقوط مرسية في منتصف القرن الثالث عشر.

ولورقة اليوم بلد زراعي وبها صناعات بسيطة، ويبلغ سكانها زهاء ثمانين ألف نفس، وتليها مدينة بسطة التي تفصلها عن لورقة سهول شاسعة جرداء، وتقع بسطة في أعماق واد منخفض، في منطقة جبال سيرا نيفادا، وهي من أعمال ولاية قرطبة، وتشرف عليها من الشمال الغربي آكام عالية، وهي مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني، وقد لبثت في أيدي المسلمين طوال الدولة الإسلامية، ولم تسقط في أيدي النصارى إلا في سنة ١٤٨٩ م، وبعد دفاع مجيد خاضته صحف العصر. وكانت أيام مملكة قرطبة من قواعدها الزاهرة، وسكانها يبلغون زهاء خمسين ألف نفس، أما اليوم فإن بسطة مدينة صغيرة، يشقها شارع طويل على ضفتيه المنازل البيضاء ذات الطابقين والثلاثة، ولا يعدو سكانها عشرين ألف نسمة، وهي بلد زراعي وبها صناعة الخزف والكتان.

PDF Eraser Free

ومازال الطابع الأندلسي يبدو في مظاهر بسطة، وكنيستها الرئيسية المسماة "سان ماسمو" "San Máximo" تحتل موقع المسجد الجامع القديم، وكان هذا المسجد قد بُني على موقع كنيسة قوطية قديمة، وكذلك كنيستها الأخرى المسماة Annonciación de Nîa Sencia كانت مسجداً حوله الملك الكاثوليكان إلى كنيسة.

ومازالت توجد في بسطة بقية من أسوارها الأندلسية القديمة، وكذلك يوجد بها حمامان عربيان، أحدهما قديم، والآخر - وهو ذو أربعة عقود - يرجع إلى العصر الغرناطي المتأخر. وتوجد في خارج بسطة الحدائق الغناء مترامية الأطراف، حتى تصل إلى الجبال. ومعظم بقاعها الخارجية بغص بأشجار الزيتون، ويخرج منها طريق طويل تحف به الأشجار الباسقة هو طريق غرناطة، وبسطة هي بداية ولاية غرناطة الحديثة.

٧- لوثة

Loja

تقع لوثة شرقي غرناطة، على الطريق الممتد إليها من إشبيلية، وعلى بعد خمسة وخمسين كيلو متراً منها، وهي مدينة متوسطة الحجم، ذات شوارع كبيرة، ويقوم بعض مبانها فوق ربوة صخرية عالية، ويقوم البعض الآخر في منخفض الوادي، ويخترقها نهر شليل من الشمال، ويقع على مقربة منها بعد قليل من الأرض الصخرية والتلال، بسيط كبير من المزارع والحدائق الغناء، يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها، وتليها أشجار الزيتون.

وبلغ سكان لوثة حسب إحصاء سنة ١٩٢٠، اثني عشر ألفاً، وهم يبلغون اليوم نحو عشرين ألفاً.

وقد سقطت لوثة في أيدي الإسبان، خلال حرب غرناطة الأخيرة في شهر مايو سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ)، بعد دفاع مجيد استمر في صحف ذلك العصر، وكان فرديناند الكاثوليكي قد هاجمها قبل ذلك بأربعة أعوام، في سنة ١٤٨٢ م، وكانت تدافع عنها حامية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة القائد الباسل الشيخ علي العطار، فخرجت لمقاتلة النصارى وردتهم بخسائر فادحة، وكانت أيام الدولة الإسلامية من المدن الزاهرة في مملكة غرناطة، وبها ولد مؤرخ الأندلس وسياسيها الكبير، الوزير لسان الدين بن الخطيب في سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م).

وتتخذ خطط المدينة شكل صليب، وتقع الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى في وسطها، ويخترقها من الوسط شارعها الكبير، المسمى بعضه شارع الجنرال فرانكو، وباقيه شارع الدوق بلنسية.

ولم يبق في لوثة اليوم من آثارها الأندلسية القديمة، سوى أطلال القسبة القديمة أو القلعة، وما تزال تقوم في باطنها بقايا بناء يظن أنه كان مسجدًا، وهي عبارة عن ثلاثة عقود على صفيين، وليست بها أية نقوش أو كتابات، وقد دُنت طلالاً دارساً يغمره الخراب والعناء، ويسمى هذا المكن "بالحب" "Aljibe"، وتقول الأسطورة المحلية، إنه يحتوي على كنز للمسلمين، وإلى جانب هذه الأطلال، يقوم بناء خرب كبير ذو طاء أندلسي قديم، يقطعه بعض السكان الفقراء، ويحتوي على طابقين في كل منهما عدة غرف ولهايا، والمظنون أنه من مرافق القسبة الأندلسية القديمة.



لوشة. أطلال القسبة الأندلسية

وتقوم الكنيسة الكبرى في وسط المدينة، على مقربة من أطلال القسبة، وفوق موقع المسجد القديم، وتسمى كنيسة "التجسيد" "Encarnación". وكانت القسبة تضم القلعة والقصر والمسجد الجامع، وهي متوسطة الحجم، وقد أحرقها أيام الحرب الأهلية ثم جددت، ولها برج عالٍ يشرف على سائر جنبات المدينة.

وقد طفت بأرجاء لوشة، والذكريات تغمر ذهني، فألفيتها مدينة مشرقة عامرة، تتجه أحيائها من طرفها إلى الزبوة العالية، وتتجه أحيائها الوسطى إلى بطن الوادي، وأحيائها الجانبية ضيقة الدروب والمساكن على الطريقة الأندلسية، وشارعها الرئيسي طويل فسيح، وبه كثير من المتاجر والمقاهي والفنادق.

ولوشة على وجه العموم مدينة راقية مثقفة، وبها صناعات الزيوت والنشا والمنتجات الجلدية. وزرت كنيسة القديس جبريل "San Gabriel"، وهي أيضًا من أقدم كنائس لوشة، وقد بنيت عقب سقوطها في أيدي النصاري بقليل، فوق موقع أحد المساجد القديمة، فألفيتها في قلب أحد الأحياء الجانبية، وتبدو جدرانها القديمة عتيقة جدًا، ولكن معظمها قد جدد شأن الكنيسة العظمى.

ورأيت في دار البلدية صورة زيتية كبيرة محدثة، تمثل تسليم مدينة لوشة أيام حرب غرناطة، إلى الملك فرديناند الكاثوليكي، ورعيها المسلم (وهو بطلها المدافع عنها الأمير محمد بن علي) راكع أمامه، ومن وراءه بعض الجند المسلمين بعمائمهم بيد أن هذه المناظر ليست بالطبع إلا من وحي الخيال. كما رأيت بها صورتين كبيرتين قديمتين تمثلان المدينة ومجانيها في هذا العصر.

ولم أظفر بأية آثار أو معلومات، تدل على موقع بيت ابن لوشة العظيم ووزيرها العبقري ابن الخطيب.

٨ - أرشدونة Archidona

إن الوصول إلى أرشدونة من الأمور الصعبة. ذلك لأن السبيل الخضر الممتدة من غرناطة نحو الجنوب الغربي، والتي تظلها الأكام العالية، تنتهي جنوب طرسي لوشة، بمجموعة من الهضاب الوعرة. وهناك تقع مدينة أرشدونة. وأرشدونة ذات موقع صعب يأخذ البصر بمناجاة ووعورة، فهي تقع في بطن وادٍ سحيق تحيط به الجبال من كل ناحية، ولا يرى منها خارج السهل سوى أسطح منازلها ولبراج كنائسها، وهي تحل من فجوة الوادي العميق رقعة مستكبرة في البداية، ثم مستطيلة بعد ذلك، تمتد إلى الداخل نحو كيلومترين، فوق ربوة صاعدة تنتهي بتل عال، تقع فوقه أطلال الحصن الكبير أو القصب الأندلسية القديمة.

ويشق أرشدونة من الوسط شارعها الرئيسي الطويل حتى نهايتها، ويمتد إلى جانبيه شارعان محاذيان ضيقان، وتكثر فيها شوارع جانبية عديدة، وهي في مجموعها كبيرة الرقعة، تقع في وسطها ميدانها الكبير القديم ذو العقود Plaza Mayor، ومنازلها بيضاء معظمها من طبقة لو اثنين، ويغلب عليها الطابع الأندلسي على نسق مدينة إسجدة.

وقد كانت أرشدونة أيام النوبة الإسلامية، من القواعد الجنوبية الحصينة، وكان لها شأن أيام الفتنة الكبرى، حيث كانت من قواعد عمر بن حفصون زعيم ثورة المولدين في الجنوب، وتبدلت مراراً خلال الوقائع التي نشبت بين الأمير وجند النور.

ولمحت أرشدونة من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية، ولم تسقط في أيدي القشتاليين إلا في حرب غرناطة الأخيرة حينما سقطت مملكة في يد فرديناند الخامس في سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) وسقطت في أثرها سائر القواعد القريبة منها.

المعالم الأثرية: وأهم معالم أرشدونة الأثرية هي بالطبع بقايا الحصن أو القصب الأندلسية، وهي تبدو في نهاية المدينة فوق ربوة عالية جداً. وتقع هذه الأطلال فوق صخرة وعرة، وهي عبارة عن أسوار القصب الخارجية، تتخللها ثعالي بوائك من بوائك أبراجها، ويبدل منظر هذه الأطلال وطراز بنائها، على أنها كانت لحصن في غاية المناعة، كذلك يبدو من واجهة الحصن، وهي تبلغ نحو مائة وخمسين متراً، وما يترامى وراءها من بقايا أطلاله، أنه كان يشغل مساحة عظيمة، وأبرز ما يلفت النظر موقعه القريب فوق الربوة العالية المشرفة على المدينة إشرافاً تاماً، يجعلها تحت سيطرته المطلقة، وقد أشار صاحب الروض المعطار إلى هذا الحصن في حديثه عن أرشدونة^(١).

^(١) روض المعطار - صفة جزيرة الأندلس - ص ١٢

PDF Eraser Free



لرشدونة. منظر عام للعاصمة ومن وراءها الجبل الذي تقع عليه اطلال القسبة



لرشدونة. اطلال القسبة واساسها معبد "عزراء الرحمة"

PDF Eraser Free

الكنيسة فوق الربوة: هذا وقد بنيت في بطن السور، فيما بين الأبراج الوسطى كنيسة أو معبد صغير يسمى "معبد عذراء الرحمة"^(١)، وهو عبارة عن بناء أبيض يبدو للناظر فوق الربوة، على مسافة بعيدة. وأهم ما يلفت النظر في داخل هذا المعبد، أنه يحتوي على بضعة عقود عربية. وقد علمت من الدكتور راميلو R. C. Ramilo، وهو طبيب شاب يعني بدراسة تاريخ أرشونة وخطتها، أن هذا المعبد قد أقيم فوق نقاض جامع القصبة، وأدخلت ضمنه العقود الباقية من الجامع، فأصبح على هذا النمط نصفه كنيسة، والنصف الآخر جامع.

وعلمت من جهة أخرى أن أهل أرشونة، يحتفظون بكثير من التقاليد الأندلسية، وأنه يوجد بها حتى اليوم شارع يحمل اسمًا عربيًا هو شارع "المُحلى" Almohalla، وهو من أقدم شوارعها.

الكنيسة العظمى: وتقع الكنيسة العظمى في وسط المدينة، وهي كنيسة صغيرة مجددة البناء، ولكن موقعها وسط المدينة، يحمل على الظن بأنها على الأرجح، تحتل موقع جامع أرشونة القديم.

PDF Eraser Free



لرشدة. عقود المعهد العربية وهي من بقايا جامع الفصية



لرشدة. هيكل المعهد وقد أقيم داخل عقود الجامع

٩ - مالقة

Málaga

مالقة هي اليوم عاصمة الولاية الإسبانية التي تسمى بهذا الاسم، وهي أعظم وأهم ثغور إسبانيا الجنوبية، ويبلغ سكانها ثلاثمائة ألف نسمة.

وترجع مالقة إلى أصول رومانية وفينيقية. وقد كانت لزام الدولة الإسلامية من أقدم وأهم الثغور الأندلسية، وقد احتفظت بطابعها الإسلامي الخالص حتى نهاية مملكة غرناطة، وسقطت في يد الإسبان في شهر أغسطس سنة ١٤٨٧ م (شعبان سنة ٨٩٢ هـ) بعد دفاع مجيد سجلته صحف ذلك العصر.

ولكن مالقة تبدو اليوم مدينة أوروبية حديثة بكل معنى الكلمة، وهي تقع على البحر الأبيض المتوسط في واد عميق، تظله المرتفعات من الناحية الشمالية، ومن وراء الوادي منطقة وعرة كلها جرداء، والسهل فيها قليل.

وهي مدينة عظيمة مترامية الرقعة، ذات شوارع وميادين فسيحة، يظللها النخيل والأشجار الباسقة، ويخترقها نهر "وادي المدينة" "Guadamedina"، ولكن مجراه يبقى جافاً لا ماء فيه معظم أشهر السنة.

وأشهر شوارعها "الأميدا" "Almeda"، ذو الأشجار العتيقة الضخمة، وهو يشق المدينة على مقربة من الميناء، وتتفرع منه على الجانبين معظم شوارع المدينة التجارية، وفي مقدمتها شارع المركز دي لاريوس "C. del M. de Larrios" الذي يضم أعظم المتاجر والمقاهي والفنادق؛ ومن أجمل شوارعها الشارع الفسيح الذي يحاذي الميناء، ويقوم على جانبيه صفان من النخيل والأشجار الباسقة.

وتمتد المدينة جميلة مشرفة على البحر بضعة كيلومترات، وإلى شرقها تمتد ساحة من القرى الجميلة على شاطئ البحر، في رقعة ضيقة تحدها الجبال من الناحية الأخرى، وهي رقعة خضراء في معظمها، وبها جداول ومزارع رائعة.

وتقوم شابات النخيل الجميلة في مشارف مالقة من ناحية البحر.

ومالقة مركز صناعي وتجاري هام، وتصدر المصنوعات الحديدية، والرصاص والقصدير وزيت الزيتون والنبذ، والفواكه ولا سيما العنب والتين واللوز. وقد اشتهرت كذلك بمنتجاتها الجميلة من الفخار والخزف الملون، وهي صناعة تحرص على ازدهارها منذ العصر الإسلامي.

PDF Eraser Free

ولا تحتفظ مملكة اليوم بشيء من طابعها الأندلسي القديم، ولكنها ما زالت تحتفظ بطلقة هامة من الأثر والمعالم الأندلسية.

القصبة: وأهم هذه الأثار الأندلسية قصبة مملكة الإسلامية، وهي على ضخم حصين يقع على منحدر صخري قريب من البحر، ويشرف على منتزه مملكة الكبير الواقع على مقربة من الميناء، ولقصبة مملكة تاريخ طويل حافظ، وأطلالها الحالية ترجع إلى عهود مختلفة، وقد كان بنو حمود، حينما أقاموا ملكهم بمملكة في أوائل القرن الخامس الهجري، هم أول من عني بتجديد قصبة مملكة، وأهتم منهم بالأخص بذلك حسن بن يحيى بن حمود، المستنصر، الذي ولي العرش في سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م)، وكانت القصبة عندئذ تضم قصر الأمير.



مملكة. واجهة القصبة، وقد ظهرت فيها الكنييسة العظمى

على أن قصبة مملكة تكمن بضخامتها ومنعتها بالأخص لبائيس بن حبتوس ملك غرناطة البربري أيام الطوائف، فقد التزم لبائيس مملكة من الحمويين في سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م)، وجدد قصبة مملكة، تجديداً شاملاً، ووسع منشأتها حتى خلعت من أعظم القصبات الأندلسية، ويحدثنا حفيده الأمير عبد الله بن بلقين عن ذلك في مذكراته حيث يقول مشيراً إلى جده لبائيس:

"وبنى قصبتها (أي قصبة مملكة) بنياناً لم يقدر عليه أحد في زمانه، وأعدّها حدة للمهمات، وجعل فيها جميع ما ورث لأبيه وراد عليه، وكان الذي يتوقع من كتب سلاطين الأندلس، ولتفاقم عليه لذلك أن يتحصن فيها ما استطاع، وإلا فيجوز منها إلى عنوة بني عمه بأهله ونخائره"^(١).

^(١) كتاب "البيان" لأمير عبد الله المنشور بعباية الأستاذ ليفي بروكسبال (القاهرة) ص ٤٣.

PDF Eraser Free

وقد توالى على قصبة مالقة من ذلك العهد تغييرات وتجديدات كثيرة، وحدثت وأصلحت غير مرة على يد سلاطين غرناطة، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر، وخلال القرن الرابع عشر، ولبثت طوال عهدها من أكبر وأمنع القصبات الأندلسية. ومما هو جدير بالذكر أنها كانت عند حصار مالقة الأخير، على يد الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٧ م، تضم أكثر من خمسة عشر ألف من المقاتلة وغيرهم، وقد أبلت في الدفاع عن المدينة في هذا الحصار خير البلاء.

والآن تشغل قصبة مالقة رقعة شاسعة تكل على سابق ضلعائها، كما تكل بورغوريتها ومثلة أسوارها وخرائبها على سابق منعتها، وتمثل هذه الأطلال الباقية عهدًا وطرايات مختلفة، ولا يوجد اليوم من أبنيتها القيمة ليام باديس، سوى بقية تقع في ناحيتها الشمالية، أما سائر مبانيها الواقعة في الناحيتين الشرقية والجنوبية فكلها لاحقة لهذا العهد، ويوجد في منخلها عدة أبواب ذات عقود عربية، ومنها الباب المعروف "بقوس المسيح" Arco del Cristo، وهو ذو عقدين، ويرجع إلى القرن الحادي عشر، وقد أقيم في صدره هيكل للعدراء.

وقد أسفرت أعمال الحفر والتنظيف التي أجريت بقصبة مالقة بين سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٦، عن الكشف عن مجموعة جديدة من الأبنية التي يرجع بعضها إلى العصر الحمودي، والبعض الآخر إلى العصر الغرناطي؛ وتقع هذه المباني في الجزء الأعلى من القصبة، وهو القائم بين الأسوار والأبراج، وهي تضم مجموعتين: الأولى تقع بعد باب المنخل مباشرة، وهي التي يطلق عليها منذ الاسترداد النصراني Cuartos de Granada (الأجنحة الغرناطية)، وهو حسبما يبدو قصر القصبة، وينقسم إلى ثلاثة أجنحة، والثانية وهي الواقعة في الناحية الشرقية، هي عبارة عن أبنية سكنية وبها حمامات، وكان يفصل القصر عن الأسوار والأبراج طريق عريض، وتكل مباني المجموعة الأولى وزخارفها على أنها ترجع إلى العهد الغرناطي، إلى أواخر القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر، وأنه قد استعملت في إقامتها بعض أنقاض أبنية باديس التي أقيمت في القرن الحادي عشر. ويوجد إلى جانب هذه المجموعة متحف صغير به طائفة من الأواني الخزفية الأندلسية، التي اشتهرت بصنعها مالقة، وبعض قطع زخرفية عليها كتابات عربية، وهي مما وجد بين الأنقاض.

PDF Eraser Free



مانقة. مظهر عام لواجهة المباني الداخلية للقنصية
وفي يسرها عقود ترجع إلى عصر بني حمود



مانقة. اطلال حصن جبل فلرة



مانقة. جبل فلرة وفي أعلاه اطلال الحصن

PDF Eraser Free

وقد احتفظت قصبة مالقة، بعد سقوطها في أيدي النصارى، عصرًا بجزئها وروايتها، ولبيت قصرها زهاء قرنين، مقلما ملكيا، يؤمه الملوك والحكام الإسبان لروعة موقعه على البحر، بيد أنها أهملت منذ القرن الثامن عشر، وأخذ العناء يذهب إليها شيئا فشيئا، حتى شملها الخراب، ولم يكن بها في أواخر هذا القرن سوى بعض مبان قائمة وسط أطلالها العديدة يسكنها بعض الفقراء، واستمر الخراب يعمها حتى صارت في أوائل هذا القرن أطلالا وركامًا دارسة، إلى أن تداركتها أعمال الحفر الأخيرة، فكشفت عن بعض معالمها ومجاسنها القديمة.

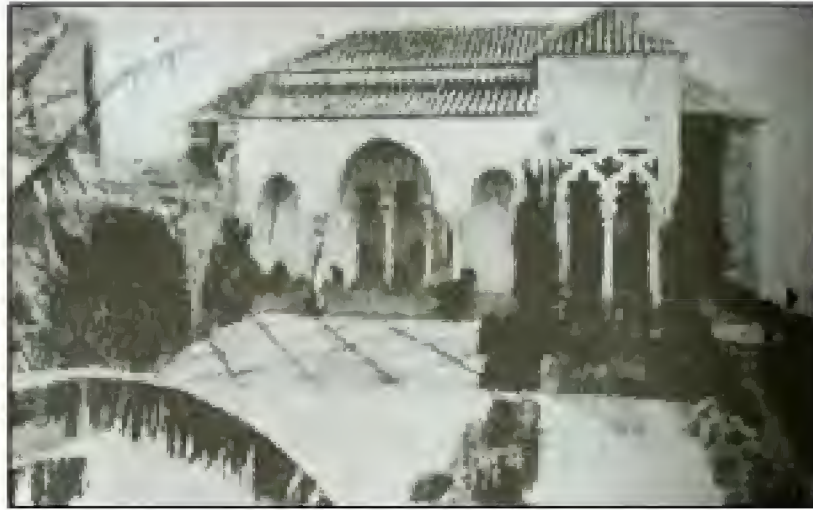
وتحتفظ القصبة ببعض أبراجها القديمة، وهي تكفي بما كانت عليه أيام المسلمين من القوة والحصانة.

والخلاصة أن قصبة مالقة كانت أيام المسلمين صرحًا من أعظم الصروح الدفاعية وكان لها عندئذ اثنا عشر بابًا، ومائة وعشرة أبراج كبيرة عدا الصغيرة، وكان بها قصر للأمير ومساكن للحاشية وحديقة عظيمة، تفضي إلى مجموعة من الحمامات، وكان بها مسجد. والواقع أن ما تبقى منها اليوم لا يعنو أن يكون بقية من الأطلال الدارسة لهذا الصرح العظيم القديم^(١).

حصن جبل فارة وبالإسبانية "Gibraltar"، وهو صرح دفاعي إسلامي آخر، يقع على ربوة عالية تشرف على البحر، على مسافة صغيرة من القصبة، ويفصله عنها رقعة خضراء، ويربطه بها طريق مسور، وما زال هذا الصرح يحتفظ بكثير من مسحة عذبية، وهو أكثر جدة واحتفاظًا بهيكله من القصبة، ويدخل إليه من باب سفلي ذي عقد كبير، يليه فناء مربع ذو عقود، وله مدخل آخر من فوق الربوة يؤدي إلى أروقة العليا، وفي صحنه الأسفل حديقة وعقود عديدة، وأسوار خارجية مبنية بالآجر الأحمر، ومن حوله طائفة من الأروقة التي تليها الأسوار، وما زال برجها الرئيسي قائمًا، ويسمى بالبرج الأبيض "Torre Blanca"، ويحتوي على عدة عقود ومخادع، وواجهته مستديرة، ويشرف على المدينة من ارتفاع شاهق، وأمام الحصن من الناحية الأخرى منحدر الجبل، وممراته الجانبية من هذه الناحية متماثلة، وتنحدر تدريجيًا إلى أسفل، وتبدو من تحتها مدينة مالقة، في شكل نجمة ذات زوايا، ومنازلها بيضاء ما بين الحصن والجبل.

^(١) راجع مقالاً فيما عن تاريخ قصبة مالقة وخواصها الأثرية للعلامة المرحوم الأستاذ توريس بالباس في

PDF Eraser Free



قصبة مائقة. العقود الغرناطية والمنخل الجنوبي للقناة المكتشف حديثاً



مائقة. باب السوق الأندلسي



مائقة. "باب فرس المسيح" داخل القصبة

PDF Eraser Free

ويشكل الحصن رقعة واسعة. وقد لاحظنا أن مشارف أسواره قد بنيت على نمط مشارف أسوار الحمراء وأهرابها.

وقد اشتهر حصن جبل فارة، أيام حصار النصارى الأخير، بمواقفه الدفاعية الباسلة، وكانت تحتله فرقة من جنود حمارة، أهلك في الدفاع بلاء حسداً وصمدت حتى آخر لحظة، ولزكت بالنصارى خسائر فادحة.

ويبدو أصل هذا الحصن القديم غامضاً، ويرجعه بعض الأثريين في الأصل إلى عصر الفينيقيين، والبعض الآخر إلى العصر اليوناني، ولكن الذي لا ريب فيه أنه أصلح ووجد على يد المسلمين غير مرة، كعادتهم في شل الصروح الدفاعية القديمة. ويرى بعض الباحثين أنه جدد لأول مرة، على يد المسلمين، في عصر عبد الرحمن الداخل الأموي، في أواخر القرن الثاني الهجري، ونحن نعرف فوق ذلك أنه قد أصلح في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، على يد محمد بن الأحمر الثاني سلطان غرناطة، ثم قام السلطان يوسف أبو الحجاج (١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) بعد ذلك بتجديده، وإعادة بنائه على أكمل وجه، وهو ما يشير إليه ابن الخطيب في قوله "وفي أيامه بنى الحصن السامي الذروة، المنبئ عن القدرة، في الجبل المتصل بقصبة مالقة، فعظم به الفخر، وجل الذكر"^(١).

وكانت لحصن جبل فارة أيام المسلمين أربعة أبواب كبيرة في سورء الأسفل، يقضي أحدها إلى القصبة، وكانت به آبار كثيرة للماء.

سوق مالقة: ويوجد ثمة بمالقة أثر إسلامي آخر ذو أهمية خاصة، وهو السوق القديم، الذي مازل يحتل موضعه منذ العصر الإسلامي، وهو يقع اليوم في وسط المدينة، وهو عبارة عن ساحة مربعة واسعة، مخصصة لبيع البقول والأسماك، والطيور وغيرها، ومازل هذا السوق يحتفظ ببهانه الأندلسي القديم كاملاً، وفي حالة جيدة، وهو باب مرتفع ذو عقدين، وعلى جوائبه العليا زخارف وكتابات عربية، يتخللها شعار بني نصر ملوك غرناطة "و لا غالب إلا الله".

الكنيسة العظمى: وتقع كنيسة مالقة العظمى (الكاتدرائية) على مقربة من القصبة، وقد بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع القديم، الذي حول عقب دخول المنكين الكاثوليكين المدينة إلى كنيسة.

ثم أقيمت مكانها (الكاتدرائية) الحالية، وهي ترجع إلى أوائل القرن السادس عشر، وهي كنيسة ضخمة عالية القباب، ولها واجهات فخمة شاهقة، ويغلب عليها طراز عهد الإحياء الإسباني.

(١) قلعة فيدرية (القاهرة) ص ٩٦.

PDF Eraser Free



قصبة سالقة، عقد المدخل (البورتكو) للقضاء الجنوبي

PDF Eraser Free

ومن صروح مالقة ذات الصلة بعهداها الإسلامي: كنيسة "المسماة" "مسيح النصر" "Cristo de la Victoria"، وهي ترجع إلى أواخر عهدها الإسلامي، وكانت قائمة وقت حصارها الأخير في سنة ١٤٨٧ م.

وكنيسة سانتياجو (سنت ياقب)، وقد أسسها الملك الكاثوليكيان في سنة ١٤٩٠ م، واتخذ برجها من منارة مسجد قديم، كانت قائمة عند سفح القسبة.

وكنيسة "سيدة النصر" "Nuestra Sra. De la Victoria"، وقد بنيت فوق المكان الذي ضربت فيه الخيام الملكية وقت الحصار.

ومما هو جدير بالذكر أن كنيسة سان دومنجو، التي تقع في وسط المدينة على مقربة من نهر "وادي المدينة"، قد بنيت من الداخل على طراز المسجد. بعقود حربية متقابلة، والمعروف من تاريخها أنها بنيت في الواقع، فوق أنقاض أحد مساجد مالقة القديمة، وأكثر من ذلك أن بابها يتجه نحو الجنوب الشرقي، مما يدل على أنه أقيم مكان القبلة القديمة^(١).

* * *

والخلاصة أن مالقة تبدو في مجموعها مدينة عصرية محدثة الخطط، ويسبغ عليها موقعها على البحر، كما تسبغ عليها شوارعها الظليلة، ومنتزهاتها الفخاء، حلة خلافة من الجمال والسر.



مالقة: الكنيسة العظمى

على أنه ليس من الصعب أن نتلمس في هذه المجموعة الضخمة من الخطط العصرية، بعض مواقع المدينة الأندلسية القديمة. والواقع أن جانباً من خطط المدينة القديمة يتجمع حول موقع حصن جبل فارة، على مقربة من القسبة، وفي أسفلها وحول موقع الكنيسة العظمى، التي تحتل مكان المسجد الجامع القديم. ففي هذه المنطقة مازالت تقوم شبكة من الدروب الضيقة الملتوية، تقوم عليها منازل متواضعة ذات طابق أو طابقين، ومواقعها فيما يرجع تمت بلوثنى صلة، إلى جانب من خطط مالقة الإسلامية. وتقع هذه المنطقة من مالقة القديمة في جنوب شرقي المدينة.

^(١) لفت نظري إلى هذه الكنيسة وخواصها الأثرية، صديقي السيور خوان تمبوري J. Temboury. وهو أحد سرة مالقة المشتهرين بالآثار الإسلامية.

PDF Eraser Free

هذا وتوجد في بعض بلاد ولاية مالقة، طائفة من الآثار الأندلسية التي مررنا بها

مروراً عابراً، ونذكر منها على سبيل المثال:

- ١- يوجد في قرية "الشرو" "El Chorro"، الواقعة على مقربة من بلدة بيشتر، كنيسة أندلسية قديمة، هي الكنيسة التي أنشأها عمر بن حفصون زعيم المولدين وكبير الخوارج الأندلسيين، في أواخر القرن الثالث الهجري، حينما ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية.
- ٢- يوجد في قرية "قرطمة" "Cártama" الواقعة غربي مالقة، حصن عربي صغير، وكذلك يوجد حصن عربي آخر في بلدة "ألورا" "Alora"، الواقعة شمال غربي مالقة.

PDF Eraser Free



بلش مالقة. كنيسة سانتا ماريا



ألورة (مالقة). بقايا الحصن الأندلسي



فرطمة (مالقة). الحصن الأندلسي

١٠ - بلش مالقة

Vélez Málaga

ليست "بلش مالقة" اليوم سوى مدينة صغيرة، لا يجاوز سكانها ثلاثين ألفاً من الأنفص، وليست لها أهمية خاصة. بيد أنها كانت أيام مملكة غرناطة الإسلامية، من أهم وأمنع قواعدها الجنوبية، وكانت فوق ذلك موطن كثير من العلماء والأدباء، الذين اشتهروا في القرن الثامن الهجري. وقد اشتهرت في قصة سقوط الأندلس بدفاعها المجيد، وسقطت في أيدي القشتاليين في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (أبريل سنة ١٤٨٧ م).

وتقع بلش شرقي مالقة، على قيد ثلاثين كيلو متراً منها، وتبعد عن البحر خمسة كيلومترات، حيث تقع بلدة "توري دلمار" "Torre de Mar"، وهي مصيفها القريب منها. وبلش مدينة بيضاء مشرقة ساحرة، وشوارعها طويلة تفصل بالمعاجر والحركة ويمتد شارعها الرئيسي زهاء كيلومترين، وهي تقع في بسيط أخضر تحده الجبال من ناحية، ومن ناحية أخرى تحده الربوة العالية، التي تقع عليها أنقاض القلعة القديمة، وتقع كنيسة القديمة المسماة "سانتا ماريا" في أسفل الربوة في نهاية البلدة وهي أقدم كنائسها، وتقع كنيسة الثانية المسماة "سان خوان" في طرفها الآخر، ومن المرجح جداً أن تكون كلتا الكنيسين قائمة على موقع مسجد قديم.

وقد شهدنا في الشارع الصاعد إلى كنيسة "سانتا ماريا"، عقداً عربياً قديماً، يقضي إلى شارع آخر، ولكن ليست به نقوش أو زخارف تنبئ عن قيمته الأثرية. بيد أنه يبدو بطرازه وقدمه، أنه من عقود المدينة الأندلسية القديمة. والواقع أن الشوارع الصخرية الصاعدة المؤدية من بعدد إلى الربوة، وهي شوارع ملتوية ضيقة ذات منازل متواضعة تبدو كلما تقوم فوق أنقاض بعض الأحياء الأندلسية القديمة المتواضعة، التي كانت تقوم عادة تحت أسوار القسبة القديمة.

وقد كانت القسبة أو القلعة الأندلسية القديمة، تقوم بلا ريب فوق هذه الربوة العالية التي تشرف على المدينة، بيد أنه لم يبق منها اليوم إلا بقية جدار وأنقاض ليست لها أهمية أثرية، إلا ما كان من دلائلها على موقع القسبة الذاهبة.

PDF Eraser Free

ولا توجد في بلش أية آثار أندلسية أو متحف أو غيره مما يشاهد ويزار. بيد أن المتأمل لموقعها من فوق الزبوة وفي حصى الجبال، يدرك ما كانت عليه أيام المسلمين من أهمية دفاعية، ويدرك أنها كانت حقاً جناح مملكة الأيمن.

ومما هو جدير بالذكر، أنه توجد في الطريق بين مملكة وبلش أبراج صغيرة عديدة قديمة، بعضها يقوم على شاطئ البحر، والبعض الآخر يقوم فوق التلال، ولعلها كانت مراكز للمراقبة في القرن السادس عشر، أيام غارات المجاهدين المسلمين من الترك والمغاربة، على الشواطئ الإسبانية الجنوبية، انطلاقاً للموريسكيين.

١١ - مَرَبِلَة

Marbella

مرَبِلَة من ثغور شاطئ إسبانيا الجنوبي المسمى "بِساحِل الشمس" Costa del Sol نظراً لصحو منطقتها، وصفاء جود، وسطوح شمسها، وهو يمتد من إشتوبونة حتى ستريل شرقاً، ويتوسطه ثغر مألقة، وهو عبارة عن سلسلة من الهضاب التي تتخللها بعض الرقاع الخضراء، وفيها بعض الحقول الخصبة، وبعض الحدائق المتفرقة، ومن وراء الهضاب والربى تقوم إلى الشمال، جبال عالية قائمة، ويمتد الشاطئ منخفضاً تظله مياه البحر الزرقاء الداكنة.

وتقع مَرَبِلَة على قيد ستين كيلو متراً غربى مألقة، والطريق إليها من مألقة تحف به في البداية رقاع خضراء منبسطة، ثم ينحرف بعد ذلك نحو البحر، وتظله هضاب ومرتفعات وجبال عالية. ومَرَبِلَة بلد صغير مشرق، مستطيل الرقعة، يقع مباشرة على البحر، فوق سفح جبل عال، وتتخلله الحدائق وغابات الزيتون، ويعتبر بشواطئها الساحرة على مياه البحر المتوسط من المصايف الجميلة، ويعتبر كذلك بدفنه وشمسه أيام الشتاء من العشتي المرغوبة، على نمط ثغور هذا الشاطئ كله، وقد أعدت جميعاً لتكون مشاتي ومصايف، بشواطئها وقادقها ومتنزهاتها.

وكانت مَرَبِلَة أيام الرومن تسمى Maro Polis، ثم أطلق عليها المسلمون اسم "مَرَبِلَة"، وأثبتت مَرَبِلَة من ثغور مملكة غرناطة الإسلامية، حتى أخذت قواعد هذه المملكة تسقط تباعاً في أيدي القشتاليين، وكان سقوطها في أيدي الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٨ م، عقب سقوط ثغر مألقة.

ولم يبق في مَرَبِلَة من معالمها الأندلسية سوى أطلال متناثرة من حصنها القديم، الذي يوصف بأنه من أقدم الحصون الأندلسية، وينسب بناؤه إلى القرن الرابع الهجري، وتقع هذه الأطلال داخل المدينة، وبين المساكن، وقد بنيت في ساحته الكبرى مدرسة، وبقيت من أطلاله واجهة ساريتها الكبرى، وتتخل كثير من أطلاله في الأبنية الحديثة المجاورة، وتمتد هذه الأطلال إلى مسافة كبيرة، ومنها قطع كثيرة من الأسوار، تقع داخل الأتربة المجاورة، وهي كلها ضيقة، يبدو عليها طابع القدم، وإلى مقربة من أطلال الحصن، تقع الكنيسة العظمى، وهو ما يرجح أنها بنيت على موقع الجامع القريب من الحصن أو جامع القصبة نفسه.

سُهَيْل

وإلى شرقي مربلة، تقع بلدة سهيل، على قيد ثلاثين كيلو متراً منها، وهي التي تسمى اليوم بالإسبانية Fuengirola. وكان اسمها الروماني Selitane، فغيره المسلمون إلى "سهيل"، إذ كان يزرع أهل هذه الناحية أن النجم المسمى سهيلاً، يرى من أعلى الجبل المجاور لها. ويسمونها صاحب الروض المعطر "مرسى سهيل"^(١).

وسهيل أو "فونخرولا"، بلد كبير يقع على البحر مباشرة، فوق سفح الجبال المجاورة، على قيد ثلاثين كيلو متراً غربي مالقة، ويمتد من الشاطئ إلى مسافة كبيرة، وإلى شرقها تقع بلدة صغيرة تسمى "بني المدينة" Beni Almedina، مما يحمل على الاشتك في أصلها العربي.

وإلى غربها تقع أطلال حصن أندلسي كبير، لم يبق منه اليوم، سوى لسوارة الخارجية، وهي عبارة عن حظيرة مستعدة الأضلاع، يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثين متراً، وفي إحدى أضلاعها نوافذ تعلوها الساريات الصغيرة، وهو يقوم على ربوة عالية، تقع على نحو كيلو متر من البلدة، وتشرف على البحر، ويبلغ ارتفاع الأسوار نحو عشرة أمتار، ومازل به برجان خربان، يرتفع كل منهما نحو ستة عشر متراً، وليست به عقود أو ملامح عربية واضحة.

والمعروف من تاريخ هذا الحصن، أنه بُني في عهد عبد الرحمن بن الحكم، في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، واستمر قائماً حتى انتهت دولة الإسلام في الأندلس، ثم عدل بناؤه أيام الإمبراطور شارلكن، فالطل القاتم اليوم، إنما هو ظل هذا الحصن المعدل البناء.

ونجد آخر إشارة في الرواية الإسلامية لهذا الحصن، في رحلة ابن بطوطة، فهو يشير إليه، في حديثه عن رحلته إلى مالقة، ويقول لنا إنه سافر من مربلة، وهي بلدة حسنة حصينة، وقصد إلى حصن الرابطة المعروف بحصن سهيل، وقضى به الليل مع قلده، ثم سار من الغد إلى مالقة^(٢).

وفي حصن سهيل، كان مولد العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلي، وذلك في سنة ٥٠٩ هـ (١١١٥ م).

(١) فروض المعطار. صفة جزيرة الأندلس. ص ١٨٠.

(٢) رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٦.

١٢ - المنكب

Almunecar

إن الطريق من مالقة إلى المنكب وشلوبانية، هي أيضاً طريق المرية، وهي طريق ضيقة ملتوية، صاعدة ومنخفضة، تجري على مقربة من البحر، في كنف هضاب ومرتفعات صخرية: تظللها من آن لآخر أشجار ونخيل وغابات زيتون، ويبلغ من اتواء الطريق أحياناً أن تتعاقب متكرجة في طبقتين أو ثلاث، وتعلو بذلك عن سطح البحر أربعين أو خمسين متراً، وتبعد المنكب تسعين كيلو متراً عن شرقي مالقة، ولول البلاد الكبيرة في هذا الاتجاه هي بلدة "نرخا" Nerja، ومن بعدها تخترق الطريق الجبال باستمرار حتى المنكب.

وتقع المنكب على خليجين مقوسين متجاورين في البحر، وهي تغز جميل مشرق، وتحجبها الجبال من الناحيتين الشرقية والشمالية، ولها شاطئ طويل على البحر، تكثر فيه الخلجان الصغيرة، ويبدو حصنها المنيع في وسطها قائماً فوق ربوة عالية.

هبطتُ إلى المنكب في عصر يوم الميلاد^(١)، وما كنت ألقى نظرة فاحصة على مواقع هذا الثغر الصغير، الذي يحتضن خلجائه، وتحجبها الجبال من ظهره، حتى ذكرت قصة عبد الرحمن بن معاوية، أو عبد الرحمن الداخل، وأدركت لماذا اختار هذا الأمير المغامر أن ينزل في ثغر المنكب، ليجوز منه إلى داخل شبه الجزيرة، وأنه إنما اختاره لحصانته الطبيعية من البر والبحر.

قال صاحب الروض المعطار: وبهذا المرسى (أي المنكب) خرج الإمام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس، وذلك في ربيع الأول من سنة ١٣٨، ويتلو مرسى المنكب، مدينة حسنة متوسطة، كثيرة مصائد السمك، وبها فواكه جمّة^(٢).

وهذا الوصف مازال ينطبق على "المنكب"، فهي مدينة جميلة متوسطة، تضم من السكان ثلاثة عشر ألف نفس، وتقع أحواضها الأمامية الحديثة على بسيط صغير يمتد على الشاطئ، وتقع معظم أحيائها القديمة على سطح الربوة، التي يقع الحصن في طرفها الجنوبي، والكنيسة العظمى في طرفها الشمالي، والجبال من وراء ذلك تشرف عليها، وقد رأينا حين طوافنا بالمدينة نخلًا مثمرًا، في هذا الوقت من الشتاء.

(١) في يوم ٢٥ ديسمبر من سنة ١٩٥٩

(٢) روض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٨٦

PDF Eraser Free



العنكب. منظر عام للعنكب وثغرها



العنكب. اطلال انحصن العتشف على البحر

PDF Eraser Free

حصن المنكب: وأهم معالم المنكب الأثرية، هي أطلال حصنها الأندلسي، وهو الذي يشير إليه صاحب الروض المعطر بقوله: "وعليه (أي مرسى المنكب) حصن كبير لا يزال". والواقع أن هذه الأطلال المتناثرة، كل بوعورتها على مناحه القديمة، وهو يبدو كثير الضلوع والمنحنيات، وله لسان يمتد من أسفل حتى شاطئ البحر، وقد حول هذا الحصن الدارين إلى مقبرة تدفن فيها أموات المدينة، وحولت أسواره من الداخل إلى طاقات (ثيمات) صغيرة للمواطنين، توضع فيها الأشياء المقدسة واللوحات التذكارية، وفي داخله كنيسة صغيرة، ويدخل إليه من ممر تشرف عليه بقية عقد عربي، والحصن طابق سفلي آخر تحيط به الأسوار المشرفة على البحر مباشرة، وقد أقيمت المباني بجوار الأطلال المتناثرة من كل ناحية، وهي تكلي في مجموعها، وبمسافتها المتباعدة، بأن الحصن كان يشغل مساحة كبيرة.

ويرى الناظر من أعلى الحصن، على بعد، أثرين آخرين، هما برجان يرجعان إلى أصل عربي، وهما البرج المسمى Torre del Monje (برج الراهب)، وهو يقوم على لسان داخل في البحر، وبرج آخر يقع في ناحية الشرق، ويشرف على الشاطئ أيضاً.

والواقع أنه توجد على طول الشاطئ الممتد من مאלقة إلى المنكب أبراج كثيرة مستكبرة، تقع على مسافات متباعدة، ومنها ما يرجع إلى أصل أندلسي، والظاهر أن معظمها أقيم فيما بعد، في أوائل القرن السادس عشر، حينما بدأت غارات المجاهدين المسلمين البحرية على الشواطئ الإسبانية.

وتقوم وراء الحصن من الجهة الشمالية، ربوة عليها دروب وممالك ضيقة متصاعدة، يبدو أنها تقوم على خطط المدينة الأندلسية القديمة. أما أحياء المدينة الحديثة، فتقوم حسبما تقدم على شاطئ البحر، ومنها منازل وفنادق جميلة أعدت للمصيف.

الكنيسة العظمى: وتقع الكنيسة العظمى، في شمالي المدينة، قبالة الحصن، على مسافة نحو أربعمئة متر، وهي كبيرة وقديمة، بنيت على الطراز القوطي، ومن المرجح أنها أقيمت على موقع المسجد الجامع القديم.

وفي المنكب عقود قنطرة رومانية قديمة، تقع خلف المدينة في الشمال.

وقد سقطت المنكب في أيدي القشتاليين في شهر المحرم سنة ٨٩٥ هـ، الموافق شهر ديسمبر سنة ١٤٨٩ م.

١٣ - شلوبانية

Salobreña

تقع شلوبانية أو شلوبينية على مسافة أربعة عشر كيلو مترًا شرقي المنكب، وهي بلدة صغيرة جميلة، تقع على ربوة مستطيلة متصاعدة، تمتد على شاطئ البحر، وتحيط بها الجبال من الشمال والغرب، ويخترقها من أولها إلى آخرها طريق طويل، وأمامها ربوة أخرى بارزة في البحر عليها بعض الأحياء الحديثة. ومنزلها جميعًا بيضاء، وسقوفها من القرميد الأحمر.

وحصن شلوبانية هو أهم آثارها الأندلسية الباقية، وهو يقع في وسط المدينة على منحدر صخري وعرة، مشرف على البحر، ومنحله عقد مزدوج تلو قبة معقودة، وأسواره سميكه عرضها نحو ثلاثة أمتار، وهي ما تزال تحمل سواربها العربية القديمة وقد أصلحت، وفي داخله في مواجهة البحر، عقد ومنخل جانبي آخر يفضي إلى وسط الحصن، وقد بقي من أبراجه برج كبير ارتفاعه نحو ثمانية أمتار في مثلها، وقد أصلح وجدد، وتوجد في وسطه أسس بناء قديم آخر، ربما كانت لمنزل الحاكم. وهو يشرف على المدينة من ناحية الشرق من ارتفاع شاهق، ويبدو من مجموعة أطلاله، أنها أطلال القسبة القديمة، وإن القسبة كانت تشغل مساحة شاسعة، وتتصل بأسوار المدينة العامة.

الكنيسة العظمى: وتقع الكنيسة العظمى، على مقربة من الحصن، فوق الربوة المشرقة على البحر، وهي صغيرة الحجم، ويزجها مربع عال يبلغ ارتفاعه نحو خمسة وعشرين مترًا، وهو ذو طرز عربي تقريبًا، على مثل طرز المنارة الموحدية (الخير الناف)، وهي تحتل بلا ريب موقع الجامع القديم.

وقد سقطت شلوبانية في يد الملكين الكاثوليكين، في نفس الوقت الذي سقطت فيه المنكب، أعني في سنة ١٤٨٩ م.

وإلى شلوبانية ينسب إمام النحو الأندلسي أبو علي الشلوبيني المتوفى بإشبيلية سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م).

PDF Eraser Free



شلوبانية. منظر عام للبلدة وقد ظهر في أعلاها الحصن



شلوبانية. الكنيسة العظمى

١٤ - مترييل

Motril

وإلى شرقي شلوبانية، تقع مدينة مترييل على بُعد ستة كيلو مترات منها، وهي مدينة كبيرة تطلّ على الجبال شرقاً وشمالاً، وتبعد قليلاً عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

وكانت مترييل من قواعد مملكة غرناطة الإسلامية، سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين في سنة ١٤٨٩ م. وكانت لها أسوار ذات بابين، وبها ثلاثة مساجد، فلما تغلب عليها النصارى، هجرها سكانها المسلمون إلى المغرب في سنة ١٥٠٧ م. وغلب في سكانها الموريسكيون (أو العرب المنتصرون). وكانت خلال القرن السادس عشر عرضة لغارات المجاهدين البحرية، التي قادها أمير البحر التركي خير الدين عسراء ومن بعده زعماء المجاهدين من المغاربة والموريسكيين.

ولا توجد في مترييل آثار أندلسية ظاهرة، ولكن كنيسة السماء La Virgen de la Cabeza (عذراء الرأس) ترتبط ارتباطاً وثيقاً بذكرى أندلسية مؤثرة؛ ذلك أنها تقوم فوق ربوة تقع في وسط المدينة ومن حولها المزارع والتلال في السهل، وتشرّف على البحر، وكان يحلّ هذه الربوة من قبل حصن أو قصر إسلامي، كانت تعيش فيه الملكة عائشة الحرة، والدة السلطان أبي عبد الله آخر ملوك غرناطة، فلما سقطت مترييل في أيدي القشتاليين في سنة ١٤٨٩ م، أمر الملك الكاثوليكيان بهدم هذا الحصن، وأقيمت فوق موقعه الكنيسة المذكورة. واستمرت هذه الكنيسة قائمة مدى عصور، حتى خربت أيام الحرب الأهلية الإسبانية الأخيرة، ثم أعيد بناؤها في نفس المكان، وربما على نفس طرازها القديم، بيد أنه لا يوجد في البناء الجديد شيء من آثار البناء القديم.

١٥ - ألمرية

Almeria

تعتبر ألمرية من أجمل الثغور والمدن الإسبانية، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وهي مدينة كبيرة مستطيلة الشكل، تمتد قاعدتها الكبيرة من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط، ويقال إن اسمها مشتق من كلمتين عربيتين هما "مرآة البحر".

وألمرية مدينة أنيقة مشرفة، يشقها من الوسط شارع عظيم، تحف به الأشجار الباسقة من الجانبين، ويسمى اليوم "متنزه الجنرال الأعظم" "Paseo del Generalísimo" وكان من قبل يسمى "شارع الأمير" "Avenida del Principe"، وتقع فيه معظم المتاجر والمقاهي والفنادق الكبيرة، وتتفرع منه على الجانبين شوارع كثيرة، وأحياء المدينة كبيرة مشعبة، وهي على العموم أكثر تساعًا ورونقًا ونظافة من غيرها من المدن الإسبانية المماثلة. وشوارع المدينة كلها مرصوفة بادية النظافة، وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة، وكثير من منازلها في الأحياء الداخلية ذو طابق واحد.

ويصل داخل المدينة بالميناء طريق طويل، يشقه متنزه ضيق غرست على جانبيه أشجار النخيل، وصفت المقاعد، وهو من أجمل الطرق التي شيدناها في المدن الإسبانية، ويبلغ سكان ألمرية اليوم زهاء ستين ألف نسمة، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفولاذ.

وتصل إلى ألمرية من غرناطة بالقطار عن طريق وادي آش، خلال وهاد وتلال وعرة جرداء، وقبل ألمرية بقليل تقوم بلدة "غدر" "Gador"، وهي تقع في واد عميق أخضر، به زروع نصرة وحدائق يرتقال غناء، وتليها بلدة "Benabadux" وأصل اسمها عربي هو بنو عبدةوس، وهي تقع في بسيط أخضر وبها نخيل كثير وحدائق، ثم بلدة بجالة "Pechina" ذات الأصل الأندلسي العربي. وقبل ألمرية تكثر البساتين الخضراء والنخيل، تحدها الجبال من ناحية، والبحر من الناحية الأخرى.

وكانت ألمرية في العهد الإسلامي من أهم ثغور الأندلس الجنوبية، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر ميناءها وأرصفها في سنة ٩٥٥ م. وكانت أيام الطوائف قاعدة مملكة صغيرة زاهرة أولاً في ظل الفتيين العاصريين خيران ثم زهير (١١٠٤ - ١١٣٨ م)، ثم بعد ذلك في ظل بني صمّادح (١١٤١ - ١١٩١ م)، ثم كانت أيام مملكة غرناطة، فضلاً عن أهميتها

١٥ - ألمرية

Almeria

تعتبر ألمرية من أجمل الثغور والمدن الإسبانية، وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم. وهي مدينة كبيرة مستطيلة الشكل، تمتد قاعدتها الكبيرة من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط، ويقال إن اسمها مشتق من كلمتين عربيتين هما "مرآة البحر".

وألمرية مدينة أنيقة مشرفة، يشقها من الوسط شارع عظيم، تحف به الأشجار الباسقة من الجانبين، ويسمى اليوم "متنزه الجنرال الأعظم" "Paseo del Generalísimo" وكان من قبل يسمى "شارع الأمير" "Avenida del Principe"، وتقع فيه معظم المتاجر والمقاهي والفنادق الكبيرة، وتتفرع منه على الجانبين شوارع كثيرة، وأحياء المدينة كبيرة مشعبة، وهي على العموم أكثر تساعًا ورونقًا ونظافة من غيرها من المدن الإسبانية المماثلة. وشوارع المدينة كلها مرصوفة بادية النظافة، وقد غرست على جوانبها الأشجار الظليلة، وكثير من منازلها في الأحياء الداخلية ذو طابق واحد.

ويصل داخل المدينة بالميناء طريق طويل، يشقه متنزه ضيق غرست على جانبيه أشجار النخيل، وصفت المقاعد، وهو من أجمل الطرق التي شيدناها في المدن الإسبانية، ويبلغ سكان ألمرية اليوم زهاء ستين ألف نسمة، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفولاذ.

وتصل إلى ألمرية من غرناطة بالقطار عن طريق وادي آش، خلال وهاد وتلال وعرة جرداء، وقبل ألمرية بقليل تقوم بلدة "غدر" "Gador"، وهي تقع في واد عميق أخضر، به زروع نصرة وحدائق يرتقال غناء، وتليها بلدة "Benabadux" وأصل اسمها عربي هو بنو عبدةوس، وهي تقع في بسيط أخضر وبها نخيل كثير وحدائق، ثم بلدة بجالة "Pechina" ذات الأصل الأندلسي العربي. وقبل ألمرية تكثر البساتين الخضراء والنخيل، تحدها الجبال من ناحية، والبحر من الناحية الأخرى.

وكانت ألمرية في العهد الإسلامي من أهم ثغور الأندلس الجنوبية، وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر ميناءها وأرصفها في سنة ٩٥٥ م. وكانت أيام الطوائف قاعدة مملكة صغيرة زاهرة أولاً في ظل الفتيين العاصريين خيران ثم زهير (١١٠٤ - ١١٣٨ م)، ثم بعد ذلك في ظل بني صمّادح (١١٤١ - ١١٩١ م)، ثم كانت أيام مملكة غرناطة، فضلاً عن أهميتها

PDF Eraser Free



المرية. منظر عام لحدائق القصبة وأسوارها الخارجية



المرية. منظر الميناء، وقد اشرفنا عليها لطلال القصبة

PDF Eraser Free

وإلى جانب هذه المجموعة الكبيرة من أطلال القسبة، توجد مجموعة أخرى أصغر منها، وتقع في شمالها على ربوة عالية منفصلة عنها، وبها خمسة أبراج صغيرة، وقد نصب على قاعدة أمامية فيها تمثال للقديس كرسوبال.

ولسوار القسبة في حالة جيدة من الحفظ، وتبدو مشارفها جميعًا متصلة مشقة، وقد أجريت في الأطلال كلها أعمال تجديد أسبغت عليها رونقًا ورواء.

ويقع وراء هذه المجموعة الكبيرة من الأطلال من الناحية الشمالية، بقية من أبراج ولسوار سفلية، تصل بينها وبين القسم الآخر المواجه لها، مما يدل على أن القسمين كانا متصلين في الماضي، وأنهما كانا يؤلفان معًا جبهة دفاعية متينة.

ولم نجد بالأسوار أو الأبراج أية زخارف أو نقوش عربية، والظاهر أنها محيت بمضي الزمن، ومن جراء أعمال التجديد والإصلاح، التي قامت بها السلطات الإسبانية.

وقد أقيما من أعلى القسبة على التربة الجميلة نظرة طويلة، فإذا بها تبدو بشوارعها المنسقة ومنازلها الجميلة النوضاعة في شكل بيضاوي، ومن وراء ضلعها الكبير بسيط أخضر، يليه البحر بمياهه الزرقاء الهائلة. ويقع الميناء في مواجهة القسبة، ومن وراء الخليج المستطيل الذي تمتد على شاطئه المدينة من ناحية الشرق، تبدو سلسلة من التلال القائمة.

والحق إنه كان منظرًا بالغ الروعة.

* * *

ولم يفتأ أن نزور كنائس المرية، وهي تقع في وسط المدينة، بين شبكة من الدروب الضيقة، وهي مثل معظم الكنائس المعملة قد بنيت على النمط القوطي، وليست بها خواص تاريخية أو أثرية مميزة. والمرجح أنها بنيت فوق موقع مسجد المرية الجاسع، جريًا على القاعدة التقليدية التي اتبعتها إسبانيا النصرانية في سائر مدن الأندلس.

PDF Eraser Free



أنعربة. منظر عام لواجهة القصبة الأندلسية
(قصبة خيران العامري) وقد ظهرت بها الأبراج والمشارف الباقية

PDF Eraser Free

بيد أنه يقال من جهة أخرى إن كنيسة سان خوان، وهي إحدى كنائس المدينة القديمة، هي التي بنيت فوق أنقاض المسجد الجامع. ويقول الأستاذ جومث مورينو تلييذا لهذا الفرض إنه توجد في هذه الكنيسة آثار بناء سابق، يرجع إلى أوائل القرن الحادي عشر، وهو الوقت الذي جدد فيه خيران العامري المسجد^(١).



وهذا في نهاية المدينة على طريق مملكة يقوم طلل قديم دارس، فوق ربوة عالية تطل على البحر، ويطلق عليه اسم حصن سان تلمو "Castillo de San Telmo" ويقولون إنه من آثار المسلمين. وقد صعدنا إلى أعلى الربوة رغم ارتفاعها الشاهق ووعورة مسالكها، لنفحص هذا الطلل، فإذا به عبارة عن أسوار قديمة مربعة بينها فراع، ولا يدل منظرها أو بنائها على أية أهمية أو خاصة لثرية.

المدينة. الكنترقية أو الكنيسة العظمى

١٦ - رنـدة

Ronda

تقع مدينة رنـدة غربي مالقة، تفصل بينهما منطقة تمتاز بوعورتها، وكثرة جبالها وآكامها، وقلة مساطبها، ووديانها الفكرة السحيقة، وهي تكاد تخلو من الرقاع الخضراء، إلا بعض شابات الزيتون المتناثرة هنا وهناك، ويبدو المساطب قبل رنـدة بقليل، ولكنها بمساطب صفراء، تتخللها في نفس الوقت منحدرات مدرجة، وكلها مغطاة بالشجار الزيتون، وليست بها أية زروع أخرى.

وقد كانت رنـدة من أهم القواعد الأندلسية النادرة، ثم كانت بعد ذلك من أهم مدن مملكة غرناطة الإسلامية، وكانت معقلًا حصينًا يحمي مالقة من الغرب. فلما سقطت رنـدة في يد القشتاليين، في جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ (أبريل سنة ١٤٨٥ م) بعد حصار قصير، أصبح الطريق ممهدًا لاستيلاء النصارى على مالقة، وقد سقطت فعلاً في أيديهم بعد أمـد قصير في شعبان سنة ٨٩٢ هـ (أغسطس سنة ١٤٨٧ م).

وتتمتع رنـدة بموقع طبيعي رائع، فهي تقع فوق منطقة من التربة المرتفعة، تحيط بها الوديان السحيقة والأكم العالية، تتخللها قليل من المساطب، التي تنمو بها زروع ضئيلة، ويشقها من وسطها نهر وادي لبين "Guadalebín"، في مجرى عميق ينساب إلى بطن الوادي السحيق، وعليه قناطر ثلاث: الرومانية والعربية والحديثة. وقد وصف الرحالة ابن بطوطة مدينة رنـدة حينما زار الأندلس سنة ١٣٥٠ م بقوله: "وهي من أمتع معقل المسلمين وأجملها وصفًا"^(١).

وتتخذ رنـدة طابعًا خاصًا، فهي مدينة يغلب عليها القدم والبساطة، وتحتفظ بكثير من طابعها وعطشها الأندلسية القديمة، فمعظم دروبها ضيق متعرج، ومعظم منازلها منخفضة ذو طابق أو طابقين، ويحتوي على الأفنية الداخلية ذات الأشجار، والمزينة "بالموزايك" الأندلسي عند المتخل، ولا يبدو فيها سوى القليل من المنازل الحديثة العالية.

ورنـدة مدينة متوسطة الحجم، مشرقة الطالع بالرغم من قدم طابعها، يشقها من الشمال إلى الجنوب شارع طويل جدًا، يسمى في نصفه الأول بشارع "Paz de la Virgen"، ثم يسمى بعد ذلك بشارع "Armiñán". وهذا الشارع هو قلب المدينة وفيه المتاجر والمقاهي،

^(١) رحلة ابن بطوطة (القاهرة) ج ٢ ص ١٨٥

PDF Eraser Free

ويقع في منتصفه مسرح الثيران، وهو أقدم مسرح من نوعه أنشئ في إسبانيا، وكان إنشائه سنة ١٧٨٤، ويمتاز بمداخله المعقود ذي الزخارف الشبيهة بالمدجنية، ويقع بعده بقليل مترو المدينة وهو يشرف من على الوادي السحيق. الذي يحد المدينة من الغرب وله مشرقيات بارزة مشبكة بالقضبان الحديدية، تسمى الوسطى منها "منظرة الملكين الكاثوليكين".

ويتفرع من هذا الشارع الرئيسي شوارع جانبية عديدة، لا سيما في الناحية اليسرى حيث تمتد الشوارع صاعدة طويلة، أما الناحية اليمنى، فتمتد نحو الوادي العميق بضعة شوارع قصيرة، وأهم الشوارع الجانبية اليسرى هو شارع "La Vela" التجاري، وهو شارع ضيق يفصل بالمتاجر ويمتد نحو كيلو متر.

ويبلغ سكان رندة أكثر من ثلاثين ألفاً.

المعالم والآثار الأندلسية

ومازل رندة فضلاً عن طابعها الأندلسي، تحتفظ بطائفة هامة من الآثار الأندلسية. وفي مقدمة هذه الآثار أطلال قصبة رندة الشهيرة، وهي تقع فوق ربوة عالية تطل على الوادي السحيق، الذي يقع جنوب غربي المدينة وتطله الأكام العالية. ولم يبق اليوم من هذه الأطلال، سوى جزء من السور، وثلاث بوابات ضخمة، وبقيت أبراج دارسة. وفي أسفل هذه المجموعة من الأطلال، يقع عقد باب من أبواب القسبة. وقد كان موقع قصبة رندة فيما يبدو وعراً جذاً والظاهر أنها كانت تمتد إلى مسافة كبيرة على حافة الهابوية. وقد ذكر لي الأستاذ الأب رهبانو مدير معهد السليمان الديني، القريب من هذه الأطلال، أن أسوار المدينة القديمة كانت تمتد من القسبة، وأن هذا المعهد قد بُني فوق أنقاض قلعة القسبة، ومازل يسمى حتى اليوم "الحصن" "El Castillo" تنويعاً بموقعه القديم.

وتقع الكنيسة العظمى المسماة "Sta Maria la Mayor" في طرف المدينة الجنوبي، على مقربة من الحصن، وهي أقدم كنائسها، وقد بُني نصفها القديم وهو الذي به الهيكل، في أواخر القرن الخامس عشر، فوق موقع جامع رندة القديم، وأدمج في بناء هذا القسم من أطلال الجامع أربع قباب عربية صغيرة، ركبت في سقف الكنيسة، وهي ظاهرة وحيدة الطراز. أما القسم الآخر من الكنيسة فهو حديث.

والظاهر أن المدينة الأندلسية القديمة، كانت تقوم حول الكنيسة العظمى. مبتدئة من جانب القسبة حتى منزل المركز دي سالتييرا الذي يجيء ذكره وحتى القنطرة العربية المجاورة له، وأن أسوار رندة القديمة كانت تحيط بهذا القسم من المدينة. أما القسم الحديث من المدينة فهو الممتد من عند مدخلها حتى القنطرة الحديثة.



رندة، القنطرة العربية على نهر وادي لبيح

القنطرة العربية: وهي على صغرها من أهم الآثار الأندلسية الباقية، وهي صخرية منيعة، تقوم على النهر في منخفض عميق، عند مدخل المدينة الغربي، وفي أضيق جزء من مجراه، وهي ذات عقد واحد رافع بالغ الارتفاع، والنهر يمر من تحتها بين صخور وعرة شاهقة.

وتقع على مقربة منها القنطرة الأخرى المسماة "بالقنطرة الجديدة"، في وسط المدينة، في امتداد الشارع الرئيسي، وهي ذات عقدين كبيرين، وقد أنشئت في أواخر القرن الثامن عشر.

الحمامات العربية: وهي أطلال دارسة من حمامات أندلسية قديمة، تقع في طرف رندة الجنوبي، على مقربة من الكنيسة العظمى، في بسيط منخفض، وهي عبارة عن أربعة عقود متقابلة في صفين، يظلها سقف مقبب ذو ثلاث بوثك، وتتخلله كوات النور المعروفة، وإلى جانبها مكان البركة التي كانت تمد الحمامات بالماء، وتحتها الأسراب التي تستعمل للتصفية، وقد أضحي هذا الأثر في حالة خراب، يخشى أن تؤدي إلى تهيأته في المستقبل القريب؛ لأنه يقع في ملك خاص ولا يعنى بصيانته أحد.

وقد رأينا إلى جانب هذا الطلل عدة أحجار ولقائض أثرية، بينها لوحة خشبية طويلة كتب عليها ما يأتي: "لا إله إلا الله. يا ليها المجلس. الحمد لله فإنيك الطالع".

المنارة: تقع هذه المنارة البتيمة، في نهاية المدينة قبيل الكنيسة العظمى بقليل في ميدان صغير، وهي مربعة الشكل، تقوم فوق الأرض مباشرة بين منزلين صغيرين، ويبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر متراً فقط، ويوجد في وسطها في كل جانب من جوانبها الأربعة كوات، وقد سدت الكوات في جانبيين، وبقيت في الجانبين الآخرين ثل على أصلها الإسلامي، وعلى

PDF Eraser Free

صفتها كمئذنة لمسجد صغير، وقد حُول المسجد فيما بعد إلى كنيسة، واتخذت المئذنة برجًا للأجراس. ثم هدمت الكنيسة، وبقي البرج أو المئذنة القديمة، والظاهر أنها ترجع إلى عصر الموحدين، إذ هي تشبه طراز مآذن عصرهم، ومما يجدر ذكره أن جزأها الأعلى هو الذي حُوِّلَ وحُوِّلَ إلى برج للأجراس، وبقي جزؤها الأسفل على بذاته الإسلامي.

قصر الأمير أبي مالك؛ هو لثر أندلسي مغربي رائع، مازالت خواصه ونقوشه الإسلامية، باقية في أرواح مظاهرها. وهو يعرف في رندة أيضًا باسم "منزل خيجانتي" "Casa del Gigante"، وهو اسم الأسرة التي تملكه. ويقع هذا المنزل في طرف المدينة الجنوبي، على مقربة من الكنيسة العظمى، في بعض الدروب الضيقة؛ وله فناء أندلسي رائع يزدن أحد جوانبه بستة عقود رخامية، وقد زينت رءوس أعمتها بالزخارف العربية الجميلة، وفي بعض حنايا عقود رخامية، وعقود نوافذ صغيرة بها زخارف وكتابات عربية، وتوجد بجوار الفناء قاعة نوم أندلسية، ذات سقف خشبي مطعم بالمقرنصات الجميلة، وفيها عقدان كبيران متقابلان قد غُصَّما بالزخارف والكتابات العربية، كذلك يوجد في أعلى جانبي القاعة كثير من النقوش الرخامية المنقطعة، ومعظم هذه الكتابات آيات قرآنية وأدعية وتحيات.

ويوجد في وسط الفناء حوض ماء قديم مربع الشكل. وبالمزحل بئر يمدد بالماء.

وينسب هذا المنزل للأمير أبي مالك ولد السلطان أبي الحسن المريني، ونحن نعرف أن ابن الأحمر ملك غرناطة، نزل عن مدينة رندة وحصونها إلى بني مرين ملوك المغرب، في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ثمًا لعونهم إزاء ضد القشتاليين، وبقيت في أيديهم حينًا، وقد أقام الأمير أبو مالك برندة فترة من الوقت، والظاهر أنه أنشأ قصره المشار إليه في هذا الحين، واتخذ مقرًا لإقامته.

ويرى بعض الأثريين من جهة أخرى، أن هذا المنزل كان ملكًا لأحد أكبر المغاربة ثم استولى عليه بعد الفتح النصراني، بعض الحكام النصارى، وتعاقب في الملكية من بعده أعيان القشتاليين^(١).

PDF Eraser Free



رندة، المنارة العربية



رندة، بقايا الحمامات العربية



رندة، باب المعقل من أبواب رندة الإسلامية

PDF Eraser Free

منزل الملك العربي: هذا المنزل حديث النشأة، فخم، بُني على طراز شبه عربي، وهو يسمى منزل مندراجون "Mondragón"، ولا ندري لماذا سمي أيضاً بمنزل الملك العربي "Casa del Rey Moro"، لأنه بخدائفة العهد لا يمكن أن يمت بصلة إلى العصر الإسلامي. بيد أنه يوجد خلفه سلم حجري سحيق يتكون من ٣٦٥ درجة وينزل إلى النهر الواقع وراء المنزل، وهذا السلم قديم العهد، يرجع فيما يبدو إلى عصر بني مرين في رندة؛ لأن الملك العربي الذي ينسب المكان إليه، ربما كان أيضاً الأمير أبو مالك المريني؛ وقد أحيط اكتشاف هذا السلم بقصص وأساطير مغرقة. وربما كان تفسير نسبة هذا المنزل للأمير المسلم، أنه بُني على أنقاض قصر إسلامي سابق.

منزل المركز سالتيرا: ويقع بعد منزل الملك العربي بقليل على مقربة من النهر، وهو قصر فخم ذو قناء أندلسي، تزيينه من جوانبه الأربع عقود أندلسية بدیعة.

باب المقابر Puerta de Almolcobar: ويقع في حي سان فرانسكو، في طرف المدينة الجنوبي الشرقي، على مقربة من الكنيسة العظمى، وهو ذو أربع عقود عريضة، ويوصف بأنه أحد الأبواب الثلاثة الرئيسية التي كانت مدخل رندة في العهد الإسلامي.

وقد رأينا قبيل رندة وعلى مقربة منها في الطريق إلى شريش، طلالاً كبيراً يتكون من عقود عديدة. والظاهر أنه كان قلعة رومانية قديمة.

١٧ - مدينة طريف

Tarifa

كانت طريف أو جزيرة طريف، أول بقعة إسبانية وطنتها أقدام الغزاة المسلمين، ففي سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) عبرت حملة إسلامية صغيرة جهازها والي إفريقية موسى بن نصير، البحر من سبتة بقيادة طريف بن مالك، أحد الضباط البربر، ونزلت بالبقعة المقابلة في اتجاه الغرب، في شبه الجزيرة الإسبانية، وهي التي سميت باسم قائد الحملة جزيرة طريف.

وتقع جزيرة طريف أو مدينة طريف، فوق لسان منبسط أخضر، يمتد في البحر في جنوب شرقي المثلث الإسباني، وتقع قبالتها الجزيرة الخضراء في الناحية الشرقية، وتفصل بين الجزيرة الخضراء وطريف، سلسلة من التلال المتصلة، تتخللها بعض الوديان الصغيرة المنخفضة، وهي بقعة جرداء لا تبدو فيها سوى بعض النباتات والحشائش البرية، وترتفع هذه الهضبة تدريجياً حتى تعلو سطح البحر، ثم تنخفض بعد ذلك على مقربة من طريف، وتبدو فيها أشجار الزيتون تغطي بعض الهضات والممرتفعات.

وطريف من المدن الأندلسية النادرة. وقد كانت أيام الدولة الإسلامية، مثل جبل طارق والجزيرة، ذات أهمية بحرية خاصة، ومركزاً لنزول الجيوش المغربية العابرة، وقاعدة من قواعد الوصول بين المغرب والأندلس، وقد لبثت حتى أواخر الدولة الإسلامية تحتفظ بأهميتها الحربية، وسقطت في يد النصارى في سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) في عهد ملكهم سانشو الشجاع، ولم يستطع المسلمون، رغم تكرار المحاولة، أن يستردوها منهم بعد ذلك.

وهي مدينة صغيرة جميلة تبدو بيضاء مشرقة، على خليج مستدير في البحر، وتكاد تحيط بها مياه البحر إلا من ناحية واحدة تحدها الجبال، وتستطيع أن ترى من شاطئها جبال المغرب الواقعة ما بين سبتة وطنجة. ويلوح لذا أن المدينة الأندلسية القديمة، كانت تقع تحت أسوار حصنها الذي ما يزال قائماً في شرقها، وبين الكنيسة القديمة، التي أصبحت اليوم طلاً دارساً، وتقع كنيسة الرئيسة الأخرى وهي كنيسة سان ماتيو في وسطها. وتخترق المدينة من الوسط عدة شوارع قصيرة ظليلة. وتخترقها من أطرافها دروب ضيقة متعرجة، ومنازلها منخفضة ذات طابق أو طابقين. ويقع شارعها الرئيسي خارجها، ويمر من تحت "باب شريش" "Puerta de Jerez"، وهو باب أندلسي قديم، ذو ثلاثة عقود داخلية. وقد أصلح وحُيِّرت بعض معالمه العربية، ووضعت عليه لوحة هذا نصها:

"Muy noble muy leal y heroica ciudad de Tarifa ganaba a los

Morós Sancho IV El Bravo en 21 Septiembre de 1292"

إن مدينة طريف وافرقة النبل، وافرقة اللواء والبسالة، قد انتزعتها من المسلمين سانشو الرابع "الشجاع" في ٢١ سبتمبر سنة ١٢٩٢^(١).

وإلى ما قبل نصف قرن فقط، كانت الأسوار الأندلسية التي تحيط بمدينة طريف ما تزال كلها قائمة، ولكنها زالت اليوم ولم يبق منها سوى بضعة أجزاء، تمتد إلى يسار باب شريش، ومنها قطعة صغيرة بها عدة كوى، يليها قطعة كبيرة يبلغ طولها نحو خمسين متراً، وهي ممتدة نحو الداخل في اتجاه الحصن، حيث يكاد يبدو اتصالهما القديم. وتؤلف هذه البقية من الأسوار مع الحصن مجموعة كبيرة من الأطلال الأندلسية. كذلك توجد إلى يمين باب شريش، قطعة أخرى من الأسوار القديمة تتصل بمتزة المدينة.

وتتفرع من باب شريش إلى داخل المدينة، شبكة من الدروب الضيقة المصاعدة هنا وهناك، وهي تمتاز بطابعها ومنزلها الأندلسية الطراز. ويبلغ سكان طريف زهاء خمسة عشر ألفاً.

الحصن

والأثر الأندلسي البارز في طريف هو الحصن، وهو فيما يرجح بقية القصبه الأندلسية القديمة، يدل على ذلك موقعه المنيع المشرف على المدينة، والذي يحميه البحر من خلفه.

والظاهر من أوصاف الغزال أن القصبه الأندلسية، كانت وقت زيارته لمدينة طريف في سنة ١٧٦٥، كاملة الهيكل والأبراج، فهو يقول في وصفها:

"ولما وصلنا القصبه وجنناها باقية على ما تركها المسلمون رحمهم الله، لها من الأبراج ثمانية عشر، وقدر ارتفاع السور والأبراج عشر قامات، وفيما بين البرج والذي يليه في نفس السور آجر مزدوج مرقوم، لمعانه عند مقابلته للشمس كالمرآة، وقدر مساحة الزليخ المذكور، أربعة أذراع طولاً وعرضاً، وبناؤه هذه القصبه من الحجر المنحور الشبيه بالرخام، وبأعلى بابها رخامة مكتوب عليها بخط كوفي: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً، أمر عبد الله عبد الرحمن الداخل أمير المؤمنين...." وما بعده فممحور^(١).

أما اليوم فإن حصن طريف عبارة عن قلعة صغيرة، عازلت في حالة جيدة من الحفظ. وهو يقع على البحر، وله فناء كبيران، ويدخل إليه من باب ذي عقد عربي، وبعد الفناء الأول يدخل إليه من بابين متوالين معقودين، وقد زالت سائر أبراجه العليا ولم تبق منها سوى آثارها ومواقعها، ويتصل الحصن من جانبه الخلفي بأطلال أسوار المدينة القديمة.

^(١) رحلة الغزال ص ١٦

PDF Eraser Free

وتوجد في حصن طريف لوحة رخامية عربية مثبتة في عقد بابه الداخلي مكسورة ومصححة، وقد كانت تُحمى نقوشها الكوفية القديمة، وقد جاء فيها ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين
أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين أطلال الله (بقائه) ببنيان هذا البرج فتم (بعون الله) في
شهر صفر من سنة تسع وأربعين وثلاث مائة على يدي وزيره عبد الرحمن بن خير مولاه.
والظاهر أن الغزال قد وهم في قراءة هذا النص، لو أنه قرأ اللوحة أخرى لا توجد اليوم.

ويستعمل الحصن اليوم مركزاً عسكرياً، وتشغله فرقة من الجنود الإسبان.

وتقع أمام حصن طريف في البحر، جزيرة صخرية صغيرة محصنة يربطها بالمدينة
جسر ضيق.



طريف. باب شريش، وهو مدخل المدينة



طريف. منظر عام لبقايا الحصن الأندلسي

١٨ - الجزيرة الخضراء

Algeciras

كانت الجزيرة الخضراء حينما عبر المسلمون إلى الأندلس، محلة رومانية دارسة، فجدها المسلمون وأنشئوا بها مدينة زاهرة، استمرت قروناً في مقدمة الثغور الجنوبية، وزادت أهميتها في أواخر عصر الدولة الإسلامية؛ لأنها كانت إلى جانب جبل طارق وطريف، قاعدة للاتصال بين المغرب والأندلس.

وسقطت الجزيرة الخضراء في يد القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤٢ م)، عقب معركة "سالانو" الشهيرة، التي هزمت فيها جيوش المغرب والأندلس، بقيادة السلطان أبي الحسن المريني والسلطان يوسف أبي الحجاج، واستولى ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة على الجزيرة الخضراء وخربها، وحوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، سميت كنيسة "Sta. Maria de las Palmas" (الكنيسة مريم ذات النخيل)، وهي التي عُدّت فيما بعد كنكائية. ومما عو جدير بالذكر أن المسلمين استعملوا في هذه الموقعة، ما يسمى في تاريخ الأندلس "بالأنفلة"، وهي آلات تقذف النار والحديد، ويقال إن الأندلسيين كانوا قد توصلوا يوماً إلى اكتشاف البارود، وأن الأنفلة لم تكن سوى نوع من المدافع البدائية.

ولاستمرت الجزيرة الخضراء لطلاناً خربة، حتى أعاد الإسبان بناءها في سنة ١٧٦٠، في عهد الملك كارلوس الثالث. وهذا هو السر في أن الجزيرة الخضراء، تبدو مدينة نصرانية حديثة لا صلة لها بالعهد الإسلامي، وليس فيها آثار أندلسية أو غيرها. وقد بنيت كنيستها العظمى "Iglesia Mayor" على موقع الكنكائية القديمة، وبنيت على طراز الجامع، ذات عقود عربية، وهي تقع على ربوة في الجانب الأيسر من المدينة. والظاهر أن المدينة الإسلامية القديمة كانت تقع حول هذه الربوة، حيث تحلّ الكنيسة العظمى موقع المسجد الجامع.

ومدينة الجزيرة ثغر كبير، يقع على خليج داخلي مستدير، تجاء جبل طارق، التي لا تبعد عنها بالبحر أكثر من ستة أميال، وتقع من ورائها سلطة من التلال، في سفوحها بسيط أخضر، ينمو فيه القمح وشبّات الزيتون، وشوارعها صاعدة نحو الربوة، ومنازلها بيضاء على الأشعب، وميادينها صغيرة تقوم فيها أشجار النخيل. وأمامها في الخليج جزيرة صغيرة بها عدد من الأبنية، ويربطها بها جسر كبير.

PDF Eraser Free

وتقع الميناء شمال المدينة، وهي ميناء متوسطة ترسو بها السفن الكبيرة. وتربط الجزيرة خطوط بحرية منتظمة بتغور المغرب الشمالية، ولا سيما سبتة وطنجة، وهي معبر إسبانيا المفضل إلى المغرب.

ويبلغ سكان الجزيرة مثل طريف زهاء خمسة عشر ألفاً.

ويصل الجزيرة بتغر قانس طريق سيارات معبد، يمر بطريف ثم يخترق بسائط الفرنتيرة، في الناحية الأخرى من الثالث الإسباني، ماراً ببلدة فخر الفرنتيرة، ثم بشكلانا، ثم بسان فرناندو، وهو خلال ذلك يخترق بسائط خضراء تتخللها التلال من آن لآخر. وتتخللها مزارع القمح وغابات الزيتون. ومنذ سان فرناندو تبدو منطقة شاسعة شتية بالملاحات العظيمة حتى تغر قانس.

١٩ - جبل طارق

Gibraltar

لم تكن جبل طارق أول بقعة من شبه جزيرة الإسبانية نزلها الغزاة المسلمون، وإن كانت أول بقعة نزلها الجيش الإسلامي الفاتح. أما أول بقعة إسبانية نزلها المسلمون فهي جزيرة طريف، أو مدينة طريف الإسبانية، التي تقع جنوبي ثغر الجزيرة في الطرف الغربي لمضيق جبل طارق، والتي سبق الحديث عنها.

وإنك تستطيع أن ترى صخرة طارق، من شاطئ ثغر سبتة الإفريقي، تراها كالغمام القاتم، يعترض البسيط الأزرق الشاسع من مياه البحر الأبيض المتوسط، فإذا صوبت نحوها البصر من الجزيرة الخضراء، وهي التي تقع مقابلها في الطرف الآخر من الخليج، فإنك ترى أمامك أروع منظر يمكن تصويره.

ترى صخرة طارق رابضة في البحر، جاثمة على شكل أسد عظيم، رأسه نحو الأرض الإسبانية، وذيله نحو البحر، وتراها عابسة مروعة تحت أشعة الشمس الساطعة، كأنها تذكر كل من يردو إليها بقوتها ومنعتها التي لا تقهر.

وقد كان من الطبيعي أن تكون جبل طارق، معبر القزاة المسلمين إلى الأرض الأوربية، فهي أول بقعة تراها العين من الشاطئ الإفريقي، وهي بموقعها الصلد، ومرفئها المنيع، تعتبر قاعدة برية وبحرية من الطراز الأول.

عبر طارق بن زياد فاتح الأندلس، بجيشه من سبتة إلى الصخرة المقابلة في شهر رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م)، فسميت الصخرة الوعرة الهائلة باسمه جبل طارق، وما زالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم، محرفاً بالإفرنجية "Gibraltar".

وقد كانت صخرة طارق قبل أن يعبر إليها الغزاة المسلمون، وقبل أن يطلق عليها اسم الفاتح المسلم، تعرف في الجغرافية القديمة بجبل كالبي "Mons Calpe" وتسمى مع جبل أثينا المقابل لها في الساحل الإفريقي، بأعمدة هرقل، وكل الأقدمين يعتبرونها نهاية العالم من الغرب، ويجاريهم بعض الجغرافيين المسلمين في ذلك، فيسمى ما وراء جبل طارق من مياه المحيط، ببحر الظلمات، ويعتبرونه منطقة خامضة لا نهاية لها.



وقد لعب جبل طارق في تاريخ الأندلس دورًا عظيمًا، وكان دائمًا معبر الجيوش الإسلامية، من المغرب إلى شبه الجزيرة الإسبانية، وكان يعتبر مفتاحها من الجنوب، ولم يكن جبل طارق أيام الدولة الإسلامية سوى قاعدة عسكرية برية وبحرية، وقد أنشأ بها المسلمون منذ عصر الفتح حصنًا عظيمًا فوق سطح الصخرة الأوسط من ناحيتها الشمالية الغربية، وأسوارًا ضخمة كانت تسمى أسوار العرب. وفي أواخر سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) عبر إليها عبد المؤمن بن علي أعظم خلفاء الموحدين، وذلك على أثر استرداده لثغر المهدية من الفرنج، وافتتاحه لسنتر قواعد إفريقية (تونس)، وكان للخليفة قد أرسل خلال حملته المذكورة في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ، كتابًا إلى ولده السيد أبي سعيد وإلى غرناطة، بأن يقوم ببناء "مدينة كبرى" بجبل طارق، تكون "منزلًا للأمير عند إجازته العسكرة"، وكتب في نفس الوقت إلى ولده السيد أبي يعقوب وإلى إشبيلية، بأن يستنفر جميع العرفاء والقلة من كل ضرب، ومن جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين لهذا الغرض. ونسب لوضع خطط المدينة الجديدة، والإشراف على بنائها عدة من أكابر المهندسين مثل الحاج يعيش المالقي، وأبي إسحق بزاز بن محمد، وتولى النظر على أعمال البناء العريف أحمد بن بلسة الإشبيلي. قال ابن صاحب الصلاة: "ولتدعوا البناء في الموضع الذي وقع الجميع عليه، والاتفاق من تولاهم بسيف البحر مما بلاصقه ويليه... وأحكم البناعون فيه بناء من القصور المشيدة والأنبار، واخترعوا في أنسها طيقلًا وحنايا لتعتدل بها الأرض، مبنية بالحجر المنجور والجيار، بما هو عجب من الآثار... واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور، وبناء السور والبواب المسمى بباب الفتوح، في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل، بين البحر المحقق به من كلا جانبيه، فجاء فردًا في المعازل التي لا يتمكن لطامع فيه طمع...". واستمر العمل شهورًا

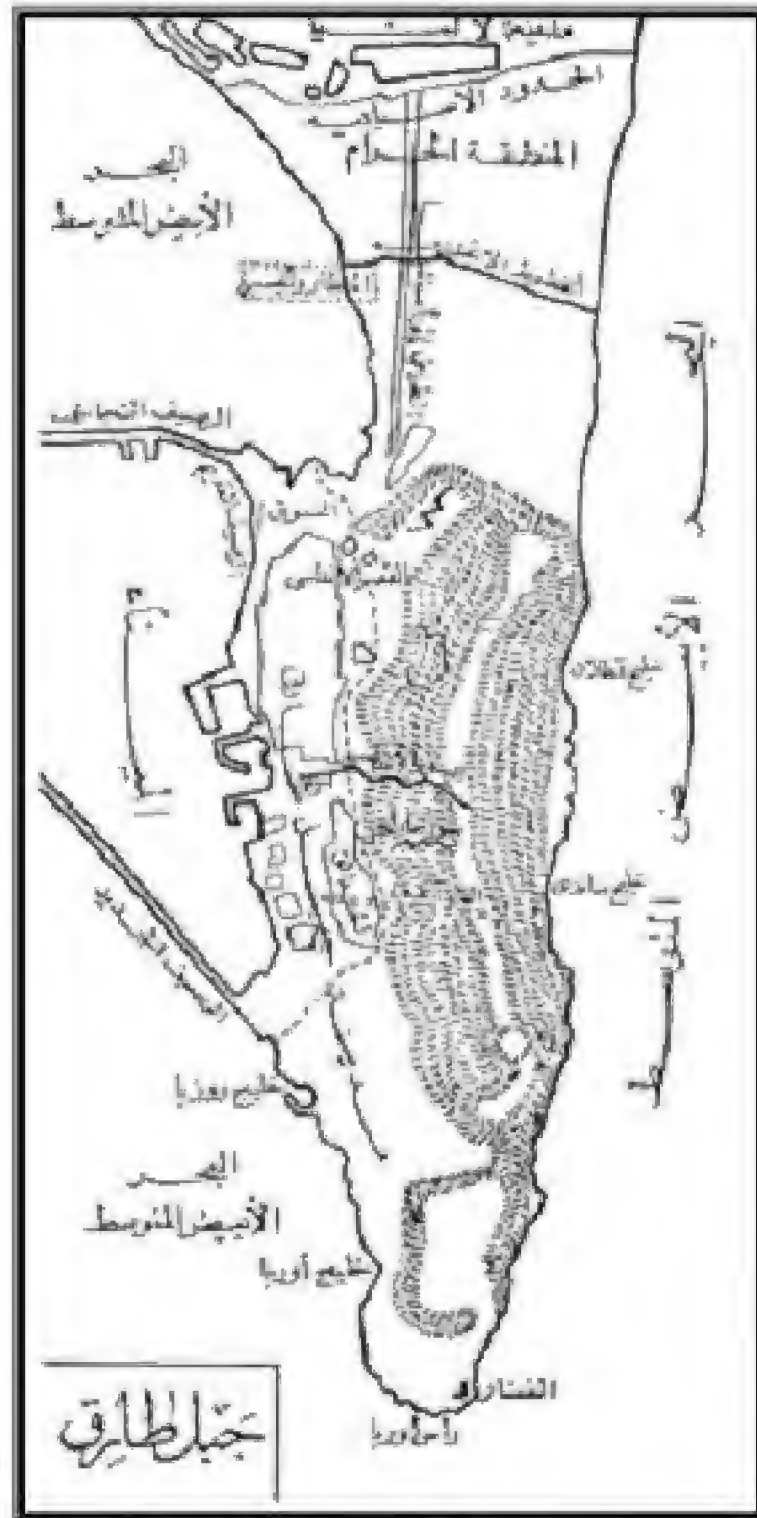
PDF Eraser Free

بهمة مضاعفة، حتى تم بناء المدينة الجديدة في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ (نيسمبر ١١٦٠ م)، وابتنى بها جامع وقصر للخليفة، ودور لأبنائه وحاشيته، وخرست الحدائق على طولها حذاء البحر، وجلب إليها الماء العذب، وجدد الحصن والأسوار القديمة، وعنى بتحسين الصخرة أكمل غاية، وسمى الجبل بأمر الخليفة، جبل الفتح أو مدينة الفتح، ولما كمل بناء المدينة، في شهر ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ، عبر إليها الخليفة عبد المؤمن من ثغر سبتة، ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطئ لرؤية موكبهم في ذلك اليوم المشهود. وأقام الخليفة بجبل طارق، أو بجبل الفتح، شهرين يتلقى وفود الأعيان والعلماء والأكابر من أهل الأندلس، وشيوخ الموحدين من السادة والقادة والحفاظ والطلاب والجند، ولشد الشعراء قصائدهم بين يديه^(١). وكانت فترة إقامته بالجبل من أيام الأندلس المشهودة.

ولبت جبل طارق بعد ذلك أحقاباً أخرى، قاعدة الوصل بين الأندلس والمغرب، تعبر إليه الجيوش المغربية لنصرة الأندلس كلما دهمها الخطر. ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي، تنوالت حملات إسبانيا النصرانية لافتح هذا المعقل العظيم، ويتغلب المسلمون في الدفاع عنه، لشعورهم بأهميته وخطورة موقعه بالنسبة لسلامتهم. وفي سنة ١٣١٠ م استولى القشتاليون لأول مرة على جبل طارق. ثم استرد الأندلسيون بمعونة السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب في سنة ١٣٣٣ م.

^(١) لورد لنا ابن صاحب الصلاة، وقد كان من شهود هذا الحفل، وصفاً ضافياً تقدم عبد المؤمن إلى جبل طارق، وحضور الوفود لديه، وقصائد التي ألغيت بين يديه (مخطوط لمن بالإمارة نوحه ١١ وما بعدها). وراجع في ذلك "أطلال العوشة" ص ١١٨ والإحاطة لاسن الخطيب ج ١ ص ١٦٠ (القاهرة ١٩٥٦) ص ٢٢٣ و٢٢٤، وكذلك الزواجر المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٢١.

PDF Eraser Free



PDF Eraser Free

وجند السلطان أبو الحسن الحصن ودار الصناعة والأسوار، ثم جدها ولده السلطان أبو عثمان، واستمر جبل طارق في يد المسلمين بعد ذلك زهاء قرن وثلاث.

وفي سنة ١٤٦٢ م، استولى الإسبان أخيراً على جبل طارق، وكان فقده ضربة شديدة للأندلس، وكان من مميزات سقوطها الأخير.

وبقي جبل طارق من ذلك التاريخ بيد الإسبان، حتى استولى عليه الإنجليز واليونانيون خلال حرب "ورثة العرش الإسباني" في سنة ١٧٠٤، ثم ضمته إنجلترا إلى أملاك التاج، وماركت تقبض عليه حتى اليوم بيد من حديد. ولم تتجح محاولات إسبانيا لإتمام قوتها في استرداده، وكانت أشهر محاولة قامت بها في ذلك السبيل سنة ١٧٧٩، حيث استمر حصارها للصخرة زهاء أربعة أعوام، ولكنها أخفقت في النهاية، ولم تقع من ذلك التاريخ أية محاولة ذات شأن لاسترداد جبل طارق، وهو اليوم بوضعه الحالي مستعمرة من مستعمرات التاج البريطاني، يعين له حاكم من قبل التاج.

وليس جبل طارق سوى لسان صخري وعرضه من طرف إسبانيا الجنوبي في البحر زهاء ثلاثة أميال، ويتراوح عرضه بين ربع ميل وثلاثة أرباع الميل، ويبلغ ارتفاعه من الجنوب نحو أربعمئة قدم، ومن الوسط نحو ألف قدم، ومن الشمال نحو ألف ومائتي قدم، وكما أنه يمكن الوصول إليه من البحر، فكذلك يوصل إليه من البر الإسباني بالسيارة من الجزيرة، في طريق بدیع تظلل الأشجار الباسقة، يمتد على الخليج تجاه الصخرة، وتحف به الجبال من الناحية الأخرى، في سفوحها المروج الزائفة، ويمر ببلدة لوس باربوس "Los Barrios"، ثم ببلدة سان روكي "San Roque"، وينتهي بمدينة "لانيا" "La Linea" نهاية الأرض الإسبانية.

ومتى جزت مدينة لانيا، وهي مدينة متوسطة الحجم، مشرقة، مستطيلة الرقعة، أنفقت نفسك تجاه الصخرة الهائلة من ناحيتها الشمالية، تفصلها عن لانيا شقة حزام، تمتد بجوار الصخرة نحو سبعمئة متر، ويبلغ عرضها نحو أربعمئة متر. ثم تبدأ بعد ذلك الحدود الإنجليزية، وتسير بك السيارة بضع مئات أخرى من الأمتار، وعن يمينك ساحة العطار، يليها لسان طرا نحو أربعمئة متر، يمتد داخل البحر، ويحتمي أرصفة الميناء والرصيف التجاري، ثم الرصيف الشمالي، ثم الرصيف المنفصل، يليه الرصيف الجديد أو الرصيف الجنوبي، وكلها ضخمة تلوي أعظم السفن. وبعد اجتياز هذه المسافة القصيرة، تجد نفسك إزاء مدينة جبل طارق.

PDF Eraser Free



جبل طارق، منظر الصخرة كما يبدو من البر الإسباني المواجه



مدينة جبل طارق في أسفل الصخرة والعمياء

PDF Eraser Free

أجل مدينة جبل طارق، ذلك أن الإنجليز قد أنشؤا مدينة حقة، في السفح الممتد غربي الصخرة، مدينة حديثة بكل معاني الكلمة، تمتد من المطار في شكل قوس مفتوح، يلاصق الصخرة ويشرف على البحر، حتى الجسر الجنوبي بطول يبلغ نحو ثلاثمائة متر، ويخترق هذه الرقعة شارع طويل واحد يسمى "الشارع الرئيسي" "Main Street"، وهو شارع مشرق نظيف يقص بالمناجر والمقاهي، ويختر بالمتاجر والحركة، ويتفرع من هذا الشارع الرئيسي على الجانبين، عدة شوارع قصيرة أو أزقة "Lanes"، تسمى كلها بأسماء إنجليزية مثل "College L. Bell. L., Parliament L., Market L." إلى غير ذلك، وتقع معظم دولر الحكومة مما يلي البحر، وينتهي هذا الشارع الطويل بالأبواب الجنوبية "South Gates"، وهي عبارة عن أربعة عقود، منها لثان صغيران قديمان، وقد جُدا في أواخر القرن الماضي حسبما رقم عليهما، والآخران حديثان، ويتصل الأولان بجزء من السور القديم الذي يسمى "السور الأندلسي"، ومن ورثهما قاعدة من الأسوار القوية كتب عليها "الدعامة الجنوبية" "S. Bastion" (سنة ١٥٤٠)، وهذه يرجع تاريخها إلى عصر الإمبراطور شارلكن.

ويمتد الطريق بعد ذلك زهاء ميل آخر، وينتهي بالحوض الجاف و"الغار"، وهذا الطريق عريض تقوم على جانبيه المباني الضخمة، والعمارات الشاهقة، في سفح الصخرة، وتقع في بدايته الحدائق والمتنزهات المسماة "ألameda" "Alameda" وجانب المدينة الذي يلي البحر، يزخر بالمخازن والمصانع، والمهام البحرية الضخمة، والمراكز والإدارات العسكرية. والخلاصة أن مدينة جبل طارق تبدو بالرغم من ضيق رقعتها المستطيلة، بتخطيطها البديع، وشوارعها المنسقة المغطاة بالمكدام، وأحيائها ومنشأتها الأنيقة المشرقة، كأحسن ما تبدو المدينة الأوروبية الرائقة.

ولا توجد في الناحية الشرقية من الصخرة، سوى محلة صغيرة تسمى "كاتلان باي" "Catalan Bay".

ويبلغ سكان جبل طارق اليوم ثلاثين ألفاً منهم الحامية وعددها سبعة آلاف، والباقي من السكان المدنيين، وهؤلاء خليط من الإسبان سكان جبل طارق الأصليين، ومن المالطيين والجنوبيين، وقليل من الإنجليز، وبعض العناصر الأخرى، والإسبان في جبل طارق أرقى من مواطنيهم وأوفر تمكناً ورخاء، ولكنهم يتكلمون إسبانية رديئة، كما يتكلمون إنجليزية رديئة. هذا ولا بد لنا من أن نسجل هنا ما لاحظناه من أن هذا الشعب الخليط من سكان جبل طارق، يبدو بالرغم من مظاهره التمدنية، شعباً خشناً نزقاء قليل الرقة والمجاملة، وهو ما يلاحظ عادة في المرتقة من سكان المواني.

PDF Eraser Free

والى جانب سكان جبل طارق المقيمين، يقد على المدينة كل يوم نحو خمسة عشر ألفاً من الإسبان، ممن يبيعون مختلف المؤن والسلع، ومن يعملون في الميناء والأحواض، ثم يعودون في المساء إلى الأرض الإسبانية.

الأثار الأندلسية

ولا يخلو جبل طارق من الأثار الأندلسية الباقية، فهناك بقايا الحصن الأندلسي أو القصر الأندلسي أو المقربى "Moorish Castle"، وهو عبارة عن قلعة حصينة، تقوم فوق ربوة عالية تقع على مقربة من الطرف الشمالي الغربي للصخرة، ومن تحتها سرايب وعقود عربية، ويستعمل جناحها الأسفل سجنًا مدنيًا، وبشرف ظلل برجها الرئيسي على ساحة السجن في ارتفاع شاهق. ويدل تخطيط القلعة وحافاتيا، على أنها قد ترجع إلى عصر الموحدين، حيث انتهى خليفهم عبد المؤمن بن علي بالصخرة حينما تقدم قلعة وقصرًا، بيد أن بعض الأثريين يرى أن بناء هذه القلعة يشبه طراز التحصينات الغرناطية وأنها قد أنشئت فيما يبدو في عصر السلطان يوسف أبي الحجاج، في النصف الأول من القرن الرابع عشر⁽¹⁾. والمرجح أيضًا أن يكون هذا البناء، قد أقيم على بناء لفاض القصبة الأندلسية القديمة، التي أقيمت منذ عصر الفتح، وتنحدر لطلال القلعة إلى أسفل لتتصل بطلال أخرى، يبدو أنها برج حرس أو ما يشبهه.



جبل طارق، بعض عقود الحمامات الغرناطية (القرن الرابع عشر)

⁽¹⁾ هذا رأي الأستاذ غريس بيلس في مقال له عن جبل طارق ونشأتها وتاريخها، راجع مجلة: A-

PDF Eraser Free

ويشرف القصر الأندلسي من عل، على صفوف متعاقبة من المباني المتدرجة فوق سطح الصخرة، والتي تتصل في النهاية بميدان "Casement"، وهو أكبر ميادين جبل طارق، ومن ورائه يرتفع جانب الصخرة العليا التي تحد الجبل من الشمال.

ويوجد أثر أندلسي آخر لا يقل أهمية عن الحصن وهو الحمامات العربية، وتقع هذه الحمامات تحت بناء منحف جبل طارق، وهي عبارة عن صفين من العقود العربية، يتكون كل منهما من ثلاثة عقود، وتجمعها قبة منخفضة. وهذا الطلل في حالة طيبة من الحفظ، ولكن ليست به أية نقوش. وتري مجرى المياه محفوراً في الوسط والجانب الأيمن، وإلى جانب البناء المعقود، يوجد بهوان كبيران، ربما كانا يستعملان لتجهيز الماء الحار والبارد، ولحدهما ذو سقف يتخلله كوات معقودة.

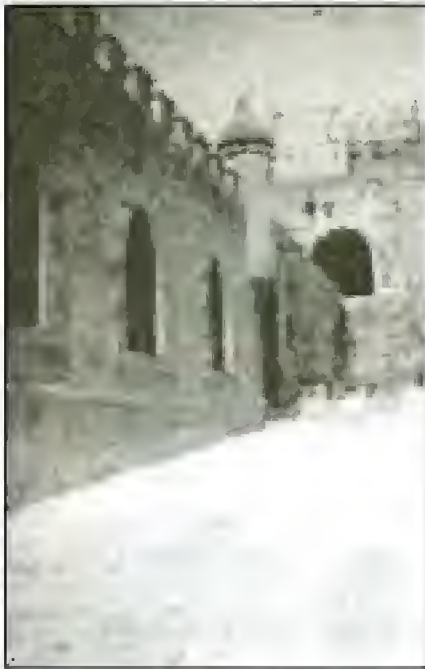
وتقوم عقود هذا البناء على أعمدة رومانية فيما يظهر، يدل على ذلك خلوها من النقوش العربية. وقد وصف هذا الأثر في الزقعة الخاصة به، أنه يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي. ولكن الأستاذ توريس بالباس يرى بالعكس أن هذه الحمامات من طراز غرناطي يشبه طراز حمامات الحمراء، ولها ترجع إلى نفس العصر الذي نشأت فيه التحصينات، أي إلى عصر السلطان يوسف أبي الحجاج⁽¹⁾.

⁽¹⁾ الأستاذ توريس بالباس في مقاله السلف الذكر.

PDF Eraser Free



جبل طريقي. منظر الحصن الأندلسي من أعلى الصخرة



إحدى واجهات الحصن الأندلسي



مدخل الحصن الأندلسي

PDF Eraser Free

ولما عن الأسوار الأندلسية القديمة، فقد رأيت أنه مازال ثمة قطعة من الأسوار تتصل بالأبواب الجنوبية، وتسمى بالـ سور الأندلسي أو المغربي، وهذه التسمية دليل على أصلها العربي. ويمتد هذا السور من وسط الصخرة منحدرًا على سفحها حتى الأبواب الجنوبية في اتجاه البحر، في قطع وأطلال متصلة، ويخترقه الطريق الرئيسي الذي يشق وسط الصخرة من الجنوب إلى الشمال.

وقد كانت توجد في سفح الصخرة الغربي، على مقربة من البحر أسوار أخرى هدمت ولم يبق لها اليوم أثر، ولكن يدل على موقعها الأبواب التي تسمى "أبواب الماء" "Water Gates"، وهذه تقع وراء الميدان الكبير المسمى ميدان "كاسمنت" "Casement"، وهي عبارة عن صفين من عقود ثلاثة، بينهما مسافة ٤٠ مترًا، وكان الصف الأول منها يطل فيما مضى على الماء قبل امتداد الرقعة اليابسة. ويسمى لذلك أبواب الماء وهذه الأبواب العربية القديمة تعين مكان السور الغربي. ثم خربت هذه الأبواب بمضى الزمن فارتفعت، ولشئت مكانها الأبواب الحالية. وسميت أبواب "كاسمنت" باسم الميدان الذي يقع وراءها.

ويقع هذا الميدان الذي يؤدي إليه أبواب الماء في الشمال الغربي للصخرة، مدينة جبل طارق الحقيقي، وقد سجل الإنجليز في لوحاتها التذكارية، أنها بنيت على موقع "أبواب الماء القديم"، كما عينوا مكان الأسوار الأندلسية القديمة. بتسمية الطريق الذي يجري مكانها، وهو الذي يحاذي البحر والميناء، "بطريق خط السور" "Line Wall Road".

معالم أخرى

ويوجد في جبل طارق متحف في البناء الذي يقوم فوق الحمامات العربية، وهو عبارة عن متحف حربي محض، به نموذج يتبع للصخرة وخطوطها، ونماذج من السلاح التي لها علاقة بتاريخ جبل طارق، ولا سيما نماذج السلاح التي استعملت في الحصار الكبير سنة ١٧٨٣، وطائفة من الوثائق التاريخية الهامة التي تتعلق بهذا الحصار، من أوامر عسكرية وتقارير لقادة وغيرها. ومن المدهش أن يضم المتحف "موميائين" مصريتين، قيل لنا إنهما سقطتا من إحدى السفن التي كانت قادمة من مصر إلى إنجلترا.

ومن أروع ما رأيناه في الصخرة المغار العظيم الذي يوجد في وسطها، وهو مغار طبيعي عميق واسع الجنبات رائع الشكل قد أثير بالكهرباء.

PDF Eraser Free



جبل طارق. الحصن الأندلسي وفي أسفله المدينة والمعشاة من الناحية الغربية

PDF Eraser Free

وفي بطن الصخرة توجد خزانات المياه العظيمة التي أنشئت في سنة ١٩٠١، لتمد مدينة جبل طارق بالماء العذب طوال العام، وهي خزانات عديدة ضخمة تصب فيها مياه الأمطار التي تجتمع في نهيرات صغيرة تفيض إليها، ويوزع الماء بواسطة المواسير الضخمة في شعب المدينة، وهو عمل عظيم يكفى المدينة كل مؤنتها من الماء.

* * *

وبعد، فقد بسطنا القول نوعاً في جبل طارق، وخرجنا عن الحد الذي رسمناه في الكلام على المعالم الأندلسية، والواقع أن جبل طارق، إلى جانب الدور العظيم الذي لعبته في تاريخ إسبانيا المسلمة، وفي الوصل بين قوى الإسلام في المغرب والأندلس، مازالت تعتبر في عصرنا من أعظم المعالق البحرية. وهي تسيطر على المضيق المسمى باسمها، والذي هو مدخل البحر الأبيض المتوسط من جهة المحيط، ومرفؤها يصلح لإيواء أعظم السفن الحربية والمنشأة. وهي مازالت بالرغم مما طرأ على الخطط البحرية والعسكرية، من جراء تطورات الحرب العالمية الثانية، تعتبر من أهم وأمنع المواقع البحرية في خط المواصلات الإمبراطورية البريطانية، وبالرغم مما أبدته إسبانيا في الأعوام الأخيرة من رغبة ملحة في استرداد جبل طارق، فإنه يلوح أن السياسة البريطانية لم تبد أقل استعداداً للتنازل عن هذا المعلق البحري العظيم، الذي تسيطر باحتلاله إلى جانب ملطة على مياه البحر الأبيض المتوسط.

٢٠ - شريش الفرنتيره

Jerez de la Frontera

إن طريق السيارة هو سبيل الاتصال الوحيد المباشر بين جانبي المثلث الإسباني. ومن ثم فقد شادنا ردة بالسيارة إلى بلدة شريش الفرنتيره، في الجانب الآخر من المثلث، وأتيح لنا خلال الرحلة أن نخترق تلك البساتن، التي كانت مسرحاً لمعركة شذونة الفاصلة بين العرب والقوط، والتي انتهت بفتح المسلمين لإسبانيا.

وهي منطقة وعرة المسالك، معظمها هضاب وتلال وجبال متصلة، قليلة البساتن والخضرة، قليلة السكان، وأهم بلادها الواقعة على هذا الطريق هي الجدران "Algodorales"، وهي بلدة صغيرة ذات مساكن منخفضة على الطراز الأندلسي، ثم بلدة قويا مرتين "Villa Martin"، ثم برنش "Bernos"، ثم أركش "Arcos" الواقعة على نهر وادي لكه، وهي من البلاد الأندلسية القديمة.

ومنذ منتصف الطريق تكثر الخضرة والمزارع المتدرجة، وتري الكروم وعبابات الزيتون، ثم تكثر البساتن شيئاً فشيئاً تنمو بها المحاصيل المختلفة، ومن بينها رقاغ صغيرة من القطن.

ومنى جزت إلى النصف الآخر من المثلث، وهو أرض الفرنتيره التي تنتهي بشاطئ المحيط الأطلنطي، رأيت معظمها من البساتن الخضراء، ولا سيما بعد أركش. والأرض في هذه المنطقة سوداء التربة، وتزرع في معظمها الحبوب من القمح والذرة، ويوجد بها القطن على مزارعه في بلسية، وتقل فيها عبابات الزيتون، وقبيل شريش تزداد البساتن البائعة، تغطيها المحاصيل المختلفة، والأشجار الباسقة، وحدائق الفاكهة وأشجار النخيل، وتبدو الطبيعة الخضراء في أروع حلها.

وشريش مدينة كبيرة عظيمة الحركة، تقع على مقربة من مصب نهر وادي لكه في المحيط الأطلنطي، وسكانها يزيدون على مائة ألف، وتشتهر بنوع خاص بكرومها البائعة، ونبذها الدائع الصيت. وهي تبدو مشرقة منيرة كثيرة الأتوار بالليل، وشوارعها طويلة واسعة، وبها عدة ميادين كبيرة تظللها الأشجار والنخيل مما يطلق عليه Alameda (المكان الظليل). وأهم ميادينها ميدان الملكين الكاثوليكين الذي تقوم في جوانبه أشجار النخيل، وتغطي الحدائق الصغيرة المزهرة، وفي وسطه أثر الجنرال دي رثييرا، ومن حوله نوافير ماء بديعة تصماء

PDF Eraser Free

بالليل، وينبثق الماء من عشرات الصنابير، والجنرال دي ريشيرا من أبناء شريش، وقد كان من أعظم مؤسسي النظام الحاضر في إسبانيا، ولهذا تعتبر شريش من معاقل هذا النظام. وتنتزع من ميدان الملكين الكاثوليكين، عدة شوارع كبيرة رئيسية، منها شارع "الارجا" C. Larga، وهو شارع المقاهي والمتاجر، وشارع فرانكو، وشارع قانس المؤدي إلى "القصر" وغيرها.

وشريش مترامية الرقعة، وتقع أحياؤها القديمة ذات الدروب الضيقة، وراء الميدان، والشوارع الكبرى، وهي تبدو على العموم حديثة الطابع، ولا تبدو على أحيائها وأبنيتها أية مسحة أندلسية. بيد أنه مما يلفت النظر أنه ما تزال بها عدة كبيرة من الأحياء والمنازل الأرسنقراطية الفخمة، التي تستحق اهتمام السائح. بيد أنها مغلقة دون الزيارة، وقد رأينا بها منزل المركز دوميثك، وفيه ساحة أندلسية بدیعة.

ويظهر أنه ما تزال ثمة في شريش بقية من المجتمع الأرسنقراطي القديم، ففي شوارع المدينة الكبيرة تجد كثيرًا من القصور والمنازل الأرسنقراطية ذات الطراز الأندلسي، والأفنية الواسعة، والأبواب المزودة، تقف أمامها العربات الضخمة ذات الخيل المطهّمة، والحشم ذوي الثياب الخاصة، مما يذكرنا بما كانت عليه الأرسنقراطية الإسبانية قبي ظل الملكية، قبي أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي.

وتشتهر شريش بجيادها الأصيلة الرشيفة، التي تمت بأوثق الصلة إلى الأرومة العربية.

المعالم الأثرية

وليس في شريش كثير من الآثار الأندلسية، ومع ذلك فإن القليل الذي تحضمه منها يمتاز بطرافته وأهميته التاريخية والأثرية.

القصر: وأعظم هذه الآثار الباقية هو "القصر" El Alcázar، وهو صرح ضخم يقع في ميدان شاسع على الطريق المؤدي إلى قانس، وقد أحيط بالأشجار والحدائق الصغيرة، وفوق مدخله برجان كبيران متماثلان. ثم يلي البرج الأيسر منهما برجان آخران كبيران، ومن بعدهما برج صغير ومشارف متدرجة، وفي داخل فناءه الكبير يقوم قصر ضخم حديث الطراز، هو ملك الأسرة التي تملك البناء كله.

ومن الواضح أن مدخل هذا الصرح وأبراجه الخارجية، هي وحدها التي تمتاز بقيمتها الأثرية. بيد أن الذي يلفت النظر حقًا، هو الكنيسة الصغيرة التي تقع داخل القصر، فإن هذه الكنيسة أو المصلى، هي في الواقع مسجد صغير مازال يحتفظ بطابعه وعقوده القديمة. وقد كان فيما يبدو مسجد القصر الخاص، وينقسم هذا المصلى إلى قسمين، القسم الكبير وبه أربعة

PDF Eraser Free

عقود، قد سد فيما بينها بالبهاء ثم ينفذ منه إلى قسم أصغر، وفي هذا القسم أربعة عقود متقابلة، وتقوم فوق القسم الكبير قبة عربية كبيرة، ذات ثمانية أضلاع.

وقد وضعت في صدر هذا المصلى لوحة رخامية، رأينا أن نثبت ما نقش عليها من عبارات تاريخية ذات مغزى وهي:

"Capilla Real de Santa Maria de Alcázar, antigua Mesquita Arabe.
Fué dedicada al divino culto en 1264 por el Rey Alfonso X El Sabio.
Honorada la memoria de este monarca ha sido restaurada en 1827 por
Salvador Diez."

ومعناها "المصلى الملكية للقيسة مريم ذات القصر، وقد كانت مسجدًا عربيًا قديمًا، فحولته للعبادة الإلهية في سنة ١٢٦٤ الملك ألفونسو العاشر، الملقب بالعالم، وتخليدًا لذكرى هذا الملك أجري تجديداتها في سنة ١٨٢٧ على يد سلفادور ديث".

والسنة التي سجلت في اللوحة تحويل هذا المسجد إلى كنيسة، وهي سنة ١٢٦٤، هي السنة التي سقطت فيها شريش في أيدي النصارى، بقيادة ملكهم ألفونسو العالم، وكان ذلك في نهاية عصر الموحدين بالأندلس، وقد حاول ملك المغرب السلطان أبو يوسف المريني استردادها، وضرب حولها الحصار سنة ١٢٨٤، ولكن النصارى استطاعوا إلحاقها بقيادة ملكهم سانشو الملقب بالشجاع ولد ألفونسو العالم.

وأمام هذا المصلى الأثري، فناء صغير به عقد عربي، عمل مدخلًا للقصر الحديث.

ومن الصعب أن نحدد تاريخ بناء هذا الصرح، الذي نالت عليه التغييرات حتى لم يبق من أبنائه القديمة سوى بعض الأبراج، والظاهر أنه يرجع إلى القرن الحادي عشر، أعني إلى أوائل عصر الموحدين، وكان في الأصل حصنًا، كما نكل على ذلك أبراجه، وموقعه في طرف المدينة في إحدى مواقعها الدفاعية.

الكنيسة العظمى: (الكثرتائية) وهي تعرف باسم la Colegiata، وتقع على مقربة من القصر في الطرف الجنوبي الغربي للمدينة، وفي ميدان شاسع فوق ربوة مرتفعة، وهي مضاعفة الشكل بنيت عقودها على الطراز البيزنطي الروماني، ولها واجهة عظيمة، وتبدو من الداخل بالغة الروعة والفخامة. ومما يلفت النظر في طرازها، أن قبتها الكبرى قد صنعت على شكل قبة المسجد، وأن برج أجراسها منفصل عنها، وقائم على مقربة منها، وقد صنع على شكل منارة الجامع، وعلى طراز "لاخير الدا" برج أجراس كثرتائية إشبيلية الشهيرة، وأطلق عليه اسم "سان سالفادور". وكان في الأصل من مباني الكثرتائية القديمة، التي أقيمت فوق موقع جامع شريش القديم، والتي حلت مكانها الكثرتائية الحالية، وفي هذا البرج من الداخل زخارف من الطراز الأندلسي. عملت فيه بعد فتح النصارى للمدينة.

PDF Eraser Free

هذا وتوجد في شريش عدة كنائس أثرية أخرى، مثل كنيسة سان دونزيو التي أُنشئت في سنة ١٢٦٥ حينما دخل الفونسو العالم المدينة، وهي ذات طراز منجني (إسلامي نصراني)، وكنيسة سانتياجو (سنت ياقب) وهي ترجع أيضاً إلى أواخر القرن الثالث عشر، وسان ماتيو، وسان ميغل، وكنيسة حنا أبي الفوارس، وكنيسة الرحمة La Merced، وهي أيضاً من أقدم كنائس شريش. وقد شيدت عقب استرداد النصارى للمدينة من المسلمين بأغوام قليلة. وفيما خالق ذلك فإنه لا توجد ثمة مميزات خاصة لهذه الكنائس، وربما كان منها ما شيد فوق مواقع المساجد الإسلامية.

ومما يلفت النظر أن موقع الكنيسة العظمى، تحيط به الأحياء القديمة والدروب الضيقة، فإذا أضفنا إلى ذلك كونها بنيت فوق موقع المسجد الجامع، أمكننا أن نحدد معالم المدينة الأندلسية القديمة. ومن الملاحظ بوجه عام أن معظم كنائس شريش القديمة، تقع على مقربة من الكنيسة العظمى، وفيما بينها تمتد شبكة الدروب الضيقة، فإذا افترضنا أن معظم هذه الكنائس قد أُنشئت فوق أنقاض المساجد القديمة، فإن موقع شريش الأندلسية، كان يشغل الجانب الغربي الجنوبي من المدينة الحديثة، وهو الذي يضم القصر وسائر الكنائس الأثرية.

PDF Eraser Free



شريبش. الكنيسة العظمى (الكولخياتا) وبرجها المنفصل



شريبش. عقد عربي داخل القصر



شريبش. بعض أبراج القصر والسور

٢١ - قادس

Cádiz

إن منطقة "الفرنتيرا" La Frontera، التي تمتد جنوبي شريط مما يلي شاطئ المحيط، هي عبارة عن بساطت تتخللها التلال المنخفضة، وتبدو هذه الظاهرة بوجه خاص على ضفتي نهر وادي لكه. بيد أن هذه البساطت ليست وافرة الخصب، ولم تر فيها ثمرًا لحدائق الفاكهة أو شجرات الزيتون، التي تكثر شمال هذه المنطقة، وأغلب ما تراه العين فيها شجيرات الحلفاء والحشائش البرية. وعند بلدة "الثغر الملكي" Puerto Real على مقربة من قادس، تبدو أشجار الفاكهة والنخيل في منطقة صغيرة، ثم تليها منطقة كبيرة تغص بالمستنقعات والملاحات الكبيرة، التي تتسرب إليها المياه من المحيط، وتستمر كذلك حتى تقترب من قادس.

وقادس هي ثغر بحري هام، يقع على لسان ممتد في مياه المحيط، وله مرفأ يفضاوي كبير ترسو فيه بعض سفن الأسطول الإسباني. هذا مما يقصده من السفن التجارية، والمدينة مشرقة على الهواء، طويلة الرقعة، تخترقها طائفة من الشوارع المتوازية الضيقة، وبها عدة ميادين كبيرة ظليلة، ويبلغ سكانها اليوم زهاء خمسة وسبعين ألف نسمة. ويبدو النخيل بكثرة في شوارعها وميادينها، فيسبح عليها رواء وجمالاً، والنخيل ظاهرة واضحة في سائر مدن إسبانيا الجنوبية.

وتتشج قادس بثوب أوروبي حديث محض، ولا تكاد تبدو عليها أية لمحة من ملامح المدن الإسبانية الأخرى ذات الطابع الأندلسي، إلا فيما يبدو في بعض أحيائها الداخلية المتواضعة من ضيق الدروب والتواها، ومن مشارف منازلها الأندلسية واستواء سقوفها.

وتضم قادس على نمط باقي المدن الإسبانية، عدة من الكنائس الجميلة، وفي مقدمتها الكنيسة العظمى، وهي تعتبر من حيث الحجم والفخامة من كنائس إسبانيا الكبرى. وقد أقيمت في القرن السابع عشر على أنقاض الكاتدرائية القديمة التي أنشأها الملك ألفونسو العاشر عقب افتتاحه للمدينة من المسلمين. وعلى هذا فمن المحقق أن تكون قائمة على موقع المسجد الجامع القديم وفقاً للقاعدة الماثورة، وهي تقع على مقربة من البحر وظهرها إليه. كذلك ترجع معظم كنائس قادس إلى قرن أو قرنين ليس غير.

كذلك تضم قادس عدة من الحصون، وهي قائمة كلها في ناحيتها الشرقية. وقيل لنا إن منها ما يرجع إلى العصر الأندلسي، ولكننا لم نلاحظ فيما شاهدناه منها ما يحمل على هذا الاعتقاد.



قلاس، الكنيسة العظمى

وهناك أثر آخر ينسب ليضًا إلى أصل
أندلسي، وهو المسمى باب تيجرا Puerta
Tierra، وهو صرح ضخم يقع خارج المدينة
على مقربة من البحر، ويتكون من قاعدتين
كبيرتين من الأبنية الحجرية، إحداهما من ناحية
البحر والأخرى قبلتها، وبينهما عقدان كبيران
منخفضان، وكل منهما يستند إلى عقود ثلاثة؛
وفي الوسط يقوم برج يبلغ ارتفاعه نحو اثني
عشر مترًا. وليس في هذا الصرح سواء من
حيث الشكل أو الطراز ما يدل بأصله
الأندلسي، وربما كان قد أقيم على أنقاض طلل
يرجع إلى العصر الإسلامي، أو على أنقاض
جزء من السور القديم.

ويوجد في متحف قلاس الأركيولوجي، مجموعة من النقود الأندلسية ترجع إلى عصر
الإمارة والخلافة الأموية، وعصر الموحدين. كما أنه يضم عدة لوحات خشبية بها كتابات عربية
حملت إليه من ثغر سبتة، من أنقاض مسجدتها القديم،
وقد سقطت قلاس في يد الغنطاليين، في عهد الملك ألفونسو العاشر في سنة ١٢٦٢ م.

PDF Eraser Free

الكتاب الرابع نافار وقشالة القديمة

تمهيد

علينا فيما نقدم، من فصول هذا الكتاب، بوصف القواعد والمدن التي أبقت عصوراً طويلة، قواعد ومدناً أندلسية إسلامية حقة، ووصف ما أبقت عليه يد الدهر بها من الصروح والآثار، والذكريات الأندلسية الباقية.

وقد رأينا إلى جانب ذلك أن نعني بوصف البقاع والمدن الإسبانية، التي لم يطل أمد بقائها في ظل الحكم الإسلامي، واستردها النصارى في عصر مبكر، مثل بلد الوليد، وأبله، وسعורה، وشقوبية، أو التي لم يحكمها المسلمون، وإنما كانت خلال العصور الأولى عرضة لفتوحهم، أو مهبطاً لحملاتهم الغازية، ويدخل في ذلك عدد من المدن الإسبانية النصرانية المحصنة، التي يقرن اسمها مع ذلك بتاريخ الأندلس من آن لآخر.

وسنرى أنه يوجد في معظم هذه المدن - حتى النصرانية الخالصة منها - بعض الآثار والذكريات الأندلسية الهامة، التي تحتفظ بها متاحفها، أو التي تمثل في بعض الصروح الأثرية، التي تكثر بروح الفن الأندلسي وطرازه، من قصور وكنائس وغيرها، ولعب الفن المتجني، الأندلسي النصراني، أكبر دور في تكييفها. وسنرى في بعض الأحيان أن هذه المدن الإسبانية النصرانية، تملك من تراث الآثار الأندلسية ثروات رائعة. لا تملك القواعد الأندلسية الذاهبة شيئاً منها.

وسوف نشع في ذكر هذه المدن، للتقسيم الجغرافي الإسباني، ونجمعها بحسب مواقعها في قطاعين: الأول: ناقلر وقشتالة القديمة، وهو هذا الكتاب الرابع، الذي نفتحه بهذه الكلمة، والثاني، هو ليون وجليقية والأسترياس.

١ - بنبلونة

Pamplona

بنبلونة هي عاصمة ولاية نافار أو نبرة أو بلاد البشكنس، كما سمي في السورايخ العربية. وكانت نافار منذ الفتح الإسلامي لإسبانيا من لشد الولايات الإسبانية مقاومة للمسلمين. ولما قامت مملكة نافار النصرانية في تلك الجهة، منذ أوائل القرن التاسع الميلادي، غزاها المسلمون مراراً، ودخلوا عاصمتها بنبلونة غير مرة في القرنين التاسع والعاشر. ولكن هذه المملكة الصغيرة، كانت دائماً تدافع عن استقلالها بمنتهى البسالة، سواء ضد المسلمين أو ضد جيرانيها من النصارى.

وبالرغم من أن نافار لم تخضع للحكم الإسلامي، فإنها قد تأثرت إلى حد كبير بمجاورتها للمسلمين، ولا سيما عندما كانت في القرنين التاسع والعاشر، ترتبط في معظم الأحيان برابط التحالف والمصاهرة مع الثوار المسلمين في الولايات الشمالية، أمثال التجيبين وبنى قسي وغيرهم.

وتقع بنبلونة على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً من مدريد، على الضفة اليمنى لأحد أفرع نهر إيبرو، وهي مدينة جميلة ذات شوارع ضيقة مستقيمة، وميادين شاسعة، أهمها الميدان المسمى "ميدان أمير فيانا" P. del Príncipe de Viana، وميدان كاستييا P. de Castilla، وهو ميدان كبير مربع ذو عقود قوطية، وبه عدة من المقاهي الكبيرة، وتُشرف عليه دار البلدية والمسرح، ويتصل به شارع بنبلونة الفحيح المسمى "متنزه بالنسية" Paseo de Valencia، وهو جميل تظله الأشجار الباسقة. وهو ملتقى الجماهير ومتنزههم في الأمسية الصافية. وميدان بنبلونة جميلة عالية، وهي على العموم من أكثر المدن الإسبانية بسمة وإشراقاً. ويبلغ سكانها اليوم سبعين ألف نسمة.

ويشتغل أهل بنبلونة بالزراعة والصناعة، ومن منتجاتها الأقمشة والصابون والورق والحديد. وبنبلونة مركز ثقافي هام، وبها معهد ديني كبير ومدارس كثيرة. وبها مسرح كبير لمصارعة الثيران، بُني كالمعبد على الطراز العربي. وبها مسارج للعبة "البيلوت" Pelota التي يشتهر بها أهل نافار، والتي يقال إنها من أصل أندلسي.

تحفة أندلسية

وليس في نادر آثار أندلسية لأنها لم تخضع لحكم المسلمين كما رأينا. ولكن كنيسة بنبلونة العظمى تحتفظ بتحفة أندلسية ذات أهمية فنية خاصة، وكانت هذه التحفة في الواقع هي مقصدي الأول من زيارة بنبلونة.

وترجع كاتدرائية بنبلونة إلى أواخر القرن الرابع عشر. أنشأها سانتو الثالث الملقب بسانشو النبيل في سنة ١٣٩٧ م، فوق أنقاض كنيسة رومانية قديمة، لم يبق منها اليوم سوى ركن صغير من "المقدس"، ودفن بها سانتو وزوجته، ثم جددت في القرن الثامن عشر، وبُنيت واجهتها الكبرى الحالية.

أما التحفة الأندلسية التي أشرنا إليها فهي عبارة عن صندوق خشبي جميل مطعم بالعاج، يبلغ طوله نحو أربعين سنتيمتراً، وارتفاعه عشرين، وسطحه شبه منحرف مربع الجوانب، وقد رُسم على واجهته الظاهرة صورة شيخ وحوله طفلان، وتحتة وعلان صغيران، ورسم في الناحية اليسرى صورة سيدتين، وفي الوسط صورة ثلاثة أشخاص ينقحون في المزمار.



ونقشت حول الصندوق في شريطه الأوسط هذه الكلمات بخط كوفي متداخل:

"بسم الله بركة من الله ونحطة وسرور وبلوغ
أمل، في صالح عمل، وتفساح أجل، للحاجب سيف
الدولة عبد الملك بن المنصور وفقه الله. مما أمر
بعمله على يد الفتى نمير بن محمد العامري مملوكة
سنة خمس وتسعين وثلاث مائة".

بنبلونة: نموذج من صور الصندوق الأندلسي
المحفوظ بالكنيسة العظمى

وقد حفظت هذه التحفة الفنية الفريدة، في قاعة خاصة في نهاية الكنيسة، وحفظت عليها
للتعريف بها لوحة كتب عليها ما يأتي:

Arqueta HISPANO Árabe considerada como primera pieza
artística en España. Año 1005 A. D.

ومعناه "صندوق إسباني عربي يعتبر قطعة فنية من الطراز الأول في إسبانيا
سنة ١٠٠٥ م".

PDF Eraser Free

وعلمت من القس الذي صيحبني أثناء الزيارة، أن هذا الصندوق كان في الأصل من الغنائم التي ظفر بها ملك نفلر في حروبه مع المسلمين، ثم أودع في دير من الأديار في أراجون القديمة، يسمى دير "ليري" Leire، وفي القرن التاسع عشر أهدى أباء هذا الدير الصندوق إلى كنيسة ببلونة^(١).

ويوجد أيضاً إلى جانب هذا الصندوق، قطعة صغيرة من القماش حجمها نحو ٢٥ سم في ٨، وقد نقشت عليها حروف عربية لا تقرأ. والظاهر أنها من صنع المندجيين.

* * *

وقد عثرت في محفوظات ببلونة بدار البادية، على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة في شهر أبريل سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م)، وهي وثيقة تعامل وتعاقب، تكتب بحقائق ذات شأن، في حياة المندجيين في مملكة أراجون.

^(١) نشرنا صورة هذا الصندوق ضمن المجموعة الخاصة بصور الكتب الرابع.

٢ - برغش

Burgos

لم تكن مدينة برجوس، التي تسمى في الجغرافية العربية "برغش" موجودة وقت الفتح الإسلامي لإسبانيا، ولكنها نشأت لأول مرة في عهد ملك قشتالة ألفونسو الثالث (٨٦٦ - ٩١٠م)، وكان في مكانها عدة قرى وضياع يغير عليها المسلمون من آن لآخر، فلجأ ألفونسو حولها سورًا ولبثت قلعة لحمائنها من شاركت المسلمين، وكان هذا مولد مدينة برجوس، التي عدت فيما بعد عاصمة قشتالة القديمة، ثم أصبحت اليوم من أجمل المدن الإسبانية التاريخية.

وتقع برجوس على منحدر مجموعة من التلال، تمتد نحو السهل الأخضر، ويخترقها من نهائيتها الجنوبية نهر "الانتون"، أحد فروع نهر دويره (دور)، وهي مدينة كبيرة فخمة تحافظ بكثير من طابعها الأثري، وتخترقها عدة من الشوارع القصبة، أطولها وأجملها شارعها المحاذي للنهر، والمسمى "متنزه الجزيرة" Paseo de la Isla، وهو شارع عريض تظله الأشجار الباسقة، وتمتد في وسطه الحدائق الغناء. وميدانها الكبير المسمى Plaza Mayor، يقع وسطها وتظله عقود قوطية، ويقع على مقربة منه ميدان الكنيسة العظمى، ويليه في الأهمية ميدان سان دومنغو كلمان. وفي برجوس مبان كثيرة فخمة، وعدة كنائس وأديرة وقصور تاريخية. والحركة فيها شديدة متواصلة. ولكن أحياءها القديمة ذات شوارع ودروب ضيقة كباقي المدن القشتالية. وهي على العموم مدينة جميلة أخاذة ولكنها ليست مشرقة مثل بنبلونة.

ويبلغ سكان برجوس وفق إحصاء سنة ١٩٤٧، ٧٨,٩٠٠ نسمة.

وإذا لم تكن ثمة في برجوس آثار أندلسية مباشرة، لأنها لم تخضع لحكم المسلمين، فإنها تحتوي مع ذلك على بعض الآثار والتحف الهامة، التي تتعلق بتاريخ الأندلس، ومن ثم كان مقصدنا إليها.

ولنبدأ بذكر كنيسة العظمى (الكاتدرائية)، وهي من أفخم وأعظم كنائس إسبانيا، ويرجع إنشاؤها إلى سنة ١٢٢٦ م، في عصر فرناندو الثالث ملك قشتالة، واستمر البناء فيها حتى سنة ١٥٦٧ م. وهي بناء رائع فخم، ويعتبر أعظم أثر على الطراز القوطي في إسبانيا كلها، وهي تقع في وسط المدينة، وتطل عليها في عظمة وجلال، ويرى جمالها وفنها البديع عن بعد. وفي أحد أجنحتها توجد قاعة للكنوز، تغص بالصلبان والآنية والأيقونات الذهبية، وعلى جدرانها عدد من بسط جوبلان الفاخرة تمثل مناظر دينية بدية.



برغش، الكنيسة العظمى

ويوجد تحت قبعتها العظمى أثر تخليدي
للسيد الكمبيانور El Cid Campeador، وزوجه
خمينا، وهذا الأثر عبارة عن لوحة رخامية كبيرة
سوداء طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران، وقد
نقش عليها ما يأتي باللاتينية والإسبانية:

Roderigus Didaci Campidoctor
MXCIX Anno Valentiae Mortuus
A todos alcana Odora
Por ei que en Buen or nacio

+

Eximina Uxor eius
Didaci Comitis Oveensis
Regali Genere Nata

والسيد الكمبيانور (وبالعربية الكنييطور) هو ردريجو دي بيفار، الفارس القشتالي
الشهير، وأصله من مدينة برجوس، وقد حارب المسلمين في أواخر حياته واستطاع أن يفتح
بلنسية في سنة ١٠٩٤ م، وأن يحكمها بضعة أعوام، ثم توفي بها سنة ١٠٩٩ م، وهو يدافع
عنها ضد المرابطين حينما حاولوا استردادها، ودافعت عنها من بعده زوجته خمينا دي أوفيدو
مدى عامين، ثم غادرت المدينة حاملة رفات زوجها، واسترد المرابطون المدينة من النصارى
في سنة ١١٠٢ م^(١).

وكذلك يوجد في برجوس أثر آخر للسيد، يعين مكان المنزل الذي كانت تكيم فيه
أسرته، وهو عبارة عن ثلاث لوحات قائمة فوق قاعدة، وقد كتب على إحدى اللوحات
بالإسبانية أن السيد ولد في سنة ١٠٢٦ م، وتوفي في بلنسية. وأن هذا الأثر قد عمل في سنة
١٢٨٤ في عهد الملك كارلوس الثالث. ويسمى هذا الأثر "موقع منزل السيد" Solar del Cid.
وعلى مقربة من هذا الأثر الذي يقع في أطراف برجوس، يوجد باب على الطراز
العربي ذو عقود ثلاثة، هو باب سان مارتين Arco de San Martin.

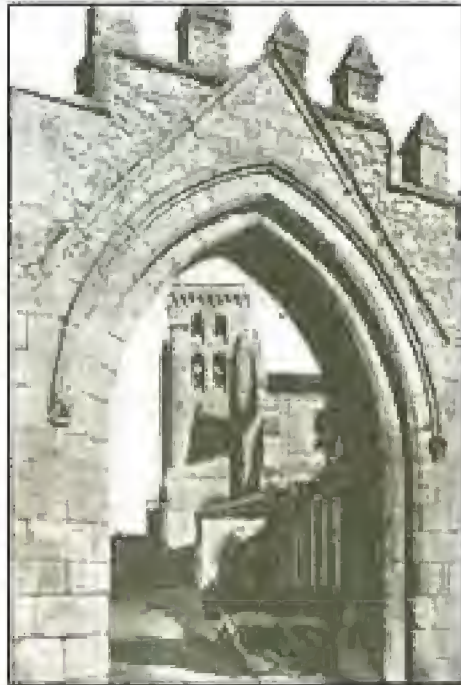
^(١) ويوجد قبر السيد بيدرو سان بيدرو ببلدة كارتنيا القريبة من برجوس.

الدير الملكي

وتوجد في الدير الملكي المسمى: Real Monasterio de las Huelgas تحف أثرية أندلسية تثير ذكريات محزنة.

ويقع هذا الدير في مشارف برجوس على مقربة من "متنزه الجزيرة"، على قيد نحو كيلو مترين من المدينة، وهو بناء حصين يرجع إلى القرن الثاني عشر، وقد بُني ليكون مصيفاً لملوك قشتالة، ثم حُول بعد ذلك إلى دير وضريح ملكي. وفي فناءه الكبير، توجد إلى جانب البناء الرئيسي واجهة من العقود العربية، ومنها عقد على جانبه عدة من العمد يضارع عقود المسجد، وقد نقشت عليها نقوش مدجنية لا تقرأ. وكان هذا الدير قبل إنشاء قصر الإسكوريال ومدفنه الملكي في القرن السادس عشر، يستعمل مدفنًا لملوك قشتالة، وتوجد بالفعل في أروقته عدة توابيت حجرية، مدفون بها عدة من الملوك والأمراء الإسبان.

ويبدو أثر الفن الأندلسي والفن المدجني، في أبنية الدير وزخارفه بوضوح، فقد صنعت جوارب صحنه الداخلي من عقود عربية، وفي سقف أحد أروقه الداخلية نقوش مدجنية، تتخللها كتابات كوفية ونقوش عربية، وفي قبة هيكله الرئيسي توجد زخارف وكتابات عربية، استطاع أن نقرأ منها "بسم الله"، والظاهر أن العرفاء والصالح المدجنين، كانوا ينقون رسوم الآيات القرآنية والعبارة العربية، دون أن يفتقروا شيئاً من معانيها، وعلى أنها رسوم وزخارف فقط. ومن ثم فلما نجد في كثير من الكنائس والأديار الإسبانية التي يغلب عليها الفن المدجني، بعض الآيات القرآنية، التي أدرجت في نقوشها بصورة مشوهة.



ومما يلفت النظر أن باب المصلى، قد صنع على طراز عربي مذهن، وزين بمقرنصات خشبية على شكل نجوم داخل حيطان مسبعة الأضلاع. ويرى الأستاذ جومث مورينو أنه يرجع إلى القرن الحادي عشر أو إلى أوائل القرن الثاني عشر، وأنه أندلسي الأصل والصناعة، وربما أخذ من مقصورة أو منبر أحد المساجد، ونقل إلى قشتالة كغنيمة ثمينة، ثم لودعه الفونسو الثامن دير الذي أنشأه^(١).

برغش. الدير الملكي وعقوده الخارجية

على أن أهم ما يسترعى النظر بين محتويات هذا الدير هو العلم الإسلامي الكبير

G. Moreno: El Arte Árabe – Español hasta los Almohades (Ars, Hispaniae, Vol. ^(١)

PDF Eraser Free

الذي علق في واجهة إحدى قاعاته الداخلية، وكتب تحته التعريف ما يأتي:

"Trofeo conquistado al enemigo en la Batalla de las Navas de Tolosa"

ومعناه "تrophée انتزعت من العدو في موقعة هضاب تولوسا".

والموقعة المشار إليها في هذا التعريف، هي الموقعة الشهيرة التي تعرف في التواريخ الإسلامية بموقعة العقاب أو حصن العقاب، والتي وقعت في سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) بين الموحدين، وجيوش إسبانيا النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن، في هضاب تولوسا على مقربة من بيلسة، وهُزم فيها الموحدون هزيمة شنيعة.

أما هذا العلم الذي كان بين غنائم النصاري في الموقعة، فهو عبارة عن سجاد كبيرة طولها ٣,٣٠ متراً، وعرضها ٢,٢٠ متراً، وبها في الوسط دائرة كبيرة صفراء، يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة. وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة. ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة، أحزمة بنية، نقش عليها آيات قرآنية بخط أزرق، وفي ذيلها دوائر نقش فيها أدعية مختلفة.

وقد كتب في أعلى العلم في شريط بني بالأزرق ما يأتي:

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله

وكتب تحته في الشريط الذي فوق المربع ما يأتي:

"يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم".

وكتب في الشريط الذي على يمين المربع ما يأتي:

"تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم".

وفي الشريط الذي على يساره تكلمة الآية:

"لكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات".

وفي الشريط الذي في أسفل هذه التكلمة:

"تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك".

ولما في دوائر الذيل فقد نقشت الأدعية الآتية على التوالي، بخطوط زرقاء على رقعة بيضاء:

"العافية العافية، العبطة المتصلة، السلامة الدائمة، العافية البركة، العافية الباقية،

السلامة الدائمة، العافية الباقية"^(١).

وتوجد في أحد أروقة الدير صورة زيتية كبيرة، تمثل موقعة العقاب المذكورة وهزيمة

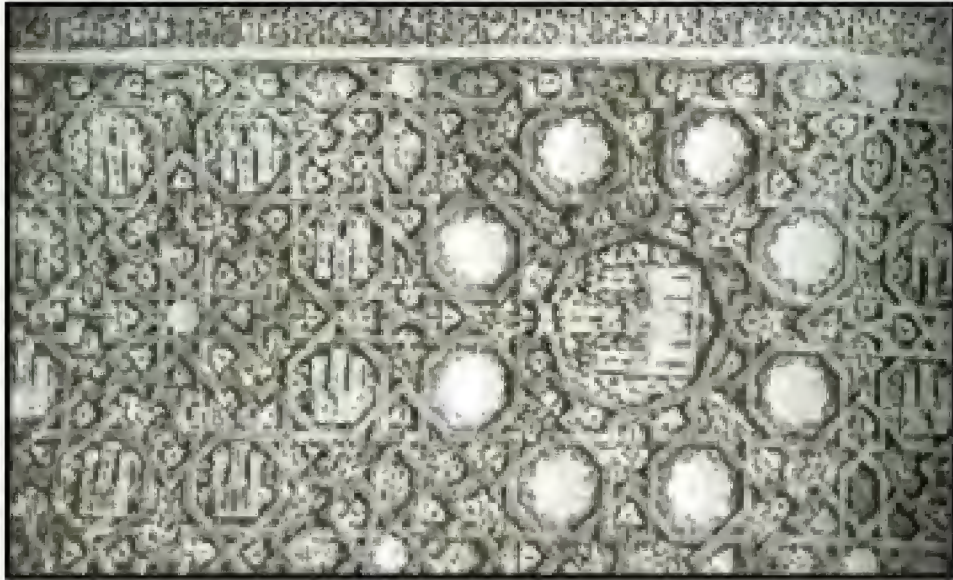
الموحدين فيها.

^(١) وقدنا طويلاً أمام هذه النقطة الأنثوية المعززة نقرأ خطوطها المغربية بصعوبة، وراجع في وصفها

ونقوشها أيضاً: R. Amader de los Rios: Trofeos militares de la Reconquista الذي سبق

الإشارة إليه. وقد نشرنا صورة هذا العلم في المجموعة الخاصة بصور الكتاب الرابع.

PDF Eraser Free



برغش (النير الملكي).
زخارف منجنية من المقرنصات الخشبية في سقف البهو الرئيسي



متحف برغش. عقد من الرخام ذو نقوش منجنية

PDF Eraser Free

وقد عثق إلى جانب هذا العلم الموحدي الكبير، علمان تركيان صغيران، أحدهما من
الترك في معركة ليانتو البحرية الشهيرة، التي وقعت في المياه اليونانية في سنة ١٥٧١ م،
وهزمت فيها الأساطيل التركية، أمام الأساطيل النصرانية المتحدة.
ويوجد في متحف الدير قطعة من القماش المغطى بالحبر، وعليها كتابة عربية
ظاهرة فيها الكلمات الآتية:
للك والسلام الأعلى، وعليها تاريخ مارس سنة ١٣٣٣ م.

في متحف برجوس

وفي متحف مدينة برجوس عدة تحف أندلسية أثرية، أولها صندوق من الخشب المطعم
على مثل صندوق كتالونية بنبلونة، طوله ٣٠ سنتيمتراً وعرضه ١٥، ولخطؤه شبه منحرف،
وعليه كتابة عربية من الجانبين القصيرين، وقد جاء في دليل هذا المتحف أنه صنع في قونقة
في سنة ١١٧ هـ (١٠٢٦ م). وذكر المستشرق أمانور دي لوس ريوس في كتابه الذي سبق
الإشارة إليه أن المنقوش على الصندوق هو ما يأتي:
"بأية لصاحبه أطل الله بقاءه مما عمل بمدينة قو (نكة) (سنة) سبع عشر وأربع مائة
عمل محمد بن زياد عبده أعزه الله".
لكننا بالتأمل الدقيق في كتابات هذا الصندوق، لم نستطع أن نقرأ فيها شيئاً من العبارات
المتقدمة.

وقد نقش على الصندوق، صور وحول وجياد وسباح، وفي أحد جانبيه القصيرين
صور نساء نصرانيات، رسمت فيما يبدو بريشة بعض المصورين النصارى.
ويرى المستشرق أمانور دي لوس ريوس، أن هذا الصندوق، وقد أتى به في الأصل
من أحد الأندلس، إنما هو تحفة زائفة^(١).

والأثر الأندلسي الثاني في متحف برجوس، عبارة عن صندوق خشبي به من الناحيتين
سلطين من الخزف السملي، في كل ناحية خمس منها، وقد جاء في الدليل، أنها صنعت برسم "عبد
الرحمن أمير المؤمنين". بيد أننا لم نجد عليها أثراً لأية عبارة مكتوبة. وقد يرجع ذلك إلى أن ما تونه
المستشرق أمانور دي لوس ريوس عن هذه الأثر في دليل المتحف وفي كتابه، قد نون منذ أكثر
من سنتين علماً، طرأ خللها على هذه التحف بعض التغييرات.
ويوجد أيضاً في متحف برجوس بعض عقود رخامية من صنع المدجنين عليها نقوش
عربية غير واضحة الكلمات، وإنما هي رسوم منقولة فقط.

٣ - بلد الوليد

Valladolid

كانت بلد الوليد أو بالإسبانية "فاليادوليد"، من القواعد الأندلسية الشمالية التي استردها النصارى منذ أوائل القرن العاشر، ولم تمكث تحت حكم المسلمين أكثر من قرنين.

واسمها ينم عن أصله الأندلسي، ولكن ليس من المعروف إن كان لها قبل الفتح تاريخ، يرجع بها إلى العهد القوطي أو الروماني. لم أنها أنشئت عند الفتح على أطلال محلة أو قاعدة قديمة، وأسبغ عليها ذلك الاسم العربي "بلد الوليد" الذي حرفه الإسبان إلى وضعه الحالي "فاليادوليد".

وعلى أية حال فإن بلد الوليد، لم تلعب دوراً كبيراً في تاريخ الأندلس المسلمة. وليست بها اليوم أية آثار أندلسية.

وبلد الوليد مدينة مشرفة من أجمل المدن الإسبانية، وهي اليوم تحمل طابعاً أوروبياً لا مرأى فيه. وبها شوارع عريضة جميلة، ومتنزهات خضراء، وميادين شاسعة وأعظم شوارعها، هو "متنزه ثوراليا" Paseo Zorrilla، المسمى باسم شاعرها الكبير "خوسيه ثوراليا"، وشارعها التجاري الزاخر شارع سانتياجو. وأجمل ميادينها "ميدان ثوراليا" والميدان الكبير Plaza Mayor، وهو ميدان تاريخي تشرف عليه دار البلدية، وعدة صروح تاريخية قديمة.

أما من الناحية الأثرية، فإنه توجد في بلد الوليد عدة من الكنائس الأثرية القيمة، وفي مقدمتها كنائس التي أنشئت في أواخر القرن السادس عشر، وبداة الجامعة التي ترجع إلى القرن الثالث عشر، ومتحف النحت الوطني، الذي يغص بالتماثيل والصور الدينية، وهو يقوم في صرح قديم كان في الأصل معبداً دينياً، وفي هذا الصرح بالخاص يبدو أثر الفن الأندلسي واضحاً، فهو يشتمل على ساحة سفلى أقيمت على جوانبها عقود عربية، وتشرف عليها من النور الأعلى أروقة ذات عقود منجنية زينت بزخارف دينية دقيقة، وبعض أسقف أبياء المتحف، مزينة بزخارف منجنية مذهبة، وكذلك سقف السالم العربي العريض مزخرف على الطراز المنجني. وبالجملة فإن هذا البناء، ينم بعقوده وزخارفه الجميلة عن طابع أندلسي واضح.

وإذا لم يكن ثمة في بلد الوليد ما نصفه من الآثار الأندلسية، فإنها تحتفظ بالقرنين قويمين جليلين يتصلان بعالم الأندلس.

PDF Eraser Free

أولهما، المنزل الذي عاش فيه كاتب إسبانيا الأشهر ميغل ثرقاتنس، مؤلف "القصة الخالدة" "دون كيخوتي" Don Quijote حيناً من الدهر، وهو عبارة عن منزل صغير متواضع ذي طابقين، يقع في درب صغير مغلق يسمى شارع راسترو Calle Rastro، ونوافذه مشبكة بالقضبان العريضة، ويوجد في الطابق الأول منه، بعض مقاعد وموائد من طراز العصر (أوائل القرن السابع عشر) وورقة مخطوطة بخط ثرقاتنس وتوقيعه. وخطاب موجه منه إلى الملك فيليب الثالث. وكذلك صورة فوتوغرافية مأخوذة عن الطبعة الأولى من قصة "دون كيخوتي"، التي صدرت لأول مرة في سنة ١٦١٥ م.

والثاني، هو المنزل الذي ولد فيه الشاعر خوسيه ثورليا J. Zorilla، وهو من أعظم شعراء إسبانيا في العصر الحديث، وهو يقع في درب صغير على مقربة من كنيسة سان بابلو في نهاية المدينة، وقد كتب عليه ما يُلقي تحت صورة من الحصن للشاعر "هذا ولد الشاعر الكبير دون خوسيه ثورليا في سنة ١٨١٧"، ويحتوي المنزل على متحف للشاعر، حفظت به بعض الأثاث والزيش وبعض مخطوطاته، وتوجد به قاعة عمله ومكتبه.

وقد لعبت بلد الوليد دوراً ملحوظاً في تاريخ قتالة الحديث، وكانت منزل البلاط في فترات كثيرة. وفي أوائل القرن الخامس عشر، جعلت عاصمة مملكة قشتالة، وفيها عقد زواج فرديناند وإسبيللا الذي أدى إلى اتحاد إسبانيا النصرانية (١٤٦٩ م)، وفيها توفي كريستوف كولومبوس مكتشف العالم الجديد (١٤٩٦ م)، وولد فيليب الثاني (١٥٢٧ م).

حصن شنت منكش Simancas

على أنه إذا كانت بلد الوليد تملو من الآثار الأندلسية، فإنه توجد على مقربة منها بلدة صغيرة، تضم أثراً أندلسياً قديماً، وله صلة وثيقة بالتاريخ الأندلسي، ثم بتاريخ إسبانيا الحديث. تلك هي بلدة شنت منكش أو شنت مانكش الصغيرة، وهي بالإسبانية بلدة Simancas، التي تضم الحصن الشهير الذي يحمل نفس هذا الاسم.

وتقع شنت منكش أو "سيمانكا" جنوبي غربي بلد الوليد، على قيد عشرة كيلومترات منها، في واد عميق أخضر يقع على ضفة نهر بسوجرا أحد أفرع نهر دويرة. وهي عبارة عن محلة صغيرة تحتوي على عدد قليل من المساكن. بيد أنها تشتهر بالأخص بحصنها الشهير، الذي يقع في وسطها فوق ربوة مرتفعة، ويرجع حصن شنت منكش أو حصن سيمانكا إلى القرن التاسع الميلادي، وقد أنشأه المسلمون، ولبت في أيديهم إلى نحو منتصف القرن العاشر. وعلى مقربة من شنت منكش، فيما بينها وبين سمورة، كان مسرح الموقعة الشهيرة التي وقعت بين عبد الرحمن الناصر، وراميرو الثاني ملك ليون في سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ).

PDF Eraser Free

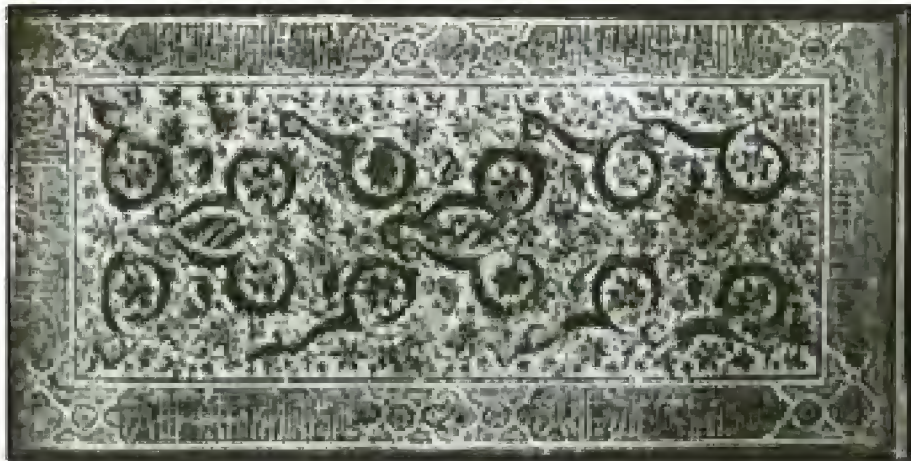
والتي هُزم فيها المسلمون هزيمة شديدة، وتعرف هذه الموقعة في الرواية الإسلامية بموقعة الخندق Alhandega.

وقد توالى على حصن شنت منكش بعد وقوعه في يد النصارى تغييرات وتعديلات كثيرة، وهو يبدو في شكله الحالي، قلعة حصينة بنيت من الصخر الصلد وبها عدة أبراج منيعة. وتحتوي على أربعة طوابق في كل منها عدة غرف صخرية. وكان هذا الحصن يستعمل خلال العصور الوسطى سجنًا من سجون الدولة، ثم كان بعد ذلك من معازل ديوان التحقيق (Inquisición)، واستعمل منذ أوائل القرن السادس عشر دارًا للمحفوظات الإسبانية. وهو ما يزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة، التي تضم مجموعات عديدة من أهم وأفضل الوثائق، التاريخية والديبلوماسية والقضائية. ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة. وتشغل هذه المحفوظات الغنية أربعة وأربعين غرفة. ويطلق عليها اسم دار المحفوظات العامة بـ"سيمانكا" Archivo general de Simancas، وهي تستقبل العلماء والباحثين من سائر أنحاء العالم. وقد أتيح لنا زيارتها والعمل فيها غير مرة، لقينا خلالها من القائمين بأمرها أجمل ترحاب ومعاونة.

PDF Eraser Free



صندوق عاجي لعبد الملك المنصور (٣٩٥ هـ)
محفوظ بكنيسة بابلونة العظمى



لوحة أندلسية من الخراف المذهب (الزليخ)،
محفوظة بمتحف بلنسية دي نون خوان بومديد

PDF Eraser Free



عباءة أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس، المحفوظة بمuseum مدريد العربي

PDF Eraser Free



سيف علي العطار بطل لوشية، المحفوظ بمتحف مدريد العربي

PDF Eraser Free



علم الموحدين الذي غنمه الإسبان في موقعة العقاب (١٢١٢ م)
وهو محفوظ بالدير الملكي بمدينة برغش

PDF Eraser Free



بلد الوليد. واجهة منزل شرفان



بلد الوليد. عقود العتف



شنت منكن (سبعين). القلعة الأندلسية القديمة وهي اليوم دار المحفوظات الإسبانية العامة

٤ - شقوبية

Segovia

تعتبر شقوبية أو بالإسبانية سجووية من مدن إسبانيا الأثرية العريقة.

والواقع أن شقوبية تبدو للسائح المتجول، مدينة قديمة تحمل طابع العصور الوسطى، بل العصور الغابرة، ويكفي أن تلقى نظرة على قنطرة الرومانية الهائلة القائمة في وسطها، لتذكرك أنك في مدينة يرجع تاريخها على الأقل إلى العصر الروماني.

وهي تقع شمال غربي مدريد على قيد تسعين كيلو متراً منها، في سفح جبال وادي الرملة (جواداراما)، وتمتد أمامها بسائط خضراء رائعة، تنتج مختلف المحاصيل ولا سيما الحبوب، وتحف بها الجبال. وأهم صناعات شقوبية الدقيق والورق والخزف. ويبلغ سكانها زهاء خمسة وعشرين ألف نسمة. وهي هادئة الحركة، يشقها من الوسط حتى ميدان القنطرة الرومانية شارع طويل ضيق، ثم يمتد من هذا الميدان شارعها التجاري حتى ميدانها الرئيسي، الذي تشرف عليه دار البلدية، ويقع على مقربة من كنيسة العظمى. وشوارع شقوبية ودروبها صخرية منحدر، ومنازلها عتيقة الطراز قائمة اللون، وكل مظاهرها تدلي بطابعها القديم.

وكانت شقوبية من أولئ المدن الأندلسية الشمالية التي استولى عليها النصارى، وقد سقطت في أيديهم في عصر عبد الرحمن الأموي حوالي سنة ٧٥٧ م. واتخذت طابعها القشتالي في عصر مبكر، فهي في الواقع من أعرق مدن قشتالة القديمة.

وبالرغم من أن شقوبية لم تمتد طويلاً تحت حكم المسلمين، فإنها مازالت تحوي على بعض الآثار الأندلسية. وأهم هذه الآثار هي بقايا الأسوار العربية القديمة، التي مازالت قائمة إلى جانب القنطرة الرومانية تشرف عالية على الميدان، وقد كادت تحجبها المنازل الحديثة الملاصقة لها، ويصعد إليها بواسطة سلم حجري عريض.

PDF Eraser Free



شقوبية. القنطرة الرومانية الكبرى



شقوبية. عقد سان لادريس



شقوبية. بقية من الأسوار الأندلسية

PDF Eraser Free

وتمتد القنطرة الرومانية الشهيرة من عند بقية الأسوار العربية. وهي أثر هائل من أعظم آثار العصر القديم. وتمتد على ضلعين كبيرين يبلغ طولهما أكثر من كيلو متر، ويتكون كل من الضلعين من عقود هائلة من الحجر الصلد، تبدأ من الأسوار على عقدتين فوق بعضهما يبلغ ارتفاعهما نحو ٣٥ مترًا، ويستمر الصف مزدوجًا مدرجًا في الانخفاض حتى ينتهي إلى عقد واحد. ثم يعود في الضلع التالي فيبدأ عاليًا بعقد الموحدة، ويتصاعد في الارتفاع تدريجيًا ويمتد على طول ستمائة متر تقريبًا.

وقد شيدت هذه القنطرة العظيمة في عصر الإمبراطور نرجان الروماني، في القرن الأول بعد الميلاد، وكانت تقوم بوظيفتها في نقل ماء النهر (وهو نهر فريو فرع نهر دويسرة) عبر الجبال إلى المدينة خلال مختلف العصور، واستمرت تقوم بمهمتها إلى أواخر القرن الماضي، ولكنها اليوم تغدو أثرًا مهجورًا لا عمل له.

وتقع الكنيسة العظمى أو الكثرائية، فوق صخرة عالية على مقربة من الميدان الكبير، وتمتد هذه الصخرة منحدرًا حتى موقع "القصر"، وكندائية شقوبية ضخمة رائعة من الداخل. وقد بنيت في أواخر القرن السادس عشر على الطراز القوطي. ويمتد "مقنسها" خلال رواقين كبيرين. وبها معرض للمخطوطات المقدسة من الأناجيل والأشيد الكنسية، وكذلك تعرض بعض الوثائق القشتالية في بهو المحفوظات. وبها متحف يقدم طائفة من التحف الدينية المذهبة والصور التاريخية، ومجموعة من السجاد الفاخر من صنع جوبلان. وقد صور عليه تاريخ ملكة تدوير نقلاً عن المصور "روبنس".

وقد لفت نظرنا في هذا المتحف قطعة رخامية، هي عبارة عن رأس عمود مزخرف مقرنص وعليه كتابة عربية قرأنا منها:

بسم الله والحمد لله

نعمة شاملة

أطال الله بقاء مما أمر بعمله.

سنة تسع وأربعين وثلاثمائة والحمد لله.

ويفضي من الكثرائية إلى "القصر" طريق صخري ضيق منحدر. ويقع القصر Alcázar فوق صخرة وعرة تجثم في أعماق هاوية مخيفة، وهو يتخذ شكل قلعة متربعة ذات برج ضخمة، يبلغ ارتفاعه منذ مرساه في الهاوية إلى قمته نحو مائة متر. ولا بد أنه يمتد بصلة ما إلى صرح أنطلسي قديم مثل القصبة أو القصر إذا اعتبرنا دلالة الاسم. ولعله قد بني فوق أنقاض هذا الصرح الأنطلسي القديم أو فوق موقعه. والمعروف من تاريخه أنه بني في القرن الثالث عشر. ووجد في القرن الرابع عشر. وكان من الصروح الملكية القديمة التي كانت

PDF Eraser Free

تستعمل للإقامة المؤقتة، ويعقد به البلاط من آن لآخر، وهو يحتوي بالفعل على بهو ملكي وقاعة للعرش، ومما يلفت النظر أن قاعة العرش لها سقف عربي، بزخارف مقرنصة على شكل قبة عربية، تحفها نقوش منجنية، والمقول إنها صنعت على من زخارف قصر الجعفرية بسرقطة، وقد زينت أبهاء "القصر" بطائفة من الصور التاريخية.



شقوبية. منظر عام للقصر والزينة القائم عليها

ويقع على مقربة من الكنيسة العظمى في أسفل الصخرة، عقد قديم منيع ذو طراز عربي، يسمى باب سان أندريس، وإلى جانبه الأيمن بقية من أسوار قديمة، بيد أننا لم نستطع أن نقف على العصر الذي بُني فيه، ولم نعرف إن كان يرجع إلى العصر الأندلسي، أم أنه من إنشاء العصر القشتالي.

وفي شقوبية ساحة لمصارعة الثيران.

٥ - آبله

Avila

كانت آبله، مثل شقوبية، من أوائل المدن الأندلسية التي استردها النصارى. وكل ذلك في عهد عبد الرحمن الأموي حول سنة ٧٥٧ م.

وهي مدينة صغيرة تقع في شمال غربي مدريد، على قيد ثمانين كيلو مترًا، وبينها وبين شقوبية مسافة صغيرة، ويربطها بمadrid قطار كهربائي. ويبلغ سكانها خمسة عشر ألف نسمة.

وآبله ضيقة الرقعة، يشقها شارع طويل يبلغ نحو كيلو مترين. وهي مدينة هائلة جميلة المظهر، وبها أسواق حسنة. وأعظم آثارها الظاهرة هي بقية أسوارها الضخمة التي مازالت تحيط بقسمها الغربي، وهي أسوار منيعة عالية يبلغ طولها نحو نصف كيلو متر، وبها عدد كبير من الأبراج، وعدة أبواب مازالت كلها في حالة جيدة. ويبدو من منظر هذه الأسوار، وطرازها أنها ترجع إلى العصر الروماني، ولكن يبدو كذلك في كثير من أجزائها أن العرب قاموا بإصلاحها والزيادة فيها.

وفي آبله عدة كنائس أثرية في مقدمتها الكنيسة العظمى، وهي بناء ضخم أقسم على الطراز القوطي، ولها واجهة فخمة، وبها من الداخل زخارف وفسيفساء رائعة. ويرجع إنشاؤها إلى القرن الثالث عشر. وتليها في الأهمية كنيسة سان بشتي، وهي أيضًا جميلة فخمة وبها متحف صغير.

ومن آثار آبله الأندلسية القصر Alcázar، وهو عبارة عن حصن قديم حوّل منذ عهد بعيد إلى ثكنة عسكرية.

وهذا رأي فيما يتعلق بمسجد آبله القديم، وهو أن موقعه لم يُشغل ببناء الكنيسة العظمى وفقًا لسياسة إسبانيا النصرانية التي اتبعتها في سائر مدن الأندلس، ولكن ظهر من البحوث الحديثة أن موقع هذا المسجد، يقوم اليوم مكانه دير سانتا ماريا دي جراتيا Monasterio de Sta. Maria de Gracia، الذي يشغله الرهبان الأوغسطينيات، يدل على ذلك كتابة وجدت على قطعة من الخشب، وكذلك مذكرة قديمة كتبها أحد رؤساء هذا الدير في

PDF Eraser Free

القرن السابع عشر. بيد أنه من الصعب أن نعرف متى كان هذا المسجد قائماً ومتى هدم، إذ إنه من أقدم المساجد الأندلسية^(١)



آلة. جانب من الأسوار الرومانية وقد ظهرت في نهايته الكنيسة العظمى

^(١) يراجع في ذلك بحث المستشرق F. Gonzalez عن آله "مسجد آله القديم" Antigua Mezquita de Avila منشور في مجلة أكاديمية التاريخ الملكية Boletín de la Real Academia de la Historia (T. XIV, 1869)

٦- وادي الحجاره

Guadalajara

هي مدينة أندلسية قديمة، كانت أيام المسلمين تعتبر من المراكز الأمامية للغزوات الإسلامية في نافار وقشتالة، وهي تقع على نهر هنارس شمال شرقي مدريد وعلى قيد خمسين كيلو مترًا منها، وبينها وبين العاصمة الإسبانية منطقة خضراء تنخلها بعض التلال، وتغطيها غابات الزيتون والحقول البانعة.

وقد لبثت وادي الحجاره تحت حكم المسلمين زهاء ثلاثة قرون ونصف، وسقطت في أيدي القشتاليين عقب سقوط طليطلة في سنة ١٠٨٥ م، وكان الذي استولى عليها هو القائد البرفانيس أو البرهانس Alvar Fañez زميل السيد الكنييطور El Cid، ثم ضمت بعد ذلك إلى مملكة قشتالة، وحاول المسلمون استعادتها في سنة ١١٩٦ م، فلم يفلحوا.

وتبدو مدينة وادي الحجاره، إلى جانب مناظرها الطبيعية الجميلة، مدينة قديمة الطراز، وهي طويلة الرقعة قليلة العرض، يشقها شارع ضوئيل جدًا هو شارع القائد الأعظم، وهو شارعها الرئيسي وفيه المتاجر والمقاهي، وتتفرع منه سائر أحياء المدينة على الجانبين في عرض قليل، وتضم المدينة من السكان اثني عشر ألفًا. ويلاحظ أن الدروب الواقعة في طرف المدينة هي دروب ضيقة وصاعدة، تحمل طراز العصور الوسطى.

ولا توجد في وادي الحجاره آثار أندلسية بارزة، اللهم إلا بقية أسوار قديمة تقع على مقربة من الكنيسة العظمى، وفوقها بناء مربع عال يظهر أنه برج قديم وفي أعلاه عقود نافذة، ويسمى "برج العلمين"، وقيل لنا إنه يرجع إلى عهد المسلمين.

وتسمى الكنيسة العظمى كنيسة "سانتا ماريّا"، وهي صغيرة الحجم ذات عقود كعقود الجامع، وترجع إلى القرن الخامس عشر، وهي بسيطة قليلة الزخارف، ولها تحفظ صورة قديمة للعدراء، كان ألفونسو السادس ملك قشتالة يحملها معه في حروبه ضد المسلمين، في أواخر القرن الحادي عشر. وظاهر من موقع الكنيسة أنها ربما كانت تحتل موقع الجامع القديم.

PDF Eraser Free



وادي الحجارة. القنطرة العربية على نهر هنارس
(القرن العاشر إلى الحادي عشر)



وادي الحجارة. برج العلمين وبقية الأسوار الأندلسية

PDF Eraser Free

وتقع كنيسة سان فرنسكو في طرف البلدة على ربوة مرتفعة، على مقربة من الكنيسة العظمى، ويقال إنها ترجع إلى عهد المسلمين، وربما كانت تقوم أيضاً فوق موقع أحد المساجد.

ويوجد إلى يسار هذه الكنيسة بناء هو عبارة عن برجين مستديرين بينهما سور طوله نحو ثمانين متراً، ويعرف هذا البناء بـ"براج" "البرفانيس" ففتح المدينة، وربما كان النصارى قد أنشئوها فوق أنقاض القسبة العربية القديمة، يرجح ذلك الفرض موقعها في نهاية المدينة، وفي طرف الربوة المطلّة على الوادي.

كذلك توجد كنيسة القديس نيقولا، وهي كنيسة صغيرة ذات عقود وقبة على طراز الجامع، وهي تقع في وسط المدينة.

ويوجد في وادي الحجارة صرحان كبيران يرجعان إلى القرن الخامس عشر، من طراز منجني يسمى أحدهما "كصر مندوسا".

كما توجد القنطرة العربية القديمة فوق نهر هنارس، وقد بقي من عقودها الأربعة عقدان من عهد الإسلام.

ويبدو من تأمل الدروب والأحياء التي تقع حول الكنيسة العظمى، أن المدينة الأندلسية كانت تقوم فوق هذه الرقعة، صاعدة نحو الربوة التي تقع عليها كنيسة سان فرنسكو في طرف المدينة، وممتدة من الناحية الأخرى حتى القنطرة.

٧ - مدريد

Madrid

إن مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة ليست من العواصم القديمة. ولم تكن مدينة أندلسية، ولكنها مدينة باسمها وموقعها من الناحية التاريخية إلى بلدة أندلسية صغيرة، أنشأها المسلمون في أواسط القرن التاسع الميلادي، هي "مجريط" Magerit أو كما ينطقها الإسبان مخريط.

وكانت مجريط محلة صغيرة، أمر بإشتائها الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس (٨٥٢ - ٨٦٦ م)، حوالي سنة ٨٦٠ م، واختطت فوق سطح جبل وادي الرملة Guadaramma شمالي طليطلة، وجنوب غربي وادي الحجاره، في منطقة الحصون الدفاعية، وبُنيت بها قلعة منيعة، مشرفة على الضفة اليمنى لنهر منشارس، أحد أفرع التاجه، لتعاون في رد غارات النصارى. من ناحية الثغر الأعلى، كما أقيم بها مسجد جامع، وقامت حولها بلدة إسلامية صغيرة.

ويذكر المؤرخون والجغرافيون المسلمون "مجريط"، ويصفونها بأنها مدينة صغيرة وقلعة منيعة، ويصفون حصن مجريط بأنه من "الحصون الجبلية"^(١).

وكانت أهمية مجريط في عهدها الإسلامي تنحصر قبل كل شيء في قيمتها الدفاعية. ومع ذلك فقد كانت مجريط في ذلك العهد بلدة زاهرة، وكانت موطناً لبعض علماء الثغر الأوسط، ومنهم المحدث سعيد بن سالم التغرّي المتوفى سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م)، وكذلك ينتسب إليها العلامة الفلكي الأندلسي، أبو القاسم مسلمة المجريطي القرطبي المتوفى في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م).

ولبثت مجريط زهاء قرنين ونصف قاعدة دفاعية أمامية، تؤدي دورها الهام في الحروب التي تشب بين المسلمين والنصارى في منطقة وادي الحجاره، وكانت في أواخر عهدها الإسلامي من أعمال ממكة طليطلة، أيام بني ذي النون، وكانت محور كثير من المعارك التي دارت في ذلك الوقت بين المأمون بن ذي النون ملك طليطلة، وبين ألفونسو السادس ملك قشتالة، وانتهت آخر الأمر بسقوطها في يد ألفونسو السادس في سنة ٤٧٦ هـ.

^(١) راجع معجم ياقوت تحت كلمة (مجريط)، وكذلك الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٧٩ - ١٨١.

PDF Eraser Free

(١٠٨٣ م)، قبل استيلائه على طليطلة بنحو عامين، وقد هدم مسجدها الجامع، وبُنيت فوق

موقعه كنيسة عُرفت فيما بعد بكنيسة سيدة المدينة Nuestra Sra. De Almedina.

ثم اتخذ بعض ملوك قشتالة من هذه المحلة مركزاً للصيد والتتزلج، وذلك لجمال موقعها، وطيب هوائها، وأقام الملك هنري الرابع مكان القلعة الإسلامية Alcázar قصراً للصيد، وجاء الإمبراطور شارلكن فعلى بتوسيعه وتجميله، وكان ينزل فيه من آن لآخر، واشتهرت مجريط وسهلها المسمى "البارود"، يومئذ بأنها أجمل منتج للصيد والتتزلج، وأخيراً جاء ولده الملك فيليب الثاني فتخذ مقرّاً لبلاطه، وذلك أثناء قيامه بإنشاء قصره العظيم "الإسكوريال" Escorial في بقعة تقع على مقربة من مدريد، وكان ذلك قى سنة ١٥٦١ م. ومن ذلك التاريخ تغدو مجريط، أو مدريد وفق اسمها الحديث الذي تطور إليه الاسم القديم، مقر البلاط ومقر الحكومة، وتغدو عاصمة لإسبانيا.

وهكذا ولدت مدريد العاصمة الإسبانية، واستقرت مكان أمها العربية الأندلسية مجريط، وهي تغدو اليوم بشوارعها وميادينها الفسيحة، وصروحها الفخمة العديدة من أجمل العواصم الأوروبية. وقد خلفت الملكية في مدريد ومن حولها كثيراً من الصروح والمنشآت الباذخة التي تضفي عليها مسحة ساحرة من الروعة والجلال.

وبعنى أولو الأمر غاية خاصة برواء العاصمة الإسبانية وتجميلها، ويعتبر شارع "جران بيا" Gran Vía، أو "خوسيه أنتونيو" أعظم شوارعها التجارية والاجتماعية؛ ففيه أشهر المتاجر والفنادق والمسارح والمقاهي ودور الأعمال، وفي نهايته من ناحية "ميدان إسبانيا" يقع "صرح إسبانيا"، وكان إلى أعوام قلائل أعظم وأعلى بناء في العاصمة الإسبانية، ويحتوي على ست وثلاثين طبقة^(١)، وأمامه الحدائق التي يتوسطها أثر الكاتب الإسباني الأشهر "ميجيل ثرقتس"، ويلي "الجران بيا" في الأهمية شارع "مايور" (الشارع الكبير) الذي تقع من ورائه مدريد القديمة بأحيائها العتيقة وشوارعها الضيقة، وشارع "الكالا" Alcála (القلعة) وكلاهما يتفرع من ميدان "باب الشمس" P. del Sol في اتجاهين متقابلين. وهذا الميدان القديم الذي تقع دار البلدية في أحد جانبيه، يكاد يكون قلب مدريد النابض الذي يوزع مجمل الحركة على شوارعها الكبرى، ويتفرع منه عدة شوارع أخرى صاعدة كلها، من ناحية نحو "الجران بيا"، وعدة أخرى من الناحية الأخرى صاعدة كلها نحو أحياء مدريد الشعبية. وشارع "الكالا" هو شارع البنوك وبعض الوزارات، ويمتد حتى حدائق الريترو، ثم ينحرف بعدها إلى مسافة طويلة. وحدائق الريترو El Retiro هذه تفاخر بها مدريد أعظم الحدائق الأوروبية؛ وقد تفضل حدائق فرساي روعة واتساعاً، ويمتد قبيل الريترو، بهذا الكالا، شارع آخر من شوارع

^(١) وقد قام في الأعوام الأخيرة أمام "صرح إسبانيا" صرح جديد أعلّى منه بعدة طبقات.

PDF Eraser Free

مدريد الكبرى هو شارع سرائو. بيد أن أعظم وأطول شوارع مدريد، وأبدعها تخطيطاً هو طريق "كاستيلانا" Castellana الذي يشق العاصمة الإسبانية من الوسط، وتقوم في وسطه المنزهات المستطيلة الرحبة، وتتخلله عدة ميادين فخمة ذات نوافير تاريخية بديعة. وأهم هذه الميادين وأجملها ميدان ثيبس Cibele الذي يقع في منتصفه، والذي تشرف عليه دار البريد العامة بأبراجها القوطية الرشيقة، وهي من أجمل صروح مدريد الحديثة. ومن أعظم وأشهر صروح مدريد قصر المشرق "لورينتي" وهو مقر رئيس الدولة، والقصر الملكي السابق (قصر بارنو)، ومتحف البرادو الشهير، والمتحف الأركيولوجي، والمكتبة الوطنية، ودار البرلمان (الكورتيس)، ومسرح مصارعة (الثيران) (الكوريدا)، والجامعة الجديدة، وكثير غيرها.

ويقع القصر الملكي السابق Palacio Real في غربي المدينة، فوق مرتفع يشرف على نهر منثارس، وقد بنى في أواخر القرن الثامن عشر، على موقع قلعة مجربط الإسلامية القديمة، مكان قصر الصيد السابق.

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن العاصمة الإسبانية لذاتها، ولا أن نصف خططها ومنشأتها، ولكننا نريد فقط أن نتحدث عما تحتويه متاحفها من الخاثر التي تتعلق بتاريخ الأندلس وحضارتها.

ففي متحف مدريد الحربي، الواقع على مقربة من متحف البرادو، توجد قاعة صغيرة خصصت لبعض الآثار الأندلسية، وتكاد تنحصر هذه الآثار في قطع ثلاث، ترتبط كلها بملادة سقوط الأندلس.

١- وأولى هذه القطع صورة مكبرة لإقرار بالعربية، كتبه أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بخطه، بالموافقة على نصوص آخر معاهدة للتسليم، عقدها مع الملك فرديناندو الكاثوليكي وزوجه الملكة إيسابيلا فاتحي مملكة غرناطة، وأمضاء بتوقيع (محمد بن علي بن نصر) وبصممه بخاتمه. وتاريخ هذه الوثيقة المؤثرة هو ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ (الموافق ٧ أغسطس سنة ١٤٩٣ م) وبلى هذا القبول ترجمته بالقسطنطينية (الإسبانية).

وهذا هو نص الإقرار المذكور: "الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافي أنا الأمير محمد بن علي بن نصر خديمكم وصلاتي من مقامكم العلي العتيد وفيها جميع الفصول الذي عقدها علي وبكم التتديم من خديمي القائد أبو القاسم المليخ، وصلت بخط يدكم الكريمة عليها وبطابعكم العزيز كيف هيت مذكورة بهذا الذي تصلكم. وإني نوفي ونحلف أني رضيت بها بكلام الوفا مثل خديم جيد. وتكرى هذا خط يدي وطابعي أرقية عليها لتظهر صحة قولي. ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعين وثمانمائة، أنا

PDF Eraser Free

كاتبه محمد بن علي بن نصر رضىت وقبلت جميع ما في هذا المکتوب الثابت وتقبل بيدي إلى أضيافي السلطان والسلطانة مذلي هذا كما^(١).

وتنص هذه المعاهدة التي مهرها أبو عبد الله بقبوله المتقدم، على تعهده بأن يغادر الأندلس بصورة نهائية، وأن يعبر إلى المغرب في موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣، وأن يتنازل عن سائر ضياعه في الأندلس وغيرها بالبيع للملكين الكاثوليكين، نظير ثمن إجمالي قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشالي (كاستيلانيو). وقد كتبت المعاهدة المشار إليها باللغة القشتالية، وهي محفوظة بذل المحفوظات العامة في سيمانكا^(٢).

٢- وإلى يمين هذا الإقرار الملئ بالعبر المؤلمة تعرض العبادة الملوكية التي تنسب إلى أبي عبد الله، وهي عبادة نصفية من المخمل أرجولية اللون، وعليها نقوش عربية جميلة بيضاء. وقد كتب تحتها أنها عبادة أبي عبد الله Capa de Boabdil، وأنها أهديت إلى المتحف من أسرة المريكزة ماريانا دل كارمن بيرث Doña Carmen Perez Vanidas y Berry.

وإذا صح حقيقة أنها عبادة أبي عبد الله، فأغلب الظن أنها أخذت منه في معركة حصن السمالة، التي وقعت بين المسلمين والنصارى في إبريل سنة ١٤٨٣، قبل سقوط غرناطة بعدة أعوام، وقاد فيها قوات المسلمين أبو عبد الله وهو يومئذ سلطان غرناطة القوي، وقد أسر فيها أبو عبد الله، وقضى في أسره في بلاط الملكين الكاثوليكين زهاء ثلاثة أعوام، وربما أخذ منه سلاحه وثيابه الملكية يومئذ عنواناً لظفر النصارى وتذكراً من هذا الأسير الملكي الكبير.

٣- وثالثة هذه التحف، سيف أندلسي ضخم بمقبض ثمين مموه بالذهب، ومرفوم بأنه سيف علي العطار Aliatar.

وهذا السيف هو تذكار بطولة أندلسية خالدة، فقد كان صاحبه الأمير علي العطار قائداً بطلاً، من أبطال الصراع الأخير بين المسلمين والنصارى، وكان يرتبط بمملك غرناطة السلطان أبي عبد الله برباط المصاهرة، إذ كان السلطان متزوجاً بابنته الحناء مريم، وقد أبدى علي العطار بسالة نادرة في الدفاع عن مدينة لوشة، التي كان قائداً لحاميتها حينما هاجمها النصارى في يولييه سنة ١٤٨٢، وكان يومئذ في الثمانين من عمره، ولكنه كان بالزعم

^(١) حصلنا أثناء بحوثنا في قلعة سيمانكا (ثلاث ملكات) على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة وقد نشرنا

محتوياتها في كتابنا "نهاية الأندلس" (طبعة الثانية) ص ٢٦٢ و ٢٦٣

PDF Eraser Free

من شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان الأندلس. وقد أخذ هذا السيف منه في معركة اللسان التي خاضها ضد النصارى مع أبي عبد الله وأسر معه فيها^(١).

وإلى جانب هذه الذخائر الثلاث، يوجد أيضاً في المتحف الحربي درعان يقل إثنين كانا لأبي عبد الله كما توجد مجموعة من قطع النقد الأندلسية، ترجع إلى عصور عبد الرحمن الناصر، والزهراني، والمستنصرية، والمنصور.

متحف بلنمية دي دون خوان

يضم هذا المتحف الصغير الواقع في شارع فرنونى، والذي يضمه بناء عربي أنيق، مجموعة ثمينة جداً من اللوحات والشواهد الرخامية الأندلسية، والزخارف العربية، والأواني الخزفية الأندلسية والمجنية، وقطع البسط الأندلسية، وهي تشغل معظم قاعاته.

ومن الأسف أنه لا يوجد لهذا المتحف دليل مفصل شامل يقوم بالتعريف عن محتوياته، ولم توضع على محتوياته بيانات إيضاحية. وقد أنفقنا في البحث فيه ساعات طويلة نستقري ذخائر الأندلسية، وإليك بعض ما لفت نظرنا من هذه المحتويات:

١- عدة لوحات رخامية من شواهد قبور، مختلفة الأحجام والتواريخ، قد صيغ معظمها في أساليب مشابهة، وافتتح معظمها بالآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾، هذا قبر... إلخ^(٢).

بيد أنه قد لفت نظرنا منها شاهدان كتب كلاهما بلسان مختلف أولهما لوحة رخامية حجمها ١,٥٠ × ٠,٢٣ مترًا، وقد نقل فيها ما يأتي:

كفن بهذا القبر رجل من أهل الخير: أبو فارس عبد العزيز بن الشيخ المرحوم محمد بن زيد البلنسي سنة تسعة وعشرين وسبعمائة رحمة الله عليه وكتب هذه فطّل وحاج عنه نفعه الله به وببركة رطاه. وقد وجدت هذه اللوحة في مدينة المرية.

والثانية لوحة رخامية كبيرة حجمها ١,٧٥ × ٠,٨٠ مترًا وقد وجدت بمدينة طرناطة، ونقل عليها هذا النعي البليغ المؤثر:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله، هذا قبر الشاب الفقيه الأجل المري الأفضل الأبرع الأخصل المرحوم أبي جعفر بن شبرين رحم الله شبيهه، وروى بماء

^(١) نشرنا صورتي العبادة والسيف في المجموعة الخاصة بالكتاب الرابع

^(٢) راجع: Lévy – Provençal; Inscriptions Arabes d'Espagne للوحات رقم ١٢٢، ١٢٤، و ١٢٥.

PDF Eraser Free

الرحمة تراه، لما نشوت منه الركب إلى كفوها، ووليت منه مقعد حلوها، واليراع إلى مجيل أفراسها، والرقاع إلى راقش أطراسها، دعاه داعي الأجل، فحث سبيله بأقصى العجل، وعاق هلاكه عن التمام، صرف الحمام، وبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام، وكان بسبب وفاته رحمه الله بفرس قيص لحينه، فأكل المجد، ومحاقرة عينه، فباله من بدر عدا عليه الراح، وشهاب اقتران يهتدي به اللاح، أجزل الله بمصابه ثواب والديه، وجعل له من صالح العمل نوراً يسعى خلفه وبين يديه، وك في ظهر يوم الاثنين الرابع وعشرين لصفو أربعة وعشرين وسبعمائة وتوفي في أول يوم الأربعاء السادس عشر لذي حجة اثنين وأربعين وسبعمائة.

٢- صندوق صغير مستطيل من مخلفات مدينة الزهراء. نقش على جوانبه ما يأتي:
”بسم الله بركة الله وبمن وسعاده وسرور لأحب ولادة مما عمل بمدينة الزهراء سنة خمس وخمسين وثلاث مئة عمل خلف“.

٣- زلعة أو جرة كبيرة من الخزف بوجه مذهب، ونقوش كوفية وعربية، على مثل زلعة الحمراء، وقد نقش على عنقها مكرراً ”اليمن والإقبال“.

٤- لوحة من الخزف المذهب حجمها نحو متر في نصف متر، وقد كتب على جوانبها الأربع هذه العبارة ”عز لمولانا السلطان أبي الحجاج الناصر لدين الله“، وقد كتب عنها في الدليل الموجز الذي عمل عن بعض محتويات المتحف، أنها وجدت في حي البيازين بغرناطة.

٥- قطعة من الخزف المزخرف ظاهر أنها جزء من لوحة كبيرة، وقد نقش عليها ”الملك الدائم، عز القائم“.

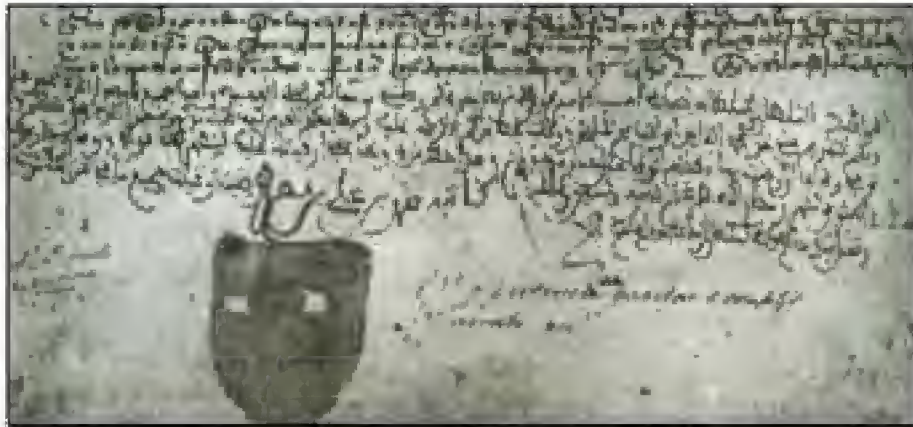
٦- قطعة من قماش مستطيلة طولها متر ونصف وعرضها ثلاثون سنتيمتراً مذهب الحواشي، وفي وسطها رقعة سوداء كتب عليها بخط مذهب باهت ”ولا غالب إلا الله“ عدة مرات.

٧- قطعة من سجاد مستطيلة ضيقة طولها متر ونصف وعرضها ١٥ سنتيمتراً وعليها كتابة مكررة ”سلطان أيده الله بالسعد والفتح والنصر، لمولانا عمدة ملوك الأرض فتى اليمن... إلخ“.

٨- عدة قطع أخرى من سجاد عليها نقوش مختلفة مثل ”عز لمولانا السلطان“ وغيرها.

٩- عدد كبير من الأواني الخزفية الجميلة، المنجنية والموريسكية ذات الألوان الزاهية.

PDF Eraser Free



متحف مدريد الحربى- إقرار لىي عهد الله آخر ملوك الأندلس
يقبول معاهدة التسليم الأخيرة



متحف مدريد الوطنى. قنديل برونزى
من مخلفات جامع الحمراء



متحف مدريد الوطنى. زخارف
قطعة من البسط الأندلسى

المتحف الوطني

ويضم متحف مدريد الوطني أو الأركيولوجي، قسمًا كبيرًا للآثار الأندلسية والمجانية والموريسكية. ويضم بالأخص لوحات وقطعًا زخرفية عديدة، من مخلفات الصروح والقصور الأندلسية المختلفة، وبه كذلك عدد من شواهد القبور، رأينا من بينها شاهد قبر الأمير أبي محمد سير بن أبي بكر اللموني، القائد المرابطي الشهير والمتوفى سنة ٥٣٧ هـ؛ وشاهد قبر الوزير أبي عمران موسى بن الأريق الفهري، قائد ابن مردنيش المتوفى سنة ٥٦٦ هـ. وإليك بعض ما لفت نظرنا من محتوياته الأندلسية:

١- لوحة رخامية تذكارية سجل بها إنشاء الخليفة الحكم المستنصر بالله لأحد أبراج حصن بجية جيان على النحو الآتي:

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بينان هذا البرج عبد الله الحكم المستنصر بالله، أمير المؤمنين أطال الله بقاءه على يد مولاه وقائده ميسور بن الحكم فتم وكمل بحول الله وتأييده وذلك في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وثلاث مائة^(١).

٢- صندوق مربع الشكل من مخلفات إسماعيل بن ذي النون الظافر، صاحب طليطلة، نقش على جوانبه الأربع ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم بركة دائمة ونعمة شاملة وعافية باقية وخطبة طائلة وآلاء متتابعة وعز وإقبال وإلعام واتصال وبلوغ آمال لصاحبه أطال الله بقاءه مما عمل بمدينة قونكة بأمر الحاجب حسام الدولة أبي محمد إسماعيل بن المأمون ذي المجدين ابن الظافر ذي الرياستين أبي محمد بن ذي النون أعزه الله في سنة إحدى وأربعين وأربع مائة عمل عبد الرحمن بن زيان^(٢).

٣- صندوق صنع برسم المعز لدين الله الفاطمي، وعلى وجهه العاجي نقش هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معذ أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وذريته الطاهرين مما أمر بعمله بالمنصورية المرضية صنعه أحمد الخراساني^(٣).

٤- قطعة من قميص حريري مزركش بالذهب، من مخلفات الخليفة هشام المؤيد بالله وقد كتب عليها ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الإمام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين^(٤).

^(١) هذا نص من التحف الأندلسية، ولكنه وجد في بعض النسخة التي جلبت على مقربة من بلدة باليسا بقتنقة.

PDF Eraser Free

٥- طشت وضوء من مخفك المنصور بن أبي عامر (الحاج المنصور) نقش عليه ما يأتي:
".. المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله مما أمر بعمله بقصر الزاهرة
فتم بعون الله وحسن تليده على يدي.. الفتى الكبير العامري سنة وسبع وسبعين [وثلث مئة]".
هذا وقد رأينا فضلاً عما تقدم في هذا القسم الزاخر بالآثار والذكريات الأندلسية، بلها
عريباً مزخرفاً من صنع المنجني، وزلعة كبيرة بنقوش بدیعة مذهبة على مثل زلعة الحمراء،
وقطعا خزفية غرناطية ترجع إلى القرن الخامس عشر، وقطعا خشبية عليها نقوش عربية
مختلفة قرآنية وغيرها، وأتية مختلفة من الخزف المذهب، ترجع إلى عصر الملوك
الكاثوليكين، وعصر الموريسكيين في القرن السادس عشر، وعليها نقوش وصور بدیعة،
وأطرافاً وأتية مذهبة رائعة الصنع ترجع إلى نهاية عصر الموريسكيين.

متحف لازارو

ورأينا في متحف لازارو صندوقين صغيرين من الخشب، يبدو أنهما من صنع منجني
أو موريسكي، وأولهما يبلغ حجمه نحو ٤٠ × ٦٠ سنتيمتراً، وخطاؤه شبه منحرف، ويبدو أنه
موريسكي الصنع، وقد نقش عليه صور شيوخ على رؤوسهم "كاب" تشبه العمامة وتيجان،
وثانيهما في حجم الأول تقريباً، وقد زينت جوانبه بصور الأزهار، ونقشت عليه عبارات
عربية قرأنا منها ما يأتي: "البركة والسعادة" مكررة، تتخللها صور طواويس غير متقنة.

المكتبة الوطنية

ويضم قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية، طائفة من المخطوطات العربية،
ليس بينها كثير من المخطوطات ذات القيمة الخاصة، ومعظمها منقول عن مخطوطات
"الإسكوريال"، وهي مذكورة في الفهرس الخاص بها، ولهذا لا نرى مجالاً للبحث عنها هنا.
وتوجد في قسم "المحفوظات التاريخية" Archivos Históricos الملحقة بالمكتبة
الوطنية، مجموعة من الوثائق العربية، نقلت إليه من دير سان كلمنتى في طليطلة، وهي عبارة
عن عقود بيع وشراء وهبة وغيرها، عقدت بين المسلمين والنصارى أو بين النصارى
وحدتهم، ومعظمها يرجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. وقد حصلنا على
صور فوتوغرافية لعدد منها^(١).

(١) نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسباني الكبير جولفانت بنشبا مفرونة يراجها الإسبانية في

أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان: Los Mozarabes de Toledo en los Siglos XII y XIII

(Madrid 1926 - 1930)

PDF Eraser Free

الكتاب الخامس ليون وجليقية والأسترياس

١ - شنت ياقب

Santiago

إنها أسطورة من أروع الأساطير الدينية، تلك التي تحيط بنشأة مدينة شنت ياقب أو شنت ياقوب، أو شنتياغو Santiago، وبالدور العظيم الذي لعبته في تاريخ مملكة جليقية، وفي حضارتها في العصور الوسطى.

وتقع هذه المدينة الدينية الثالثة في واد خفيض، تواجهها التلال، ومن حولها بسائط بلعة، في الركن الشمالي الغربي من إسبانيا، وفي جنوب غربي ثغر لاكورنيا La Coruña، على مقربة من المحيط الأطلسي. وهي عاصمة ولاية جليقية القديمة، والطبيعة في جليقية بالرغم من عبوسها وخشونتها، أجمل ولهج منها في بقاع كثيرة في إسبانيا. وبالرغم من أنها ليست سهولاً وبساتين متصلة، بل تتخللها التلال والمرتفعات الكثيرة، إلا أنها على العموم خضراء جميلة متنوعة، وبها غابات من مختلف الأشجار، وكذلك الطبيعة في جليقية، تشبه سفوح الألب في النمسا وسويسرة، من حيث تنوعها وخضرة هضابها. والبساتين هنا خصبة جداً، والمياه موفرة لكثرة تساقط الأمطار في هذه المنطقة.

ومدينة شنت ياقب (سنتياجو) من أعجب وأجمل المدن الإسبانية، ذات طابع خاص بها. وهي لشدة المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص. وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار. وهي تبدو بشوارعها المعقودة المرصوفة بالبلاط الضخم، وميادينها التي تظللها الصروح التاريخية، مدينة قديمة عريقة حقاً، وأروع ما تقع عليه العين كنسبتها العظمى، التي تقوم في وسطها، وتبدو بواجهاتها الفخمة، وصرحها الشامخ، وبرجها العظيم، ثراً من أعظم الآثار الدينية. ويخترق المدينة من الشرق شارعان كبيران كلاهما ذو عقود حجرية من الجانبين، أولهما شارع قليار Rua del Villar، المؤدي إلى ميدان الكتدرائية، وهو من أهم شوارعها التجارية، وثانيهما الشارع الجديد Rua Nueva، وهو يسير محاذياً للأول ويؤدي إلى ميدان سان بلايو، وهما بلاييب من أقدم شوارع المدينة إن لم يكونا أقدمها على الإطلاق.

ومعظم صروح المدينة وأهمها الصروح الدينية، من كنائس وأديرة وقصور أسقفية، ترجع إلى القرن الثاني عشر والثالث عشر، ولكنها تسبق على المدينة طابع العراقة والقدم، فهي حقاً مدينة من مدن العصور الوسطى، لم تخلع عنها شيئاً من خواصها.



وبالرغم من الألق الذي يغمرها، فإن شنت ياقب مدينة كثيرة الحيوية، ذات حركة تجارية وصناعية كبيرة، وهي فضلاً عن منتجاتها الزراعية الوفيرة، تنتج الأقمشة والورق والخمور وغيرها، ويلاحظ فوق ذلك أن حوانيتها خاصة بالأثنية الفضية المزخرفة، والتذكريات المقدسة من صور وتمائيل وصلبان وغيرها، ويبلغ سكانها ثمانية وعشرين ألف نفس.

ويجدر بنا قبل أن نعرض إلى معالم شنت ياقب الأثرية، أن نذكر ملخص الأسطورة الدينية التي كانت سبباً في إنشائها، والتي جعلت منها كعبة الحجاج طوال العصور الوسطى.

شنت ياقب. شارع قليل المعقود الجواب

إن شنت ياقب هو القديس يعقوب أو يعقوب الحواري، وتذكر الأسطورة أنه قتل شهيداً بأمر هيرودس، فحمل تلاميذه جثته في مركب، جازوا به البحر الأبيض إلى المحيط، ثم حملتهم الرياح شمالاً حتى فتتوا إلى موضع في قاصية جليقية، ودفنوا جثمان القديس في سطح شلال هنالك. ومضت العصور وفاض القبر ولم يعلم مكانه، حتى كانت سنة ٨٣٥ م، حيث زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر، هداه إليه ضوء نجم، فذاعت الأسطورة في الحال، وصدقها المؤمنون دون تردد، وهرعوا إلى البقعة المقدسة، وأنشئت فوقها كنيسة، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة، وحدثت هي مدينة شنت ياقب المقدسة Santiago de Compostela، وكلمة Compostela المضافة إلى اسم المدينة مشتقة من اللاتينية Campus Stellae أي "سهل النجمة"، إشارة إلى النجم الذي اعتدى الأسقف بنوره في اكتشاف القبر. وكان لوقوع هذا الحادث، وقيام هذه المدينة المقدسة، أثر كبير في إذكاء الحماسة الدينية والعاطفة القومية الإسبانية، ولذا "القديس ياقب" حامي إسبانيا كلها، ولذا قبره من أشهر المزارات النصرانية في سائر أوروبا.

PDF Eraser Free

ويعلق العلامة ألتاميرا على هذا الحادث الديني بقوله: "وقد بحث هذا الاكتشاف في النصراني فيما سرور، وانتظمت وفود عظيمة جاءت لتحج إلى القبر، لا من الأراضي الإسبانية وحدها، ولكن من الخارج أيضاً. وهكذا بدأ تيلر من الزيارات والمؤثرات الأوربية في جليقية. وكان لها أعظم تأثير في العادات والآداب"^(١).

وكانت شنت ياقب عاصمة عصرًا خاصمة لمملكة جليقية النصرانية، قبل أن تنقل إلى ليون. ولم تصل الغزوات الإسلامية إلى ذلك الركن الثاني من هضاب جليقية، إلا في عهد الحاجب المنصور. ففي سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) قام المنصور بأعظم غزواته في شمال شرقي إسبانيا، وتابع زحفه المظفر حتى جليقية، وقصد مدينة شنت ياقب، فافتحمها وهدم كنيسة العظمى، وصروحها. ولكنه احترق قبر القديس فلم يمسسه الجند المسلمون بسوء. وعاد المنصور إلى قرطبة متقللاً بالغنائم، ومنها عدة من أبواب صروح شنت ياقب الفخمة، جعلت أبواباً للمسجد الجامع بقرطبة، وكان هذا آخر عهد الجيوش الإسلامية بتلك الأندلس.

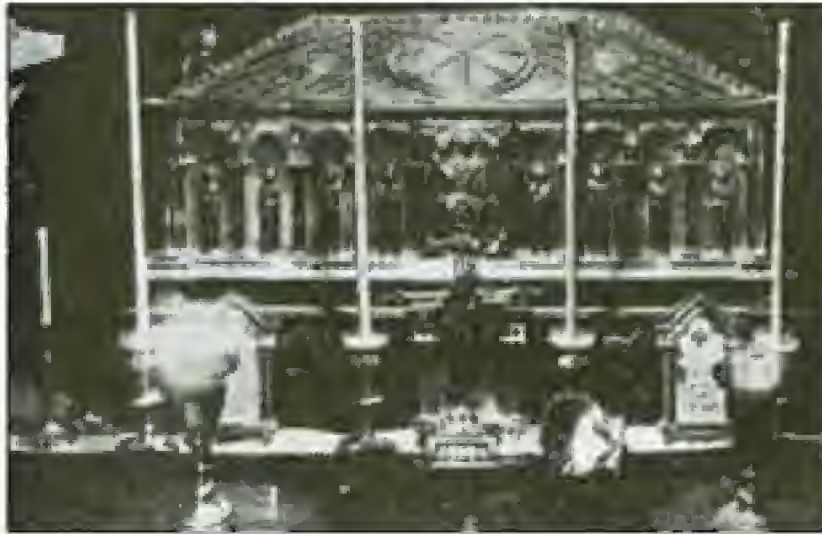
* * *

ولنعرض الآن إلى معالم شنت ياقب الأثرية، فنقول إن أعظم صروحها هو بلا ريب كنيسة العظمى، أو الكاتدرائية، التي تضم في داخلها قبر القديس يعقوب، وهي من أعظم كنائس إسبانيا ضخامة وروعة، تقع فوق مرتفع يحيط به ثلاثة ميادين كبيرة، ويطل مدخلها الرئيسي على ميدان إسبانيا. وهو مدخل قوطي شاهق رائع الفخامة، نقش عليه شعار قشتالة، ومن حوله وفوقه عمد وزخارف بدیعة. وقد بُدِيَءَ بتشييد هذه الكنيسة العظيمة في سنة ١٠٨٢ م، واستمر العمل فيها حتى سنة ١٢١١ م، وكان الأسقف ديجو خلميريث D. Gelmirez الذي تولى الأسقفية في سنة ١١٠٠ م، من أعظم العاملين على توسعتها وزخرفتها. واستصدر المراسيم البابوية بالتميز لها. وتأکید مركزها الخاص. وفي عصره تقاطرت وفود الحجاج من سائر أنحاء النصرانية على شنت ياقب. حتى قيل "إنه لم تكن لغة أو لهجة لم تَرَنَّ أصواتها هناك".

PDF Eraser Free



شنت ياقب. الكنيسة العظمى



شنت ياقب، قبر القديس ياقب (يعقوب) الرسول

وقد بنيت كاتدرائية شنت ياقب، على شكل صليب لاتيني عائل، يحتوي كل ضلع من أضلاعه على عدة عقود قوطية شائعة، وفي معقده الهيكل الأعظم الذي يعلو قبر القديس، ولأروقته الوسطى التي تعلو العقود، واجهات معقودة على مثل عقود الجامع، وهي بادية القتم والزوجة، وفي عقب الكنيسة عند طرف الصليب الأفقي، توجد الواجهة الداخلية المسماة "مشرقية المعبد" Pórtico de la Gloria وهي عبارة عن أربعة أبواب، الأول والرابع عقدان والأوسطان غير معقودين، وقد نقش عليها صور القديسين، وزينت بأعمدة رومانية جميلة، وهي ترجع إلى القرن الثاني عشر.

ويقع قبر القديس ياقب تحت الهيكل الأعظم، في سرداب يمتد على طوله، ويدخل إليه من الجانبين، وهو من الرخام وعليه حلية كبيرة من الفضة، صنعت على شكل مخروط، ويحج إليه المؤمنون ويجثون أمامه بمنتهى الخشوع والإجلال، ويستمطرونه البركة والرعاية. وتوجد في متحف الكاتدرائية مجموعة نفيسة، من سجاجيد زينت بصور جويسا وموريليو وغيرهما، من أعظم المصورين، وترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وإلى جوار الكاتدرائية من ناحية ميدان إسبانيا، يقع القصر الأسقي القديم المسمى قصر خامريث، وهو قصر صخري عتيق، يرجع إلى أوائل القرن الثاني عشر، وله بهو سفلي ذو عقود عالية، وفي أعلاه بهو سمائل ذو عقود قوطية.

وتغص مدينة شنت ياقب بالكنايس والأديار القديمة، وقد زرنا منها فضلاً عن الكاتدرائية، كنيسة "ماريا سالومي" وهي كنيسة صغيرة تقع في الشارع الجديد، وكنيسة سان بلايو وهي صغيرة ذات عقدتين متقابلين، وقبة كبة الجامع، ودير كنيسة سان مرتين. ويرجع هذا الصرح إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، والكنيسة فخمة كثيرة الزخارف المذهبة

PDF Eraser Free

في هياكلها الثلاثة. وهيكلها الأعظم قطعة رائعة من الزخرف والتماثيل الصغيرة المقدسة. ويقع الدير أو المعهد الديني إلى جانبيه، وله صحن كبير ذو عقود على نمط العقود العربية. وفي شنت ياقب جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية، أنشئت بمقتضى مرسوم بابوي أصدره البابا جوليوس الثاني سنة ١٥٠٤ م، في عهد الملك فرديناند الكاثوليكي، وبها اليوم كليات الطب والعلوم والحقوق والآداب، وتحتل كلية العلوم بناءً أثرياً هو دير فونسكا القديم، وله صحن معقود يرجع إلى عصر الإحياء.

ومن معالم شنت ياقب الأثرية منزل الملوك الكاثوليكين Hospicio de los Reyes Católicos، وهو يقع في الميدان الكبير (ميدان إسبانيا)، الذي تطل عليه واجهة الكاتدرائية الرئيسية، وقد بُدِيَء بإنشائه في سنة ١٥٠٤ م ليكون فندقاً لإيواء الحجاج القادمين من سائر الأنحاء إلى المدينة، ثم حول فيما بعد إلى مقام ملكي ثم إلى مستشفى. ولكنه أعيد اليوم إلى فندق أرستقراطي فخيم. ولقد جُيِّدَ إيهاء هذا الصرح الأثري وأروقته، وشهدنا ما اتخذ من استعدادات هائلة لتأثيثه وتجهيزه، فإذا به اليوم من أروع فنادق العالم. وقد حُولت إيهاء الملوكية القديمة إلى إيهاء للطعام. وهو يضم ثلاثة أفنية كبيرة، ذات عقود قوطية ونوافير أثرية، ومصلى ملكياً فخماً. وله باب أثري شاهق يرجع إلى القرن السادس عشر.

* * *

وبعد، فإن مدينة شنت ياقب هي بحق مدينة مقدسة. وهي تبدو بخطوطها القديمة، وشوارعها المعقودة، وكاتدرائيتها العظيمة، وكنائسها وأديرتها العديدة كأنها بيت مقدس آخرى، يغمرها الجلال والوقار، وتبعث إلى نفس الذين يتجولون في طرقها، وفي رحابها الدينية، شعوراً بالتأثر والخشوع، مهما كانت آراؤهم ومعتقداتهم.

٢ - ليون

Léon

تحتل مدينة ليون في تاريخ الأندلس أهمية خاصة، فقد افتتحها العرب في سنة ٧١٧ م. عقب افتتاح الأندلس بقليل، ولكنها لم تمكث في أيديهم سوى ربع قرن، وعند النصارى فاستردوها في سنة ٧٤٦ م. ولما نمت المملكة النصرانية الشمالية، واتسعت رقعتها، اتخذت مدينة ليون عاصمة لها منذ أوائل القرن العاشر، وحلّت عليها اسم مملكة ليون بدلاً من مملكة جليقية، وأصبحت مدينة ليون مركز الكفاح والمقاومة، في النصف الشمالي من شبه الجزيرة الإسبانية، لمملكة قرطبة الإسلامية.

وكانت مملكة ليون مقصد الحملات الإسلامية الغازية من آن لآخر. ولكن هذه الحملات قلما كانت تصل إلى مدينة ليون، لأنها ووقوعها في قاصية الشمال. وفي سنة ٩٨٤ م غزاها المنصور بن أبي عامر، واحتلتها الجيوش الإسلامية مدى حين. فلما توفي المنصور في سنة ١٠٠٢ م استرد النصارى المدينة، وكان هذا آخر عهدتها بالغزوات الإسلامية.

وتقع مدينة ليون على أحد أفرع نهر دويرة، فوق تلة مرتفع ولكن منبسطة المساحة. وهي مدينة ضخمة حديثة بكل معاني الكلمة، ذات شوارع كبيرة فسيحة Avenidas، وميادين شاسعة فخمة، تطلّ لها مبان حديثة، ترتفع أحياناً إلى ثماني طبقات أو عشر. وإذا استثنينا قسمها الداخلي، الذي يضم معالمها الأثرية، فإن مظهرها على العموم لا يخالف أي طابع يذكّرنا بماضيها، كعاصمة لمملكة ليون القديمة، وهي تخلو حتى من ذلك الطابع التاريخي القديم، الذي تحتفظ به مدن أخرى في شمال إسبانيا، مثل شنت ياقب (سانتياجو)، وبالرغم من أنها تضم عدداً من الصروح الأثرية، فإنها لا تحمل طابع القدم والتاريخ المؤثّل، وهي بذلك قد خلت نهائياً من طابع العصور الوسطى. وحدثت مدينة أوربية بكل معاني الكلمة.

وقد نمت ليون في نصف القرن الأخير نمواً عظيماً، وأصبحت مدينة تجارية وصناعية ذات شأن، وتضاعف سكانها حتى غدوا اليوم خمسة وستين ألف نسمة.

وتقع معظم معالم ليون الأثرية في قسمها الداخلي، وهو يبدأ من الباب المعقود المسمى باب بلايو P. de Pelayo. وتوجد عن يمين هذا الباب وعن يساره بقية من أسوار ليون القديمة، وهي على الأغلب من بقايا الأسوار الرومانية. كما أنه توجد في شمال المدينة وفي

PDF Eraser Free

شرقها أجزاء كبيرة من هذه الأسوار، وتبدأ بعد باب بلايو، شبكة من الشوارع والدروب الضيقة القديمة، ويفضي إحداها إلى الكنيسة أو الكنيسة العظمى.

وكنيسة ليون من أعظم وأروع الكنائس الإسبانية، ومع أنها لا تضارع كنائس



ليون. الكنيسة العظمى

طليطنة أو إشبيلية في الضخامة، فإنها لا تقل عنهما زخرفاً وجمالاً. ويرجع إنشاؤها إلى نهاية القرن الحادي عشر، واستغرق العمل فيها زهاء ثلاثة قرون، ولها مدخل قوطي فخم، قد بُنيت في أعلاه وفي جانبيه تماثيل الرسل. وصحنها الداخلي قوطي الطراز، وهو كثير الفخامة والروعة، وأهم ما يلفت النظر، نوافذها العديدة في الجانبين، وقد نظمت صفوفاً متعاقبة، وجهزت كلها بزجاج ملون ذي صور ورسوم ساحرة. ويلحق بها من الجانب الأيسر، صحن كبير معقود وبه متحف عظيم، رأينا فيه إنجيلاً عربياً مخطوطاً، يرجع إلى القرن السادس عشر، وآخر مطبوعاً يرجع أيضاً إلى قرنين أو ثلاثة.

ومن كنائس ليون الأثرية كنيسة سان إيزيدورو، وهي كنيسة قديمة يرجع إنشاؤها إلى أواخر القرن الحادي عشر، ولها واجهة عتيقة مزخرفة، ومنخل ذو عقد قوطي وأعمدة رومانية، وهي صغيرة الحجم، وصحنها الداخلي ذو عقود غالية، ومن فوق العقود تبدو مشارف الرواق الداخلي في طراز عربي معقود، وفي داخلها المدفن الملكي يضم توابيت عدة من ملوك ليون.

ومنها كنيسة ونير سان ماركوس، ويقع هذا الصرح خارج ليون في قسمها الحديث، وكان الذي وضع مشروعه الملك فرديناند الكاثوليكي فاتح غرناطة، ولكن الذي أنشأه هو حفيده الإمبراطور شارلكن، هو يتكون من دير قديم له صحن كبير معقود، وكان أيام إنشائه يستعمل نزلاً للحجاج، الذين يقصدون إلى مدينة شلت باقب المقدسة، وهو اليوم يستعمل متحفاً يضم طائفة من الآثار الحجرية والرومانية من تماثيل وغيرها، كما يضم عدة قطع من أبواب خشبية ذات نقوش منجنية. وتقع كنيسة سان ماركوس إلى جانب الدير، وهي كنيسة صغيرة ولكن جميلة الزخرف، وهي الآن مغلقة لا تستعمل للعبادة.

PDF Eraser Free

وتوجد في ليون بضعة كنائس أثرية أخرى وكذلك بعض القصور، مثل قصر آل
قرمان P. de los Guzmanes، وهو من أجمل قصور إسبانيا، ويرجع إلى القرن السادس
عشر.

ومن الواضح أنه لا توجد في مدينة ليون أية آثار أو ذكريات أندلسية؛ لأنها لم تخضع
لحكم المسلمين سوى فترة قصيرة، تلتها سلسلة من الغزوات الإسلامية العابرة التي لم تخلف
وراءها شيئاً من الآثار الباقية.

٣ - سمورة

Zamora

تقع مدينة سمورة فوق مرتفع صخري، يشرف على ضفة نهر دويرة (دورو) اليمنى. وهي مستطيلة الرقعة ومن ورائها بسيط أخضر، وفي ظاهرها على النهر قنطرة قديمة ذات عقود رومانية، ربما كان للمسلمين دور في إصلاحها وتجديدها، وهي تبدو على العموم بشوارعها الطويلة المكتظة بالحركة مدينة كبيرة، ويبلغ سكانها زهاء أربعين ألف نسمة.

وقد كانت سمورة من القواعد القوطية، وافتتحها المسلمون كما افتتحوا معظم المدن الشمالية، ولكنها لم تثبت في أيديهم سوى نصف قرن، واستطاع النصارى استعادتها في عهد الرحمن الداخل سنة ٧٥٧ م (١٣٠ هـ)، مع تلك وشلنقة وآبله وغيرها من المدن الشمالية. ثم استعاد المسلمون سمورة بعد ذلك غير مرة، ولكنهم كانوا يحتفظون بها لفترات قصيرة فقط، وكانت آخر عزواتهم لها أيام المنصور ابن أبي عامر، فقد اجتاحتها وأحرقها في سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ).

وفي بعض الروايات الإسلامية والنصرانية. أنه قد وقعت تحت أسوار سمورة هزيمة المسلمين الفادحة، بقيادة عبد الرحمن الناصر، في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يولييه سنة ٩٣٩)، وهي الموقعة التي تعرف في تاريخ الأندلس بموقعة الخندق، لوقوعها على خنادق سمورة^(١).

وسمورة مدينة عتيقة المظهر، وهي قسمان، القسم القديم ويحتفظ بطابع العصور الوسطى، وفيه تقع معالمها الأثرية والقسم الحديث وهو يتكون من بضعة أحياء حديثة بنيت خارج المدينة القديمة.

وتؤدي إلى وسط المدينة من النهر، عدة من الشوارع الصاعدة العتيقة المرصوفة بالحجارة، وتوجد مقابلها من الناحية الأخرى شوارع مماثلة صاعدة نحو الكنيسة العظمى، وهذه الشوارع هي أقدم شوارع سمورة.

^(١) راجع كتابي: دولة الإسلام في الأندلس (الطبعة الثالثة) ص ٣٨٨ و ٣٨٩

PDF Eraser Free



سمورة. منظر عام للحصن والأشجار



سمورة. الكنيسة العظمى

PDF Eraser Free

وتقع كنائس سمورة في طرف المدينة الأيمن، وهي قديمة ترجع إلى القرن الثاني عشر، قوطية الطراز، ذات عقود مستديرة من أعلى، ولها قبة مستديرة هي أقرب إلى شكل قبة الجامع، يحيط بها من الخارج، عدة قباب صغيرة مستديرة، على مثل قباب كنيسة ليا صوفيا البيزنطية، وهي جميلة الزخرف من الداخل بالرغم من صغرها، ولها برج أجراس مربع عريض ذو طابع خاص وقائم إلى يمينها، وتوجد في متحفها مجموعة ثمينة من السجاجيد، وبه تحفان أندلسيتان هما عبارة عن صندوقين، أولهما صندوق صغير من العاج، ارتفاعه ١٨ سنتيمتراً وعرضه ١٠,٥ سنتيمتراً، وقد زينته بصور الطيور والغزلان، ونقش عليه بالخط الكوفي ما يأتي:

"بركة من الله للإمام عبد الله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين مما أمر بعمله السيدة أم عبد الرحمن على يدي دري الصغير سنة ثلثة وخمسين وثلاث مائة".

والثاني صندوق كبير من الخشب مطعم بالعاج، طوله ٣,١٥ مترًا وعرضه متران، وارتفاعه ٢,٣٥ مترًا، وعلى جوانبه نقوش عربية منقطة هذا نصها:

"... وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما خير حافظاً وهو

"العزة الدائمة والنعمة [الكاملة] والغبطة المتصلة والسعد [إل] [إل] قبيلة واليمن والأيمن والنصر والتبديد والعز لصاحبه".

ولما عن الآثار الأندلسية، فإنه ما زالت توجد قطعة من أسوار سمورة القديمة أدمجت في ظهر بعض المباني الحديثة، وتقع بجوار هذه الأسوار شوارع عتيقة صاعدة نحو الكنائس، التي يبدو أنها تحتل مكان الجامع أو مسجد القصبة القديمة.

وتقع قلعة سمورة فوق أعلى جزء من الربوة، ويطلق عليها اسم حصن "لوراكا". ولوراكا هذه هي ابنة فرديناند الأول ملك ليون، وكان بعد أن استرد المدينة من المسلمين في سنة ٩٨٦م، قد أصلحها ومنحها لابنته المذكورة. على أنه يبدو أن حصن لوراكا قد بني فوق أسوار ولقراض القلعة الأندلسية القديمة، التي أقامها المسلمون منذ الفتح، ويسمى أحد أبواب الحصن "باب الخيانة" P. de la Traición لأنه فُتح بخيانة حراسه في بعض المعارك، التي نشبت بين الملكة لوراكا وخصومها.

ولا داعي لأن نتحدث عن باقي المعالم الأثرية في سمورة، وهي كدائس أخرى مثل كنيسة مجدلينا، وسانتا مارييا، وسانتياجو، وبعض صروح ترجع إلى العصور الوسطى. بيد أنه مما يلاحظ في خطط المدينة القديمة وشوارعها الصاعدة نحو الكنيسة العظمى، وما يتخللها من الدروب الضيقة والمنازل العتيقة الطراز، أنها تقوم على الأغلب، فوق رقعة المدينة الأندلسية القديمة، متأثرة بمظاهرها وطرازها.

PDF Eraser Free



سفورة. جانب من الصندوق الأندلسي الكبير المحفوظ بالكنيسة



سفورة. جانب من الصندوق الأندلسي العاجي الصغير
المحفوظ بالكنيسة

٤ - شلمنقة

Salamanca

كانت شلمنقة من أوائل المدن الأندلسية التي فقدتها المسلمون؛ فلم تمكث في أيديهم سوى نصف قرن، ثم استردها النصارى في سنة ٧٦٧ م. في أوائل عهد عبد الرحمن الداخل الأموي.

وتقع شلمنقة^(١) على الضفة اليمنى لنهر توريس أحد أفرع نهر دويرة، وهي مركز موصلات مهم لمدن قشتالة الشمالية، مثل بلد الوليد وبرغش وسمورة وليون.

واشتهرت شلمنقة في العصور الوسطى بنوع خاص، بجامعة الشهبيرة التي كانت تنافس جامعة غرناطة الإسلامية، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، والتي مال الت إلى يومنا تسبغ على اسمها فخراً وبهاء.

وشلمنقة مدينة عظيمة، تكاد برقعها المترامية وشوارعها الفخمة، وميادينها الفسيحة، تضارع بعض المدن الإسبانية الكبيرة، مثل إشبيلية وقرطبة، بيد أنها أصغر منهما حجماً، وأقل سكاناً، وسكانها لا يعنون خمسة وثمانين ألفاً.

وتحتفظ شلمنقة بطابع تاريخي بارز، وترسم عليها ملامح المدينة القديمة الثالثة، مدينة العصور الوسطى، وتسبغ عليها صروحها التاريخية المتعددة حلة الوقت والنبل والسحر، وما يزال كثير من خططها وشوارعها وميادينها على حالتها التي كانت لها منذ قرون، وميدانها الكبير Plaza Mayor، من أكبر وأروع ميادين المدن الأوربية، وهو عبارة عن مربع شاسع يبلغ ضلعه نحو مائة متر، وتحيط به من جوانبه الأربع عقود حجرية جميلة، وله مداخل عديدة من شوارع المدينة الرئيسية كلها معقودة، وتتصل به، وتقع من حوله شوارع قديمة ذات عقود، وشوارع ضيقة مسقوفة على نظام (الجاليريا) أو القيسرية الأوربية. ويرجع هذا الميدان إلى أكثر من قرنين، وقد أنشئ ليتسع لعشرين ألفاً من النظارة، الذين يحشدون لشهود مصارعة البيران.

وبالرغم من هذا الطابع التاريخي القديم، فإن شلمنقة تحتوي على طائفة من الأحياء الحديثة، التي تخرقها شوارع فسيحة مرصوفة، وتقوم بها أبنية وعمارات كبيرة حديثة الطراز.

^(١) وفي رانهاها كتاب "شلمنقة" وذلك في مخطوط كنسي قديم بمكتبة مدريد الوطنية

PDF Eraser Free

وليس في المدينة شيء يذكرنا بماضيها الأندلسي القصير المدى، وإن كانت خططها القديمة وشوارعها المعقودة، تبدو متأثرة بطراز المدن الأندلسية في العصور الوسطى.

* * *

ونجتمع معظم صروح شلمنقة التاريخية في منطقة واحدة، فالجامعة، والكاتدرائية، وغيرها من الكنائس التاريخية، والقصر المسمى "دار الأصداف" وقصر مونتييري. كلها تقع على مقربة من بعضها البعض داخل المدينة القديمة.

وجامعة شلمنقة بلا ريب هي أعرق وأشهر صروحها الأثرية، وهي أقدم جامعة في إسبانيا، ومن أقدم جامعات العالم. وقد أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر، في عصر ألفونسو التاسع ملك ليون، وأُعِدَّتْ عليها الملك ألفونسو العاشر [العالم] (١٢٥٢ - ١٢٨٢) رعايته، وأنفق أموالاً عظيمة في سبيل تدعيمها، وتوسيع نطاق الدراسة فيها، وصدر مرسوم البابا إسكندر الرابع باعتبارها من معاهد الدراسات العامة، على مثل جامعات بولونيا وباريس وأكسفورد يومئذ. وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ذاعت شهرتها العلمية في سائر أنحاء أوروبا، وهرع إليها الطلاب من كل فج، وبلغ طلابها يومئذ نحو خمسة عشر ألفاً، غير أنها أخذت في التضاؤل والذبول منذ القرن السابع عشر، واستمرت كذلك حتى فتى ستينياتها في بداية القرن الحالي، إلى نحو ألف ومئتي طالب، وأضحت في يومنا لا تحتفظ من سمعتها القديمة بأكثر من صفاتها التاريخية، وإن كانت تحاول دائماً أن تجعل من هذه الصفة شيئاً مذكوراً، بما تجريه من احتفالات تذكارية، وما تنظمه من دراسات موسمية خاصة.

ومازالت جامعة شلمنقة تحتفظ بصروحها التاريخية، التي ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وهي عدة صروح متقاربة مبنية من الحجر الصلد، ولها عقود وأبهاء فخمة، وبها كثير من الزخارف المعمارية، من طراز عصر الإحياء، وتضيق هذه الصروح القديمة اليوم عن أن تتسع لكتبتها الخمس، وهي الآداب، والفلسفة، والحقوق، والعلوم، والطب، ولهذا فقد بنيت إلى جوارها وعلى مقربة منها عدة صروح حديثة. ولجامعة شلمنقة مكتبة قديمة نفيسة، تحتوي على ألف مخطوط ونحو مائة ألف كتاب.

PDF Eraser Free



شلمنقة. الكنيسة العظمى



شلمنقة. بناء الجامعة القديم



شلمنقة. دار الأصدقاء

PDF Eraser Free

وتقع كنائس كاتدرائية شلمنقة، فوق مرتفع يشرف على نفس الميدان الذي تشرفه عليه الجامعة، وهي كنيسة عظيمة الحجم قوطية الطراز، شاهقة الارتفاع، كثيرة التزيين والزخرف، وترجع إلى القرن السادس عشر. ولها واجهة عظيمة من الأمام وأخرى من الخلف، ومن ورائها توجد الكاتدرائية القديمة بقبابها وأبراجها الصغيرة المنخفضة.

ويوجد غير الكاتدرائية عدة أخرى من الكنائس التاريخية، منها كنيسة كاتريثيا Clerecia، وهي على مقربة من الجامعة والكنائس، وترجع إلى القرن السابع عشر، وكانت في البداية معبدًا لليسوعيين. ويقوم اليوم إلى جانبها معبد ديني آخر ذو صحن كبير معقود، وكنيسة سان مرتين، وهي كنيسة صغيرة ولكن قديمة فخمة.

كما شهدنا بعض الصروح التاريخية ذات الخواص الأثرية والزخرفية، منها دار الأصدقاء "Casa de las Conchas"، وهي ترجع إلى عصر الملوك الكاثوليكين (الآخر القرن الخامس عشر)، وقد سميت كذلك، لما تزين به واجهتها من الأصداف المدببة. ومنها قصر مونثيري، وهو صرح جميل فخم مبني على طراز عصر الإحياء، وبه كثير من الزخارف الجميلة.

٥ - أوفييدو

Oviedo

تقع منطقة الأسترياس Asturias^(١) في شرقي جليقية، على القسم الأوسط من خليج بסקونية، وتحدها من الجنوب جبال كنتيريا الشهيرة. وكان من المتعين بعد زيارتي لجليقية، أن أجوب تلك المنطقة، التي عجز الفاتحون المسلمون عن إخضاعها، والتي نمت فيها البذور الأولى للمملكة النصرانية الشمالية.

وقد رأيت خلال تجوالي مدينة "لوك" Lugo، وهي أيضاً من مدن جليقية التي افتتحها المسلمون، وبقيت في يدهم زهاء نصف قرن، ثم كانت من أوائل المدن التي استردها النصارى، حيث استولوا عليها في سنة ٧٤٧ م، أيام عبد الرحمن الداخل، مع بعض المدن الشمالية الأخرى، مثل أستورقه وسمورة وشلمنقة، حسبما سبقت الإشارة إليه.

وتقع مدينة "لوك" على مقربة من شنت ياقب فوق ربوة مرتفعة، وتقوم أحيائها موزعة متدرجة فوق أجزاء الربوة، ومن ورائها السهل الأخضر، تتلوو سلسلة من التلال، وهي فيما يبدو مدينة تجمع بين طابع العصور الوسطى والطابع الحديث.

ومنطقة الأسترياس كمنطقة جليقية، ذات طبيعة جميلة متنوعة، وتخرقها الجبال والتلال والأكلم العالية، والوديان العميقة، بلا انقطاع. وهذه الهضاب الوعرة، إما صخرية أو تغطيها الخضرة والأشجار، والبساتن منها دائرة، وهي في هذه المنطقة أشبه ما تكون ببعض نواحي الألب النمساوية، ويسير القطار خلال ساعات متوالية دون أن تتغير مناظرها.

وقبل مدينة أوفييدو تكثر التلال والبساتن المتدرجة الينعة، وهي منطقة خصبة جداً، تغطيها مختلف المحاصيل والأشجار.

* * *

وتقع مدينة أوفييدو عاصمة ولاية الأسترياس، في واد عميق أخضر تحيط به الربى والتلال، وتشغل رقعة تمتد على شكل قوس مفتوح، تجتمع في وسطه أحيائها الهامة، وتوجد في جانبيه طائفة من الأحياء الأنيقة المتفرقة بمثابة الضواحي، وأمامها وخلفها التلال تحميها، وبسيطها يانع وافر الخصب، تحيط به طائفة من التلال المتدرجة الخضراء.

(١) تسمى منطقة Asturias في الجغرافية العربية بمنطقة "التوريش".

PDF Eraser Free

ولوفيدو مدينة كبيرة، ذات شوارع فسحة وميادين فخمة، وفي وسطها منارة عظيم جميل التنسيق، وطابعها حديث، ومبانيها جميلة مشرقة، بيد أنه توجد في بعض أحيائها الداخلية بعض شوارع ضيقة عتيقة الطراز، وفي هذه الأحياء تقع صروحها الأثرية، التي تذكرنا بتاريخها القديم، أيام أن كانت عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية، والمدينة ووفرة الحركة والنشاط، ويبلغ سكانها زهاء مائة ألف.

ومما يجدر ذكره أن النخيل القصير يري في شوارع لوفيدو وضواحيها، وهو نادر الوجود في هذه الأصقاع الشمالية.

وفي لوفيدو عدة معالم أثرية، في مقدمتها الكثرائية (الكنيسة العظمى)، وهي كنيسة عتيقة قوطية الطراز، ذات واجهة تتكون من ثلاثة عقود كبيرة، وفناء مستطيل، يتوسطه عقد، وقد زينت بمختلف الزخارف وصور الرسل، وصحنها الداخلي قوطي الطراز أيضًا، وبها عدة هياكل جميلة الزخرف.

ويرجع صرح الكثرائية الحالي إلى القرن الرابع عشر، ولكنه أقيم فوق أنقاض كنيسة قديمة صغيرة بُنيت في القرن الثامن. وفي داخل الكنيسة، مصلى قديم يسمى "الغرفة المقدسة" Camara Santa، وهو يضم عدة ذخائر نفيسة، من أحجار كريمة وصلبان أثرية، ومنها صليب يقال إنه هو الذي كان يرفعه النصارى في موقعة كوفاندجا، التي هُزم فيها المسلمون في أوائل القرن الثامن.

وتوجد بالمدينة عدة كنائس أثرية أخرى، مثل كنيسة سان إيزيدورو اليسوعية، وسان خوان وغيرهما. بيد أن أقدم كنائس لوفيدو الأثرية، تقع خارج المدينة، على التل المشرف عليها.

فهناك توجد كنيسةان ترجعان إلى القرن التاسع الميلادي. الأولى "سانتا ماريادل نراكو" وهي عبارة عن زاوية صغيرة الحجم، قديمة جدًا، مبنية من الحجر الصلد، وأعم ما يميزها من ناحية الطراز، واجهاتها الأمامية والخلفية، وكل منهما عبارة عن شرفة عربية ذات ثلاثة عقود صغيرة جميلة، وفي أعلاها شباك صغير ذو ثلاثة عقود صغيرة. ومداخلها وكوائها كلها ذات عقود عربية، وأعمدة رومانية، وصحنها الداخلي عبارة عن قبو قوطي مستطيل، يقوم فوق بهو يصل ما بين الواجهتين، وقد كانت هذه الكنيسة قصرًا لشيد الملك راميرو في أوسط القرن التاسع الميلادي ثم حوّل إلى كنيسة.

PDF Eraser Free



لوفيردو، كنيسة سانتا مارييا دى ترانكو



لوفيردو، كنيسة سان ميچل دي ليجو

PDF Eraser Free

والثانية هي كنيسة سان ميغل دي ليون، وهي تقع فوق الربوة على مقربة من الأولى، وهي عتيقة في حالة تدهور، وبنائها عادي لا يمتاز بشيء من الخواص الفنية، إلا نوافذها الثلاثة الصغيرة على الجانبين، فكل منها ذو عقدتين صغيرين على الطراز العربي، وفي أسفل كل من جانبيها، توجد أيضًا نافذة عربية، ذات ثلاثة عقود صغيرة، وترجع هذه الكنيسة أيضًا إلى القرن التاسع الميلادي.



أوفييدو. واجهة الجامعة القديمة

ومما يلفت النظر في شأن هذين الصرحين العتيقين، هو ما يحتويانه من العقود والنوافذ العربية، وهي ظاهرة تدل على أن الطراز العربي الأندلسي، كان له أثر منذ وقت مبكر، في طراز الكنائس والصروح النصرانية، حتى في هذا الجزء الثاني من إسبانيا. وفي أوفييدو أيضًا جامعة من أقدم الجامعات الإسبانية، وقد أنشئت في سنة ١٦٠٤ م في عصر فيليب الثالث، وهي مازالت إلى اليوم تحت صرحها القديم داخل المدينة، وهو عبارة عن بناء حجري متوسط الحجم ذي طابقين، وله فناء أندلسي معقود، تطل عليه أروقة الطابق الثاني، وهي تضم كلية الحقوق، وأخرى للعلوم (الكيمياء فقط)، وقسمًا من كلية الآداب هو قسم العلوم الرومانية. أما باقي الكليات والأقسام فهي ملحقة ببعض الجامعات القريبة الأخرى، مثل بلد الوليد وشمشقة. ولجامعة أوفييدو مكتبة قديمة، تضم كثيرًا من المخطوطات اللاتينية، والكتب الكلاسيكية.

٦ - كوفادانجا

Covadonga

طالما تأقت نفسي إلى زيارة منطقة الصخور الوعرة المسماة صخور كوفادانجا وهي الصخور التي عجز الفاتحون المسلمون عن إدراكها، والتي اعتصمت بها طول القوط عقب فتح الأندلس، بزعامة أميرهم بلايو، ثم كان منها خروجه لاسترداد بعض الأراضي المفتوحة من المسلمين، ووضعها بذور المملكة النصرانية.

فلما وصلت إلى مدينة أوفييدو، حرصت كل الحرص على تحقيق هذه الأمنية، وتقع كوفادانجا شرقي أوفييدو، على قيد خمسة وثمانين كيلو مترًا منها، وتفصل بينهما منطقة من أجمل مناطق الأسترياس. وهي منطقة معظمها بسائط خضراء، ووفرة الغصب، تنمو بها مختلف الأشجار، وتوجد بها الحبوب ولا سيما الذرة، وتخللها الرقاع المتدرجة، ولكنها دائماً خضراء. وبها كثير من المراعي الجيدة، وتحدها التلال من الجنوب. وهنا تتفوق المناظر الطبيعية في جمالها، على مناظر أوسط إسبانيا وجنوبها، وتقرب في هذا الجمال من نظائرها في بلاد أوروبا.

وتقطع ثلاثة أرباع هذه المسافة أولاً بالقطار، من أوفييدو إلى بلدة الزيونداس Arriondas الصغيرة الأنيقة، ثم تؤخذ منها السيارة إلى كوفادانجا.

ولا تعدو هذه المسافة ثمانية عشر كيلو مترًا، وفي خلالها تمر بمدينة كانجاس دي أونيس Cangas de Onis، وهي بلدة صغيرة قديمة، كانت خلال القرن الثامن الميلادي، وقبل أوفييدو، أول عاصمة للمملكة النصرانية الشمالية، وهي تقع في سهل منبسّط نوعًا.

ومنى جرت مدينة كانجاس، فإليك تدخل منطقة الصخور التاريخية التي تنتهي بأكلم كوفادانجا. وفي هذه المنطقة تمتد الربي الصخرية العالية على جانبي الوادي، ومعظمها ربي وخرة جرداء، ويضيق الوادي شيئًا فشيئًا حتى ينتهي إلى كوفادانجا. ولا مرأ في أن هذه المنطقة، بواديها الضيق وأكامها العالية، ومراكزها الدفاعية الكثيرة، تصلح للمعارك الحربية.

* * *

كوفادانجا إنها ليست بلدًا، بل ولا قرية، وهي لا تعدو أن تكون بقعة سياحية رائعة، بها فندق وبعض مقاهي، وأفرق قلائل من السكان لخدمة السياح الوافدين، وكل ما فيها عند

PDF Eraser Free

من رجال الدين، وعدد من رجال الحرس الوطني، ولبنيتها قليلة متأثرة هنا وهناك في السهل، وفي أطراف الربوة التي تشرف عليه.

ولكن كوفانجا من جهة أخرى تقدم بصخورها الهائلة، وآكامها الشاهقة، أروع منظر يمكن تصوره.

والصخرة الهائلة، والصخرة الأثرية التي هي مقصد الناس، تسمى صخرة أوسيبا Auseba، ويقوم إزاءها من الناحية الأخرى جبل يسمى غينيس Gines، ويوجد بينهما وادٍ عميق، هو الوادي الذي يقال إن المسلمين قدموا من ناحيته، لمقاتلة النصارى الذين اتفقوا حول زعيمهم بلايو، وأن النصارى اعتصموا بمغار في صخرة أوسيبا، وصمدوا حتى ينش المسلمون من إزراكمهم وانصرفوا.

إن الأسطورة تمزج هذا بالتاريخ، وقد كان بلايو هذا (أو بلاجيوس) من زعماء أو أشرف القوط أو البسكونيين، وقد عرف بالجرأة والبسالة، فالتفت حوله فلول القوط الذين نجوا من بطش الفاتحين، ولجئوا إلى قاصية الشمال، واحتموا بالجبال، وتعرف الرواية الإسلامية بلايو هذا وتسميه (بلاي)، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك، ولكنها كالرواية النصرانية لا تحدثنا عن نشأته أو ظروف إمارته، بيد أنها من جهة أخرى تحدثنا عن الحملات التي جردها المسلمون عليه، وعن الوقائع التي نشبت بينه وبينهم، في ذلك الموطن الشهير.

وتعرف الرواية الإسلامية هذا المكان "بالصخرة" أعني صخرة كوفانجا، وتحدثنا عن روعته وعن ودياته السحيقة، ثم تذكر لنا كيف اجتاح المسلمون ناظر وبسكونية، ونفذوا إلى أعماق جبال الأستريش، لكي يفضوا على تلك البقعة الباقية من قوات النصارى، ولكنهم لم يستطيعوا إدراك العدو، لأن بلايو وأصحابه، لجئوا إلى مغار عظيم في هذه الصخرة الهائلة واعتصموا به، وكان عددهم بضع مئات، فربط المسلمون في الوادي العميق الذي تشرف عليه الصخرة، وحاصروا النصارى مدى حين، وهم يتساقطون تباركاً من الجوع، حتى لم يبق منهم على قول الرواية الإسلامية سوى ثلاثين رجلاً وعشرة نساء^(١). ثم انصرف المسلمون عنهم احتقاراً لشأنهم، ولكن الرواية النصرانية تزعم من جهة أخرى، أن بلايو وأصحابه كروا على المسلمين في السهل، وأن المسلمين هزموا هزيمة فادحة وفقدوا عدة الوفاء، وكان ذلك في سنة ٧١٨ م (٩٨ هـ).

وعلى أية حال فإن موقعة كوفانجا، مهما كان القول في شأنها، قد أسفرت عن أعظم النتائج، ذلك أن هذه الشرائم القليلة من النصارى، استطاعت في ظرف أعوام قليلة، أن تغزو

^(١) راجع أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٣٨، ونسخ الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٥٧.

PDF Eraser Free

قوة يُحسب حسابها، واستطاع بلايو بعد أن أمن مطاردة المسلمين، أن ينظم إمارته الصغيرة، التي امتدحت، غير بعيد إلى مملكة إسبانية نصرانية، لبثت تنمو وتقوى تباعداً، واستطاعت بعد صراع طويل الأمد، أن تقضي على الدولة الإسلامية في الأندلس.

* * *

وانعد إلى كوفادانجا:

إن صخرة أوسيدا التي تجتمع حولها تلك الذكريات التاريخية العظيمة، هي صخرة هائلة شاهقة ذات آكام مديبة، يجري من تحتها الماء من عيون صغيرة، وتشرق على بسيط صغير من الأرض، ويبلغ ارتفاعها نحو مائتي متر.

وفي وسط الصخرة ثغرة كبيرة، تتفرج عن ساحة صغيرة، في ركنها الداخلي كنيسة قديمة، وفي وسطها مغار صغير يضم قبر بلايو.

ويمكن الوصول إلى هذه الساحة التي بها الكنيسة والقبر، إما بواسطة نفق طويل مُد إليها من الزبوة المجاورة التي تتحاذي في الارتفاع وسط الصخرة، وإما بواسطة سلم طويل منحدر، يصعد إليها من البسيط المنخفض الذي يطل عليه.

فالما الكنيسة الصغيرة فتسمى "مصلى عذراء كوفادانجا" Capilla de la Virgen de Covadonga، وهو عبارة عن هيكل صغير، أقيم في حصى ركن من الصخرة، يجتو أمامه الزوار في خشوع، ويقام فيه القداس يوم الأحد، حينما يغص المكان بالزوار من سائر الأندلس. وقبل هذا المصلى يوجد قبر بلايو، وهو عبارة عن خرق قُد في الصخرة (قبل نهايتها بنحو خمسين متراً)، وقد وضع فيه تابوت من الحجر الأبيض تطل عليه كوة صغيرة معقودة، وقد حفر على واجهته بالقشائية ما معناه:

"هنا يتوي الملك دون بلايو الذي انتخب سنة ٧٢٦، والذي كان في هذه الصخرة".
وبلى ذلك تاريخ الوفاة وهو سنة ٧٣٧ م.

وقد علمت من أحد الآباء المطلعين، أن رفات بلايو لم تودع في الأصل في هذا المغار، ولكنها دفنت أولاً في جبل خنيس، ثم نقلت فيما بعد في عصر صهره وخلفه الملك ألفونسو الأول، إلى مكانها في مغار الصخرة، التي صمد فيها أطم المسلمين، تنويهاً بنصره، وتخليداً لذكراه.

والى يسار المنخل من ناحية النفق الذي أشرنا إليه، توجد بقايا الكنائس القديمة، وهي عبارة عن رواق كبير معقود، ويستعمل اليوم لاجتماع الرهبان ويسمى "دار الرهبان" Casa de Sacerdotes.

PDF Eraser Free



كوفاننجا. منظر عام للوادي ومن حوله الجبل



كوفاننجا. جانب الصخرة الذي به الكنيسة وفهر بلايو

PDF Eraser Free

وإلى كنيسة الصخرة هذه يتقاطر الحجاج، من سائر أنحاء إسبانيا الشمالية، وغيرها، وللمؤمنين في شأنها اعتقادات غريبة، ومنهم من يصعد إلى الصخرة من سلمها الأسفل أو يأتيها من النفق جانبًا على ركبتيه، حتى يصل إلى هيكلها، وقد رأينا الكثير من الرجال والنساء يسرون ركعًا في التراب والطين، حتى يصلوا إليها، ويبتهلون إلى العذراء أن تقضي حاجاتهم.

وتوجد في أسفل الصخرة تحت الكنيسة، بركة صغيرة يتساقط إليها الماء كما قدما من عيون صغيرة، وقد علمت من أحد الرهبان، أن هذا الماء يأتي من ينابيع نهر صغير ينبع من فوق الصخرة ويسمى نهر "رينوثا" Reynoza، وهو يجري منحدرًا نحو السهل مارًا بالصخرة.

وفي هذه الربوة المقابلة للصخرة، والتي يظللها جبل خنيس Gines، تقوم كنيسة كوفاندجا الجديدة، التي شيدت منذ خمسين عامًا فقط، وهي قوطية الطراز وتسمى "بازينكا كوفاندجا".

PDF Eraser Free

الكتاب السادس الأندلس الغربية والبرتغال

١ - بطليوس

Badajoz

ترجع بطليوس إلى العصر الروماني، وربما إلى عصور أقدم، ويعتقد بعض الباحثين أنها تقوم على موقع مدينة Pax Augusta الرومانية.

وكانت بطليوس، حتى النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، محطة قوطية خربة، لم يعن بها المسلمون، حتى كان اضطراب الفتنة الكبرى ضد حكومة قرطبة في تلك الفترة، فالتجأ إليها أحد زعماء الثورة المولدين، وهو عبد الرحمن بن مروان الحليقي الناصر بعارضة، وبناها وحصنها (٨٧٥ م)، واستع بها حيناً. وفي عهد الأمير عبد الله، في أواخر القرن التاسع، أعلن الحليقي الطاعة، وعالونه الأمير بالرجال والمال على تجديد بطليوس، فابتنى بها الجامع، وابتنى أيضاً مسجداً داخل القسبة. وعدة مساجد أخرى. وهكذا قامت بطليوس كقاعدة أندلسية جديدة، تحل من ذلك الحين مكانها في تاريخ الأندلس^(١).

ولما نهارت الخلافة الأندلسية، وقامت دول الطوائف، كانت بطليوس قاعدة إمارة مستقلة في ظل بني الأفطس، الذين سطعت دولتهم في بطليوس وما حولها سبعين عاماً (١٠٢٢ - ١٠٩٤ م)، وكان منهم الأمير العالم الشاعر عمر بن الأفطس الملقب بالمتوكل، وإليها أيضاً ينتمي أبو محمد عبد الله بن محمد البطليوسي اللغوي الشهير المتوفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م)، وكثير غيره من أكابر العلماء والأدباء.

وتقع بطليوس في منحني نهر وادي يلازة على مقربة من الحدود البرتغالية، في البقعة المثقلة التي يحتضنها النهر، عند ملتقاء بفرعه المسمى نهر "سو"، ويحدها النهر من الشمال، وهي مدينة كبيرة عتيقة الطراز، تجوز إليها فوق قنطرة حجرية عظيمة يبلغ طولها نحو خمسمائة متر، وهي ترجع إلى العصر الروماني، ثم جددتها المسلمون، وجدها الإسبان بعد ذلك، في عصر فيليب الثاني (القرن السادس عشر). ويقابلها عند مدخل المدينة بلب أثري من صنع القرن السادس عشر، هو باب النخيل، P. de las Palmas، وهو عبارة عن عقد عريض يحيط به برجان كبيران، ومنه يدخل إلى المدينة.

^(١) فروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ٤٦.

وتبدو بطليوس بموقعها على النهر العريض الضخم، فوق الربوة العالية التي تشرف عليه، كأنها في مجموعها قلعة عظيمة. والواقع أن هذه المدينة التالدة تتمتع بموقع طبيعي منيع، يذكرنا بما كان لها في سالف الدهر من أسباب الحصانة، التي كانت تجعل منها أيام عهد الفتنة، مركزاً من أشد مراكز الخروج والثورة على السطة المركزية، كما كانت تجعل منها أيام اشتداد الغزوات النصرانية، مركزاً من أهم مراكز الدفاع الأمامية، فسانها في ذلك شأن قرينتها مدينة طليطلة.

القصة الأندلسية

وليس أدل على هذه الحقيقة التاريخية من أطلال قصبة بطليوس، التي تشغل بقعة كبيرة فوق الربوة المشرفة على النهر شرقي الزاوية التي ينحرف إليها النهر، حين ينسحب إلى حدود البرتغال، والتي يبدو أنها كانت من أعظم القصبات الأندلسية ضخامة ومنعة. وهي عبارة عن عدة مجموعات من الأطلال فرققتها يد الزمن، وعوامل التخريب والتغيير، والظاهر أنه لم يبق من قصبة بطليوس القديمة، من أيام بني الجليقي، ثم بني الأفطس، آثار تذكر، وكذلك لم يبق شيء من منشأتها أيام المرابطين. ذلك أن الهجمات والحصارات التي توالفت على بطليوس في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، لم تبق على شيء من تحصيناتها القديمة. ونحن نعرف أن الموحيدين، الذين حكموا الأندلس، منذ أواسط القرن الثاني عشر، قد اعتنوا بتحصين بطليوس بصفة خاصة، لوقوعها في طرف المملكة الإسلامية، وتعرضها بذلك لهجمات النصارى المستمرة، وأمر الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بإنشاء قصبة وأسوار جديدة للمدينة، ومدها بالمياه، وقد كان ذلك فيما يظهر حوالي سنة ٥٦٣ هـ (١١٧٠ م). ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأسوار والأبراج التي تحيط اليوم بأطلال قصبة بطليوس، هي من إنشاء الموحيدين. ويوجد من هذه الأطلال حسبما تقدم عدة مجموعات. فقسم منها يقع على مقربة من النهر مع جزء من السور، يبدو أنه السور الخارجي للقلعة، وقسم آخر يبعد قليلاً عن الأول، وقسم ثالث هو فيما يبدو أهم أقسام القصبة، وهو الذي يشمل باب القصبة الخارجي، ويقع هذا القسم في الواجهة الغربية للقصبة، وهو في حالة جيدة من الحفظ. ويفصل القصبة من المدينة ما بين البرج المسمى "برج إسبنتابروس"، والباب الرئيسي، ويتصل هذا البرج في الزاوية الجنوبية الغربية بالسور، وتقع بينه وبين الباب الرئيسي، ثلاثة من الأبراج الخارجية (البرقية). ويقوم في جنوب القصبة على مقربة من النهر برجان آخران. ومما يلفت النظر أن هذه الأبراج كلها مختلفة البناء والطراز.

PDF Eraser Free

ولما باب القصبه الخارجى، فهو باب معقود يطل اليوم على الشارع المؤدى إلى سوق
الفاكهة، وبإليه يمر قصير صاعد يؤدي إلى المدخل الرئيسي، وهو عقد عال مزدوج، بنى



قوسه الخارجى من الحجارة الصلدة ويبلغ
اتساعه نحو أربعة أمتار، وارتفاعه نحو ثمانية،
ومن وراءه فناء مستطيل، يخترقه عقد ثالث
يؤدي إلى الخارج، ويقوم إلى يمين الباب
الرئيسى، برج فى حالة جيدة يبلغ ارتفاعه عن
الأرض نحو ١٥ مترًا، وهو يقع بين البابين.

وهذا الجزء من أطلال القصبه، بنى
صا كانت عليه من المنعة والإحكام.

وقد حجب هذا القسم من القصبه،
وبنى على جانبيه المنازل والحواليات، ولكن
توجد عن يمين هذا القسم وبعده بقليل بقية
أخرى من أسوار القلعة، وهى التى تمتد حتى
البرج الموحدى.

بطليوس، البرج الموحدى من بقايا القصبه

وهذا البرج الموحدى، وهو المسمى بالإسبانية كما تقدم "برج إسبنتابروس" Torre de
Espentaperros، هو أهم الأبراج التى تقدم ذكرها، وهو يقع على قيد خمسين مترًا من قسم
الأطلال الواقعة داخل المدينة، والتى يتوسطها الباب الرئيسى، وهذا البرج مبني من الأضلاع،
ويوصله بالأطلال المذكورة سور طويل، يقوم عليه برجان صغيران للحماية، وقد أقيم فوق
هذا البرج المئمن، برج آخر أصغر، وهو بناء تخطيطي أقيم بعد عصر "الاسترداد" فى القرن
السادس عشر فوق البرج الموحدى، ليكون برجًا للأجراس، ثم نزع منه الأجراس فيما بعد،
ويبلغ ارتفاع البرجين معًا عن الأرض نحو ثلاثين مترًا، ويوجد إلى وراء هذا البرج برج
آخر، أقيم إلى جانبه كنيسة المستشفى العسكرى، الذى يحتل هذا القسم من موقع القصبه.

وقد أقيم هذا المستشفى العسكرى منذ أكثر من قرن على هذا القسم من أقسام القصبه،
وهو القسم الذى يتوسطه الباب الرئيسى السابق ذكره، ثم وُسع تدريجيًا حتى وصل إلى أنقاض
الكنيسة القديمة، التى كانت تسمى "سانتا ماريا صاحبة الحصن" Sta Maria del Castillo.
وفى هذا القسم آثار أبنية قديمة، قد غطتها الأبنية الحديثة، ونحن نعرف مما تقدم، أن
عبد الرحمن الجليقى منشى بطليوس، قد أنشأ مسجدًا داخل القصبه، وقد حُوِّل هذا المسجد

PDF Eraser Free

عقب "الاسترداد" إلى كنيسة رفعت فيما بعد إلى مركز "الكنائس"، وسميت "سائتا ماريانا دل كاستيو". ولبثت هذه الكنيسة، التي أقيمت على أنقاض جامع القصبة عصوراً كنكائسة بطليوس، قبل أن تنشأ الكنيسة العظمى الحالية. وكانت كنيسة "سائتا ماريانا" هذه كنيسة صغيرة، وقد بقي من أنقاضها برجان أدمج أحدهما في واجهة المستشفى الجنوبية. ولما جدد المستشفى ووسع، أدخلت في بنائه بقايا الكنيسة المذكورة، ومعنى ذلك أن المستشفى يحتل ضمن أبنائه موقع جامع القصبة القديم.

وقد صعدنا إلى البرج الموحدى السابق الذكر، وألقينا منه نظرة على بطليوس، وهي تبدو منه مستورة للرقعة، وتبدو دروبها الطويلة الضيقة ومنازلها البهتاء، ومن حولها السهل، وتبدو القصبة واقعة في طرفها الشمالي الشرقى. وشاهدنا في داخل البرج من وسطه دائرة من العقود الصلدة، وفي أعلاه دائرة أخرى مماثلة، ثم يليها في القمة برج مربع يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، ويبدو هذا البرج من أعلى، مقابلاً لبرج الباب الذي نشرنا إليه. وبالخلاصة أن ضخامة قصبة بطليوس ومنعتها، تبدو في مختلف أجزائها، وقد كانت تشغل رقعة كبيرة تمتد من ضفة النهر حتى الأسوار التي تبدو بعد البرج الموحدى^(١).

في متحف بطليوس

ويحتوي متحف بطليوس الأركيولوجي على عدة لوحات أناسية، أهمها لوحة رخامية صغيرة حجمها نحو ٣٠ × ٤٠ سنتيمتراً، وقد كتب عليها بالخط الكوفي ما يلى: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا قبر ساهور الحاجب رحمه الله. وتوفي يوم الخميس لعشر ليال خلون من شهر رجب سنة ثلث عشرة وأربعمائة، وكان يشهد ألا إله إلا الله". وساهور الحاجب المشار إليه في هذه اللوحة، هو ساهور أحد الفتيان العامريين، وقد استطاع أن يغلب على بطليوس عقب الفتنة، وأن يبسط حكمه عليها عدة أعوام، حتى وفاته في سنة ١٠٢٢ م (٤١٣ هـ)، وأعقبه في حكمها بنو الألفطس.

وتوجد صورتان للوحنتين أخريين وجدنا أيضاً في مدينة بطليوس، وكنتنا من ذخائر متحفها، ثم نقلنا إلى متحف مدريد الوطنى، واكتفى بعرض صورتيهما الأولى وهي أيضاً بالخط الكوفي، شاهد قبر هذا نصه:

^(١) راجع مقالاً صغيراً عن قصبة بطليوس وأصلها للعلامة المرحوم الأستاذ توريس بلان في مجلة الأنثروبولوجيا.

Ibid: (1943) Al-Andalus (1941, Fasc. I, p. 168 – 203) ومقالاً آخر عن مسجد قصبة بطليوس (1943)

Fasc. II, P. 467)

PDF Eraser Free

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا قَبْرُ الشَّهِيدِ الْمَقْتُولِ ظُلْمًا رَحِمَهُ اللَّهُ عَهِدَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَارْدِيَّ بْنِ الْمَقْتُولِ قَتَلُوهُ الْمُشْتَمِينَ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْأَحَدِ يَوْمَ تِسْعَةِ وَخَمْسِينَ مِنْ رَمَضَانَ الْمُعَظَّمِ عَامَ تِسْعَةِ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَالثَّانِيَةُ كَذَلِكَ شَهِدَ قَبْرَ هَذَا نَحْنُ:

بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ، كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنْ وَبِقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، هَذَا قَبْرُ الشَّيْخِ الْفَقِيهِ أَبِي الْقَاسِمِ خَلْفِ بْنِ حَسَنَ بْنِ فَرْحُونَ الْبُكْرِيِّ نُورَ اللَّهِ ضَرْبَهُ وَقَسَ رُوحَهُ، اسْتَشْهَدَ بِشَرْقِيِّ جَامِعِ بَطْلَيْوسَ حِينَ غَزَى الْعَدُوَّ لَهَا فِي فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الْخَمِيسِ لَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ رَبِيعِ الْأَخْرِ عَامَ سِتَّةٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ^(١).

وَتَوْجَدُ أَخِيرًا بَعْضَ قِطْعٍ مِنَ الْأَتِيَةِ الْحَرْفِيَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ.

^(١) تشير هذه القرحة إلى واقعة مهاجمة البرتغاليين بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكي لبطليوس، لأول مرة (سنة ١١٦١ م) واستيلائهم عليها، ثم استرداد المسلمين لها على الفور.

PDF Eraser Free



بطليوس، الكنيسة العظمى



بطليوس، باب من أبواب القسبة



بطليوس، "المدان العالى" و"المدان المنخفض"

معالم أثرية أخرى

وتقع الكنيسة العظمى في الجنوب الشرقي، على نحو خمسمائة متر من القسبة في ميدان كبير هو ميدان إسبانيا. وهي متوسطة الحجم، بنيت على شكل صليب عقدة المصلي، وعلى جانبيه عقود قوطية، وهيكلها كثير الزخرف، ولكنها مظلمة ولا روعة فيها. وقد بنى برجها على مثل برج القسبة. وهي ترجع إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ويوجد بجوار الكنيسة مربع كبير من الأوراق الفخمة ذات العقود القوطية، زينت جدرانها السفلى بالفسيفساء الجميلة، وصحنه عبارة عن حديقة صغيرة ذات عقود جميلة مماثلة.

وهناك عدة كنائس وأبيرة أثرية، منها كنيسة سانت لوجستين، وهي كنيسة صغيرة ذات عقود جانبية على مثل الجامع، وكانت قبل ذلك ديرًا، وترجع إلى القرن الخامس عشر، والكنيسة المسمدة دير الحفلة "Convento de las Descalzas"، وهي صغيرة ذات عقود قوطية وزخارف كثيرة.

وهناك أيضًا كنيسة كونثبسيون La Concepción، وتقع في وسط المدينة تقريبًا، ويلوح لنا أنه إذا كانت الكنيسة العظمى تقع فوق أنقاض جامع بطليوس لقرتها من سطح القسبة، فإن كنيسة "كونثبسيون" فيما يرجع تحت أيضًا مكان أحد المساجد الأخرى.

ويوجد في بطليوس غير أبواب القسبة وباب النخيل التي سبق ذكرها، أبواب أثرية أخرى، منها العقد الضخم الواقع في "الميدان العالي" P. Alta، وهو عقد خفيض عريض يقع في مواجهة سوق الفاكهة، على مقربة من باب القسبة، "باب العمود" وهو أحد أبواب بطليوس النصرانية، ويقع في جنوبها، وهو عقدان بينهما قبر يبلغ طوله نحو اثني عشر مترًا، وباب "كوندالا" ويقع في القسم الغربي من الأسوار المسمدة لسوار "قوبان".

ونفذ إلى المدينة ذاتها، فنقول إن بطليوس مدينة كبيرة الرقعة يبلغ سكانها زهاء خمسة وأربعين ألفًا. ويحد نهر وادي يانة المدينة القديمة من الشمال، ومن ورائه توجد طائفة من الأحياء الجديدة تمت حتى محطة السكة الحديدية. ولما المدينة القديمة فتحت جنوبًا وغربًا حتى أسوار "قوبان"، وهي التي أنشأها الفرنسيون أيام حرب "وراثة العرش" في فتحة القرن السابع عشر، وسميت باسم منشئها المهندس والقائد الشهير قوبان، وقد بقيت منها أجزاء كبيرة، وتتجه بقيتها الجنوبية من الناحية الشرقية نحو لطلال القسبة لكي تتصل بالأسوارها.

ولمدينة بطليوس طابع خاص يغلب عليه القدم والاحتشام، ومع ذلك فهي تضم كثيرًا من الشوارع والمباني الحديثة، وتجتمع في قلبها وفي جانبها الشرقي شبكة كبيرة من الدروب الضيقة القديمة الصاعدة نحو ربوة القسبة، ومعظم سكانها من الطبقات الفقيرة، وتوجد في

PDF Eraser Free

أطراف المدينة من الشمال والغرب، جماعات من الفجرة، وقد علمت أن عددهم يبلغ نحو ألف وخمسمائة.

وقد كانت إبطيوس بموقعها الحصين على منحني نهر وادي يانة وعلى الحدود الإسبانية البرتغالية، في العصور الوسطى، أهمية عسكرية خاصة، وقد حاول البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكيز انتزاعها من المسلمين، المرة الأولى في سنة ١٥٢٦ هـ (١١٦١ م)، وقد استردها المسلمون على الفور؛ والثانية في سنة ١٥٦٥ هـ (١١٦٩ م)، ولكن المسلمين عادوا قلستردوها، واستمرت في أيديهم بعد ذلك عصرًا آخر، وأخيرًا استولى عليها التصاري بقيادة ألفونسو التاسع ملك ليون، وذلك في سنة ١٢٢٧ م (٦٢٦ هـ).

وليس من العسير أن نتعرف معالم مدينة بطنيوس الأندلسية، فهي واضحة في شبكة الدروب التي تتدر من شرقي القصبه وجنوبها إلى قلب المدينة.

٢ - ماردة

Mérida

ماردة هي إحدى مدن ولاية بطليوس، وهي تقع شرقي بطليوس، على الضفة الشمالية لنهر وادي يانة، في بسيط أخضر وافر الخصب، وتبعد عن بطليوس نحو أربعين كيلو متراً. وقد كانت ماردة مثل بطليوس، منزل البربر والمولين، وكانت كثيرة الخروج والثورة على سلطة حكومة قرطبة. وقد سقطت في يد النصارى بعد سقوط بطليوس بنحو عامين، في سنة ١٢٢٩ م (٦٢٨ هـ).

ولكن ماردة ليست كبطليوس، ذات طابع خاص واضح، وإن كانت لها مع ذلك ملامح خاصة بها. وهي مثقلة الرقعة تقريباً، ذات شوارع طويلة، وميادين عديدة، ويحدها من الجنوب نهر وادي يانة، وعليه تقوم القنطرة الرومانية العظيمة، على ستين عملاً، وهي كثيرة الدروب الضيقة المتعرجة، التي هي طابع المدن الأندلسية القديمة، وكثير من مبانيها الحديثة يحمل طابعاً أندلسياً من العقود والشبابيك المعقودة والأفنية الأندلسية، ويرى النخيل في شوارعها وميادينها وأحياناً في منازلها. وتضم ماردة خمسة عشر ألفاً من السكان، منهم أقلية كبيرة من العجر تسكن بجوار القصبة، وفي بعض أحياء أخرى.

المعالم الأثرية

وفي ماردة طائفة من المعالم الأثرية الجلية، ولكن معظمها آثار رومانية، وهي تدلي بما كانت عليه ماردة في العصر الروماني، من الأهمية والمنعة، فقد كانت عندما تسمى باسمها الروماني Augusta Emerita، ومن مقطعها الثاني اشتق اسمها الأندلسي "ماردة".

وفي مقدمة هذه الآثار، القنطرة الرومانية العظيمة التي سبقت الإشارة إليها، والتي تقوم فوقها أعمدة الجسر المائي Acueducto، التي كانت تحمل قنوات الماء إلى القصر. وتقع هذه القنطرة بجوار الأسوار الرومانية، وهي أسوار عظيمة تضم في داخلها أطلال ما يسمى بالقصبة أو القصر. وقد أشار صاحب الروض المعطار إلى قصر ماردة هذا، وإلى القنطرة ذات العمد التي كانت تحمل إليه الماء^(١).

^(١) روض المعطار ص ١٧٦

PDF Eraser Free



ماردة، القنطرة الرومانية



ماردة، منظر عام للمسرح الروماني



غاردة. العقد العربي داخل القسبة

والقسبة هي لثر أندلسي بلا رتيب، وقد كانت قلعة رومانية وقوطية قديمة، فأنشأ المسلمون على أنقاضها القسبة أو القصر، وجددت هذه القسبة مراراً، ولا سيما في عهد عبد الرحمن بن الحكم، في أوئل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، كما يدل على ذلك نص اللوحة الأندلسية، المحفوظة بمتحف غاردة، والتي نتحدث عنها فيما بعد.

وأطلال القسبة خرائب متفرقة، ولكنها تلي بيوتكها، وأطلال أبراجها المحاذية للنهر، بما كانت عليه من منعة وحصانة، وهي بلا ريب بقية القلعة الأندلسية القديمة، التي كانت تحمي القصر وتشرف على المدينة.

ويوجد على مقربة من هذه الأطلال، المنحدر المعروف بالجيب، وهو منحدر عميق تسيل إليه مياه الأمطار، وينزل إليه مسلمين؛ في كل رواق سلم.

وثاني الأثر الرومانية بعد القطرقة، المسرح الروماني، وهو مسرح حجري عظيم كامل تقريباً، يقع خارج المدينة من ناحية الشمال الشرقي. وما زالت به صفوف من المقاعد الحجرية المدرجة، وأمامها المسرح، وهو يشمل مساحة كبيرة، ويقابله من الناحية الأخرى الأثر المسمى "بالأمفياترو" وهو أيضاً مساحة عظيمة، تقوم حولها المقاعد المدرجة في نصف دائرة كالمنحدر، وتفضي إليها مداخل كثيرة ذات عقود.

PDF Eraser Free

ويوجد في وسط المدينة أثر روماني آخر، هو عبارة عن عقد روماني عظيم شاهق يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر مترًا، وهو معقود من الحجارة الكبيرة الصلدة ويسمى "عقد تراجان" Arco de Trajano.

ولما فيما يتعلق بالكنائس، فإن كنيسة ماردة العظمى تسمى سانتا مارييا، وهي صغيرة الحجم ذات عقود قوطية، وهي قيمة أيضًا، وربما كانت تحتل موقع الجامع. بيد أن أقدم كنائس ماردة هي كنيسة "سانتا لولاليا"، وهي ترجع إلى عصر قديم جدًا، والمعروف أنها كانت قائمة أيام المسلمين، وصرحها الحالي هو صرحها المجدد بعد سقوط المدينة في يد النصارى، وهو ذو عقود قوطية خفيفة، والكنيسة لولاليا هي حامية المدينة.

هذا ومن الصعب إزاء شمول مواقع كنائس ماردة القديمة، وعدم التحقق من أن كنائسها العظمى، تحتل بالفعل موقع الجامع، أن نحدد معالم المدينة الأندلسية بصفة واضحة، بيد أنه يمكن من جهة أخرى، أن نسترشد في ذلك بموقع القسبة وأطلالها الباقية، فنقول إن المدينة الإسلامية كانت تتجه من القسبة نحو النهر، ويؤيد ذلك أن أحياء ماردة القديمة تقع في هذه الرقعة، أما امتداد المدينة الحديثة فإنه يبدأ من خارج الأموار.

نقوش أندلسية

وإذا كانت ماردة تخلو من الصروح الأندلسية الهامة، فهي من الناحية الأخرى تحتفظ في متحفها بلوحة من أهم وأقدم اللوحات الأندلسية.

ومتحف ماردة متحف صغير، ولكنه غني بالآثار والتماثيل الرومانية، التي استخرجت من حفريات ماردة، وبه مجموعة من النقود الأندلسية الصغيرة من دراهم وأمثالها.

أما اللوحة الأندلسية المشار إليها، فهي لوحة رخامية كبيرة طولها نحو مترين، وعرضها نحو ثمانين سنتيمتراً، وقد وجدت في سنة ١٩٠٢ في قصبة ماردة. وهي ملقاة في ركن مهمل من المتحف، وكان يغطيها التراب والمهملات، فرجونا حارس المتحف أن ينظفها ويجلوها، وعادنا إلى المتحف عصرًا، وعكفنا على قراءة نقوشها الكوفية وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله في عصمته لأهل طاعته. أمر ببناء هذا الحصن وبإعادته معقلًا لأهل الطاعة الأمير عبد الرحمن بن الحكم أعزه الله على يدي عامله عبد الله بن كليب بن ثعلبة^(١) وجعفر بن مكرز وشعيب بن موسى حاجب السد في شهر ربيع الأول سنة عشرين ومائتين.

وهذه اللوحة الأثرية تشير إلى حادث تاريخي هام. فقد كانت ماردة من المدن الثائرة على عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس، وكان يتزعج ثورتها سليمان ابن مرتين زعيم البربر، فسار الأمير عبد الرحمن بنفسه إلى ماردة وحاصرها بشدة، وحدث أثناء الحصار أن قُتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده، فانهارت الثورة، وانفضت جموع الثائرين، ودخل عبد الرحمن المدينة وأمر بتجديد قصبتها، لتكون ملاذًا لأولي الأمر من أوليائه، والمدافعين عن سلطانه، وكان ذلك سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) وهي السنة التي سجلت في اللوحة المذكورة.

ويوجد في الدار الأثرية التي يحتلها اليوم الفندق الوطني Parador Nacional، قناء شو عقود وأعمدة عربية، ومنها عمودان أو ثلاثة عليها كتابات عربية، ولكن ليس بالنقوش البارزة أو الحفرة، وإنما فقط بالكحت البسيط، وهي أدعية وتحيات لا أهمية لها، وربما كانت من صنع بعض الزوار المغاربة في القرن الماضي.

^(١) في لروض المعطل عبد الملك بن كليب بن ثعلبة (ص ١٧٧)

PDF Eraser Free



قشرش، البرج العربي الكبير.



قشرش، بعض العقود العربية الباقية

PDF Eraser Free

هذا ولا بد لنا بهذه المناسبة أن نشير إلى ظاهرة أثرية لها دلالتها التاريخية الهامة. فقد رليت مما تقدم، أن مدينة ماردة تعص بالآثار الرومانية الهامة، وقد كانت هذه الآثار كلها قائمة على حالتها في عهدها الإسلامي، حسبما يشير إلى ذلك صاحب الـروض المعطار^(١)، وبالرغم من كونها تعتبر في نظر المسلمين آثاراً وهياكل وثنية، فإن المسلمين قد أبقوا عليها طيلة حكمهم للمدينة. وهو أمر استطاع أكثر من أربعة قرون. ولئن دلت هذه الظاهرة على شيء، فهو أن الأمة الأندلسية المسلمة، كانت ترتفع في تقدير القيمة الفنية والأثرية لثراث العصور الماضية، إلى مرتبة تسمو على الاعتبارات القومية والدينية، وهذا ما أشرنا إليه في مقدمة هذا الكتاب.

* * *

هذه وتوجد في هذه المنطقة من الأندلس الغربية الشمالية، بعض آثار أندلسية أخرى، نذكر منها ما يلي:

أولاً - توجد في مدينة ترخالة Trujillo، الواقعة في شمال ماردة على مقربة من جنوبي نهر التاجه أطلال حصن أندلسي، وبقية أسوار أندلسية، وتوجد بهذا الحصن لوحة عربية هي شاهد قبر، وقد سقطت ترخاله في أيدي النصارى في سنة ١٢٣٢ م (٦٣٠ هـ)^(٢).

ثانياً - توجد بمدينة قشرش Cáceres، الواقعة غربي ترخاله، وشمالى بطليوس برج أندلسي، وعقود عربية. وما زالت قشرش تحتفظ بطابع العصور الوسطى، وبها أسوار وقصور وأبواب قديمة، وتحمل كنيستها القديمة "سان ماتيو" موقع الجامع القديم.

(١) لروض المعطار ص ١٧٦

(٢) لروض المعطار ص ٦٣

٣ - ولبة

Huelva

الآن سننقل من أرض الفرونثيره وولاية بطليوس، إلى منطقة الغرب أو غربي الأندلس، وهي المنطقة التي حُرفَ اسمها العربي اليوم إلى كلمة Algarve الأوربية.

إن هذه المنطقة التي تمتد غربي مدينة إشبيلية على ساحل المحيط، حتى جنوبي البرتغال، ويخترقها نهر وادي يانة (وادي آنة) العظيم، من أخصب المناطق في شبه الجزيرة الإسبانية، وهي مما يلي جنوب غربي إشبيلية، عبارة عن بسائط خضراء تمتد إلى مرمى البصر، وتزرع بها مختلف المحاصيل، ويتخللها قليل من التلال، وبها مزارع طيبة للماشية، وأكثر ما شاهدناه بها مزارع القمح والكروم وعلبات الزيتون، وممالفت نظرنا أن القطن يزرع فيها في رقاع قليلة، ولكن شجيرات صغيرة ضئيلة.

وتمت هذه البساتين بعد ذلك غربًا في اتجاه نهر وادي يانة، وفرة الخصب متنوعة المحاصيل حتى حدود البرتغال، بيد أنها قبيل مدينة ولبة تكثر بها التلال، وتكثر علبات الزيتون.

ومدينة "ولبة" هي نقر بحري كبير، يقع على شاطئ المحيط الأطلسي عند مصب نهر "لوديل"، ويبلغ سكانها نحو سبعين ألفاً، وهي بيضاوية الرقعة ذات شوارع طويلة، ويزدان شارعها الرئيسي الطويل الذي يخترقها مما يلي البحر بصفتين من التخييل Alameda، وكذلك تزدهن به بعض الميادين، ولكن شوارعها الجانبية من الناحية الأخرى ضيقة.

وهي عتيقة الطراز والمظهر. بيد أنها لا تحمل أية مسحة أندلسية. وأقدم معالمها الأثرية كنيسة "سان بيدرو" وتقع في وسط المدينة، وقد بنيت أولاً عقب سقوط المدينة في يد النصاري مكن المسجد الجامع، ثم جددت بعد ذلك في القرن الخامس عشر، ومازل طراز الجامع ظاهراً في قبتها التي على يمين الداخل، ثم في عقودها الوسطى. وممالفت النظر أنه توجد في كل من جانبيها الشرقي والغربي، نافذة مستديرة عملت على هيئة نوافذ الجامع، وأن بابها يقع في الجنوب، مما يدل على أنه عمل مكان محراب الجامع.

أما كنيسة العظمى "الكاتدرائية" وهي المسماة بكنيسة الرحمة La Merced، فهي قديمة أيضاً وترجع إلى القرن الخامس عشر، ويبدو كذلك أثر الطراز الإسلامي، في عقودها وفي قبتها التي تحاكي قبة المسجد.

وفي ولبة بقية قطرة رومانية قديمة، وتمثال ضخيم لكريستوف كولومبوس مكتشف أمريكا.



ولاية. ميدان وكثيسة سن بيدور

والأثر الأندلسي الوحيد الذي رُفد في مدينة ولاية، هو نافذة أثرية ذات عقدين أندلسيين، بهما زخارف عربية، وتقع هذه النافذة في واجهة منزل عادي يقع فقي شارع "الميناء" C. del Puerto.

وهناك أثر أندلسي آخر في متحف ولاية الإقليمي هو لوحة من الفخار، بيضاوية الشكل، وهي عبارة عن شاهد قبر نقش على وجهه بالخط النسخ ما يأتي:
"الحمد لله وحده، توفي الشاب الطائب المرحوم أبو عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن سعيد بن علي الجبلي رحمه الله وبرد نراة عند الزوال من يوم الاثنين الرابع عشر لذي قعدة عام أحد عشر وثمان مائة".
ونقش في ثيلها "اليمن والإقبال، اليمن والإقبال".

ونقش على وجهها الآخر زخارف حول شجرة الحياة، وتشتهر ولاية بنوع خاص بهتلان فنون الرقص الأندلسي، وهي في ذلك في مقدمة المدن الأندلسية.

وقد سقطت مدينة ولاية في يد القشتاليين في سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م)، بعد سقوط إشبيلية بأعوام ثلاث، وكان الأمير الموحيدي السيد أبو عبد الله، الذي سقطت على يده إشبيلية، قد اشترط أن يعوض عنها بولاية ولاية وشلوفة (سان لوقار) وحصن القصر، وهي كلها تقع غربي إشبيلية، ثم عاد النصارى، فاستولوا على هذه البلاد جميعا خلال بضعة أعوام، ومما هو جدير بالذكر أن مدينة ولاية، هي مدينة لونية القديمة، وبهذا الاسم كانت تسمى في العصر الإسلامي.



ولاية. الشبك العربي نو العقدين

٤ - نَبْلَة

Niebla

إن أهم ما يمتاز به مدينة نبلَة من الناحية الأثرية، هي أنها المدينة الوحيدة، التي مازالت تحتفظ بأسوارها الأندلسية كاملة.

وتقع نبلَة غربي مدينة إشبيلية على بُعد سبعين كيلو متراً منها، على الضفة اليمنى للنهر الأحمر Río Tinto، وهي من أعمال ولاية ولبة، وتبعد نحو ثلاثين كيلو متراً إلى شرقها، وكانت ليام الرومان تسمى Llipla، ومنها اشتق اسمها العربي لنبلَة، وتُعرف أيضاً في الجغرافية العربية "نبلَة الحمراء"^(١).

والمنطقة الممتدة من إشبيلية غرباً إلى نبلَة، ولا سيما في مرحلتها الأولى هي من أخصب المناطق وأغناها بحدائق البرتقال، وغابات الزيتون، وحقول القمح اللينة، وتتكون على الأغلب من رقاع خضراء منبسطة، والوعر بها قليل.

وكانت نبلَة ليام الدولة الإسلامية، قاعدة هامة من قواعد غربي الأندلس، واشتهرت أيام الإمارة والخلافة بثوراتها العديدة ضد حكومة قرطبة، وبمن ظهر فيها من الزعماء والخوارج. وفي أيام الطوائف، قامت في نبلَة إمارة مستقلة تحت حكم بني اليحصبي، واستمرت على استقلالها نحو ثلاثين عاماً، حتى تغلب عليها المعتضد بن عباد، وضمها إلى مملكة إشبيلية، وذلك في سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م).

واستمرت نبلَة في يد المسلمين حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر، في أواخر أيام حكم الموحدين لإسبانيا المسلمة، وقامت بها في ذلك الحين إمارة مستقلة أخرى تحت حكم ابن محفوظ. وحاول القشتاليون في تلك الأثناء افتتاحها غير مرة، وحاصروها في سنة ١١٨٧ م، واستولى عليها أسقف طليطلة خمنيس دي زادا في سنة ١٢٣١ م لمدة قصيرة، ثم عادت إلى المسلمين، وأخيراً حاصرها ألفونسو العاشر ملك قشتالة (العالم)، وانهى بالاستيلاء عليها بعد حصار دام تسعة أشهر. ومما هو جدير بالذكر أن الموحدين استعملوا في هذا الحصار لمدافعة النصارى، آلات تشبه المدافع، تغلف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوي كالرعد، مما يحمل على الاعتقاد، بأنهم ربما كانوا قد وقفوا على سر البارود في هذا العصر المبكر.

(١) معجم البلدان لياقوت تحت كلمة نبلَة، والروض المعطار، صفة جزيرة الأندلس، ص ١٦٨

PDF Eraser Free



لبلّة. واجهة القصر الأندلسي القديم



لبلّة. برج الكنيسة وهو منارة الجامع القديم



لبلّة. بعض أطلال القصر الأندلسي

PDF Eraser Free

وأول ما يلتفت النظر في لبله، هو منظر أسوارها القديمة العالية التي تحيط بها إحاطة تامة إلا من جهة النهر، وهذه الأسوار التي تاور حول المدينة الأندلسية القديمة - وهي تقع فوق ربوة عالية، مستكيرة تقريبًا - هي أسوارها الأندلسية، وهي مازالت على حالها مذ جدها الموحدون في أواخر القرن الثاني عشر، ويبلغ ارتفاعها في المتوسط نحو اثني عشر مترًا، ويبلغ محيطها نحو كيلو مترين.

والمدينة القديمة القائمة داخل الأسوار، هي لبله الأندلسية، وهي مازالت تحافظ بخطتها الأندلسية القديمة، دون تعديلات تذكر، ومازالت شوارعها ودروبها تحمل الطابع الأندلسي الواضح. وقد احتلت كنيساتها، "سانتا ماريا" و"سان مارتين" موقعي المسجدين القديمين، الشرقي والغربي، وقد انتشرت الكنيسة الأخيرة، وبقيت الكنيسة الأولى وحدها، وهي تحتل موقع الجامع حسبما يجيء.

ويقع خارج الأسوار، شارع لبله الرئيسي الممتد غربًا بجنوب نحو ولبة، وقد أقيم على جانبه، المواجه للأسوار، صف طويل من المنازل الحديثة يبلغ طوله نحو كيلو متر. ولبله على العموم بلد هادئ، لا يعنو سكانه بضعة آلاف، وليست بها أية حركة عمرانية ظاهرة.

المعالم الأثرية

وأعظم معالم لبله الأثرية، هو بلا ريب أسوارها الضخمة، التي تمثل منعها القديمة، وموقعها الحصين فوق الربوة العالية، وهو منظر رائع حقًا، لا يدانيه في روعته ومنعته، سوى أسوار آبله الرومانية العربية.

وتتخلل أسوار لبله بوائك عديدة، هي بوائك الأبراج القديمة، وتتخللها كذلك خمسة أبواب قديمة معقودة، أهمها الباب المتجه نحو الشرق، ويسمى باب إشبيلية، وتنتهي الأسوار من ناحيتها الشرقية إلى "النهر الأحمر"، وهي من هذه الناحية بالية منهمة.

الكنيسة الرئيسية: هي كنيسة "سانتا ماريا" المتقدمة الذكر، وهي كنيسة صغيرة متواضعة، وهي قديمة وتحتل موقع المسجد القديم، ومازالت بها عدة من معالم المسجد، فبرجها حسبما هو ظاهر، هو منارة المسجد القديم، وهي مربعة موحدة الطراز، قليلة الارتفاع، ومازالت تحتفظ بكوئنها العربية، وكذلك يبدو أن صحن الكنيسة، إنما هو صحن المسجد القديم، ومازال في جانبه عقدان قديمان، قد سدا بالبنا.

PDF Eraser Free



لبلة. باب إثميلة المتجه شرقاً نحو طريق إثميلة



لبلة. جانب من الأسوار الموحدة الكبرى

PDF Eraser Free

أطلال الحصن أو القصر، وهي بقية كبيرة من أطلال بناء ضخم، مفرقة حول قائمه التاسع، ومنها قطعة كبيرة ذات ضلعين، وله واجهة كبيرة مخربة من الداخل، ويمكن هذا الخرائب أقوام من الفقراء، وهو كثير الرثالة تعافه النفس.

وقد كان هذا موقع القصة الأندلسية أو قصر لبله القديم Alcázar، ولما سقطت لبله في يد القشتاليين في سنة ١٢٥٧ م. وقعت بهذا الصرح الأندلسي تغييرات وإضافات كثيرة، وفي سنة ١٣٦٩ منح هنري (إنريكي) الثاني ملك قشتالة، مدينة لبله، مهراً لإحدى أميرات البيت الملكي، ومنح زوجها لقب "الكونتية"، وحدث لبله من ذلك الحين كونتية" (إسارة)، وتعاقب أصحابها الجدد على حصنها الأندلسي القديم بالتعديل والتجديد، حتى شامت معالمه الأندلسية، وانتهى بأن خربته الزلازل في سنة ١٧٥٥ م. وبقي على حاله من الخراب والعفاء حتى يومنا.

الآثار الأندلسية الباقية

في البرتغال

تمهيد

كانت شبه الجزيرة الإسبانية حينما افتتحها العرب، وحدة جغرافية وسياسية واحدة، وكانت المنطقة الواقعة بين نهر منهو في الشمال والمحيط في الجنوب، وبين نهر وادي يالة شرقاً والمحيط غرباً، وهي التي يطلق عليها اليوم "البرتغال" داخلة في نطاق الأندلس المسلمة، ومقسمة إلى عدة ولايات، ولم توضع لاس البرتغال الحديثة قبل أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

وقد بدأت قواعد هذه المنطقة الغربية من الأندلس تسقط في أيدي النصارى، في عصر مبكر، فسقطت مدينة بورتو (برتغال) في يدهم سنة ٧٦٥ م، مع بعض القواعد الشمالية الأخرى، وامتنع المسلمون في قواعدهم جنوبي نهر دوبرة (الدورو)، واستمروا يحكمون هذه المنطقة في ظل النظام الإقطاعي، حتى أواخر عهد المرابطين، وعندها بدأ سلطانهم في الانحلال، وأخذت هذه القواعد الغربية تسقط تباعاً في أيدي النصارى. وقويت الجيوش النصرانية الغازية، بما كان يفد يومئذ على شواطئ البرتغال، من الجماعات الدينية والصليبية المتطوعة لقتال المسلمين، وكانت مدينة قلّمية Comibra أول قاعدة فقدتها المسلمون، إذ سقطت في يد فرناندو الأول ملك قشتالة في سنة ٩٥٦ هـ (١٠٦٤ م)، ثم تلتها لشبونة (لشبونة) وشنترين، ثم قصر أبي دانس، ثم يابرة، ثم شلب وباجة وشنتمرية الغرب، وكان سقوط هذه القواعد الأندلسية في النصف الأخير من القرن الثاني عشر، والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك حين اضطربت شؤون الأندلس أيما اضطراب، ودبت إليها عوامل الفتنة الشاملة، ونهارت قواها الدفاعية، في أواخر عهد الموحدين.

* * *

وهذا رأينا استكمالاً لعناصر هذا البحث الذي نعتى فيه بنقصي الآثار الأندلسية الباقية، في سائر قواعد الأندلس الذاخرة. لن نعبر إلى البرتغال، ولن نجوس خلال قواعد الأندلسية القديمة، فزرنا منها سبعة هي: لشبونة العاصمة، وشنقرة، وشنترين، ويابرة، وباجة، وشلب، وفارو أو شنتمرية الغرب.

PDF Eraser Free

وكان عبورنا إلى البرتغال من جنوب غربي إسبانيا عن طريق واحة ليامونتي، وذلك لكي نخترق ولاية الغرب الأندلسية القديمة Algrave، ونتعرف خواصها وطبيعتها. وتمتد من واحة نحو الغرب منطقة تكثر فيها التلال، ونقل البساتين، ومع ذلك فمعظمها خضراء، تغطيها غابات الزيتون والصنوبر، وحدائق الفاكهة ولا سيما التين، فإنه يكثر في هذه المنطقة كثرة هائلة، والشجيرة ضخمة تغمرها الثمار.

وقد اتت نظرننا أنه توجد قبل الحدود البرتغالية بلدان تحمل كلتاهما اسمًا عربيًا ظاهرًا، أولاهما بلدة La Mezquita أي "المسجد"، والثانية بلدة "الخرق" Aljarque. وعلى مقربة من حدود البرتغال تكثر البقاع القفراء، تغطيها غابات غزيرة من أشجار التين والزيتون، وتتخللها بعض حقول القطن والبقول، وترى فيها الآبار بكثرة، تستعمل للنري، ثم نلها حتى حدود البرتغال، منطقة كبيرة من المستنقعات والملاحات.

وتقع بلدة الحدود الإسبانية، وهي ثغر ليامونتي الصغير، على الضفة اليمنى لمصب نهر وادي يانة في المحيط الأطلسي، وهو ثغر متواضع يعبر منه إلى الضفة الأخرى، إلى بلدة "فيلا ريال" البرتغالية، في مراكز بخارية ساذجة، تقطع مصب النهر العريض في نحو عشرين دقيقة، وفيلا ريال هي أيضًا بلدة صغيرة ولكن نظيفة مشرقة.

١ - فارو

أو شنتمرية الغرب

Faro – Sta. Maria de Algarve

كانت "فارو" أول مدينة برتغالية قصبتها، وقد قطعت إليها طريق "الغرب" بالسيارة. ولا يكاد يختلف هذا الجزء من ولاية الغرب Algarve، في طبيعته العامة عن نظيره الإسباني، ولكن اليد العاملة قد أسبغت على المنطقة البرتغالية تلوًا وخضرة ورواء لا توجد في المنطقة الإسبانية. وعلى مثل القسم الإسباني، تكثر في هذا القسم أشجار الزيتون والفاكهة، وبعض المحاصيل ولا سيما الذرة.

وتقع بلدة فارو على شاطئ المحيط الأطلسي، على خليج يتخذ شكل نصف دائرة، وهذا الاسم الحديث للبلدة الأندلسية القديمة لا يشير اعتمادًا إلا حين تعرف أن فارو ليست إلا مدينة "شنتمرية الغرب" الأندلسية، التي كانت بها أيام الطوائف دولة صغيرة مستقلة، هي دولة بني هرون، الذين حكموها من سنة ١٠٢٦ إلى سنة ١٠٥٢ م. ثم حكمها بعد ذلك بنو عماد أمراء إشبيلية، واستمرت بعد ذلك تحت حكم المسلمين أيام المرابطين ثم الموحدين. ثم سقطت في يد الفونسو الثالث ملك البرتغال سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون.

واللّٰك ما أورد في وصفها صاحب الروض المعطار: "وشنتمرية على معظم البحر الأعظم، سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد، وهي مدينة متوسطة القدر، حسنة التربة، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها المراكب واردة وصادرة، وهي كثيرة التين والأعقاب، وبينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلًا"^(١).

وفارو مدينة صغيرة أنيقة مشرقة، طيبة الهواء، حديثة المظهر، تخرقها شوارع طويلة ضيقة إلا شارعها الكبير الواقع خارجها، وبها ميادين حسنة مثل ميدان فرنسيسكو كومنس الواقع على البحر، وميدان الكترونية، وليس في أحيائها الخارجية شيء من المظاهر الأندلسية؛ لأن مدينة شنتمرية القديمة كانت حسبما ورد في وصفها السابق تقع لصق البحر، وقد دثرت اليوم، وإن كانت تكل عليها سلسلة من العقود والأطلال الواقعة على مقربة من البحر.

(١) الروض المعطار. صفة جزيرة الأندلس، ص ١١٥

PDF Eraser Free

وأهم هذه العقود العقد المسمى "عقد الحراسة" Arco da Vila، وهو عقد كبير

مزدوج، يفصل بين قوسية، قبر طولاه نحو عشرة أمتار، ويطل على ميدان كومن، وقد ذكر في لوحة ثبتت في داخله، أنه شيد فوق موقع أحد أبواب المدينة القديمة، وفوقه بناء صغير يعلوه صليب وأجراس تحتها ساعة دقاقة.

ومن هذا العقد نجوز إلى ميدان الكندرية، وهناك يوجد عقد آخر عربي الطراز، وعلى بعد نحو مائة وخمسين متراً منه، يوجد عقد ثالث منخفض نوعاً، وكلاهما فيما يرجح، من أبواب المدينة القديمة.

ويوجد عقد رابع، عند قوسه إلى مربع بشكل ظاهر، وعلى جانبه بقية كبيرة من أسوار المدينة القديمة.



قارو عقد الحراسة

وتقع هذه العقود كلها على مقربة من الكندرية، في شبه سلسلة متصلة الخطط، وعلى مقربة من البحر، مما يدل على أنها كانت جميعاً أبواباً في أسوار المدينة الإسلامية.

PDF Eraser Free



فارو، الكنيسة العظمى



فارو، أحد أبواب المدينة الأندلسية



شلب، واجهة الحصن الخارجية

PDF Eraser Free

وتقع الكاتدرائية (الكنيسة العظمى) في شمال المدينة، في ميدان يقضي إليه عقود الحراسة، وهي كنيسة صغيرة، ترجع إلى القرن الخامس عشر، قوطية الطراز، ذات واجهة حجرية ساذجة، تقوم فوق عقد عربي منخفض، وصحنها الداخلي جميل، وقد حُملت عقودها الوسطى والجانبية على طراز عقود الجامع، وزينت عقودها الجانبية بزخارف أنيقة مدببة وبالفسيساء الأندلسية.

ويدل موقع الكاتدرائية في وسط القسم القديم من المدينة، وهو الذي تحمل دروبه ومنازله ملامح الطراز الأندلسي، على أنها تحتل موقع الجامع الذي أشار إليه صاحب الروض المعطار في وصفه المتقدم.

وفي متحف فارو الأركيولوجي، وهو يقع خارجها في نهاية شارعها الكبير الضليل Alameda في كنيسة سان أنتونيو، ثلاث لوحات عليها نقوش عربية وجدت كلها بمدينة شلب، أولها وأهمها لوحة رخامية إنشائية طولها ٩٦ سنتيمتراً، وعرضها ٣٤ سنتيمتراً، وقد كُتب عليها بالخط النسخ عشرة أسطر هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله أمر ببناء هذا البرج الوحيد من... أمير المؤمنين عبد الواحد... (بن) الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن ابن علي تقى الله حسبه وتجاوز مُرسك ربه أرائكه في شهر رمضان المعظم عام أربعة وعشرين وستمائة.

والظاهر أن البرج الذي تشير اللوحة إلى إنشائه هو من أبراج حصن شلب، وإن مؤسسه، وهو من أمراء الموحدين، كان والياً لشلب في هذه الفترة.

وأما اللوحتان الأخريان فهما من شواهد القبور العادية.

كذلك يوجد في متحف فارو بعض آنية وقطع من الفخار الأندلسي.

وميناء فارو قليل العمق، وهو لذلك لا يصلح إلا لإيواء السفن الصغيرة ومعظمها من سفن الصيد، والصيد هو أهم صناعات فارو، وبها حي عظيم للصيادين يقع شمال الميناء، وتضم فارو من السكان اثنين وعشرين ألفاً.

٢ - شلب

Silves

إن المنطقة التي تمتد من فارو أو شنتيمرية الغرب إلى مدينة شلب، وهي أقصى مناطق ولاية الغرب البرتغالية، هي منطقة متباينة الطبيعة، تختلف بين البساتن والتلال، ولكن تغلب عليها الخضرة، وتغطيها أشجار الزيتون بكثرة. ويبدو هذا القسم من ولاية الغرب أكثر تضرة وخصباً، من أي قسم آخر فيه، وتكثر فيه الحدائق والحقول الملائمة، وتبدو فيه آثار العناية الفائقة بخدمة الأرض وتنسيقها، وحسن استغلالها.

دخلت إلى مدينة شلب في صبحي النهار، واخرقت أحباءها البسيطة الساحرة، ومخيلتي تضطرم بذكريات بعيدة. أجل إن شلب هذه هي بلدة الشاعر الكبير أبي بكر بن عمر وزير المعتمد على الله العبداني، وقد ولد بقرية من أرباضها تسمى "شلبوس"^(١). ثم كان بعد ذلك حاكمها من قبل المعتمد. وكان المعتمد أيام شبابه، في عهد والده المعتمد، حاكماً لشلب (٥٥٥ هـ - ٦٠٦٣ م)، وكان يعاونه في حكمها يومئذ أمينه أبو بكر بن عمار، وهو مثله فتى في عبقريته. وقد تركت حياة المعتمد في شلب، وما نقلت فيه في ربوعها الجميلة من مجالس اللهو والأشهر، في نفسه ذكريات عميقة، تصورها لنا تلك الأبيات التي نظمها المعتمد مخاطباً لصديقه ورقيق صباه ابن عمار، حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها:

ألا حيّ أو طائي بشلب أبا بكر	وسلن هن عهد الوصال كما أدري
وسلم على قصر الشرايين من فتى	له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وببيض نواجم	فناهيك من غيل وناهيك من خدر
فكم نيئة قد بت أنعم جناحها	بمخضبة الأرواف مجدبة الخصر
وببيض وسمر فاعلات بمهجتي	فعل الصفاح البيض والأسل السم
ونيل يمد النهر ليلاً قطعه	بذات سوار مثل منعطف الندر
نضت بردها عن غصن بانٍ منعجم	نضير كما انشق الكمام عن الزهر

ويصف لنا صاحب القلائد، قصر الشرايين هذا وروعته وبهاءه، وما كان ينعم به المعتمد فيه أيام شبابه، من ضروب اللهو والسعادة، ثم يقول مشيراً إلى شلب:

^(١) وهي اليوم غربة Estombar البرتغالية

PDF Eraser Free

”وكان يعبدها مجنى آماله، ومنتهى أعماله، يميل إلى بهجة جناتها، وطين نفلتها وهباتها، والتفاف خمالتها، ونقلها بنهرها مكان حملتها“^(١).

ويفيض صاحب الروض المعطار في ذكر شلب وسقوطها في يد النصاري، واسترداد المسلمين نها، ويصفها بقوله:

”وعلينا سور حصين، ولها ثلاث وجنات، وشرب أهلها من وائيا الجاري إليها من جهة جنوبها، وعليه أرجاء البنا، والبحر منها في الغرب على ثلاثة أميال، والمدينة ذاتها حصة البناء مرتبة الأسواق، وأهلها وسكان قراها غرب من اليمن وغيرها“^(٢).

تلك هي شلب الأندلس التي ملأت ذكرياتها ذهني، حينما جرت إليها أقصى ملامحها الأندلسية.

وكانت شلب أيام عهدنا الإسلامي قاعدة ولاية الغرب، وقد قامت بها أيام الطوائف دولة مستقلة في ظل بني مزين (١٠٤٨ - ١٠٦٣ م) ثم استولى عليها بنو عباد، وأصبحت جزءاً من مملكة إشبيلية. وفي عهد المرابطين قامت بها ولاية مستقلة، ثم استولى عليها الموحدون، وبقيت تحت حكمهم حتى انتزعها النصاري منهم سنة ١١٨٩ م. ثم استردها الموحدون في العام التالي، واستمرت في أيديهم حتى افتتحها النصاري من يد المنصور آخر ولاتها من الموحدين في سنة ١٢٤٢ م (٦٤٠ هـ)، وذلك في الوقت الذي فقد فيه المسلمون جنوبي البرتغال كله.

وشلب - وهي تنطق بالبرتغالية (سلفس) Silves - مدينة صغيرة تقع في أقصى جنوبي البرتغال. على مقربة من المحيط فوق ربوة متدرجة، تشرف على نهر أرا Arade الذي يصب في المحيط، قرب ثغر بورتماو الصغير.

(١) ثلاثة العقبان ص ٣٦

(٢) الروض المعطار. صفة جزيرة الأندلس. ص ١٠٦

PDF Eraser Free



شلب، منظر عام للحصن الأماني



شلب، أحد جوارب الحصن



شلب، بعض أبراج الحصن الداخلية

PDF Eraser Free

وتبدأ الزبوة صاعدة من الوادي الذي يخترقه النهر، حتى تستوي مع الحصن، ودروبها قصيرة ملتوية، وأحياناً غير منسقة ولكن جميلة مؤثرة، ولها طابع خاص يغلب عليه القدم، ومظاهر العصور الوسطى، ومنازلها كثيرة الألوان ذات طابقين أو ثلاثة، وتحيط التلال العالية بالمدينة، إلا من ناحية مدخلها فوق النهر، حيث تقوم القنطرة العريقة القديمة، وهي قنطرة حجرية ذات أربعة عقود، تصل المدينة بالطريق الكبرى، وهذا على جانبي المدينة تمتد البساتن الخضراء والحقول البانعة.

وفي شلب أثر أندلسي هام، هو حصنها القديم المنيع، وهو حصن كبير يشغل رقعة شاسعة، تكور حولها أسوار وأبراجه العديدة، في شبه دائرة، وتوجد من أبراجه ستة كاملة وعدة أخرى غير كاملة، وله مدخل ضخم معقود يفضي إلى ساحة كبيرة سقفها مقبب، وبرجه الكبير فوق المدخل ذو سقف معقود، وفي نهايته برج مسقوف آخر، وهو ظاهر المئذنة، يقوم فوق صخرة عالية تشرق على المدينة كلها. والظاهر إنه كان يمتد إلى مسافة كبيرة أخرى إذ يوجد على مقربة منه في طرف المدينة برجان آخران، وعقد كبير، وبقية أسوار، وهي كلها من نفس الطراز، ومن نفس الحجارة، والظاهر أيضاً أن الحصن (أو القصبه) كان يضم بين أسواره في نفس الوقت قصر شلب، الذي كان يقيم فيه الأمير أو الحاكم.

فهل تكون ثمة علاقة بين هذا الأثر، وبين قصر الشراحيب الذي تغنى به ابن عبد الله شعراء المتقدم؟ وهل يكون موقع الحصن متضمناً لموقع القصر المذكور؟ ربما.

وبدل موقع الحصن وأسواره السفلى، ومظاهرها كلها، على ما كانت تتمتع به مدينة شلب في العصور الوسطى من المنعة، وقد كانت في الواقع من أقوى وأمنع المدن الأندلسية النائية، ولها أسوار وقلاع عظيمة.

وقد كان هذا الحصن الأندلسي يستعمل في العصر الحديث سجناً.

وتقع الكنيسة العظمى في مواجهة الحصن، على نفس الزبوة من ناحية المدينة، وهي كنيسة صغيرة عتيقة ذات مدخل وعقود قوطية، وقد كانت من قبل كاتدرائية، وشيئت فوق موقع جامع شلب منذ سقوط المدينة لأول مرة في يد النصارى في سنة ١١٨٩ م.



شلب. كنيسة العظمى

ويوجد في وسط المدينة طلال قديم، هو عبارة عن ثلاثة عقود متصلة عالية، يتلوها في طريق الحصن عقد خفيض، وتتصل بهذه العقود أجزاء من سور قديم هو فيما يرجع سور المدينة الأندلسية القديمة. والظاهر من تجمع أحياء شلب الحديثة بين النهر وبين أسفل الربوة، ومن مظاهر دروبها الصخرية الصاعدة نحو الحصن أو القصبة، أنها تحتل مواقع المدينة الأندلسية دون تغيير كبير.

وشاب مدينة كثيرة الحركة والنشاط بالرغم من صغرها، وتضم من السكان نحو اثني عشر ألفاً.

٣ - باجة

Beja

تقع باجة في النصف الجنوبي لولاية "النتيجو" Alentejo، جنوب شرقي لشبونة. وتمتاز هذه المنطقة بتباين الطبيعة فيها، ففي جنوب ولاية "النتيجو" مما يتصل منها بولاية الغرب، تكثر التلال والرقاخ الجرداء، ولكن يلاحظ دائماً أن أثر اليد العاملة هنا، وفي سائر بقاع البرتغال، أكثر ظهوراً منها في البقاع الإسبانية المعادلة. سواء في البساتن أو في المرتفعات، حيث تنمو الأشجار دائماً، والمحاصيل أحياناً فوق التلال المتدرجة. وفي جنوب باجة مباشرة تكثر البساتن الخضراء، ويلاحظ أن التربة هنا سوداء، والأشجار قليلة، ومعظم الرقاع حقول يانعة تغطيها المحاصيل المختلفة.

وباجة مدينة قديمة جداً، وقد كانت في العصر الروماني تسمى Pax Julia، ومن ثم كان الاسم الذي اختاره لها الفاتحون المسلمون. وتعرف الرواية الإسلامية هذه الحقيقة، وتعرف معنى اسمها الروماني، فقد ذكر لنا صاحب الروض المعطر في كلامه عن باجة ما يأتي:

"ومدينة باجة أقدم مدن الأندلس شيئاً، وأولها اختطاطاً، وإليها انتهى يوليش القيصر، وهو الذي سماها "باجة"، وتفسير "باجة" في كلام العجم "الصلاح"، وحوز باجة وخطتها واسعة، ولها معازل موصوفة بالمنعة والحصانة" (١).

وقد ذكرت حينما وصلت إلى باجة اسمين شهيرين يتصلان بتاريخها، وينسبان إليها، أولهما عائل صاحبه في عصر الفتح الإسلامي، هو الحبر العلامة إيزيدور "الباجي"، وهو الذي ترك لنا باللاتينية رواية ضافية عن حوادث الفتح وما تلاه حتى سنة ٧٥٤ م. وثانيهما العلامة الأندلسي الإمام القاضي أبو الوليد الباجي، سليمان بن خلف شارح كتاب "الموطأ"، والمتوفى سنة ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م).

وقد سقطت باجة في يد النصارى سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م)، في الوقت الذي هاجم فيه البرتغاليون، بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكز، مدينة بطليوس لأول مرة، فاستولوا عليها، ثم

(١) الروض المعطر، صفة جزيرة الأندلس، ص ٣٩.

PDF Eraser Free

استردها المسلمون منهم على الفور، واحتفظ النصارى بمدينة باجة، واقتحوا في نفس الوقت من البرتغال الوسطى، وفي مقدمتها مدينة لشبونة (لشبونة).

وباجة مدينة كبيرة تبدو شجرة عابسة قوية، وتقع فوق ربوة صخرية مرتفعة، وهي من الداخل حديثة المظهر، بها شوارع وميادين شاسعة جميلة، وبها كذلك طائفة من الدروب القديمة الضيقة، ولكنها أنظف من أمثالها من دروب المدن الإسبانية الأندلسية وأوسع، وهي قليلة الحركة قليلة المتاجر والمقاهي، وشوارعها صاعدة، وناحيتها الشمالية منحدرية نحو الوادي، ومصعدة نحو داخل المدينة، وربوة الحصن. وفي باجة من السكان نحو ثلاثين ألفاً.

* * *



والحديث عن الآثار الأندلسية في باجة ذو مجال ضيق. والواقع إن باجة لا تضم كثيراً من الآثار القديمة. هنالك من هذه الآثار عقدان قديمان وبقيّة أسوار. فالأول الأول فهو العقد المسمى الباب الأندلسي Porta Moura، وهو قوس ضخمة يقع شمال المدينة عند مخرجها نحو الوادي. يبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار، وعرضه نحو ستة، ويسمكه نحو مترين، وهو مبني من الحجارة الصلدة القوية، وإلى يساره بقية من سور قديم، ويبدو من اسم هذا العقد ومن طرازه أنه من أبواب المدينة الأندلسية القديمة، وأن ما يتصل به من الأسوار، إنما هو بقية من أسوارها.

باجة. عقد "بابرة"

والثاني هو العقد المسمى "عقد بابرة" Arco de Évora، وهو عقد صخري قديم، يقع تجاه برج الحصن الكبير، الذي نتحدث عنه بعد، والمرجح في شأنه أنه يرجع إلى أصل روماني.

وقد رأيت في باجة عقدين آخرين؛ أحدهما عقد عريض مزدوج، يقع على مقربة من دير "كونسيسوا"، ويبدو من طرازه العربي، أنه من أبواب المدينة الأندلسية، والثاني يقع على مقربة من دار البلدية، ويبدو أنه حديث نوعاً، كما يوجد عقد ثالث في نهاية المدينة من الجنوب، يبدو كذلك أنه يرجع إلى العصر النصراني.

وأهم صروح باجة الأثرية هو بلا ريب حصنها الواقع في طرفها الغربي، على ربوة عالية تشرق على الوادي المجاور. وهو حصن متوسط الحجم أسس سنة ١٣٠٢ م. في عصر الملك دنيش، على أنقاض حصن روماني سابق، وربما أيضاً على أنقاض حصن أندلسي، سبق

PDF Eraser Free

تشبيده على أنقاض سلفه الروماني، ويبدو عليه طابع الحصون النصرانية، وله برج كبير يرسو على الأرض يبلغ ارتفاعه واحدًا وأربعين مترًا، وقد حُملت في وسطه نوافذ معقودة فوق عقد كل منها فراغ في شكل الصليب، وقبل نهايته بنحو خمسة أمتار توجد مشرفة تدور حوله، ومنها تری المدينة في أروع مناظرها.

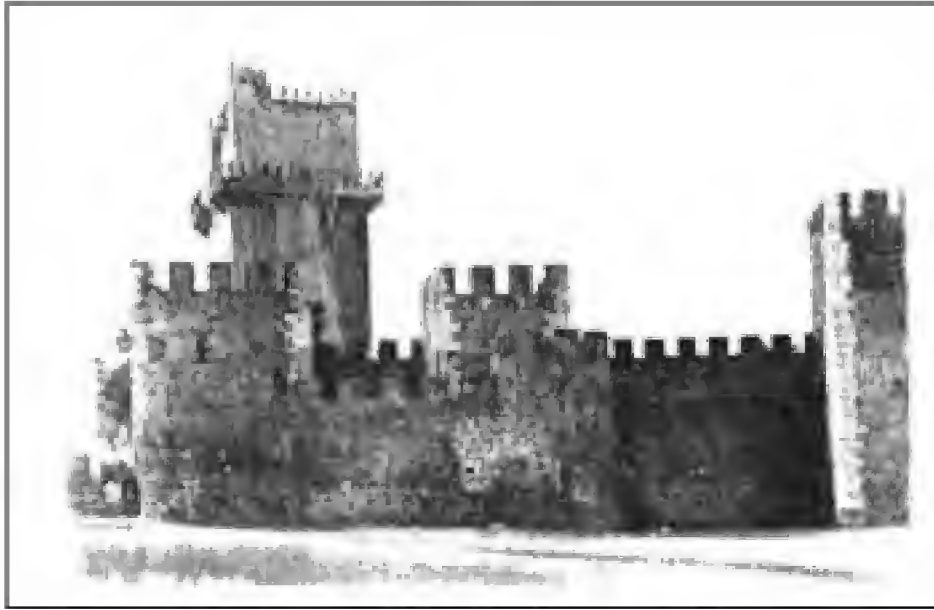
ويقال إن قسم الحصن الواقع في ناحيته اليمنى، والمواجه لكنيسة سانتياجو القريبة، يرجع إلى العصر الأندلسي، وفيه برج كامل يليه برج آخر، وله فناء ذو مدخل معقود.

ويبدو باجة من أعلى البرج الكبير، متينة ضخمة مستديرة الرقعة، عالية المباني، واقعة فوق ربو قليلة الارتفاع، ومن حولها بسائط شاسعة، تغطيها المحاصيل، ويُرَى النخيل ظاهراً في بعض أماكنها الداخلية، ويبدو كنيسها القديمة المسماة سانتا ماريّا في طرفها الشرقي، مقابل الحصن الذي يقع بعيداً في طرفها الغربي.

وكنيسة سانتا ماريّا هذه هي أقدم كنائس باجة، وهي كنيسها العظمى، وهي صغيرة الحجم، ولكن فخمة ذات عقود قوطية عالية وزخارف جميلة، وتقع في منخفض قريب من السوق، ومن دير "كوسيسوا" الذي نتحدث عنه بعد.

وتوجد ثمة عدة كنائس أثرية أخرى، منها كنيسة سان أندريس وهي صومعة ذات طرز روماني وأعمدة خارجية، وتقع في طرف المدينة بعد الحصن، وكنيسة سانتياجو، وهي حديثة وتقع بجوار الحصن، وكنيسة الرحمة "سركورديا"، وهي عبارة عن مربع معقود في كل ضلع من أضلاعه ثلاثة عقود مسجدية الطراز، وليس لها صحن ولا برج أجراس، وتقع في ميدان البلدية.

PDF Eraser Free



باجة، منظر عام للحصن



باجة، عقد داخل المدينة



باجة، كنيسة الزخعة ذات العقود العربية

PDF Eraser Free

وتوجد في متحف باجة طائفة من التحف الأندلسية. ويقع هذا المتحف في الدير المسمى دير "كونسيپسيون" Concepción، وهو دير قديم له صحن مربع على الطراز القوطي، وقد زينت جدرانه بالزليخ الموريسكي المجلوب من إسبيلية، وفي داخله مصلى مستطيل زينت جوانبه بزخارف وتمائيل مذهبة، ترجع إلى عصر الإحياء.

وقد رأينا بين معروضات هذا المتحف عدة قطع أندلسية، منها في الطابق الأسفل:

- ١- قطعة حجرية هي جزء من شاهد قبر، عليه كلمات عربية مكتورة.
 - ٢- لوحتان أخريان من شواهد القبور، أولاهما شاهد قبر امرأة توفيت سنة ١٤٤٠ هـ، وثانيهما شاهد قبر لرجل توفي في سنة ٥٦١ هـ، وهي لوحة غير كاملة ومكتوبة بأحرف كوفية.
 - ٣- بضع قطع من الفخار الأندلسي، وبضع لوحات من الموزايك الموريسكي.
- ورأينا في بهو الدير الأعلى أربع لوحات خشبية عليها كتابات عربية، ثلاثة منها سطررت عليها آيات قرآنية، والرابعة كتبت عليها بعض أدعية إسلامية.
- ومجموعة من الآنية الخزفية اللامعة ذات الزخارف البديعة، وهي ترجع إلى عصر الموريسكيين.

٤ - يابرة

Evora

يابرة هي عاصمة ولاية "النيجو"، وهي مثل باجة ترجع إلى العصر الروماني حيث كانت تسمى Eborā، وما زالت تقوم بها بعض الآثار الرومانية الهامة.

وتقع يابرة شمالي باجة، وجنوب شرقي لشبونة، على مقربة من مدينة بطليوس، وبينها وبين باجة منطقة شاسعة من البساتين الخصبة، تغطيها المحاصيل المختلفة، وطبقات الزيتون.

وقد كانت يابرة أيام الطوائف، من أعمال مملكة بطليوس، التي حكمها بنو الأفطس حينئذ، حتى سقطت دولتهم بسقوط بطليوس في أيدي المرابطين سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٣ م)، وقتل المرابطون آخر ملوكها عمر المتوكل وولديه، وكانت ملأى مروعة نظم في رذائلها الشاعر الكبير، عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأسباح والصور
أنهك أنك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الثيث والظفر

وابن عبدون هو من أهل يابرة، وما زال اسمه يقرون باسمها، في كتب التاريخ والأدب البرتغالية.

وقد سقطت يابرة في يد النصارى سنة ١١٦٥ م (٥٦١ هـ)، استولى عليها بطريق المباحنة الفارس جبرئيل سمبافور (الباسل)، في جماعة كبيرة من المتطوعين النصارى والمستعمرين والمغامرين، ثم سلمها بعد ذلك للملك ألفونسو هنريكز، فصارت جزءاً من مملكة البرتغال الناشئة. وحاول الموحدون استعادتها بعد ذلك، بقيادة السلطان يعقوب المنصور، فامتنعت عنهم وبقيت في حوزة النصارى.

* * *

ويابرة مدينة كبيرة جميلة منسقة الشوارع، فسحة الميادين، شتية بالمنشآت الأثرية، من كنائس وقصور وحفود وغيرها، ويوصل إليها خلال شارع طويل تظله الأشجار، وتتفرغ منه شوارع جانبية ضيقة أيضاً، وعلى جانبيه عدد من مداخل المدينة حدائق غناء. وشوارعها على العموم طويلة مشرقة، والدروب في أحيائها الشعبية ضيقة، ولكن نظيفة. وأكبر وأجمل

PDF Eraser Free

مياينها ميدان جبرالطور، وهو اسم فاتحها، وميدان كندرية، وبها منارة عظيم أسفل القصر الملكي السابق. ومما يلفت النظر أنها تضم عدة شوارع ذات جوانب معقودة متصلة. وهذا الطراز من الشوارع يسبق عليها طابعاً خاصاً، كذلك يوجد بها كثير من الشوارع الصاعدة، التي تذكرنا بالدروب الأندلسية القديمة في المدن الإسبانية، واللون الأبيض غالب على أبنيتها.

وتشغل يابرة رقعة كبيرة من الأرض مستديرة تقريباً، ومعظمها قائم على بسيط مستو، إلا بعض أحياء قليلة منها، مثل الحي الصاعد الذي يتجه نحو الكندرية، والحركة في شوارعها هادئة، منتظمة، ويبلغ سكانها زهاء خمسة وثلاثين ألفاً.

ويوجد في يابرة طائفة من الآثار الرومانية الهامة، أولها: معبد روماني يرجع إلى القرن الثالث الميلادي، وهو عبارة عن مربع تقوم فيه ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية الجميلة، ويسمى "معبد ديتا" وهو اسم حديث نوفا، والمعبد في مجموعته يتبع المنظر، ويعتبر من أروع الآثار الرومانية في شبه الجزيرة الإسبانية وأكثرها سلامة وجدة، وهو يقع فوق بقعة مرتفعة على مقربة من الكندرية.

وثانيها: القنطرة الرومانية لجانب الماء وسط المدينة، وقد بقيت منها عقود كثيرة في صفين، ولكن معظمها قد أدخل في الأبنية المجاورة، ولم يبق مفتوحاً منها سوى ثلاثة عقود، اثنان منها في اتجاه، وواحد في اتجاه آخر، وتقع هذه القنطرة قرب دار البريد.

وثالثها: العقد الروماني الواقع بجوار دار البريد من الناحية الأخرى، وهو المسمى عقد تونيا إيزابيل، وهو عقد صخري منيع منخفض، يبلغ عرضه أربعة أمتار وارتفاعه أربعة ونصف، وهو مثلث الأركان، وفوقه بقية ضئيلة من السور القديمة. والمقول إنه من أبواب الأسوار الرومانية القوطية التي كانت تحيط بالمدينة، والتي أصلها المسلمون واستخدموها فيما بعد. أما اسمه الحالي وهو عقد "تونيا إيزابيل"، فيرجع إلى مجاورته لدار كانت لصلحية هذا الاسم.

وأما عن أسوار يابرة القديمة، فإنه يوجد منها جزء صغير داخل المدينة، على مقربة من مؤخرة الكندرية، وبها عقد. وقد تعذر علينا البت في أمرها، نظراً لأنها قد غطيت بالبياض، ولكننا نرجح أنها من الأسوار التي كانت قائمة في العهد الإسلامي، سواء أكانت في الأصل رومانية أو قوطية.

PDF Eraser Free



بابرة، عقود القنطرة الرومانية



بابرة، واجهة الكنيسة العظمى



بابرة، الصحن الملاصق للكنيسة العظمى ذو العقود والمشارف العربية

PDF Eraser Free

وترجع كنيسة يابرة العظمى (الكندرائية) La Se إلى أواخر القرن الثاني عشر. والظاهر أنها أقيمت في البداية على موقع المسجد الجامع عقب افتتاح النصارى للمدينة، يدل على ذلك موقعها وسط المدينة، فوق مرتفع من الأرض. وفي قلب الأحياء القديمة.

ثم قامت مكانها الكندرائية الحالية منذ القرن الثالث عشر. وهي كنيسة عظيمة فخمة ذات عقود قوطية عالية، كثيرة الزخارف الذهبية، وقد لفت نظرنا أن رواقها الأعلى الدائر حول عقودها، قد زين بالشرفات العربية الجميلة، وكذلك زينت أروقة الجانبين من يمين الهيكل ويساره بمثل هذه الشرفات، وهو ما يدل على أن الفن الأندلسي، أو بعبارة أصح الفن المذجني، كان ما يزال قوي التأثير في العمارة النصرانية.

وثاني كنائس يابرة في الأهمية والقدم هي كنيسة سان فرانسيسكو، وهي ترجع إلى أواخر القرن الخامس عشر، وقد بُنيت على طراز خاص، فأقيمت عقودها في الجانبين على مثل عقود الجامع، وشملت في جوانب العقود الكبيرة عقود صغيرة، وصنعها عبارة عن بهو قوطي طويل، يمتد من الباب حتى الهيكل، وهي بادية الزوعة والفخامة.

وتوجد ثمة عدة كنائس وأبيرة أثرية أخرى، منها دير وكنيسة "لاجراسا" La Graça، وهو صرح يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر، وقد خربت الكنيسة وحول الدبر إلى كنيسة صكرية، وله صحن أندلسي جميل ذو عقود عربية وأعمدة رشيقة. وكنيسة سان برانس، وهي ترجع إلى القرن الخامس عشر، وهي عبارة عن معبد، يبدو بعقوده وجناباته المستديرة على شكل قلعة، ويقع خارج يابرة، في طريقها الكبير الظليل.

وفي يابرة جامعة قديمة يرجع إنشاؤها إلى القرن السادس عشر، وهي عبارة عن كنيسة واحدة للأدب، ولها فناء جميل ذو جوانب معقودة على الطراز الأندلسي.

ومتحف يابرة الإقليمي غني بالآثار الرومانية من تماثيل ولوحات ونولوين ومجمرها، وبه كذلك طائفة حسنة من آثار عصر الإحياء. وقد رأينا فيه من الآثار الأندلسية ثلاث لوحات من الرخام، عليها كتابة وزخارف عربية من آيات قرآنية ومجمرها، كما رأينا ركن عمود صغير ذي زخارف عربية.

٥ - لشبونة

Lisboa

إن مدينة لشبونة أو لشبونة (بالبرتغالية لشبوا) عاصمة البرتغال، هي بلا ريب من أجمل وأحدث العواصم الأوروبية.

والتحدث عن العاصمة البرتغالية، وعن ضواحيها ومظاهرها العمرانية الحديثة وعن تنسيق خططها، وضخامة أحيائها وميادينها، يقتضي إضافة لا يتسع لها موضوع هذا الكتاب، الذي نحاول أن نتقصى فيه الآثار الأدلسية الباقية، وأن نؤثرها بالتعيين والوصف، ومن ثم فإننا نكتفي بأن نتحدث عن العاصمة البرتغالية الحديثة حديثاً سريعاً عابراً.

وتتمتع لشبونة بموقع طبيعي يذيع على مصب نهر التاجه، في المحيط الأطلنطي، وتشغل سلسلة من التلال المتدرجة التي تقع شرقي هذا المصب، ومن الغرب المدهش أن هذه العاصمة العصرية الجميلة، لا تصل إليها الخطوط الحديدية الممتدة من الجنوب والشرق (من إسبانيا) مباشرة، بل يجب أن تعبر إليها مصب النهر في سفينة بخارية. وقد آتت مرارة هذه المفاجأة، حينما وصلت إلى لشبونة في المساء المتأخر، قادمًا من باجة وبابرة، وعجبت كيف تقصر البرتغال - هذه البلاد الغنية ذات الإمبراطورية الاستعمارية الضخمة لعاقبة^(١) - عن أن تقيم لعاصمتها جسرًا حديثًا على مصب النهر، يربطها بالجنوب والشرق.

وتنقسم لشبونة إلى قسمين عظيمين، لشبونة الشرقية وتسمى "ألفاما" Alfama وهي المدينة القديمة، ولشبونة الغربية وهي المدينة الحديثة.

ولشبونة مدينة عظيمة حقًا، ووفرة الزواعة والبهاء، ذات شوارع واسعة وميادين ضخمة، وأحياء عصرية جميلة، تغص بالصروح العالية الفخمة من أحدث طراز. وهي تضم عدة من الشوارع المدينة الضخمة، قلما يجتمع مثلها في عاصمة أوروبية متوسطة، مثل شارع "الأميرال ريس" و"شارع الجمهورية" و"شارع الهند" و"شارع ٢٤ يوليو" وغيرها. بيد أن أشهر شوارعها وأجملها، هو بلا ريب شارع الحرية Avenida da Liberdade الذي يخترق قسمها الحيوي، ممتدًا من ميدان المركز دي بومبال، وهو من أعظم وأبدع ميادينها، حتى

^(١) شهدت وأنا بالهك (ديسمبر ١٩٦١) لنهار أول حجر في صرح إمبراطورية البرتغال الاستعمارية، وذلك باستيلاء هك على مستعمرة "جوا" البرتغالية القديمة.

PDF Eraser Free

ميدان رسيو Rasio، ويمتاز شارع الحرية بسعته وجمال تخطيطه، وما يتوسطه من المتنزهات الظليلة الجميلة من أوله إلى آخره. وتجتمع أحياء الأعمال والتجارة على جانبي هذا الشارع الفخم، وحول ميدان رسيو، والميدان الذي يليه وهو ميدان "رستورانورس". وتجمع في هذه المنطقة أعظم المتاجر والمقاهي والمكتبات، ويترى النخيل في مدينة لشبونة، في الميادين والشوارع والمتنزهات، وأحياناً في المنازل على نمط ما هو حادث في المدن الإسبانية الجنوبية.

ويبلغ سكان هذه العاصمة الضخمة أكثر من سبعمائة ألف نسمة.

تلك هي مدينة لشبونة الحديثة، ومن بعد هذين الميدانين العظيمين رسيو ورستورانورس، تتجه المدينة شرقاً نحو النهر. ويخترقها في هذا القسم عدة من الدروب والأحياء التاريخية القديمة. وهذا القسم من لشبونة هو الذي يسمى "ألفاما" حسبما تقدم وهو الذي يهمنا هنا.

* * *

والواقع إن لشبونة مدينة قديمة ترجع إلى العصر الروماني، وكانت عندئذ تسمى "أليسيبو" Olisipo، فلما افتتحها المسلمون عقب فتح إسبانيا بقليل، سموها "ألشيبونة" أو "لشبونة" ^(١)، وكانت أيام الدولة الإسلامية تابعة لكرورة باجة، وحكمها المسلمون زهاء أربعة قرون ونصف، ثم استولى عليها البرتغاليون بقيادة ملكهم ألفونسو هنريكي في سنة ١١٤٧ م (٥٤٦ هـ)، بعد حصار دام بضعة أشهر، وكان يعاونه عندئذ في قتال المسلمين جماعات من المتطوعة الصليبيين من الإنجليز والهولنديين، الذين كانوا في طريقهم إلى الشام. وفي سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) حاول الموحدون بقيادة السلطان يعقوب المنصور استعادتها، فلم يفلحوا، ومما هو جدير بالذكر أن لشبونة، كانت أيام المسلمين، هي الميناء الذي خرج منه الإخوة المغرورون في مركبهم لاستكشاف بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي)، وتتلخص قصة هذه المغامرة البحرية الشهيرة، التي ينفرد الشريف الإدريسي بذكرها في معجمه الجغرافي، في أن ثمانية إخوة أو أبناء عم، خرجوا من ثغر لشبونة، في مركب كبير مشحون بالزاد والماء بكفي لأشهر، وساروا في "بحر الظلمات" في اتجاه الغرب أحد عشر يوماً، ثم ساروا جنوباً مدى اثني عشر يوماً أخرى، في بحر كدر عالي الأمواج، حتى وصلوا إلى جزيرة بها أغنام كثيرة، لا تؤكل لحومها لمرارتها، فتركوها واستمروا في المسير نحو الجنوب، مدى اثني عشر يوماً أخرى، حتى لاحت لهم جزيرة، رلوا بها رجالاً عمالقة، ونساء فائقت في

(١) الروض المطار ص ١٦

PDF Eraser Free

الحسن، فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أيامًا، حتى جرت الريح الشرقية، فوضعهم في سفينة معصوبي الأعين، وسارت بهم أيامًا حتى رست في مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبي، وابتدأ من تفاصيل هذه الرحلة، أن أولئك المغامرين الأندلسيين، قد اكتشفوا بعض جزر الكناري، أو جزر الراس الأخضر الواقعة غربي السنغال، ويمكن كذلك إذا توسعنا في تقدير المدى الذي وصل إليه الإخوة المغرورون في رحلتهم نحو الجنوب، وإذا تركنا جانبًا ما تدلي به قصة جزيرة العمالق، أن نفترض أن الإخوة المغرورين، ربما وصلوا في رحلتهم جنوبًا حتى مياه أمريكا الجنوبية الشرقية^(١).

ولا يوجد اليوم في لشبونة (لشبونة) ما يذكرنا بماضيها الأندلسي، سوى بعض الأطلال نوارس، تجتمع فوق الربوة العالية التي تتوسط قسمها الشرقي "القلم"، وبعض عقود قديمة تعين لنا موضع أسوارها الإسلامية. ولن يفوت الباحث المتجول في هذا القسم من لشبونة، أن يستشف من خواصه ودروبه الصاعدة ملامح المدينة الأندلسية.

فأما هذه الأطلال النوارس التي تجتمع فوق الربوة العالية في "القلم"، فهي أطلال القسبة الأندلسية القديمة، وهي التي تسمى اليوم بحصن القديس جورج Castelo da St. Jorge، وهي أطلال مازالت تحمل - برغم ما توالى عليها من التغيير والتعديل - ملامح طرازها العربي.



لشبونة. أطلال القسبة الأندلسية المسماة حصن القديس جورج

^(١) راجع تفاصيل ذلك في ترجمة المشتاق للشيخ الإفريقي، المختصر (طبع روم) ص ١٨٢ - ١٨٥. وراجع مقالاً لي في تلك الموضوع نُشر في مجلة الهلال في عدد يولييه سنة ١٩٣٤.

PDF Eraser Free

وتشرف هذه الربوة على المدينة القديمة كلها، وتشرف على مصب نهر التاجه. وتقع أطلال الحصن في طرفها المشرّف على النهر، وهي عبارة عن مجموعة كبيرة مفرقة من العقود والأبراج والأسوار، ومدخل الحصن عقد عربي، وكذلك عقد مدخل القناء الداخلي، الذي تحيط به أبراج الحصن. ويوجد ثمة بعد هذا القناء الأول، قناء آخر يوصل إليه عقد ثالث، وأقيم أجزاء الحصن فيما يبدو هو الجزء الواقع على يمين برجيه الرئيسي - برج المدخل - وهو الذي يبدو طرازه العربي واضحًا. وقد بقيت صفوف من سارياته الداخلية على حالها القديم، وأصلح البعض الآخر، وأضيفت إليه أبراج من صنع متأخر. وفيه صنف من الغرف العليا، والسفلية التي تحتها من ناحية واجهة المدخل، يبدو أنها كانت تستعمل سجنًا في بعض العصور. وتوجد حول الحصن أطلال كثيرة مبعثرة هنا وهناك، مما يدل على أنه كان يشغل مساحة أكثر من تلك التي يشغلها الآن. وتقع خارج الحصن بقية سور قديم، يبدو أنه جزء من سور الحصن الخارجي، وأمامه عقد مجدد، ولكن الجزء الذي فوقه من السور يدل على قدمه، كما يدل على أنه كان مدخل الحصن من ناحية المدينة.

وتقدم مشارف الحصن من عل، منظرًا رائعًا لمدينة لشبونة، مطلة على نهر التاجه ومصبه ذي اللسان الداخلي، ويعتبر هذا الأثر اليوم أثرًا قوميًا، وتحيط به حديقة غناء. ويربط بين الكندرية وبين حصن سان جورج الواقع فوق الربوة ممر سري، هو الذي كان يوصل بين الجامع والقصبة الأندلسية.

وموقع الكندرية مكان الجامع في وسط لشبونة الشرقية (الغاما)، وهي التي مازالت تحتفظ بدروبها القديمة الصاعدة، يدل دلالة واضحة على أن خطط المدينة الأندلسية، كانت تشغل هذه الرفعة من المدينة الحديثة.

ويحدد نهاية المدينة الأندلسية إلى اليوم، عدة عقود قديمة تقع على مقربة من النهر في خط متصل، مما يدل على أنها كانت من أبواب المدينة الإسلامية. وهذه العقود هي:

- ١- العقد المسمى "بالعقد المظلم" Arco Escuro وهو يقع في نهاية المدينة على النهر، وهو قوس عتيق عمقه نحو أربعة أمتار.
- ٢- عقد أبواب البحر Arco das Portas do Mar وهو يقع على مقربة من العقد الأول، وفي صفه على استقامته، وهو يضارعه في الطراز، ولكنه أعمق منه قليلًا.
- ٣- عقد يسوع Arco da Jesus، وهو يجعد عن العقد الثاني بنحو مائتي متر، وهو أوسع من قريبيه وأعمق منهما، يبلغ عمقه نحو ثمانية أمتار، ومن وراءه ربوة عليها دروب ومسالك عتيقة ضيقة.

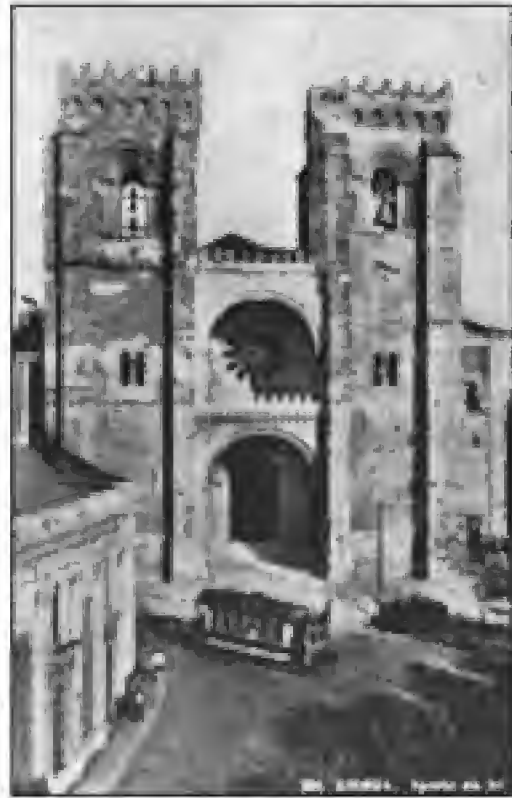
ويقع الحصن أو القصبة على بُعد من هذه العقود في اتجاه الغرب.

ويحتفظ متحف لشبونة الأركيولوجي، بمجموعة من النقد الإسلامي الأندلسي.

PDF Eraser Free



عقد أبواب البحر أحد أبواب الأندلسية



لشبونة، الكنيسة العظمى



لشبونة، كنيسة سان جيرونيمو

PDF Eraser Free

ومعالم لشبونة الأثرية الأخرى من نينية وغيرها لا تقع تحت حصر، وليس هنا مكان التحدث عنها. ونكتفي بأن نختتم هذه الإلمامة الموجزة، بالإشارة إلى كنيسة "سان جيرونيمو" الواقعة خارج المدينة الحديثة، وهي من أعظم وأروع الكنائس التي شيدناها، وقد بنيت على الطراز القوطي، وزينت بأجمل زخارف عصر الإحياء، ولها واجهة عظيمة من أروع ما نرى العين. وفي دخلها فناء جميل شاسع ذو عقود قوطية، وهو القسم الذي كان مخصصاً للدير، وبها مقابر طائفة من عظماء البرتغال، مثل الرحالة فاسكو دا جاما، والشاعر كامويس وغيرهما.

ونختتم أخيراً بالإشارة إلى متحف الركائب الملكية، وهو في الواقع فريد في نوعه، يضم طائفة كبيرة من العربات الملكية المذهبة من كل طراز، ومن كل عصر.

٦ - شنترة

Cinta

هي مدينة صغيرة تقع غربي لشبونة، على قيد خمسة وعشرين كيلو متر منها، وتعتبر من ضواحيها.

وتقع شنترة في سفح جبل عالٍ، في سيطر رائع تغطيه الخضرة اليلعة، والحدائق الغناء، وتتمتع بموقع طبيعي ساحر. وقد جعلت منها مناظرها الطبيعية الجميلة، وجوها البنيع، مقصد المتنزهين، والمنتجعين للراحة والاستجمام.



شنترة. منظر عام للحصن الأندلسي في أعلى الربوة

والظاهر إنها كانت تتمتع على كثر العصور، بهذه الخواص الطبيعية الجذابة، فقد جاء في وصفها في الروض المعطار ما يأتي:

"من مدائن الألبونة بالأندلس على مقربة من البحر، ويعشاها ضباب دائم لا ينقطع، وهي صحيحة الهوى، تطول أعمال أهلها، ولها حصنان في غاية المناعة"^(١).

PDF Eraser Free



شنترة، مصلّى قصر الحراصة، وكان مسجدًا قديمًا



شنترة، عقود الحمامات بقصر الحراصة

PDF Eraser Free

وتغنى بجمالها شعراء العصر الحديث، وفي مقدمتهم كمؤسس شاعر البرتغال الأكبر ولورد بيررون وغيرهما.

وكانت شنترة في العيد الإسلامي كما هي اليوم ضاحية أثبونة الجميلة، وقد لبثت في أيدي المسلمين أكثر من أربعة قرون، ثم سقطت في يد النصارى، فيما يرجح في نفس الوقت الذي سقطت فيه أثبونة، أعني في سنة ١١٤٧ م (٥٤٦ هـ).

ومازالت شنترة تضم بعض المعالم الأندلسية الأثرية، وأهمها الحصن الأندلسي Castelo de Mouros، وهو يقع في أعلى الجبل الذي تقع المدينة في سفحه، ويشرف عليها من ارتفاع شاهق، على نمط القصبية الأندلسية، ومازالت أسواره ولبراجه الخارجية في حالة جيدة، ولكنه مهدم من الداخل، وفيه بقية مسجد خرب.

ويقع إلى يمين الحصن فوق الجبل قصر "بينّا"، وهو حديث النشأة، يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، وكان مقامًا للبرنس فون كوبورج.

ويقع في أسفل الجبل في السفح الذي يطل عليه الحصن، أجمل صرح أثري في شنترة، وهو وإن لم يكن أندلسي النشأة، إلا أنه قد بُني على طراز أندلسي فائق، ويطلق على هذا الصرح اسم "قصر الحراسة الوطني" P. Nacional de Vila، ويرجع بناؤه إلى القرن الرابع عشر.

ويضم هذا القصر عدة أبناء وغرف أندلسية الطراز، منها قاعة الطعام، وقد زينت جدرانها بالزليخ "القيشاني" الأندلسي الجميل، وفي وسطها نافورة، وبها زلعة عربية، وسقفها مزين بالمقرنصات الخشبية العربية، ومنها بهو الاستقبال الكبير، وقد زين عرشه بمقرنصات عربية، وله مشرفة جميلة ذات عقود عربية تطل على المدينة.

ويوجد في وسط القصر مصلى كبير مسقف بالخشب المقرنص، وفي صدره عقد، وقيل لنا إنه كان مسجدًا خاصًا، فحوّل إلى مصلى نصراني، وقد يبدو من هيئته وطرازه ما يؤيد ذلك القول.

وفي فناء القصر توجد نافورة وحمام على الطراز العربي، ذو ثلاثة عقود رخامية جميلة.

ويبدو قصر شنترة على وجه العموم، إسلامي الطراز في سائر جنباته ومظاهره، وهو يدل على ما كان للفن الأندلسي، من عظيم السوحي والتأثير في تلك العصور.

٧ - شنترين

Santarem

ذكرت، ولذا أسير وثيذا في الطريق الجبلي الصاعد إلى مدينة شنترين، إنها الكاتب الأندلسي الأشهر، ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب "الخيرة"، الذي وضع مصنفه التاريخي والأدبي الرثيق، قبل سقوط شنترين في أيدي النصارى بأعوام قلائل، ولحاذرها حسبما يحدثنا في مقدمة "الخيرة" إلى إشبيلية، مضطرب الأحوال، كبير الفؤاد، قبل أن تقع الطامة، وتسقط المدينة في أيدي القوى المتربصة بها^(١).

وشنترين مدينة قديمة ترجع إلى العهد الروماني، وهي من مدن ولاية إسترمانورة البرتغالية، تقع في شمل شرقي لشبونة على قيد خمسين كيلو متراً منها، على الضفة اليسرى لنهر التاجه. وكانت أيام المسلمين نظراً لحصانة موقعها في منعطف النهر، من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى، ولها في ميدان الجهاد تاريخ مؤثر. فقد سقطت في يد النصارى لأول مرة في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م)، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة، ولكن المسلمين استردوها، واستمر سلطانهم بها حصراً آخر. ولما تمت ساعد مملكة البرتغال الناشئة وأخذ ملكها ألفونسو هنريكيز، يغير على المدن الإسلامية المجاورة، كانت شنترين من المدن التي استولى عليها، وكان سقوطها في يد النصارى للمرة الثانية سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ). وفي سنة ١١٨٤ م (٥٨٠ هـ) حاول الموحدون استردادها بقيادة الخليفة أبي يعقوب يوسف، ففشلت المحاولة وقُتل أبو يعقوب تحت أسوارها، أو توفي بعد ذلك بأيام قلائل من الجراح التي أصابته في الموقعة.

وتحتل شنترين ربوة عالية تطل على بسائط خضراء بانعة، تغطيها المحاصيل والحدائق وشجرات الزيتون، وهي مدينة متوسطة الحجم متفرقة الطالع، بها شوارع وميادين حسنة، وشوارعها الجانبية ضيقة، ومنازلها منخفضة ذات طابق أو اثنين وأحياناً ثلاثة، وهي هائلة الحركة، جافة الهواء. ويبلغ ارتفاعها فوق سطح الوادي نحو ثلاثمائة متر، ويبلغ سكانها حسبما عثرت أربعة عشر ألف نسمة.

ويقع قسم من المدينة على ربوة مقابلة أخرى، أقل ارتفاعاً من الربوة الرئيسية، وتقع بعض أحيائها على السفح المنحدر نحو السهل.

^(١) مقدمة الخيرة (طبعة جامعة القاهرة) ص ٨

PDF Eraser Free

ويبدو شنترين على وجه العموم ذات طابع خاص، وترتسم على دروبها الضيقة الرطبة الآخذة من شارعها الرئيسي، ملامح المدينة الأندلسية بالرغم من توبها النصارى، وإنه ليخالجك هذا الشعور بنوع خاص، حين تنحدر إلى أزقتها الصاعدة الضيقة وتتأمل طرز منازلها القديم، وأكثر ما يبدو هذا الطابع قوة في الأحياء الواقعة على الربوة الصغرى.



وما زالت شنترين تحتفظ ببعض معالمها الأثرية الأندلسية، فبذلك من أسوارها القديمة، قطعة كبيرة في حالة جيدة تتكون من زاويتين، وتقع في طرف المدينة الشمالي، وراء الكنيسة العظمى، وعلى مقربة منها توجد قطعة أخرى، تحد الآن منتزه المدينة الواقع خارجها، ولكن ما بقي منها لا يتعدى ارتفاعه نحو مترين ولا يتعدى طوله مائة متر. وتشرق الربوة التي يحيط بها السور والتي يتوسطها المنتزه الكبير، على نهر الناجه قبالتها، وهو يجري تحتها وينحني عندها.

شنترين. بقية من الأسوار الأندلسية

ويوجد تحت السور في نهاية الحديقة، عقد عربي يسمى عقد "آمارما" Area d'Atamrma، ويقال إنه هو الباب الذي دخل منه الملك ألفونسو هنريكس المدينة، عقب سقوطها في يد النصارى.

كذلك توجد قطعة ثالثة من الأسوار القديمة، في طرف المدينة عند مدخلها، وهو مما يحدد موقعها القديم.

أما بالنسبة للكنائس فإن شنترين تضم عدة كنائس أثرية، منها الكنيسة العظمى المسماة كنيسة سان فرنسكو، وهي كنيسة كبيرة ذات عقود عالية قوطية الطراز، وهي قديمة ترجع إلى القرن الثالث عشر، وقد جددت كلها، ولكن إفريز مدخلها قديم جدًا، والظاهر من موقعها في طرف المدينة على مقربة من الأسوار الأندلسية، أنها بنيت فوق موقع جامع القصب، التي كانت تحتل هذه البقعة.

PDF Eraser Free



شترين. اطلال القلعة الأندلسية خارج المدينة.
وهي المسماة اليوم "بواب الشمس"



شترين. كنيسة الكسوف من الداخل

PDF Eraser Free

ومن هنا كنيسة "الكوف" Alcaçovas وهي أقدم كنائسها، وقد أنشأها فرسان المعبد (الدلاوية) منذ عصر الفتح النصراني، أي في منتصف القرن الثاني عشر، وتقع في طرف المدينة الشرقي، وهي ذات عقود عربية.

ومن هنا أيضًا كنيسة القديس يوحنا Sao Joao، وهي اليوم متحف، ويذل برج أجراسها الذي هو منارة مسجد قديم، على أنها بنيت فوق موقع هذا المسجد، وكنيسة "بيدادي" Piedade، وهي صرح صغير ذو عقود عربية.

وثمة أثر آخر يقع خارج المدينة في شمالها الشرقي، على مقربة من الأسوار القديمة يسمى نافورة فجييراس Figueiras، وهو عبارة عن بناء يتكون من ثلاثة عقود، اثنان جانبيان والثالث في الواجهة، وعليه قبة قوطية، وتحتها نافورة ماء، وهو أثر نصراني يرجع إلى القرن الثالث عشر.

PDF Eraser Free

خاتمة

١ - تراث الأندلس الفكري

لا بد لنا ونحن نتحدث عن الآثار الأندلسية الباقية، أن نتحدث عن تراث الأندلس الفكري الذي أبقت عليه يد الزمن إلى يومنا، كما أبقت على الصروح والآثار التي وصفناها فيما تقدم، من فصول هذا الكتاب. ولماذا نلجئ بتراث الأندلس الفكري هذا، ما حققه مسلمو الأندلس من ضروب التقدم في ميدان العلوم والآداب والفنون، فإن الكلام في ذلك هو من صميم البحث في نواحي الحضارة الأندلسية، وإنما نقصد أن نشير إلى مجموعات الكتب، التي ورثتها إسبانيا عن الأمة الأندلسية، والتي مازالت إلى اليوم محفوظة بها.

ولا مرأى في أن أعظم مجموعة من هذا النوع، هي مجموعة الكتب العربية بمكتبة الإسكوريال. ولهذه المجموعة الفريدة من تراث المكتبات الأندلسية، قصة مؤثرة أيضاً، فإنه لما سقطت مدينة غرناطة آخر الحواضر الإسلامية في يد الإسبان في فاتحة سنة ١٤٩٢م، كانت ما تزال غاصة بالمكتبات والمجموعات الخاصة، من نفائس التراث الأندلسي. هذا عدا ما كان محفوظاً في غيرها من المدن الإسلامية الأخرى، التي افتتحها الإسبان في هذا الوقت، مثل وادي آش ومالقة وألمرية ورندة وغيرها. وفي سنة ١٤٩٩ أعني بعد سقوط غرناطة بأعوام قليلة، بدأت السياسة الإسبانية في تنفيذ خططها المبيتة في تنصير المسلمين، والقضاء على مقوماتهم الروحية والفكرية والاجتماعية، فدعاهم إلى التنصير وتوسلت إلى فرضه عليهم بمختلف الوسائل. ورأى الكاردينال خمينس مطران طليطلة، وبطل هذه السياسة الموضوع، أن يقرن هذه المحاولة بمحاولة القضاء على آثار التفكير الأندلسي، لكي يحرم أبناء الأمة المغلوبة، من قوتهم الروحي والعقلي، فأمر بجمع آثار التفكير الأندلسي من أنحاء غرناطة وغيرها، وجمعت الكتب الأندلسية أكدلاً مكسدة في ساحات غرناطة، واحتفل بإحراقها في حفل من أعمال الإيمان Auto - de - fe ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب من كتب الطب والعلوم، وهبت لجامعة ألكالا "القلعة" دي هنارس. وبلغ ما هلك من الكتب العربية في تلك المحنة، أكثر من مئة ألف كتاب، وذلك وفقاً لأتق التقديرات وأكثرها اعتدالاً.

ومن الغريب أن هذا العمل الذي يشين أي مجتمع متمدن، والذي يندد به كثير من أقطاب التفكير الأوروبي، يجد بين العلماء الإسبان المحدثين، من يؤيده ويشيد به وبنتائجه في حملة سياسة التنصير الإسباني. ويكفي أن نشير إلى رسالة المستشرق سييمونيت في هذا الموضوع، وإلى ما يبديه فيها من حماسة بالغة، في الدفاع عن تصرف الكاردينال خمينس^(١).

^(١) F. J. Simonet: El Cardinal Ximenez de Cisneros y los Manuscritos Arabigo - Granadinos.

PDF Eraser Free

واستمرت إسبانيا النصرانية في تعقبها للكتب العربية ومطاردتها، ثم حظرت استعمال اللغة العربية على الموريسكيين أو العرب المتصرين، وفرضت عليهم اللغة القشتالية في الكتابة والتعامل، وخمدت بذلك آخر جذوات التفكير الأندلسي. ولم يبق يد التعصب والجهالة إلا على بقية يسيرة من الآثار العربية، جمعت وحملت فيما بعد إلى قصر الإسكوريال، لتودع فيه في المكتبة الملكية، لا كثرات عقلية ينتفع به، ولكن كتخفة وخليفة من طلائع النصر الإسباني.



قصر الإسكوريال

ويقع قصر الإسكوريال في الضاحية المسماة باسمه، وهي تقع على مقربة من مدريد في واد عميق تحف به الجبال. وقد أنشأ الملك فيليب الثاني هذا القصر سنة ١٥٥٧ م، تخليداً لذكرى انتصاره على الفرنسيين في موقعة سان كنتان، وتثويها بذكرى القديس لورنسو، الذي استمد منه العون والنصر في تلك الموقعة. ويعتبر قصر الإسكوريال من أعظم الصروح الملكية في أوروبا، وهو يضم مقاماً ملكياً، وكنيسته، وديره، ومكتبة ومعهداً دينياً، ومدفناً ملكياً، وهي جميعاً آية في الروعة والفخامة.

والذي يهمنا هنا من هذا الصرح العظيم، هو مكتبته الشهيرة التي تنوي في أقبيتها، البقية الباقية من تراث الأندلس الفكري، وهي تقع في جناحه الأيمن، وإلى جانبها يقع المعهد الديني الذي يشرف عليه الآباء الأوغسطينيون، وهم الذين يشرفون في الوقت نفسه على المكتبة، وتضم المكتبة جهوداً شاسعة فحماً تعرض فيه طائفة من المخطوطات النفيسة النادرة التي تحتويها المكتبة، ومنها مصحف ملكي كزيم كان ملكاً للمنصور السعدي سلطان المغرب، وقد زينت صفحاته بنقوش ذهبية رائعة.

PDF Eraser Free

ومكتبة الإسكوريال ليست غنية من الناحية الرقمية، فهي تحوي ستين ألف مجلد فقط، ولكنها غنية بالأخص بما تحتويه من نواذر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط، ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفاً وتسعمائة وعشرين مجلداً.

وترجع هذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم - إلى عصر فيليب الثاني، وكانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، ومما كان يشتريه سفراء الملك من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جمعت بعد سقوط غرناطة من غرناطة نفسها، ومن سائر القواعد الأندلسية المغنوية. ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث، حينما استولت السفن الإسبانية في مياه المغرب، فيما بين أسفي وأشادير في سنة ١٦١٢ م، على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة مولاي زيدان سلطان مراکش، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الإسكوريال، في أوائل القرن السابع عشر، نحو عشرة آلاف مجلد.

ولبثت هذه الآلاف العشرة، من المخطوطات الأندلسية والمغربية، في قصر الإسكوريال زهاء نصف قرن، وكانت أغنى وأفضل مجموعة من نوعها، ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكري. ففي سنة ١٦٧١، شب في القصر حريق ألتهم معظم هذا الكنز الفريد، ولم يبق منه أكثر من ألفين، هي التي تبقى اليوم في أقبية الإسكوريال.

ومما هو جدير بالذكر، أن سلاطين المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من إسبانيا، وكان يحذوهم في ذلك شعور بأن هذا التراث الفكري للأمة الأندلسية الشهيدة، إنما هو تراثهم المشترك، وأن المغرب هو الوارث الطبيعي لهذا التراث، خصوصاً وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاي زيدان الشهيرة، ومن ثم فقد بعث مولاي إسماعيل عاهل المغرب الكبير، في سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م)، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغساني، سفيراً إلى كارلوس الثاني ملك إسبانيا وكان من مهمته إلى جانب السعي في تحرير الأسرى المغاربة الموجودين بإسبانيا، أن يسعى في استرداد الكتب العربية، وقد نجح السفير في تحقيق الشطر الأول من مهمته، ولكنه لم ينجح في تحقيق الشطر الثاني. وفي سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م)، أرسل مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب، كاتبه أحمد بن مهدي الغزال، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا، ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة، أعني العمل على تحرير الأسرى المغاربة، واسترداد الكتب العربية، ولكنه لم يحرز في مهمته بشأن الكتب

PDF Eraser Free

نجاحًا يذكر، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية، ليس من بينها شيء من محتويات الإسكوريال^(١).

وكانت الحكومة الإسبانية خلال هذه العصور تحرص كل الحرص على إخفاء هذه الآثار العربية، عن نظر كل باحث ومتطلع، كلما كانت تخشى أن تنسرب روح التفكير الإسلامي، إلى تفكير إسبانيا النصرانية. وكان الكتاب الإسبان أنفسهم يعرضون عن كل بحث وتفتيش في هذه المجموعة النفيسة، ويؤثرون أن تكتب كتبهم من جانب واحد، ومن ثم كانت كتبهم في هذه العصور تفيض بالتحامل والتعصب، في كل ما يتعلق بإسبانيا المسلمة وتاريخها وحضارتها. وأخيرًا تبهت الحكومة الإسبانية إلى أهمية هذه المجموعة من الناحية العلمية والتاريخية، فندبت لمراجعتها والتعريف بها عالمًا شرقيًا يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، هو ميخائيل الغزيري اللبناني، الذي يعرف في الغرب باسم "كازيري" Casiri. فعكف على دراستها بضعة أعوام، وانتهى بأن وضع عنها فهرسه الشهير باللاتينية المسمى "المكتبة العربية الإسبانية في الإسكوريال" *Bibliotheca Arabico – Hispana Escorialensis* في جزلين كبيرين، ظهر أولهما في سنة ١٧٦٠ والثاني في سنة ١٧٧٠، ودرس فيهما محتويات المجموعة العربية دراسة وافية، مقرونة في أحيان كثيرة بالشرح والتعليق والاقبال المستفيض. ونحن نقتصر على ذكر أقسام هذه المجموعة حسبما وردت في فهرس الغزيري على النحو الآتي:

يبدأ الفهرس بذكر كتب اللغة العربية وعلومها، وهي تشمل من المخطوط رقم ١ حتى رقم ١٥٩، ثم يليها الشعر وأبوابه وعلومه، ويشمل هذا القسم من رقم ١٦٨ إلى ٤٨٨، ثم الفلسفة، وما يتعلق بها، وتشمل من رقم ٤٨٩ إلى ٧٠٥ ثم الأخلاق والسياسة، وتشمل من رقم ٧٠٦ إلى ٧٨٤، ثم الطب والتاريخ الطبيعي وتشمل من رقم ٨٧٥ إلى ٩٠١، ثم الرياضيات والهندسة والفلك، وتشمل من رقم ٩٠٢ إلى ٩٨٥، ثم كتب الفقه وعلوم الدين والقرآن، وتشمل من رقم ٩٨٦ إلى ١٦١٧، ثم الآثار النصرانية، وتشمل من رقم ١٦١٨ إلى ١٦٣٨، وهذه هي محتويات الجزء الأول من الفهرس. ويحتوي الجزء الثاني على كتب الجغرافيا، وتشمل من رقم ١٦٣٩ إلى ١٦٣٥، ثم التاريخ وتشمل من رقم ١٦٣٦ إلى ١٨٥١، وهذا الرقم هو نهاية فهرس الغزيري.

^(١) ترك لداكل من هذين الصغرين كتابًا عن مهمته، فكتب الأول محمد بن عبد الوهاب الغساني كتابه المسمى "رحلة قوزبر في الفتك الأسير" (تطوان سنة ١٩٣٩)، وكتب الثاني كتابه المسمى "نتيجة الاجتهاد في المهالبة والجهاد" (تطوان ١٩٤١). وكل يقص في كتابه، سيرة رحلته، وأحوال إسبانيا في عصره، وما حقق من نتائج مهمته. وقد سبق أن اقتبسنا فيما تقدم بعض فقرات من هذا الكتاب، لو ذلك.

PDF Eraser Free

وفي أواخر القرن الماضي قام المستشرق الفرنسي هاريتج ديرنبور بمجهود جديد، لدراسة المجموعة العربية في الإسكوريال، وبدأ وضع فهرس جديد بالفرنسية عنوانه "المخطوطات العربية في الإسكوريال" Les Manuscrits Arabes de l'Escorial، وقد اتبع فيه تقريبًا طريقة الغزيري وترقيمه، واستطاع أن يعثر خلال دراسته على نحو مائة مخطوط عربي جديد، لم يتناولها سلفه، إذ يصل في تعدده إلى الرقم ١٩٥٥. بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى الجزء الأول، محتويًا على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة، وذلك من رقم ١ حتى رقم ٧٠٨، وقسمًا صغيرًا من الجزء الثاني محتويًا على كتب الأخلاق والسياسة. ثم توفي مؤلفه دون إتمامه، وأصدر من بعد ذلك الأستاذ ليفي بروكسال جزءًا جديدًا، يحتوي على كتب علوم الدين والجغرافيا والتاريخ. (من رقم ١٢٥٦ إلى ١٨٥٢).

على أن فهرس الغزيري مازال بالرغم من قدمه، ومما وجه إليه من المآخذ، هو المعول عليه، وهو دائمًا مرجع الباحثين^(١).

وقد أتبع لنا خلال رحلتنا الإسبانية المتوالية، أن نتردد على مكتبة الإسكوريال مرارًا وتكرارًا، ولأن ندرس فيها طائفة كبيرة من المخطوطات الأندلسية، ولا سيما ما يتعلق منها بتاريخ إسبانيا المسلمة ونظمها.

* * *

هذا وتوجد أيضًا مخطوطات أندلسية قليلة، في بعض المكتبات الإسبانية الأخرى مثل مكتبة مدريد الوطنية، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية، ومكتبة دير ساكرومونتي بغرناطة، وكذلك في بعض المكتبات الخاصة.

ومما هو جدير بالذكر، أن كثيرًا من المخطوطات الأندلسية قد تسرب عقب سقوط غرناطة، وحواضر الأندلس الأخرى، إلى المغرب، مع من هاجر إليه من أبناء الأمة المغنوبة، وما زال البحث الحديث إلى يومنا، يظفر من آن لآخر في مدن المغرب، وفي بوائمه، بالعثور على بعض الكتب الأندلسية، التي ظن أنها دُثرت وبانت.

وإلى جانب هذه المجموعة العربية الباقية من آثار التفكير الأندلسي، توجد بقية مؤثرة أخرى من تراث الأمة الأندلسية، يرجع إلى عصر استيلائها، بعد أن نصرت، ولغت طائفة الموريسكيين أو العرب المتصرين. فقد اضطر أولئك العرب المتصرون بعد أن أرغموا على

(١) لخصنا معظم ما ورد في هذا الفصل من بحث أتم ولوفي. يتضمنه الفصل الثاني وتطرون من كتابنا

"مواقف حلقة في تاريخ الإسلام" (الطبعة الثالثة) ص ٢٥٩ - ٢٦٨.

PDF Eraser Free

ترك لغتهم العربية، وألزموا باستعمل اللغة القشتالية في الكتابة والتعامل، أن ياجئوا إلى استعمال وسيلة جديدة للكتابة العربية، يحافظون بها على تراث دينهم الذي لبثوا يعتقونه خفية في أعماق سرائرهم، فكانوا يكتبون القشتالية سرًا بأحرف عربية، ويترجمون إليها كثيرًا من أحكام الإسلام والآيات القرآنية، والحديث والفقه، والصلوات والأدعية النبوية. وتسمى هذه الكتابة "بالأحميادو" Aljamiado أعني "الأعجمية". ويوجد الكثير من هذه الكتب الموريسكية، في مكتبة مدريد الوطنية، وبعض المكتبات الإسبانية الأخرى. وقد شهدنا منها الكثير خلال بحوثنا في مدريد، ونقلنا منها نماذج عديدة.

٢ - الآثار المعنوية

حكم المسلمون معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية قرونًا، واستطاع حكمهم في الجنوب، حيث قامت مملكة غرناطة، زهاء ثمانية قرون. وكانت نظم الحكومة الإسلامية، وتقاليده الحياة الاجتماعية الإسلامية، وكل ما هنالك من مظاهر الحضارة الأندلسية في التفكير وفي الفنون، وفي سائر مقومات الحياة العامة والخاصة، كانت كلها تحدث أثرها في شبه الجزيرة الإسبانية، في الممالك النصرانية المجاورة، التي كانت تتصل خلال الحرب والسلام بجاراتها المسلمة لوثق اتصال.

وكان النصارى الإسبان، الذين يعيشون في ظل الحكومات الإسلامية، وهم المستعربون أو النصارى المعاهدون من جهة، والمسلمون الذين يعيشون في ظل الحكومات النصرانية وهم المنجئون^(١) من جهة أخرى، كانت هاتان الطائفتان اللتان لعبتا في تاريخ الأندلس أعظم دور، حلقة الاتصال الوثيق، في نقل المؤثرات الحضارية، من فريق إلى آخر، وإن كان من المحقق أن هذه المؤثرات، كانت أعمق وأشد انطباقًا، في إسبانيا النصرانية منها في إسبانيا المسلمة، إذ كانت الحضارة الأندلسية يومئذ، أرقى من نظائرها وأشد تفوقًا وازدهارًا.

ولم ينقطع هذا التأثير القوي للحضارة الإسلامية، في حضارة إسبانيا النصرانية، حتى في العصر الذي أخذ فيه نجم الدولة الإسلامية في الأفول، ونضاعت رقعة الأندلس المسلمة، حتى انحصرت في حدود مملكة غرناطة الصغيرة. ذلك أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة، كانت بالرغم من تضلُّول سلطانها الإقليمي والحربي، تتمتع بحضارة رفيعة، وكانت علومها وفنونها، وأوضاع حياتها الاجتماعية، ما زالت تحدث أثرها في جيرانها النصارى الإسبان، وكان المهندسون والعرفاء الغرناطيون، يشتركون مع زملائهم النصارى، في إنشاء القصور والصروح القشتالية، وفي تجميلها وزخرفتها، وأحيانًا في زخرفة الكنائس النصرانية ذاتها، ولما سقطت غرناطة، وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس، لبثت آثار الحضارة الأندلسية المحنطرة عصرًا، تسترّب إلى إسبانيا النصرانية، ولبثت الفنون والصناعات الإسلامية مستقى خاصًا لمجتمع السادة الجند للشعب المغلوب، وظهرت آثار الهندسة والزخارف الأندلسية، في كثير من الصروح والكنائس الإسبانية، التي أقيمت في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان الموريسكيون أو العرب المنتصرون عندئذ، يحملون ما تبقى من تراث آبائهم وأجدادهم المسلمين، في مختلف الفنون والصناعات، ويحتفظون بكثير من تفوقهم وبراعتهم الفنية

^(١) المستعربون هم بالإسبانية Los Mozarabes، والمنجئون هم Los Mudéjares

PDF Eraser Free

والزخرفية، وتبدو آثار هذه البراعة في زخارف كثير من كنائس القرن السادس عشر، وفي زخارف الأتية الخزفية الموريسكية الرائعة، التي تحتفظ المتاحف الإسبانية بكثير منها.

ولم يغط البحث الإسباني المستنير في عصرنا، الحضارة الأندلسية حقها، ولم يحاول أن يفض من أهمية آثارها، في تكوين حضارة إسبانيا النصرانية، وفيما يلي بعض ما ورد في بحث قيم، للعلامة المستشرق الإسباني جونثالث بالنتيا، عن "آثار الحضارة الأندلسية":

"إن العمارة المدنية والدينية في بعض نواحيها، والفنون الرفيعة، والحياة العرفية بين النصارى الإسبان، كانت تقوم على تراث المسلم الأندلسي، وكان الزليخ الأندلسي يزين الأبراج المدنية في بلاد أراجون، وكان عريف مسلم، هو الذي أشرف على زخرفة مصليات الدير الملكي في برغش، الذي أنشأ ألفونسو الثامن، وكذلك المصلى الملكي في قرطبة، الذي أنشأ هنري الثاني".

"ولقد كان المنزل القشتالي، يعكس نفس تكوين المنزل الأندلسي، وحتى القصور الملكية، كانت صورة من القصور الأندلسية، مثل قصر إشبيلية الفخم، الذي أمر بإنشائه بيدرو الأول سنة ١٣٦٤ م، وهو قصر نصف إسلامي، عمل فيه عرفاء طليطليون وخرنابطيون وإشبيليون".

ثم إن الفن المدني، قد تمرب إلى كل منشآت شبه الجزيرة، فكنيسة "سان خوان التوبة" في طليطنة، والكنيسة العظمى (La Sen) في سرقطة، وكاتدرائية ترويل، هي أمثلة واضحة من آلاف الأمثلة، التي يمكن ذكرها".

"والواقع أنه لا مجال للدهشة، من نكتس هذه المؤثرات الحضارية العربية الأندلسية، في الحضارة المسيحية لشبه الجزيرة الإسبانية. ذلك أن الحياة المشتركة مدى قرون عديدة للحضارتين، كان لا بد لها أن تحدث أثرها. على أن هذا الأثر لم يقف عند شبه الجزيرة الإسبانية، بل لقد ترك في أوروبا بأسرها، آثاراً يمكن تفصيلها"^(١).

ولقد تحدث خلال وجودي في مدريد، مع صديقي العلامة المؤرخ الإسباني الأستاذ منديث بيدال Menéndez Pidal، وهو من أعظم المفكرين والنقادة المعاصرين، فيما خلفته الأمة الأندلسية من الآثار الباقية، في حضارة إسبانيا النصرانية في حياتها وتقاليدها، وفيما يراء من مظاهر هذه الآثار، فأدلى إلي بما يلي، وقد سجلته أثناء حديثي معه:

أجل، لقد تركت الأمة الأندلسية آثاراً واضحة في الحضارة الإسبانية، وفي الحياة الإسبانية العامة، وفي تقاليد إسبانيا وعاداتها، وإذا تركنا الآثار والصروح المادية جانباً، فلن

A. Gonzalez Palencia: Influencia de la Civilización Árabe, (Madrid 1931) P. 14 & 15. ^(١)

PDF Eraser Free

مظاهر هذه الآثار المعنوية كثيرة. ودعك من الآثار اللغوية فإن هذه معروفة، وهي ماثلة في كثير من نظمنا، ويكفي أن نذكر كلمات: Alferez, Almojarife, Alguacil, Alcaide, Alcalde وغيرها، للتعبير عن بعض المناصب العسكرية والقضائية. وفي تقاليد الملوكية الإسبانية، يبدو أثر التقاليد الملوكية الأندلسية، فمثلاً يقرن ذلك الملك بعبارة حفظه الله Que Dios guarda وهو اصطلاح عربي. ويبدو هذا الأثر في كثير من العادات والتقاليد الإسبانية في التعامل والأسواق، وفيما ينادي به الباعة على ملعهم، وهي نداءات مسجعة، ترجع إلى أصول أندلسية، وفي الدعوات الجنائزية، حيث يقال عن المتوفى (رحمه الله)، وفي مظاهر التحية. وفي قصة "السيد" El Cid "أن التحية تكون بتقبيل الكتف"، وهي عبارة أندلسية. وهكذا نجد أثر التقاليد والعادات الأندلسية مثلاً في كثير من مظاهر الحياة الإسبانية.

والواقع أننا شهدنا خلال رحلتنا المتعددة إلى إسبانيا، وتجوّلنا في سائر نواحيها ومنها الأندلسية والنصرانية، من أحوال الأمة الإسبانية، ومن مظاهر حياتها المادية والأدبية، ومن تقاليدها وعاداتها، كثيراً مما يشير إليه هذا العلامة الكبير في أقواله الموجزة، وأدركنا بالمشاهدة والملاحظة، صق هذه الآثار التي خلفتها الأمة الأندلسية، في وريثة أرضها وحضارتها، الأمة الإسبانية.

ولشد ما تبدو هذه الآثار في جنوبي إسبانيا، أعني في منطقة الأندلس الحقيقية، وهي التي تتكون من ولايات المرية، ومالقة، وغرناطة، وإشبيلية. ولقد شعرنا حين التجوال في هذه المنطقة، أننا نجوس خلال أمة شرقية، أكثر منها عربية، وأن العادات والتقاليد الأوربية المحضة تكاد تختفي، تحت أكناس من العادات والتقاليد الشرقية. ولا غرو فإن مملكة غرناطة الإسلامية، لبثت تحت معظم أراضي هذه الرقعة، حتى أواخر القرن الخامس عشر، ولبث المورييسكيون أو العرب المتصرون بعد ذلك، يعيشون فيها جماعات كبيرة زهاء قرن آخر، ومن ثم كانت ولايات الأندلس، آخر مستودع لتراث الحضارة والتقاليد الأندلسية، وكانت آثار هذه الحضارة والتقاليد، أرسخ فيها وأبقى من أي جزء آخر من إسبانيا.

ولقد عشنا لوقتاً في أنحاء هذا المجتمع الإسباني، الذي يحمل الكثير من مظاهر الأمة الأندلسية الذاهبة وتقاليدها، فماذا رأينا؟ رأينا أولاً من الناحية العنصرية أن سكان هذه المنطقة، ملامحهم شرقية عربية أكثر منها أوربية، فقلودهم متوسطة، وعيونهم وشعورهم في الأغلب سوداء، وألوانهم مشربة بالسمرة. ولشد ما تبدو هذه الملامح الشرقية العربية في أهل غرناطة وما إليها، فهناك يشعر الإنسان حقاً بأنه يعيش في مجتمع يمت بالوثق الصلات العنصرية، إلى الأمة الأندلسية الذاهبة، فالوجود عربية سمراء، واللامح دقيقة، والشعور فاحصة، والعيون

PDF Eraser Free

سوداء، ونساء غرناطة هن هن اللاتي وصفين ابن الخطيب في عصره، أعني في القرن الرابع عشر الميلادي، مازلت يدين نفس أوصافه، فهو يشير إليهن بقوله:

"وخريمهم خريم جميل موصوف بالحسن، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النثر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن" (١).

وهذا ما ينطبق حتى اليوم على نساء غرناطة أشد الانطباق.

وهذه الخواص العنصرية الأندلسية، التي تنطبع أشد الانطباج، على ملائح سكان إسبانيا الجنوبية، وولايات الأندلس بنوع خاص، يجب ألا تدعش أحدًا، فإن كثيرًا من لوائك الإنسان بالزعم من نصرانيته، تجري في عروقهم دماء أسلافهم مسلمي الأندلس. ومن الخطأ أن يقال إن إسبانيا النصرانية، استطاعت بالسيب القمع الذريع، الذي فرضته على الأمة الشديدة، أن تقضي على السلالة العربية الأندلسية. ذلك أن كثيرًا من المدجنين كانوا قبل سقوط الأندلس النهائي، قد اندمجوا في المجتمعات الإسبانية التي يعيشون فيها، وكان الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان أمرًا ذائعًا، ولا سيما في عصور الانحلال الأخيرة، ولما فرضت إسبانيا التنصير على الأمة الأندلسية المغلوبة، تسرب كثير من العرب المتنصرين إلى المجتمع الإسباني الأصيل، واندمجوا فيه، وكان من هؤلاء العرب المتنصرين بعض الفروع الملوكية، من سلالة بني نصر ملوك غرناطة، إذ تنصر عقب سقوط الحاضرة الإسلامية الأخيرة، ولما السلطان أبي الحسن من زوجة النصرانية نصر وسعد، وأسبع عليهما لقب الدوقات، وتنصر بعض الزعماء من القادة والوزراء مثل بني التغرّي زعماء شمارة، وبني يحيى النصار بطل بسطة والعريّة الشهير بسيدي يحيى، وأسرة بنيغش الوزراء. وقد اشتهرت الأسرة الأخيرة بالأخص في تاريخ إسبانيا فيما بعد، وبلغ منها عدد من القادة والأخبار، وعرفت باسم Los Venegas وهذا حنو هؤلاء الزعماء في التنصير، كثير من الأعيان والأكابر، واندمجوا في طية المجتمع القتتالي، ولما قضت إسبانيا بنفي الموريسكيين (العرب المتنصرين) نهائيًا من أراضيها، تسربت الوف والوف منهم، إلى داخل الأراضي الإسبانية، وكان كثير من السادة الإقطاعيين الإسبان، يخفون عمالهم ومزارعيهم من الموريسكيين ويحمونهم من النفي، ضنًا بعونهم وبراعتهم في قلاحة الأرض، وهكذا استطاعت جماعات كبيرة من الأندلسيين المسلمين والمدجنين، منذ القرن الثالث عشر الميلادي، ومن بعدهم جماعات كبيرة من العرب المتنصرين، خلال القرن السادس عشر، أن تندمج اندماجًا تامًا في المجتمع النصراني، وكانت بعض الأسر الإسبانية العريقة تفتخر بأرومتها الأندلسية، ولا سيما في القرنين السابع عشر

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة في سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ١٤٤ و١٤٥

PDF Eraser Free

والثامن عشر حينما بدأ تحليل إسبانيا^(١). ولأن يدهشك اليوم أن تسمع مثل هذا الاعتزاز بالأرومة الأندلسية من بعض الإسبان، في بلاد أندلسية عريقة مثل إشبيلية وغرناطة.

وإلى جانب هذه الخواص العنصرية والمادية، توجد ثمة طائفة من الخواص الأنيية، التي تبدو في كثير من الصفات الأخلاقية والتقاليد والعادات. فقد ورث الإسبان كثيراً من صفات أسلافهم وتقاليدهم؛ فهم أهل بشاشة وتواضع وطنية، وهم يميلون إلى الدعة، ويعشقون ألوان المرح، ويكثرزون من الغناء والرقص، وينسبون كثيراً من ألوان مرحهم وأغانيهم إلى أصول أندلسية، وهم يبالغون في التحية والحفاوة، ويتبرونك بقولهم "Ola (أهلاً) على الطريقة الشرقية، ويتبادل الأقرباء منهم والأخصاء القبلات حتى في الطرقات، وفيهم أحياناً نزق وسرعة أفعال وحضب، ولكن نزول لأقل ترضية، ولهم بعض عادات ذات مسحة شرقية وإسلامية أحياناً، فهم مثلاً يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام وبعد تناوله، وفي كثير من الفنادق الفخمة، ترى المغسل قائماً في قاعة الطعام، وهي عادة شرقية إسلامية محضنة.

وتتسرب هذه الآثار المعنوية، التي ورثتها إسبانيا النصرانية عن الأمة الأندلسية، إلى اللغة الإسبانية بقوة. فاللغة الإسبانية هي اللغة اللاتينية الوحيدة التي توجد بين حروفها (الخاء) j, ge, gi (أو اللحاء) z, ce, ci، وتمثل في كلماتها بكثرة. وفي اللغة الإسبانية كلمات كثيرة جداً، ترجع إلى أصول عربية، ومن القواعد المسلم بها أن كل كلمة إسبانية تبدأ "بال" Al هي عربية الأصل، تبدأ بأداة التعريف العربية. ونحن نكتفي هنا بأن نورد نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة:

منها في التعبيرات النظامية:

Alguacil	الوزير (والآن المحضر)
	الحاكم، القائد
Alcaide	(محافظ السجن)
	القاضي، العمدة
Alcalde	(رئيس البلدية)
Almojarife	المشرف
Alférez	الفارس حامل العلم

(١) بقص علينا الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني سفير ملك المغرب في كارثوس الثاني ملك إسبانيا سنة

١٦٩١ م في رحلته، بعض الأخبار المتعلقة بذلك (راجع ترجمة الوزير في الفتاوى الأسير) لسفيرة الذكر

PDF Eraser Free

	(والآن ملزم ثان)
Alamin	الأمين (المحتجب)
Alarife	العريف
Almogávares	المغلورون ^(١)
	ومنها في أسماء الأزهار:
Azucenas	السوسن
Jazmines	الياسمين
Arrayán	الريحان
Azahar	الزهر
	ومنها في أسماء المحاصيل:
Albaricoque	البرقوق (المشمش)
Alcachofa	الخرشوف
Alcanfor	الكافور
Alfóncigo	الفتق
Aceituna	الزيتون
Aceite	الزيت
Arroz	الأرز
Azucar	السكر
	ومنها في شئون الري:
Albufera	البحيرة
Alcántra	القنطرة
Zafareche	الصهريج
Azuda	السد
Acequia	المسقى
Aceña	السانية (الساقية)

^(١) وهم الجنود الغدائيون أو المجاهدون

PDF Eraser Free

Alberca	البركة
Aljibe	الجب
	ومنها في الحرف:
Albañil	البناء
Albeitar	البيطار
Alfájeme	الحجام
Alfarero	الفخار
	ومنها كلمات أخرى متنوعة:
Alqueria	القرية
Ariabal	الربض أو الضاحية
Aldea	الضبعة
Almacén	المخزن
Alacena	الخزانة
Funda – Alhóndiga	الفندق
Aleázar	القصر
Alcaiceria	القيصرية
Mezquita	المسجد
Alcazba	القصبة أو القلعة
Aldaba	الضبة
Candil	القنديل
Axarfe	الشرفة
Aljama	الجماعة
Zambra	الزمر
Axarabe	الشراب
Almizcle	المسك
Aljofar	الجوهر

PDF Eraser Free

Alcahaz	القنص
Aljez	الجص
Aljuba	الحبة
Almohada	المخدة
Albacea	الوصية
Alafia	العافية

هذه نماذج قليلة من الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية الواضحة، واللغة الإسبانية مليئة بعدد لا حصر له من هذه الكلمات، وقد ألفت في ذلك معاجم خاصة، لتبين الكلمات الإسبانية ذات الأصول العربية⁽¹⁾.

والخلاصة أن الأمة الإسبانية، تمت إلى الأمة الأندلسية الذاهبة، بكثير من الظواهر العنصرية والحضارية والاجتماعية، وتمثل هذه الظواهر بنوع خاص في أهل الولايات الجنوبية، الذين كان اتصالهم بالمسلمين لشدة وطول مدى. وقد استطاعت السياسة الإسبانية في عصور التزمت والتحامل، بوسائلها العنيفة المفرقة، ومن وراثتها الكنيسة تضطرم بعضاً للأمة الشهيدة ودينها وحضارتها، أن تحقق تراثها المادي، وأن تقضي على معظم الصروح والآثار الأندلسية، ولكنها لم تستطع، وما كان لها أن تستطيع، أن تقضي على تراثها المعنوي والحضاري، فهذا التراث ما يزال إلى يومنا متغلغلاً في روحها وطبائعها، وفي كثير من مناحي حياتها العامة والخاصة، منذ الأجيال وقانون الطبيعة الخالد.

⁽¹⁾ منها معجم من تأليف العلامة Dozy عنوانه: Glossaire des Mots Espagnol et Portugais
وآخر من تأليف المستشرق الإسباني L. de Eguílaz y Yanguas
Glossario de las Palabras Españolas de Origin Oriental

جدول تاريخي

يبين تواريخ سقوط القواعد والمدن الاندلسية

في ايدي الإسبان والبرتغاليين

ألبنة: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م.

أبله: سقطت نحو سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٣ م.

ارشدونة: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م.

أركش: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م.

إستجة: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٦٣٥ هـ - ١٢٣٧ م.

استرقة: سقطت في سنة ١٣٦ هـ - ٧٥٣ م.

أشبونة: استولى عليها البرتغاليون في سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م.

إشبيلية: استولى عليها فرناندو الثالث سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م.

الجزيرة الخضراء: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٧٤٢ هـ - ١٣٤٢ م.

الحامة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٨٧ هـ - ١٤٨٣ م.

الش: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م.

المرية: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٩١ م.

لوريولة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢ م.

باجة: سقطت في ايدي البرتغاليين سنة ٥٥٦ هـ - ١١٦١ م.

بسطة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م.

بطليوس: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٧ م.

بذ الوليد: سقطت في أوائل القرن العاشر الميلادي.

بلش مالقة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م.

بلنسية: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م.

بياسة: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٦٢٥ هـ - ١٢٢٧ م.

تخيلة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م.

جبل طارق: سقطت في ايدي القشتاليين سنة ٨٦٧ هـ - ١٤٦٢ م.

جيان: استولى عليها القشتاليون سنة ٦٥٤ هـ - ١٢٤٦ م.

PDF Eraser Free

- دالية: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م.
- رندة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٠ هـ - ١٤٨٥ م.
- روطة: استولى عليها القونسو ريموندس ملك قشتالة سنة ٥٣٤ هـ - ١١٣٩ م.
- سرقسطة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٥١٢ هـ - ١١١٨ م.
- سمورة: سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م.
- شاطبة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م.
- شريس الفرنتير: سقطت في يد القونسو العالم سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م.
- شقوبية: سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م.
- شلب: سقطت في أيدي البرتغاليين سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م.
- شلمقة: سقطت في سنة ١٣٠ هـ - ٧٥٧ م.
- شلوبانية: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م.
- شنرة: استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ م.
- شتمرية الغرب: استولى عليها البرتغاليون سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م.
- شنت منكش: سقطت في منتصف القرن العاشر الميلادي.
- طرطوشة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م.
- طركونة: سقطت في أيدي القطلان سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٨٠ م.
- طريف: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩٢ م.
- طليطلة: استولى عليها القونسو السادس سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م.
- غرناطة: سلمت للملكين في ربيع الأول ٨٩٧ هـ - يناير ١٤٩٢ م.
- قادس: استولى عليها القونسو العالم سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٢ م.
- قرطبة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م.
- قرطاجنة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٠ هـ - ١٢٤٣ م.
- قرمونة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م.
- قسطلونة: سقطت في لوتل القرن الثالث عشر.
- قلعة جابر: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م.
- قلمرية: استولى عليها فرنانو الأول سنة ٤٥٦ هـ - ١٠٦٤ م.

PDF Eraser Free

- لارندة: استولى عليها القطلان سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م.
- لبلة: استولى عليها الفونسو العالم سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م.
- لقت: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م.
- لثا: سقطت في سنة ١٣٧ هـ - ٧٥٤ م.
- لورقة: سقطت في أيدي الأرجونيون نحو سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٨ م.
- لوشة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م.
- مارددة: استولى عليها القشتاليون سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٣٩ م.
- مالقة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٧ م.
- مربيل: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م.
- مجربط: سقطت في يد الفونسو السادس سنة ٤٧٦ هـ - ١٠٨٣ م.
- مربلة: سقطت في يد الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٨ م.
- مريبطر: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٣٦ هـ - ١٢٣٨ م.
- مرسية: استولى عليها الأرجونيون سنة ٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م.
- مكلى، حصن: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٨٩١ هـ - ١٤٨٦ م.
- المنكب: سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٨١ م.
- ميورقة (والجزائر الشرقية): افتتحها الأرجونيون سنة ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م.
- وادي آش: سقطت في أيدي الملكين الكاثوليكين سنة ٨٩٥ هـ - ١٤٩٠ م.
- وادي الحجاره: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٤٧٤ هـ - ١٠٨١ م.
- وشقة: استولى عليها الأرجونيون سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٦ م.
- ولبة: سقطت في أيدي القشتاليين سنة ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م.
- بابرة: استولى عليها البرتغاليون سنة ٥٦١ هـ - ١١٦٥ م.

فهرست الموضوعات

- ٣- لارغة - ١١٤ -
- ٤- طركونة - ١١٧ -
- ٥- طرطوشة - ١١٩ -
- ٦- ميورقة - ١١٤ -
- لمعلم الأثرية - ١١٦ -
- وثيقة عربية بتقسيم أراضي ميورقة - ١٢٢ -
- مدينة سوليز - ١٢٥ -
- ٧- قسطنطنة - ١٢٦ -
- ٨- شاطية - ١٢٧ -
- الحصن والأسوار - ١٢٨ -
- ٩- دانية - ١٣٣ -
- ١٠- ثقفت - ١٣٦ -
- مدينة أنش - ١٣٩ -
- ١١- لوريولة - ١٤٤ -
- ١٢- قرطاجنة - ١٤٣ -

الكتاب الثالث

مملكة غرناطة وما إليها

- ١- غرناطة - ١٤٨ -
- معلمها وأثارها الأنثسية الباقية .. - ١٥٥ -
- حي البازين - ١٥٥ -
- ميدان باب الرمة - ١٥٨ -
- لقبرية - ١٥٨ -
- لكنيسة المعظمى - ١٥٨ -
- المدسة والخان والطرال الأنثسية - ١٥٩ -
- الأبواب والأسوار - ١٦٢ -
- قصر شهل - ١٦٣ -
- متاحف الخز والصور - ١٦٥ -
- وصف الغزال لغرناطة - ١٦٨ -
- قصر الحمراء - ١٦٩ -
- لحاء الريحان - ١٧٨ -
- بجو السفراء - ١٨١ -

- مقدمة - ٩ -
- خطاب إلى المؤلف من العلامة السورخ
- الاستاذ بيدال - ١٤ -
- مصدر للطبعة الثانية - ١٦ -

الكتاب الأول

القواعد الأندلسية الكبرى

- ١- قرطبة - ١٩ -
- ٢- أطالق الزهراء - ٣٥ -
- ٣- إشبيلية - ٤٣ -
- لاخير لدا - ٥٨ -
- قصر إشبيلية - ٥٣ -
- دار يلاكوس - ٦٠ -
- بعض القوش العربية الأخرى - ٦١ -
- الأسوار لمرحدية - ٦٢ -
- قلعة جابر - ٦٣ -
- ٤- قرمودة - ٦٥ -
- الأكثر الأنثسية - ٦٧ -
- ٥- إسجة - ٧٠ -
- ٦- طليطلة - ٧٤ -
- الكنيسة المعظمى - ٧٦ -
- عما السلطان أبي الحسن قريني - ٧٨ -
- الأكثر الأنثسية - ٨١ -
- القصر وصروح أخرى - ٨٢ -
- ٧- بلثية - ٨٥ -
- ساجنتو - ٩٠ -
- ٨- مرسية - ٩١ -

الكتاب الثاني

الشجر الأعلى وشرق الأندلس

- ١- سرقسطة - ٩٥ -
- قصر الجعفرية - ٩٦ -
- أثر أخرى - ٩٩ -
- ٢- علبية - ١٠٣ -

PDF Eraser Free

- ٢٥٥ - منزل تملكه العربي
- ١٧- مدينة طريف - ٢٦٠
- ٢٦١ - الحصن
- ١٨- الجزيرة الخضراء - ٢٦٣
- ١٩- جبل طارق - ٢٦٥
- ٢٧٢ - الآثار الأثنية
- ٢٧٥ - معالم أخرى
- ٢٠- شربش الفخيرة - ٢٧٨
- ٢٧٩ - المعالم الأثرية
- ٢١- فانس - ٢٨٣

الكتاب الرابع

تافار وفشانة القديمة

- ٢٨٦ - تافار
- ١- بيلونة - ٢٨٧
- ٢٨٨ - حفرة الأثنية
- ٢- برغش - ٢٩٠
- ٢٩٢ - دير الملكي
- ٢٩٥ - في متحف برجوس
- ٣- بش التواند - ٢٩٦
- ٢٩٧ - حصن شنت ملكش
- ٤- شوبية - ٣٠٤
- ٥- أيلة - ٣٠٨
- ٦- وادي الحجارة - ٣١٠
- ٧- شرب - ٣١٣
- ٣١٧ - متحف بشنية دي بون خوان
- ٣٢٠ - متحف الوطني
- ٣٢١ - متحف لزارو
- ٣٢١ - مكتبة الوطنية

الكتاب الخامس

ليون وجلفية والأسترياس

- ١- شنت يغب - ٣٢٣
- ٢- ليون - ٣٢٩
- ٣- سمورة - ٣٣٢
- ٤- شلمقة - ٣٣٦

- ١٨٣ - قاعة الأخمين
- ١٨٤ - قاعة الأسود
- ١٨٦ - قاعة بني سراج
- ١٨٧ - قاعة الملوك
- ١٨٧ - منطرة القنطرة
- ١٨٩ - مزين قنطرة
- ١٩٠ - الزاوية والروضة
- ١٩١ - المسجد والكنيسة
- ١٩١ - نفوس الأبراج
- ١٩٦ - قصر الإمبراطور شارلكان
- ١٩٨ - قصر جنة العريف
- ٢- وادي التي - ٢٠٢
- ٣- مكين - ٢٠٥
- ٤- جيل - ٢٠٨
- ٢٠٩ - المعالم الأثرية
- ٥- بيلة وأيدة - ٢١٤
- ٦- نورقة وبسطة - ٢١٩
- ٧- لوشة - ٢٢١
- ٨- أرشونة - ٢٢٣
- ٩- مافة - ٢٢٧
- ١٠- بلش مافة - ٢٣٨
- ١١- مربة - ٢٤٠
- ٢٤١ - سهل
- ١٢- المنكب - ٢٤٢
- ١٣- شوبانية - ٢٤٥
- ١٤- شرب - ٢٤٧
- ١٥- لمرية - ٢٤٨
- ٢٤٩ - القصة
- ١٦- ردة - ٢٥٤
- ٢٥٥ - المعالم والآثار الأثنية
- ٢٥٥ - القنطرة العربية
- ٢٥٥ - الحمامك العربية
- ٢٥٥ - المنارة
- ٢٥٥ - قصر الأمير أبي مالك

PDF Eraser Free

- ٣٧٢ - الآثار الأنثوية الباقية في البرتغال
- ٣٧٢ - كمبوديا
- ٣٧٤ - ١ - فارو أو شنتيمرية الغرب.....
- ٣٧٨ - ٢ - شب
- ٣٨٣ - ٣ - بلجة.....
- ٣٨٨ - ٤ - بايزة
- ٣٩٢ - ٥ - ألبونة
- ٣٩٨ - ٦ - شقرة
- ٤٠٩ - ٧ - شترين

خاتمة

- ٤٠٦ - ١ - تراث الأندلس لفكري.....
- ٤١٢ - ٢ - الآثار المعلقة.....
- ٤٢٠ - جنول تاريخي.....

- ٣٤٠ - ٥ - أوقيانو
- ٣٤٤ - ٦ - كوقانجا

الكتاب السادس

الأندلس الغربية والبرتغال

- ٣٥٠ - ١ - بطليوس
- ٣٥١ - القصبة الأنثوية.....
- ٣٥٣ - في متحف بطليوس.....
- ٣٥٦ - معلم أثرية أخرى.....
- ٣٥٨ - ٢ - ماردة.....
- ٣٥٨ - المعلم الأثرية.....
- ٣٦٢ - نفوس أنثوية.....
- ٣٦٥ - ٣ - ولبة.....
- ٣٦٧ - ٤ - أبلنة.....
- ٣٦٩ - المعلم الأثرية.....

فهرس الصور والخرائط

- ٥٧ - قصر إشبيلية. منخل فناء العذاري
- ٥٧ - قصر إشبيلية. فناء العذاري.....
- ٦٠ - إشبيلية. فناء دار بلاطوس وعقوده العربية - ٦٠ -
- إشبيلية. فناء دار علي الطراز الأنثسي. - ٦٠ -
- إشبيلية. برج الذهب..... - ٦٢ -
- إشبيلية. جانب من الأسوار الموحدية..... - ٦٣ -
- أطلال قلعة جابر..... - ٦٤ -
- فرموشة. منخل المدينة..... - ٦٦ -
- فرموشة. باب إشبيلية وهو بابها الغربي. - ٦٦ -
- فرموشة. باب قرطبة وهو بابها الشرقي - ٦٩ -
- فرموشة. أطلال "القصر" القديم..... - ٦٩ -
- إستجة. منظر جزئي للمدينة..... - ٧١ -
- إستجة. عقد عربي في فناء كنيسة ... - ٧١ -
- إستجة. كنيسة العظمى..... - ٧١ -
- طليطلة. باب الشمس..... - ٧٤ -
- طليطلة. منظر جزئي لواجهة المدينة ... - ٧٥ -
- طليطلة. القنطرة الأنثسية ا..... - ٧٥ -
- طليطلة. كنيسة العظمى..... - ٧٧ -
- طليطلة. شارع داخل المدينة..... - ٨٠ -
- المسجد المسمى كريسفودي لوث* - ٨١ -
- طليطلة. القصر..... - ٨٣ -
- طليطلة. بقايا الأسوار الأنثسية..... - ٨٣ -
- بلنسية. كنيسة العظمى..... - ٨٦ -
- بلنسية. قلعة "الجلبين"..... - ٨٩ -
- (بلنسية). حصن "المطارة"..... - ٨٩ -
- أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس..... - ٣ -
- غرداية. منظر عام لمدينة الحمراء..... - ٤ -
- قصر الحمراء. نافورة فناء الأسود..... - ٥ -
- جامع قرطبة..... - ٦ -
- إشبيلية. منارة المنصور..... - ٧ -
- سرقطة. عقد من عقود قصر الحفورية..... - ٨ -
- جامع قرطبة. صحن الجامع..... - ٢٤ -
- جامع قرطبة. عقود منخل المحراب..... - ٢٤ -
- باب القنينة كاتيلدا أحد أبواب الجامع ... - ٢٥ -
- جامع قرطبة. "جامع المنصور"..... - ٢٧ -
- جامع قرطبة. القصر الأنثقي..... - ٣٢ -
- قرطبة. القنطرة العربية..... - ٣٩ -
- قرطبة. باب المدور..... - ٣٣ -
- زخارف وعمود في حوائط الزهراء..... - ٣٧ -
- مدينة الزهراء: بعض العقود والزخارف..... - ٤٠ -
- مدينة الزهراء: بعض الأطلال..... - ٤٢ -
- مدينة الزهراء: حائط آخر من الأطلال..... - ٤٢ -
- وعن الزهراء البرونزي..... - ٤٢ -
- إشبيلية. كنيسة العظمى (كنسائية)..... - ٤٧ -
- كنيسة إشبيلية العظمى. صحن الكنيسة..... - ٤٧ -
- إشبيلية. منارة المنصور (لاخوردا)..... - ٤٩ -
- إشبيلية. منارة جامع المنصور..... - ٥٠ -
- مراكن. منارة جامع كنيسة شهيرة..... - ٥١ -
- قصر إشبيلية. بهو السفراء..... - ٥٥ -
- عقود من جناح الملوك الأندلسيين..... - ٥٥ -

PDF Eraser Free

- ١٣٠ - شاطبة. أطلال الحصن
- ١٣١ - متحف شاطبة. رخايف
- ١٣٤ - دائية. منظر للحية من قصبة
- ١٣٦ - لفتت. أطلال قصبة
- ١٣٨ - لفتت. واجهة كنيسة سانتا ماريا
- ١٤١ - لوريولة. أطلال القصبة الأنثية
- ١٤٢ - لوريولة. دير معبد سان يوسيفو
- ١٤٤ - فرطاجنة. حصن الأنثيين
- ١٤٥ - فرطاجنة. منظر الميناء تحسبها الجبال
- ١٤٥ - فرطاجنة. حصن "لاكسيبيون"
- ١٥١ - غرناطة. غرناطة الإسلامية
- ١٥٦ - غرناطة. باب لحصن التور
- ١٥٧ - غرناطة. بقية من عقود جامع البازين
- ١٦١ - غرناطة. واجهة لكنيسة العظمى
- ١٦١ - غرناطة. واجهة المصلى الملكي
- ١٦١ - ضريح غرناطة وإسبانيا
- ١٦٢ - غرناطة. باب البيرة
- ١٦٤ - عقود قصر شيل
- ١٦٤ - غرناطة. واجهة قصر شيل
- ١٦٤ - غرناطة. عقد منخل للفندق
- ١٦٤ - غرناطة. فناء منزل أنثي قديم
- ١٦٧ - متحف الحمراء
- ١٧٠ - غرناطة. باب الزمان
- ١٧٠ - الحمراء. ميدان باب الشريعة
- ١٧٢ - الحمراء. باب الشريعة
- ١٧٢ - الحمراء. باب الشراب
- ١٧٢ - الحمراء. برج الحراسة

- ٩٢ - مرسية. شارع معقود الجوانب
- ٩٣ - مرسية. الكنيسة العظمى
- ٩٣ - مرسية. القنطرة الحجرية
- ٩٧ - سرقطة. واجهة قصر الجعفرية القديم
- ٩٨ - سرقطة. منظر عام لقصر الجعفرية
- ٩٨ - سرقطة. كنيسة العمود
- ١٠٠ - سرقطة. عقد رخايفي
- ١٠١ - سرقطة. كنيسة العظمى (الأسير)
- ١٠٢ - سرقطة. عقد "العبد"
- ١٠٥ - لاردة. أطلال القصبة الأنثية
- ١٠٥ - لاردة. أحد عقود القصبة الأنثية
- ١٠٩ - طركونة. واجهة لكنيسة العظمى
- ١٠٩ - طركونة. الأسوار الرومانية
- ١١١ - طركونة. واجهة لكنيسة العظمى
- ١١٣ - طركونة. أطلال القصبة الأنثية
- ١١٣ - طركونة. فناء النهر المخاور
- ١١٥ - ميورقة. منظر عام للمدينة والميناء
- ١١٧ - ميورقة. واجهة قصر المدينة
- ١١٨ - ميورقة. الكنيسة العظمى
- ١١٨ - ميورقة. فناء الملكة داخل قصر المدينة
- ١١٩ - ميورقة. عقد باب المدينة
- ١٢٠ - ميورقة. فناء دير سان فرانسيسكو
- ١٢٠ - ميورقة. حصن بنفون (المنظر الجميل)
- ميورقة. الصفحة الأولى من مخطوط وثيقة
- ١٢٤ - لتقسيم العربية المحفوظة
- ١٢٩ - شاطبة. الجبل الذي يقع الحصن
- ١٢٩ - شاطبة. أحد أبراج الحصن

PDF Eraser Free

- ٢١٥ - أيدو. أطلال قصبة الأنشاسية
- ٢١٥ - أيدو. باب غرناطة
- ٢١٧ - أيدو. كنيسة سانتا ماريا
- ٢١٧ - أيدو. القلعة العربي القسبي باب روسال
- ٢٢٢ - أورشونة. أطلال القصبة الأنشاسية
- ٢٢٤ - أورشونة. منظر عام للمدينة
- ٢٢٤ - أورشونة. أطلال القصبة
- ٢٢٦ - أورشونة. صفوف المعبد العربية
- ٢٢٦ - أورشونة. هيكل المعبد
- ٢٢٨ - ماقفة. واجهة لقصبة
- ماقفة. منظر عام لواجهة القبلي الداخلية للقصبة
- ٢٣٠ - وفي أسرها
- ٢٣٠ - جبل غارة وفي أعلاه أطلال الحصن
- ٢٣٠ - ماقفة. أطلال حصن جبل غارة
- ٢٣٢ - قصبة ماقفة. العقود الغرناطية
- ٢٣٢ - ماقفة. آياد فارس المسيح داخل القصبة
- ٢٣٢ - ماقفة. باب لسوق الأنشاسي
- ٢٣٤ - قصبة ماقفة. عقد المنخل
- ٢٣٥ - ماقفة: الكنيسة العظمى
- ٢٣٧ - بلش ماقفة. كنيسة سانتا ماريا
- ٢٣٧ - ثورة (ماقفة) بقايا حصن الأنشاسي
- ٢٣٧ - فرطمة (ماقفة) الحصن الأنشاسي
- ٢٤٣ - المنكب. منظر عام للملك وثغرها
- ٢٤٣ - المنكب. أطلال تحصن المشرف
- ٢٤٦ - شويابو. منظر عام للمدينة
- ٢٤٦ - شويابو. الكنيسة العظمى
- ٢٥٠ - لمرية. منظر عام لحاقل القصبة
- ١٧٦ - خريطة مدينة الحمراء
- ١٨٠ - الحمراء. ساحة البركة
- ١٨٠ - الحمراء. فاحة الأختين
- ١٨٤ - الحمراء. جانب من صفوف لواء الأسود
- ١٨٥ - الحمراء. قبة لواء الأسود الوسطى
- ١٨٩ - الحمراء. منظره الملكة وبرج فمارش
- ١٩٠ - الحمراء. كنيسة سانتا ماريا
- ١٩٢ - أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأنشاسي
- ١٩٣ - الحمراء. بهو السرا
- ١٩٤ - الحمراء. منظر عام لواء الأسود
- ١٩٤ - الحمراء. بهو الریحان (بهو البركة)
- ١٩٥ - الحمراء. منخل بهو السرا
- ١٩٥ - الحمراء. بهو بني سراج
- ٢٠٠ - الحمراء. واجهة قصر جنة العريف
- ٢٠٠ - البهو الداخلي بقصر جنة العريف
- ٢٠١ - صفوف البهو الداخلي بجنة العريف
- ٢٠٤ - وادي لئ. أطلال بناء أنشاسي
- ٢٠٤ - بعض أبراج قصبة الأنشاسية
- ٢٠٤ - وادي لئ. الكنيسة العظمى
- ٢٠٦ - مكين. أطلال الحصن مشرفة
- ٢٠٦ - مكين. كنيسة القائمة
- ٢١٠ - جيلان. أطلال القصبة الأنشاسية
- ٢١٠ - جيلان. البرج الأعظم بالقصبة
- ٢١٠ - جيلان. الحمامات العربية
- ٢١٢ - جيلان. المعشني العربي
- ٢١٢ - جيلان. واجهة الكنيسة العظمى
- ٢١٣ - جيلان. كنيسة سانتا مجدلين

PDF Eraser Free

- ٢٩٩ - صندوق حاجي عبد الملك المنصور .. - ٢٩٩
- ٢٩٩ - لوحة أنثسية من الخزف المذهب .. - ٢٩٩
- ٣٠٠ - عباءة أبي عبد الله آخر ملوك الأتلس .. - ٣٠٠
- ٣٠١ - سيف صلي العطار بض ثوبه .. - ٣٠١
- ٣٠٦ - علم الموحدين الذي غنمه الإنجلي .. - ٣٠٦
- ٣٠٣ - بك لوليد عقود لمتحف .. - ٣٠٣
- ٣٠٣ - بك لوليد واجهة منزل ثرفانسن .. - ٣٠٣
- ٣٠٣ - شنت منكش (سيمانفا) .. - ٣٠٣
- ٣٠٥ - شقوبية القنطرة الرومانية لكبرى .. - ٣٠٥
- ٣٠٥ - شقوبية بقية من الأسوار الأنثسية .. - ٣٠٥
- ٣٠٥ - شقوبية عقد سان أندري .. - ٣٠٥
- ٣٠٧ - شقوبية منظر عام للقصر .. - ٣٠٧
- ٣٠٩ - أبنية جانب من الأسوار الرومانية وقد ظهرت في نهاية الكنيسة العظمى .. - ٣٠٩
- ٣١١ - وادي الحجارة. القنطرة العربية على نهر طارس (القرن الثامن إلى الحادي عشر) .. - ٣١١
- ٣١١ - وادي الحجارة. برج الطمين .. - ٣١١
- ٣١٩ - إقرار أبي عبد الله آخر ملوك الأتلس .. - ٣١٩
- ٣١٩ - زخارف قطعة من البسط الأنثسي .. - ٣١٩
- ٣١٩ - متحف شارع الوطني، فنتيل بروفزي .. - ٣١٩
- ٣١٩ - من مخطات جامع الحمراء .. - ٣١٩
- ٣٢٤ - شارع قبار المعقود الجوانب .. - ٣٢٤
- ٣٢٦ - شنت ياقب الكنيسة العظمى .. - ٣٢٦
- ٣٢٧ - قبر القديس يهف (يعقوب) الرسولى .. - ٣٢٧
- ٣٣٠ - ليون الكنيسة العظمى .. - ٣٣٠
- ٣٣٣ - سمورة منظر عام للحصن والأسوار .. - ٣٣٣
- ٣٣٣ - سمورة الكنيسة العظمى .. - ٣٣٣

- ٣٥٠ - لمروية. منظر القمضاء .. - ٣٥٠
- ٣٥٢ - لمروية. منظر عام لواجهة القصبة الأنثسية والمشارف الباقية .. - ٣٥٢
- ٣٥٣ - لمروية. لكتراية أو الكنيسة العظمى .. - ٣٥٣
- ٣٥٦ - رندة. القنطرة العربية .. - ٣٥٦
- ٣٥٨ - رندة. بقايا الحمامات العربية .. - ٣٥٨
- ٣٥٨ - رندة. العنارة العربية .. - ٣٥٨
- ٣٥٨ - رندة. باب المقابر .. - ٣٥٨
- ٣٦٢ - طريف. باب شريش .. - ٣٦٢
- ٣٦٢ - منظر عام لبقايا الحصن الأنثسي .. - ٣٦٢
- ٣٦٨ - خريطة جبل طارق .. - ٣٦٨
- ٣٧٠ - جبل طارق، منظر الصخرة .. - ٣٧٠
- ٣٧٠ - مدينة جبل طارق في أسفل الصخرة .. - ٣٧٠
- ٣٧٤ - جبل طارق، منظر الحصن الأنثسي .. - ٣٧٤
- ٣٧٤ - مشغل الحصن الأنثسي .. - ٣٧٤
- ٣٧٤ - إحدى واجهات الحصن الأنثسي .. - ٣٧٤
- ٣٧٦ - جبل طارق الحصن الأنثسي .. - ٣٧٦
- ٣٨٢ - شريش. كنيسة العظمى .. - ٣٨٢
- ٣٨٢ - شريش. بعض أبراج قصر ولوار .. - ٣٨٢
- ٣٨٢ - شريش. عقد عربي داخل القصر .. - ٣٨٢
- ٣٨٤ - قانس. الكنيسة العظمى .. - ٣٨٤
- ٣٨٨ - بتلولة. نموذج من صور صندوق الأنثسي المصنوع بالكنيسة العظمى .. - ٣٨٨
- ٣٩١ - برغش. كنيسة العظمى .. - ٣٩١
- ٣٩٢ - برغش. تدير الملكي وعقوده الخارجية .. - ٣٩٢
- ٣٩٤ - (تدير الملكي). زخارف منجية .. - ٣٩٤
- ٣٩٤ - متحف برغش. عقد من الرخام .. - ٣٩٤

PDF Eraser Free

- ٣٧٦ - فارو أحد أبواب المدينة الأتليسي
- ٣٧٦ - فارو الكنيسة العظمى
- ٣٧٦ - شلب واجهة الحصن الخارجية
- ٣٨٠ - شلب منظر عام للحصن الأتليسي
- ٣٨٠ - شلب بعض أبراج الحصن الداخلية
- ٣٨٠ - شلب أحد جدران الحصن
- ٣٨٢ - شلب كنيسة العظمى
- ٣٨٤ - باجة عقد "بابرة"
- ٣٨٦ - باجة منظر عام للحصن
- ٣٨٦ - باجة عقد داخل المدينة
- ٣٨٦ - باجة كنيسة لرحمة ذات العقود العربية
- ٣٩٠ - بابرة واجهة الكنيسة العظمى
- ٣٩٠ - بابرة عقود القنطرة الرومانية
- ٣٩٠ - الحصن الملاصق للكنيسة العظمى
- ٣٩٤ - لشبونة أطلال القصة الأتليسي
- ٣٩٦ - عقد أبواب البحر أحد أبواب الأتليسي
- ٣٩٦ - لشبونة كنيسة العظمى
- ٣٩٦ - لشبونة كنيسة سان جيرونيمو
- ٣٩٨ - شقرة منظر عام للحصن الأتليسي
- ٣٩٩ - شقرة مصلى قصر الحراسة
- ٣٩٩ - شقرة عقود الحمامات بقصر الحراسة
- ٤٠٢ - شترين بقية من الأسوار الأتليسي
- ٤٠٣ - شترين أطلال القصة الأتليسي
- ٤٠٣ - شترين كنيسة الكوفا من الكلى
- ٤٠٣ - قصر الاسكورييل

- ٣٣٥ - جانب من الصنوق الأتليسي كبير
- ٣٣٥ - سمورة جانب من الصنوق الأتليسي
- ٣٣٨ - شلمقة بناء الجامعة القديم
- ٣٣٨ - شلمقة كنيسة العظمى
- ٣٣٨ - شلمقة دار الأصدقاء
- ٣٤٢ - لوقيديو كنيسة سانتا ماريلا دل لراكو
- ٣٤٢ - لوقيديو كنيسة سان ميغل دي ليو
- ٣٤٢ - لوقيديو واجهة الجامعة القديمة
- ٣٤٧ - كوفانتجا منظر عام للوادي
- ٣٤٧ - جانب الصخرة الذي به كنيسة
- ٣٥٢ - أبرج الموحدي من بقايا القصة
- ٣٥٥ - بطليوس باب من أبواب القصة
- ٣٥٥ - بطليوس الكنيسة العظمى
- ٣٥٥ - "الميدان العالي" وفوسه المنخفض
- ٣٥٩ - ماردة القنطرة الرومانية
- ٣٥٩ - ماردة منظر عام للمبرج الروماني
- ٣٦٠ - ماردة العقد العربي داخل القصة
- ٣٦٢ - قشرش أبرج العربي الكبير
- ٣٦٢ - قشرش بعض العقود العربية البقية
- ٣٦٦ - ولبة ميدان وكنيسة سان بينور
- ٣٦٦ - ولبة شباك العربي ذو العقد
- ٣٦٨ - لبة واجهة القصر الأتليسي القديم
- ٣٦٨ - لبة أبرج الكنيسة
- ٣٦٨ - لبة بعض أطلال القصر الأتليسي
- ٣٧٠ - لبة باب إشبيلية المتجه شرقاً
- ٣٧٠ - جانب من الأسوار الموحدية الكبرى
- ٣٧٥ - فارو عقد الحراسة

الشر (ملقة) ٢٥٠
 الصخرة (كوفالاجا) ٣٧٠، ٣٦٧
 العقاب، مرقعة ١٢، ٢٣٠، ٣١٣، ٣١٤
 الغرب، ولاية ١٢٦، ٣٨٧، ٣٩٠، ٣٩٦، ٣٩٧
 ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٦
 أنفاما (أشونة) ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٠
 أنغولتير ٣٨٢، ٤٩٧، ٥٠٢، ٥٨٧
 انقصية الحمراء ١٨٩
 انقصية القديمة ١٦٢
 انقصر الأقوي (قرطبة) ٣١
 انقصر الأثري ٣١
 انقصر الأثري (جبل طارق) ٢٩١
 انقصر الخيلي (قزهرام) ٣٨
 انقصر العربي (الحصراء) ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٧
 انقصر (أثر) ١٥١
 انقصر (مطبعة) ١٨٢، ٩٠
 انقصر (شريط) ٢٩٨، ٢٩٩
 انقصر (ثقة) ٣٩٣
 انقصر (إسبانية) ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤
 ٤٣٧
 أنقيرية، ١٦٤، ١٧٠، ١٧١
 أنكالا (مدرسة) ٣٣٣
 أنكدة (بسة) ٩٨
 أنكدة (مبورقة) ١٣٦
 أنرسنن المصري ١٧٨، ١٧٩
 أنرية ٢٩٨، ١٤٢، ١٦١، ١٨١، ٢٢٢، ٢٥٨، ٢٦٥
 ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٠، ٣٣٦، ٤٣٠، ٤٣٥، ٤٤٠
 المنصورية ٣٣٩
 أنكبد ١٦٦، ١٦١، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢
 أنقير (ولاية) ٤٠٦، ٤١١، ٤١٣
 أنسلا ٣٤٢
 أنورة ٢٥٢
 أنيبو (أشونة) ٤١٦

أنسلا ١٦١
 أنشات ٢٠٧
 أنشقة ١٥٤
 أنيبو الذهني ١٠٦، ١٠٨
 أنشقة ١٤٥
 أنشور ٢٩٧
 أنشور الشرقية ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
 أنشور (مطبعة) ١٣٩
 أنشور الحمراء ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤
 أنشور ١٤٤، ١٦١
 أنشور ٢٣٢
 أنشور، مطبعة، قسيمة ٩، ١٠، ١٢، ١٥٨، ١٨٣
 ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٦، ١٦٦، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٤
 ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨
 ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٨ - ٢١١، ٣٣٨، ٣٤٠
 أنشور، المطبعة ١٨٩، ١٩٢
 أنشور (المنشور الجديد) ١٧٣، ١٧٤
 أنشور (المنشور) ٣٩٦
 أنشور ١٣٩
 أنشور، مرقعة ٣٦٠، ٣٥٢
 أنشور (المنشور) ٩٨
 أنشور المنكر ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤
 أنشور (الحصراء) ٢٠٧، ٢٠٨
 أنشور ٣٩٦
 أنشور ١٨٩
 أنشور ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ٤٤، ١٨٩
 ٣٣٨
 أنشور ٣٠، ٣١
 أنشور ١٨٩، ١٩٢
 أنشور (جبل طارق) ٢٩٤، ٢٩١
 أنشور ١٥٢، ١٥١
 أنشور ٤١٦

باب القذور (الحمرام) ١٤٦	أمريكا ٤٦، ٣٨٨
باب الغفران (إسبيلية) ٤٩	أمريكا الجنوبية ٤١٧
باب الغفران (قرطبة) ٢٢	أنكروليا ١٦٢
باب القبة (الزهرام) ٣٩	إنجلترا ٢٨٨
باب الكحل (مبورقة) ١٢٧، ١٣٤	أندرش ٣٣٤
باب السدى (مبورقة) ١٣٤	أوريثونا ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤
باب شفقو (رندة) ٢٧٧	أوسيدا، صخرة ٣٦٧، ٣٦٨
باب المنطرة (مبورقة) ١٢٧	أوفييدو ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٦
باب التنخيل (بيلينوس) ٣٧٣	أوتية (أوتية) ٣٨٩
باب التنخيل (قرطبة) ١٢٦، ٣٠	أماوتشي ٣٥٦
باب برتيل (مبورقة) ١٢٧	إيريا ٣٤٤
باب ساحرا (إسبيلية) ٨٢	ب - ث
باب بلايو (ليون) ٣٥٠	باب إسبيلية (قرمونة) ٧١، ٧٣
باب بني غارة (غرناطة) ١٨٤	باب إسبيلية (بنة) ٣٩٢
باب ترندك (بيلينوس) ٣٧٨	باب الأندلس (باجة) ٤٠٧
باب تيورا (قانس) ٣٠٣	باب الملكي (غرناطة) ١٦٢
باب سان أندريس (شغبية) ٣٢٥	باب البحر (مبورقة) ١٢٨
باب سيده (غرناطة) ١٧٥	باب البكة (مبورقة) ١٢٨
باب شريش (طريف) ٢٧٩	باب الشيط (مبورقة) ١٢٧، ١٣٤
باب شنت إشتن (قرطبة) ٢٢	باب البنية (غرناطة) ١٦٨، ١٧٤
باب غرناطة (الحمرام) ١٨٨	باب البيرة (غرناطة) ١٧٤، ١٧٥
باب غرناطة (أبنة) ٢٣٠	باب الجديد (مبورقة) ١٢٧
باب قرطبة (قرمونة) ٧١، ٧٣	باب الخبابة (بمورة) ٣٥٤
باب مكارينا (إسبيلية) ٩٧	باب الزمان (الحمرام) ١٨٤، ١٩٠
باجة ٢٩، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٥	باب الزمان (الحمرام) ١٩٨، ١٩٩
ألياردو، سهل ٣٣٢	باب البنة (الزهرام) ٣٩
بالما دي مبورقة، انظر مبورقة.	باب السراجب (مبورقة) ١٢٧
بالتسبا ٣٣٩	باب السلاج (الحمرام) ١٤٢
بيشقا ٢٥٢	باب الشراب (الحمرام) ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢
بجاجة ٢٦٥	باب الشريعة (الحمرام) ١٨٤، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٢
بحر الطليبات ٢٨٤، ٤١٧	باب الشري، موقعة ١٣
الترتقال ٤٨، ٣٨٧، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٠٢، ٤٠٦	باب الطليق السبع (الحمرام) ١٩٢
٤٠٧، ٤١٥، ٤٢١، ٤٢٤	باب العمود (بيلينوس) ٣٧٨

بنوط (خزنة) ٢١٨	البرج الأبيض (جبل قزم) ٢٤٨
بني لريج ١٤٥	برج إسكندروس (البرج الموحني) ٣٧٦, ٣٧٥
بني تشوري ١٤٥	برج الأكمام ١٩٠
بني جاسرا ١٤٥	برج الأسيرة ١٩٠
بني بلج ١٤٥	برج الأميرات ١٩٠, ٣٠٨
بني نورم ١٤٥	برج الحببين ٩٥
بني سلو ١٣٦	برج الحراسة ١٨٨, ١٩٠, ١٩٣
بني عري ١٣٦	برج الذهب ١٦٣, ٦٧
بني عيسا ١٤٥	برج القاهب ٢٦٠
بني فايز ١٣٩	برج القوس ١٩٠
بني فري ٩٨	برج العقائل ١٩٠
بني قاسم ٩٨	برج العنمين ٣٢٨
بني قنديل ١٥٩	برج قهرة (البل) ١٥١
بني لوبة ١٤٥	برج قمارش ١٩٠, ١٩٣, ١٩٦
بني مرقيل ١٤٥	برج الكوارتو ٩٥
بني سليم ١٣٩	برج قسام ١٩٠
بهر البركة (بهر الربحان) ١٩٣, ١٩٤, ١٩٦, ١٩٨	برج المقرين ١٩٠, ٢٠٥
٢٠٩	برج سانت كرويش ١٧٦, ٧٨
بهر السراء (التيهية) ٥٨	بركتيوة ١٩٣, ١٩٨, ١٠٤, ١١٤, ١١٧, ١٢٥
بهر السراء (بهر قمارش) ١٩٠, ١٩٣, ١٩٦	برغل ٣١٠, ٣١١, ٣١٢, ٣٥٧
بهر الملوك (التيهية) ٦٢	بركونة ٢٣٢
برثل ٩٨	بريعة ١٢٨
بورقو (بورقل) ٣٩٥	بطة ١٦١, ٢٣٣, ٢٣٤, ٤٤٠
بياسة ١٦, ٢٢٨, ٣١٤	بطليموس (رومية) ٩, ٣٧٢, ٣٧٣, ٣٧٦, ٣٧٩
بيت المقدس ٣٤٨	٣٨٠, ٣٨٦, ٤٠٦, ٤١١
بنفا ٢٢٢	بلاد البشكن: انظر دالار
برحلة ٣٨٦	بك لويدي ٣٠٦, ٣١٨, ٣١٩, ٣٢١, ٣٥٧
بطينة ١١٣, ١١٤	بلبل مافقة ٢٥٤, ٢٥٥
توري بلمرا ٢٥٤	بلاسية ٩, ١١, ١٨, ٤٥, ٩٣ - ٩٦, ٩٨, ٩٩
توليوية خصلية ٣١٤	١٠٤, ١٣٧, ١٣٨, ١٣٩, ١٤٥, ١٤٩, ١٥٢
انشر الأعلى ١٠٤, ١١٤, ٢٣١	١٥٥, ١٥٦, ٢٢١, ٢٦٦, ٢٩٧, ٣١١
٣ - ٥	بتقونة ١١٣, ٣٠٧, ٣٠٨, ٣٠٩
جاصع ليد ٢٣٢	بنو عيوس ٢٦٥

جامع تشونج ٤٢٠	جامع ابن عديس ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢
جامع لفتند ١٥٠	جامع لشدونج ٢٤٠
جامع لوشة ٢٣٦	جامع إستجة ٧٨
جامع ساردج ٣٨٣	جامع إلسينيلج ٥٢، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٥٦
جامع سلقج ٢٥١	٦٦، ٦٣
جامع سيورقج ١٢٧	الجامع الأبيض ١١٠، ١١٣
جامع وادي الش ٢١٦	جامع التهازين ١٦٨
جامع وادي الحجارة ٣٢٠	جامع الجزيرة الخضراء ٢٨٢
جامع ولية ٣٨٦	جامع لكتنية (مراكش) ٥٥
جامع يايو ٤١٤	جامع المربعة ٢٧٠
جامعة أكسورد ٣٥٨	جامع بسطة ٢٣٤
جامعة ألكالا دي هنارس ٤٣٠	جامع بعلبوس ٣٧٢، ٣٧٨
جامعة أوفينبر ٣٦٤، ٣٦٥	جامع تلمبة ١١٣
جامعة باريس ١٦٥، ٣٥٨	جامع حيان ٢٢١، ٢٢٤
جامعة بك التوتج ٣١٨	جامع دانية ١٤٧
جامعة بولونيا ٣٥٨	جامع رندج ٢٧٣
جامعة شامقج ١٦٥، ٣٥٧، ٣٥٨	جامع سرقسطة ١١٠
جامعة شنت ياقب ٢٤٧	جامع شلمبة ١٤٣
جامعة غرناطة ١١٠، ١١٥، ١١٦، ١١٦٧، ٣٥٧	جامع شريش ٣٠٠
جامعة غرناطة الإسلامية ١٧٣	جامع شلب ٤٠٤
جامعة قرطبة ٢٢	جامع طرطوشة ١٢١
جامعة يايو ٤١٤	جامع طركونة ١١٧
جانباف ١٤٣	جامع طلمبة ٨٢، ٨٣، ٨٧
جبل سيرا موريتج ١٨، ٣٠	جامع غرناطة ١٧١، ١٨٢
جبل سيرا بقساد ١٦٦، ١٦٤، ١٦٢، ٢١١، ٢١٥	جامع قارو ٤٠٠
٢٣٢، ٢١٨	جامع قادس ٣٠٢، ٣٠٣
جبل كنتريام ٣٦١	جامع قرطبة ١٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤
جبل مراكش ٢٧٨	٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧
جبل آتبات ٢٨٤	٣٤٤
جبل القنچ ٢٨٦	جامع قرمونة ٧٤
جبل برنيسا ١٤٠	جامع قصبة بعلبوس ٣٢٥
جبل خنيس ٣٦٧، ٣٧٠	جامع قصبة شترين ٤٢٨
	جامع لبلج ٣٥٢

دير ليري: ٣٠٩
 الرباط: ٥٤
 ربحن تيارين: النظر حي تيارين
 ربحن تيعام: ١٦٦
 ربحن تيعزين: ١٦٦
 ربحن المرابطين: ١٦٦
 ربحن المنصور: ١٦٦
 ربحن قمارش: ١٦٦
 رحية باب الزيادة: ١٦٨
 رسته: ١٦، ١٣، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩٧، ٤٣٠
 روس (مباشرة): ٢٣٠
 رومة جثون: ١١٣
 رومة: ٣٣
 زقرة العربي الأخيرة: ١٣٣
 من - ع
 حاجتوة: ١١، ٩٨
 ساحل تلمس: ٢٥٦
 سالكوا، موقعة: ٨٥، ٢٨٢
 سان بتيو (مربية): ٩٩
 سانتافي: ١٦١
 سان روكي: ٢٨٨
 سان فرنانو (القرنترم): ٢٨٣
 سان كنتان (موقعة): ٤٣٢
 سان لوقا: ٣٨٩
 سبتة: ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٠٣
 سرالنية: جزيرة: ١٤٦
 سرقسطة: ٩، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٢٦، ١٨١، ٣٢٥
 سمورة: ٣٢٠، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦١
 السخال: ٤١٧
 سبيل: ٢٥٧
 سوق مافقة: ٢٤٨

حي الرصافة (بنسبة): ٩٣
 حي الروح القدس: ١٩، ٢٣
 حي قصر قديم: ٣٠
 حي سان فرسيسكو (رنتة): ٢٧٧
 حي سانتا كروث: ٩٨
 خليج سكوتية: ٣٦١
 خوسيه أنطونيو (مترية): ٣٣٢
 د - ز
 دار الأهداف (شقيقة): ٣٥٨، ٣٦٠
 دار الرماية (غرناطة): ١٧٤
 دار السرور: ١٠٥، ١٠٩
 دار القمح (غرناطة): ١٧٤
 دار المحفوظات التاريخية: ٣٤
 دار المحفوظات العامة: ٣٢٠
 دار بلاتوس: ١٦٤، ٦٦
 دار محفوظات الهند: ٤٦٢
 دار محفوظات بلدية بالنسية: ٩٦
 دار محفوظات مكتبة بالنسية: ٩٦
 دار محفوظات بلدية ميورقة: ١٣٣
 دار محفوظات بيلوتة: ٣٠٨
 دالية: ١٣٦، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
 دير الحفاة (ماتيويس): ٣٧٨
 دير تكابوسين: ٩٧
 دير سكرومتني (غرناطة): ١٦٤، ١٦٥، ١٨٠
 دير سانتا ماريا دي جراثيا (آنية): ٣٢٦
 دير سان جبروتورا: ٣٥
 دير سان دومنجا: ١٥٤
 دير سان فرسيسكو: ١٢٧
 دير سان كستتي: ٣٤٠
 دير سان ماركوس: ٣٥١
 دير قونكة: ٣٥٧
 دير كوتيسوا (باحة): ٤٠٨، ٤١٠
 دير لاهرسا (بايرة): ٤١٤

قصر مرشانة (قرمونة) ٧٤
 قصر مندوسا (وادي الحجارة) ٣٣٠
 قصر مونتيري (شنتفة) ٣٦٠, ٣٥٨
 قلعة جابر ١٦٩, ٧٠
 قلعة سمرة ٣٥٤
 قلعة طرطوشة ١٢١
 قلعة مجريط ٣٣٢
 قلعة بحصب ٢١٨
 قلعية ٣٩٤
 قنطرة الحجر (برقطة) ١٠٤
 قنطرة القنطرة (مطيلة) ٩٠, ٨٢
 قنطرة بنوط ٢١٨
 قنطرة رنتة لعرية ٢٧٣
 قنطرة سان تشو (البينية) ٦٣
 قنطرة شقوية الرومانية ٣٢٤, ٣٢٢
 قنطرة شلب العربية ٤٠٤
 قنطرة شتول ١٦١, ١٦٢, ١٧٦, ١٧٨
 قنطرة قرطبة الأندلسية ٣١
 قنطرة مارة الرومانية ٣٨٠, ٣٨٢
 قنطرة وادي الحجازة ٣٣٠
 قوس المسيح (ماتقة) ٣٤٤
 قرنة ٣١٦, ٣٣٩
 - د -
 داتش بني (جبل طارق) ٢٩٠
 داستيانا ستره (مغربي) ٣٣٣
 داتش دي أونيس ٣٦٦
 كنترائية إشبيلية ٢٠, ٤٦, ٤٩, ٥١, ٥٦, ٥٨, ٣٠٠
 كنترائية ألسرية ٢٦٨
 كنترائية أوفيدوه ٣٦٢
 كنترائية برجوس ٣١٠, ٣١١
 كنترائية بك الوليدة ٣١٨
 كنترائية بلسية ٩٥
 كنترائية بنطونة ٣٠٨, ٣٠٩, ٣١٦

كنترائية بعلية ١١٣
 كنترائية ترويل ٤٣٧
 كنترائية جيان ٢٢١, ٢٢٤
 كنترائية دالية ١٤٧
 كنترائية عرقطة ١١٠, ١١٢
 كنترائية سمورة ٣٥٤, ٣٥٦
 كنترائية شريس (الكولخية) ٣٠٠
 كنترائية شنتفة ٣٥٨, ٣٦٠
 كنترائية شنت ياقب ٣٤٢, ٣٤٤, ٣٤٦
 كنترائية طركونة ١١٨
 كنترائية مطيلة ٢٠, ٨٢, ٨٣, ٨٥, ٨٧, ٨٨
 كنترائية غرططة ١٧١
 كنترائية فارو ٣٦٨, ٤٠٠
 كنترائية كوفادنجة ٣٧٠
 كنترائية نيون ٣٥٠
 كنترائية ملفة ٢٥٠, ٢٥١
 كنترائية وادي ألي ٢١٥, ٢١٦
 كنترائية ونية ٣٨٧
 كنترائية يابرة ٤١٢, ٤١٤
 كنيسة آية العظمى ٣٢٦
 كنيسة أرشدونة العظمى ٢٤٠
 كنيسة أشونة العظمى ٤٢٠
 كنيسة الجزيرة العظمى ٢٨٢
 كنيسة الرحمة (شريس) ٣٠٠
 كنيسة الصخرة (كوفادنجا) ٣٧٠
 كنيسة القديس بطرس ٣٣, ٤٦
 كنيسة القديس ميغل (مبورقة) ١٢٧
 كنيسة القديس أجيلا ٧٠
 كنيسة القديس مريم ذات النخل (الجزيرة) ٢٨٢
 كنيسة القديس يوحنا أمير الفوارس (قرطبة) ٣٣
 كنيسة القديس يوحنا (شترين) ٤٢٨
 كنيسة ألكسوقا (شترين) ٤٢٨
 كنيسة المتكعب العظمى ٢٦١

كنيسة سانت ماريا (ثينة) ٣٩٦، ٣٩٧
 كنيسة سانت ماريا (ثقت) ١٥٠
 كنيسة سانت ماريا (مارقة) ٣٨٣
 كنيسة سانت ماريا (وادي العجالة) ح ٣٢٨
 كنيسة سان جيرمو (أثينة) ٤٢١
 كنيسة سان خوان (ألمرية) ٢٧٠٩
 كنيسة سان خوان (بش) ح ٢٥٤
 كنيسة سان خوان دي ثوس ريس (غرناطة) ١٦٩
 كنيسة سان خوان الثوبة (مليطلة) ٤٣٧
 كنيسة سان خوان دي لابلما (إشبيلية) ٦٧
 كنيسة سان خوسي (النيان) ١٩٨
 كنيسة سان دومنغو (معلقة) ٢٥٠
 كنيسة سان دومنغو (شريس) ٣٠٠
 كنيسة سان سلفادور (أثينة) ٦٦، ٥١
 كنيسة سان سلفادور (النيان) ١٦٨
 كنيسة سان سلفادور (مليطلة) ٨٩
 كنيسة سان سلفادور (قرطبة) ٣٤
 كنيسة سان فرانسيسكو (استجة) ٧٩
 كنيسة سان فرانسيسكو (النيان) ١٢٨
 كنيسة سان فرانسيسكو (بائرة) ٤٠٤
 كنيسة سان توماس (غرناطة) ١٦٩
 كنيسة سان ماتيو (شريس) ٣٠٠
 كنيسة سان ماتيو (طريف) ٢٧٢
 كنيسة سان ماركوس (أثينة) ٥٧
 كنيسة سان ماسو (بسة) ٢٣٤
 كنيسة سان مارتين (ثينة) ٣٩٢
 كنيسة سان ميغل (شريس) ٣٠٠
 كنيسة سان ميغل دي ليو (ألفين) ٣٦٤
 كنيسة رندة العظمى ٢٧٢، ٢٧٣
 كنيسة سرقسطة العظمى ٤٣٧
 كنيسة سيدة المدينة (محرط) ٣٣٢
 كنيسة سيدة النصر (معلقة) ٢٥٠
 كنيسة شاطبة العظمى ١٤٤، ١٤٣

كنيسة أنونسياتا (الارند) ١١٥
 كنيسة أنونسياتور (بسة) ٢٣٤
 كنيسة أوريولة العظمى ١٥٣
 كنيسة أيا صوفيا ٣٥٤
 كنيسة بعلبوس العظمى ٣٧٨
 كنيسة بيدادي (شترين) ٤٢٨
 كنيسة رندة العظمى ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤
 كنيسة سان أندريس (باجة) ٤٠٨
 كنيسة سان أندريس (ثينة) ٩٥
 كنيسة سان أندريس (جين) ٢٢٧
 كنيسة سان أوجس (بعلبوس) ٣٧٨
 كنيسة سان إيزيدورو (ألفين) ٣٦٢
 كنيسة سان إيزيدورو (ليون) ٣٥١ كنيسة سان مائو (أبدة) ٢٣٢
 كنيسة سان پلايو (ستياجو) ٣٤٧
 كنيسة سان پيدرو (وثة) ٣٨٧
 كنيسة سانتا أولالبا (مارة) ٣٨٣
 كنيسة سانتا كروث (استجة) ٧٩، ٧٨، ٧٦
 كنيسة سانتا مارتينا (جين) ٢٢٦
 كنيسة ستياجو (أوريولة) ١٥٣
 كنيسة ستياجو (باجة) ٤٠٨
 كنيسة ستياجو (شريس) ٣٠٠
 كنيسة ستياجو (قرطبة) ٣٤
 كنيسة ستياجو (معلقة) ٢٥٠
 كنيسة سانتا ماريا العظمى (أبدة) ٢٣٢
 كنيسة سانتا ماريا (استجة) ٧٩
 كنيسة سانتا ماريا (الحرام) ٢٦٦، ١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨
 كنيسة سانتا ماريا دل تراكو (ألفين) ٣٦٢
 كنيسة سانتا ماريا العظمى (باجة) ٤٠٨
 كنيسة سانتا ماريا ذات الحصن (بعلبوس) ٣٧٥
 كنيسة سانتا ماريا (بش) ٢٥٤
 كنيسة سانتا ماريا (ثينة) ٩٥
 كنيسة سانتا ماريا دي بلانكا (مليطلة) ٨٩

كنيسة شقوبية العظمى (٣٢٢، ٣٢٤)
 كنيسة شلب العظمى (٤٠٤)
 كنيسة شوليتية (٢٦٢)
 كنيسة شترين العظمى (٥٢٦)
 كنيسة طرطوشة العظمى (١٢١، ١٢٠)
 كنيسة طراه الراس (مقريل) (٢٦٤)
 كنيسة قانس العظمى (٣٠٢)
 كنيسة قرطاجنة العظمى (١٥٨)
 كنيسة قرطبة الجامعة (٢٠)
 كنيسة قرصنة العظمى (٧٤، ٧١)
 كنيسة قملوية (١٣٧)
 كنيسة كيرشا (شقيقة) (٣٦٠)
 كنيسة كونسينون (مطينوس) (٣٧٨)
 كنيسة لاثونا (لارفة) (١١٥)
 كنيسة لاهراسا (بايرة) (٤١٤)
 كنيسة لارفة العظمى (١١٥)
 كنيسة لاسو (سرقطة) (١١٠، ١٠٨)
 كنيسة لوشة الكبرى (٢٣٦)
 كنيسة ماربا سترسي (شنتاجو) (٣٤٧)
 كنيسة مرسية العظمى (١٠٠)
 كنيسة مسيح النصار (ماتقة) (٢٥٠)
 كنيسة مكين (٢٢٠)
 كنيسة ميورقة العظمى (١٢٧)
 كنيسة واتي الحجارة العظمى (٣٣٠)
 كورسيكا، جزيرة (١٤٦)
 لكورينا (مدرية) (٣٣٣)
 كوفاندجا (٣٦٦، ٣٦٧)
 كوفاندجا، مرفعة (٣٦٨)
 ل - م
 لآخر الفاء انظر ستارة جامع إشبيلية.
 لارفة (١١٤، ١١٦)
 لاهوروتية (٣٤٢)
 لانتية (٢٨٨)
 لامنتش وولاية (٢٢٨)
 لانتور، مرفعة (٣١٦)
 لينة (ولاية) (١٣١، ١٢٦، ٣٩٠، ٣٩٤)
 لشونة، أنظر أشونة
 لفتة (ولاية) (٩٨، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٣)

لك، مدينة (٣٦١)
 لورقة (٢٣٣)
 لوس بلربوس (٢٨٨)
 لوشة (١٦١، ٢٣٥، ٢٣٧، ٣٣٥)
 لوتفا بنشسية (٩٥)
 لوتفا سرقطة (١١١)
 لوتفا ميورقة (١٣٢، ١٣٣، ١٣٩)
 ليون، مدينة (٣٩، ٦٠، ٣٠٦، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٧)
 ماردة (١١٩، ٣٧٢، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٩)
 ماطلة (٢٩٦)
 ماطلة (٩، ١٣، ١٦، ٩٨، ١٤٢، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٥ - ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧١، ٤٣٠، ٤٣٩)
 مابكورد (١٣٢)
 ماتين (بنشسية) (٩٨)
 متحف إشبيلية الأركيولوجية (١٥١، ١٦٦، ٢٧)
 متحف إشبيلية الإقليمي (٢٧)
 متحف الترادور (٣٣٣)
 متحف الحمراء (١١٦٧، ١١٧٨، ١٩٣)
 متحف الدي الملكي (٣١٦)
 متحف الزهراء (٢٣، ٤٠)
 متحف باجة (٤١٠)
 متحف برحوس (٣١٦)
 متحف بلبوس (٣٧٦)
 متحف بلدية غرناطة (١٩٧، ١٨٢)
 متحف بنشسية دي دون خوان (٣٣٥)
 متحف جنل طارق (٢٩٢، ٢٩٤)
 متحف جنة العربيد (١٨٠، ١٨١)
 متحف دار الزمالية (١٦٧، ١٨٠، ١٨١)
 متحف سرقطة (١١١)
 متحف شاطبة (١٤٠، ١٤٣، ١٤٤)
 متحف طرطوشة (١٢٢)
 متحف طركونة (١١٨، ١٢٢)
 متحف غرناطة الأركيولوجية (١٦٧، ١٧٣، ١٨٠)
 متحف قارو (٤٠٠)
 متحف قرطاجنة (١٥٨)
 متحف قرطبة الأركيولوجية (٢٧)

متحف فسلرنية، ١٣٧
 متحف كنيسة طركونة، ١٤٨
 متحف لازارو، ٣٤٠
 متحف لشبونة، ٤٢٠
 متحف لوثيانا (منورة)، ١٣٠
 متحف ماردة، ٣٨٢، ٣٨٤
 متحف منيرى التوملى، ١٠٨، ٢٠٨، ٣٣٨، ٣٧٦
 متحف منيرى الحرى، ٣٣٣، ٣٣٥
 متحف منورة الأسقى، ١٢٢
 متحف بايرة، ٤١٤
 متريلا، ١٦٦، ١٦٦، ٢٥٦، ٢٦٤
 متزين المتكة، ٢٠٥
 محريه، ٣٣١
 المجلس المؤلى (الزهره)، ٣٩
 مجلس الذهب انظر دار السرور
 مجلس الغربية (الزهره)، ٣٨، ٣٩
 محلىتى (بنسبة)، ٩٥
 محراب الجامع (قرطبة)، ٣١
 منارة غرناطة القصيرة، ١٧٣
 منريسة، ١٢، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ٣٠٧، ٣٢٢
 ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٩، ٤٣١، ٤٣٥
 المدينة الخليفة (الزهره)، ٤٠، ٤٩
 مدينة الفتح، ٣٨٦
 مدينة ساجدة، ١٢٦
 مراکش، ٤٨، ٤٩، ١٦٦
 مريئة، ١٦، ٢٥٦، ٢٥٧
 مريشرا انظر ساجدة
 المريج (غرناطة)، ١٦٤، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢
 مرسى المنكب، ٢٥٨
 مرسى سبيل، ٢٥٧
 مرسية (ولاية)، ٩، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٣٩، ١٥٢
 ١٥٥، ١٥٦، ١٦١، ٣٣٣
 مرصد طرطوشة، ١٢٢
 مسجد آنية، ٣٢٦، ٣٢٧
 مسجد أوريونة الجامع، ١٥٣
 مسجد البيلازين، ١٦٨
 مسجد القاتين، ١٦٩
 مسجد الحرام، ١٦٦، ١٩٠، ٢٠٧، ٢٠٨

مسجد القصبة (لاردة) ح ١١٥
 مسجد المرابطين، ١٦٨
 مسجد باب المردوم (كريستوني لوث)، ٨٨
 مسجد طركونة، ١١٨
 مسجد مجريه، ٣٣١، ٣٣٢
 المسجد، يندو، ٣٩٦
 المسرح الرومانى (ماردة)، ٣٨٣
 معلى المشوك الكاثوليك (القصر)، ٩٠
 معلى بنود الرابع (الجعفرية)، ١٠٨
 معلى عزراء كوفادتها، ٣٦٨
 معلى جبل طارق، ٢٨٤
 معد ديانا (بانرة)، ١١، ١٢، ٤١٢
 معد عزراء الزحمة (أرشدونة)، ٢٤٠
 المغرب، ١٦٥، ١٦٦، ٣٠٧، ٢٦٤، ٢٧٦، ٢٧٨
 ٢٨٦، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٣٤، ٤١٧، ٤٣٢
 ٤٣٥، ٤٣٣
 مكتبة أكاديمية التاريخ، ٤٢٥
 مكتبة الإسكوريال، ٣٤٠، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٥
 مكتبة دير سانكرومى، ٤٣٥
 مكتبة منيرى الوطنية، ٢٤٠، ٤٣٥
 مكين، قرية، ٢١٨
 منارة جامع إشبيلية (الخيرالدا)، ١٢، ٤٦، ٤٨، ٤٩
 ٥١، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ١٦٦، ٢٦٢، ٣٠٠
 منارة جامع لكثية (مراكش)، ٥٤
 منارة جامع قرطبة، ٢١، ٢٨
 منارة حسان، ٥٤
 منارة رندة العربية، ٢٧٤
 منظره للتصاها، ٢٠٤، ٢٠٥
 منورة، جزيرة، ١٢٤
 موقعة السانك، ٣٣٥
 موقعة شذونة، ٢٩٧
 موتلى هريو، ١٦١
 المهدية، ٢٨٤
 ميدان الأجل (الحصراء)، ١٨٨
 ميدان باب المنيرة، ١٦٤
 ميدان باب الرطة، ١٦٤، ١٧٠، ١٧١
 ميدان باب الشمس (منيرى)، ٣٣٣
 ميدان شمس (منيرى)، ٣٣٣

PDF Eraser Free

نهر شقرة ٤٩
نهر شنبلة ١٧٦، ١٧٩، ١٦١، ١٧٦، ٢٣٥
نهر قريوة ٣٢٤
نهر مخارس ١٣٧
نهر منشور ٣٣١، ٣٣٣
نهر منيرة ٣٩٥
نهر وادي أش ٢١٥
نهر وادي المدينة ٤٤٢، ٢٥٠
نهر وادي نين ٢٧١
نهر وادي لكه ٢٩٧، ٣٠٢
نهر وادي يالو ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٧، ٣٩٥، ٣٩٦
نهر هذارس ٣٢٨، ٣٣٠
نيسه ٢٠
وادي أش ١٩، ١٦١، ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٣، ٤٣٠
وادي الحجاره ٣٢٨، ٣٣١
وادي شقرة ٩٩
وادي شنبلة ١٨٣
وشقة ١١٤
وتبة (وولابة) ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٦
هيكل جامع قرطبة ٢٦، ٢٩
يافرة ٩، ١١، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤١١، ٤١٢، ٤١٥
بابنة جزيرة ١٣٤، ١٤٥
يبرا (نباسة) ٢٣٠

ميدان شنبقة الكبير ٣٥٧
ميوزقة جزيرة ١٢٤، ١٢٦، ١٣٦
ميوزقة مدينة ١٣٠، ١٢٤ - ١٢٧، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٦

ن - ي

ناقل (نيرة) ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٨
ناقورة الأسود (الحمره) ١٩٩، ٢٠٢
ناقورة فجوراس (شقرين) ٤٢٨
نرخه ٢٥٨
نهر لاد ٤٠٢
نهر لانتون ٣١٠
النهر الأحمر ٣٩٠
نهر أنترش ٢٦٦
نهر أوديل ٣٨٧
نهر تينها ١٣٩
نهر انتاجه ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٢، ٣٣١، ٣٨٦، ٤١٧، ٤٢٥، ٤١٨
نهر السوادي الكبير ٢٠، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٦، ٤٧، ٤٣، ٤٧، ٤٧، ٤٧، ١٠٤، ١١١، ١١٥، ١٢١، ٢٢١، ٢٢٠
نهر إيسرو ١٠٤، ١٠٥، ١١١، ١١٣، ١١٤، ١٢٠، ٣٠٧
نهر بجر ٣٢٠
نهر تورمن ٣٥٧
نهر توربا ٩٤
نهر حستره ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٤، ١٩٢
نهر ختون ١١٣
نهر دويره ٣١٠، ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٧، ٣٥٥
نهر ديتو (كوكالنج) ٣٧٠
نهر ديوجرائي ١٩١
نهر سري ١١٤، ١١٥
نهر سوا ٣٧٢
نهر شقرا ١٣٩

فهرست الأعلام

- | -

ابن الأظفر، عمر المتوكل (٣٧٢)، ٤١١
 ابن الخطيب، الحسن الدين (٢٠٧، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٨، ٤٣٩)
 ابن يسم، الشتريني (٤٢٥)
 ابن بطرقة (٢٥٧، ٢٧١)
 ابن خاتمة، أبو جعفر (٢٦٦)
 ابن رشد (١٩)
 ابن زمرلة (١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣)
 ابن صاحب الصلاة (٤٧، ٥١، ٥٦، ٢٨٤، ٢٨٩)
 ابن عبد، المعتصم (٣٩٠)
 ابن عبد، المعتد (٤٩، ٥١، ٦٦، ٦٧، ٨٠١، ٨٠٤)
 ابن عدون، عبد المجيد (١١)
 ابن عمار، أبو بكر (١٠٠، ٤٠١)
 ابن محفوظ (٣٩٠)
 ابن مردنيش (٣٣٨)
 ابن خيمون (١٩)
 ابن هلال (١١٤)
 أبو إسحق إبراهيم، السيد (٤٨)
 أبو الحسن المريني، سلطان المغرب (٨٥، ٨٦، ٢٧٦، ٢٨٦)
 أبو الحسن، سلطان غرناطة (٢٠٤، ٢١٥)
 أبو العلي، الرندي، صالح بن شريف (٤٥، ١٣٩، ٢٢١)
 أبو القاسم بن حجاج (٦٧)
 أبو العلاء، السيد (٦٣)
 أبو القيث، المعتش (٥٦)
 أبو الوليد إسماعيل، السلطان (١٧٣، ١٧٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٩، ٢١٢، ٢٢٨)
 أبو الوليد الناجي (٤٠٦)
 أبو بكر النافري (٤٧)
 أبو بكر الطرطوشي (١٢٢)
 أبو بكر بن زهر (٤٧، ٤٩)
 أبو سعيد، السيد (٢٨٥)
 أبو عبد الرحمن بن طاهر (١٠٠)
 أبو عبد الله، السيد (٣٨٩)
 أبو عبد الله السيد (الناصري) (٥٤)
 أبو عبد الله، المنصور، السلطان (١٨٦، ٤٣٣)

أبو عبد الله محمد (١٧١، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٢)
 أبو عبد الله، (٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢، ٢١٥، ٢٣٧، ٢٦٤، ٣٣٤)
 أبو علي الثوبين، الإمام (٢٦٢)
 أبو عثمان، السلطان (٢٨٨)
 أبو مالك المريني، الأمير (٢٧٦)
 أبو محمد البعلبوسي (٣٧٢)
 أبو يعقوب، السيد (٢٨٥)
 أبو يعقوب، يوسف، الجليلي (٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٦٣، ٣٧٣، ٤٢٥)
 أبو يوسف المريني، السلطان (٢٩٩)
 أبو يوسف يعقوب، أنظر: يعقوب المنصور
 أحمد بن باقة، الشريف (٤٧، ٤٨، ٢٧٥)
 أحمد بن سليمان بن هود، المفتي (١٠٥)
 أنقوش (القوس) (٥٢)
 أردنيو الرابع (٣٩)
 إسحق، السيد (١٧٦)
 إسكنر الرابع، تاياف (٢٥٨)
 إسكنر السادس (بورچيا) (١٤٣)
 إسماعيل، مولاي (٤٩، ٤٣٣)
 الإخوة المغرورون (٤١٧)
 الإشراد (الريكركت) (٤، ١٥، ١٥٨)
 الأخصيار (٤٣٩)
 الإثبات قتيبة (١٧٦)
 الأوتودافيه (١٠٨)
 أنباء، دوقنة (٦٤)
 أثارود (٣٩٠)
 أنراقين (الرهانس) (٣٢٨)
 أنشيرا، رافائيل (٣٤٤)
 إل جريكو، دومنيكو (٨٥، ٨٩، ٩٠)
 الحكم المستنصر (٣١، ٣٢، ٣٩، ٧٩، ١٨٤، ٣٣٩، ٣٤٤)
 الشيخ بن مالك (٣١)
 السيد لكسيسادور (٤٩، ١٥٦، ٣١١، ٣١٢، ٣٢٨)
 الشريف الإبري (١٤١٦، ١٤١٧)
 أغزل، القاضي، أحمد بن مهدي (٢٩، ٣٠، ٤٩، ٥٦)
 أ٦٣، ١٨٨، ١٥٣، ١٧٩، ١٨٦، ١٨٣، ٢٧٩، ٢٨٠

بازين بن حبوس (١٨٩، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٦)
 بارانيوه المعمورة ١٨٦
 برار بن محمد، أبو إسحق ٣٨٥
 برنجل اللثث كوث، برشونة ١١٨
 بروقتل، نفري، ٢٠٧، ٤٣٥
 بلاطس، الحاكم القروماني ٦٦
 بلايو (بلجيوس) ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠
 بلول بن جلداس ٤٧، ٤٨
 بوسكو، يلاتكيشا ٣٨، ٣٩
 بيدال، رايون منكبش ١٩، ١٣، ١٥، ٤٣٨
 بيدول الأول ١٦٠، ١٦٣، ٤٣٦
 بيدول ثلث (أنقاسي) ٧٤
 بيدرو دي جرانادا (سدي يحيى) ١٨١
 بيرون، ثوردا ٤٣٤
 قراچان، الاميراطور ٣٢٤
 قوريل، بقباس ٢٩٢، ٣٧٦
 تيوتمير، أمير تيمر ١٥٢
 تيوتمير، الأسقف ٣٤٥
 ثرافنتس، ميجل ٣١٩، ٣٣٠
 ثورليا، حوسيد ٣١٨، ٣١٩
 ج - ح
 حوسه مورينو الكبير ٦١٠
 حوسه مورينو ١٠٨، ١٠٧، ٣١٣
 حوثثك، بقتشا ٣٤٠، ٤٣٧
 حوثثلغوني، كورديا ٦٩
 حوبا ٣٤٧
 جبرالدو سيباقورا ٤٣٢
 حسن بن يحيى بن حود ٦٤٣
 حرب وراثة العرش ٣٧٩
 حليمي الأول (القاسم) ١٤٥، ١٢٦، ١٣٢، ١٤٠
 ١٤٨، ١٥٦
 حمرينش، الأسقف ٣٤٦
 حمنس، الكردينال ٤٣٠
 حمنس، دي راد، الأسقف ٣٩٠
 حينا دي أوبيدو ٣١١، ٣١٢
 جوان الثاني ٦٤
 خير الدين، أمير البحر ٢٦٤
 خيرال العظمي ٢٦٦، ٢٧٠

غزيري، ميخائيل ٤٣٤، ٤٣٥
 لقتة الكبرى ٣٧٢
 ليلن الأنكلي ٣٦، ٦٤
 ليلن المنجني ٢٦، ٦٤
 لغونر الأول ٣٧٠
 لغونو الأول الأرجوني ١٠٤، ١١٠
 لغونو ثلث ٣١٠
 لغونو ثلث البرتغالي ٣٩٧
 لغونو تاسس ١٨٢، ٣٢٨، ٣٣٢، ٤٢٥
 لغونو ثلث ٣١٣، ٣١٤، ٤٣٧
 لغونو تيسيه ٣٥٨، ٣٧٩، ٤٣٦
 لغونو تعاشو (تعمد) ١٢٥، ١٥٤، ٢٩٩، ٣٠٠
 ٣٠٣، ٣٥٨، ٣٩٠
 لغونو الحادي عشر ٣١، ٢٨٢
 لغونو ريموندين ١١٣
 لغونو هريكيكيز ٣٧٨، ٣٧٩، ٤٠٦، ٤١١، ٤١٦
 ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٢٦
 لمارون بن ذي التون ٣٣٢
 لغري ١٩٨، ١٩٩
 لنتان الكاثوليكيان (فريفاك وإيسابيل) ١٦، ٦٤
 ٨٣، ٨٤، ٩٠، ١٠٥، ١٠٦، ١٦٠، ١٨٠، ١٨١
 ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، ٢١٣، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٥٦
 ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٦، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٦٠
 لغونو سانيكي، الأسقف ٢٦
 لمتوكل بن حود ١٨٠
 لمتصور بن أبي علفرا ١٩، ٢١، ٣٥، ٤٧٩، ١٨٩
 ٣٣٩، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٢
 لمتصور السدي، السلطان ٤٣١
 لمتصور الموحدي (وأي شلب) ٤٠٢
 لماردي دي لوس ريوس ١٨، ٢٠، ٢٩، ٣١٦، ٣١٧
 لوركا، الشكفة ٣٥٤
 لوليا، القديسة ٣٨٣
 ليرفيج، والشطون ٢٠٦
 ليزيدور قياجر ٤٠٦
 ليسانلا ملكة قشتالة ١٩، ٦٤، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٩٠
 ٣١٩، ٣٣٤
 ليسانلا ملكة البرتغال ١٠٦
 ب - ث

موسى بن نصير، ١١٠
 منصور بن الحكم، ٣٣٩
 نصر بن أبي الحسن، ٤٤٠
 هزرويه، القائل، ١٥٥
 هشام المؤيد، ٣٣٩، ٤٠، ٧٩، ٣٥
 هشام بن عبد الرحمن، ٢٢، ٢٠
 هجري الثاني، ٣٩٣، ٤٣٧
 هرويه، ٣٤٣
 ياقوت الحموي، ١٥٠
 يحيى النيرة، ١٨١، ٤٤٠
 يعقوب المنصور، أبو يوسف (الخليفة)، ١٥١، ١٥٤
 ٦٣، ٦٩، ٤١١
 يعقوب بن عبد الحق تمرقي، ٨٦
 يعيش الملقب، ٢٨٥
 يوحنا ابنة فرديناند الخامس، ١٧١
 يوسف أبو الحجاج، ٨٥، ١٧٨، ١٨٠، ١٩٠، ١٩٧
 ١٩٨، ٢٠٥، ٢٤٨، ٢٨٢، ٢٤١، ٢٩٤، ٣٣٨
 بوليان، الكونت، ٩٠

فيليب الخامس، ٢٠٩، ٢٠٩
 فيليب الجميل، ١٧١
 قيسر، ٢١
 كازدياس، أنثوني، ٢١٠
 كارلوس الثاني، ٢٩، ٤٣٢، ٤٤٠
 كارلوس الثالث، ٣٠، ١٨٢، ٢٨٢، ٣١٢، ٤٧٣
 كارلوس الخامس، ٢٠٩
 كستيون، رافائيل، ٤٠
 كاتكس، الثاني، شايه، ١٤٣
 كريستوف كولومبس، ٤٩، ٣٠٩، ٣٨٨
 كليمينت السابع، بيانا، ١٦٥
 كمونين، تشاغر، ٤٢١، ٤٢٤
 كوديرا، المسترق، ١١٠
 كونتريراس، رافائيل، ٢٦، ٢٨، ١٥٧، ١٤٤، ٢١٠، ٢٥٧
 لورنسو، القديس، ٤٣٣
 م - ن
 مجاهد العلوي، ١٢٦، ١٤٦
 محمد، النبي، ٢٩
 محمد بن أبي غنم، انظر المنصور بن أبي غنم
 محمد بن الأحمر (الأول)، ١٩٠، ٢٢٢
 محمد بن الأحمر الفقيه (الثاني)، ١٧٦، ١٩٠، ٢٤٨
 محمد بن الأحمر المخترع (الثالث)، ٢٠٨
 محمد بن سعد (الزع)، ٢١٥، ٢٢٠
 محمد بن سعيد، ٤٨
 محمد بن عبد الرحمن، ٢٠، ٣٠، ٣٣١
 محمد بن عبد الله (سلطان المغرب)، ٢٠، ٤٣٣
 محمد بن عبد الوهاب الفسافي، ٢٩، ٨٦، ٤٣٣، ٤٤٠
 محمد، الغني بالله، ١٧٨، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٢
 ٣٠٤، ٣٠٥
 مدينة حلي، أسرة، ٦٤
 مريوزوجة، أبي عبد الله، ٣٣٥
 مسلمة المجريني، أبو القاسم، ٣٣١
 مورتيو، ٣٤٧
 موسى بن الأرقم الفهري، ٣٣٨
 موسى بن موسى بن قسي، ١١٣

PDF Eraser Free

LOS MONUMENTOS MOROS EN ESPAÑA Y PORTUGAL

ESTUDIO HISTÓRICO Y ARQUEOLÓGICO

POR
MOHAMED ABDULLA ENAN

Segunda Edición

Imprenta Lagnat ul Talif

El Cairo, 1962

سنة المجريطي، أبو القاسم ٣٣١

موريتيوا ٣٤٧

موسى بن الأثرق القيروي ٣٣٨

موسى بن موسى بن قسري ١١٣

موسى بن منصور ١١٠

ميسور بن الحكم ٣٣٩

نصر بن أبي الحسن ٤٤٠

هزرويل، القائل ١٥٥

هشام المؤيد ١٣٥، ١٧٤، ١٩٠، ٣٣٩

هشام بن عبد الرحمن ١٦٠، ٢٢

هري التلي ٣٩٣، ٤٣٧

هيرونة ٣٤٣

هياوت الحموي ١٥٠

يحيى التلي ١٨١، ٤٤٠

يعقوب المنصور، أبو يوسف (الحقيقة) ١٥١، ١٥٤

١١١، ١٦٩، ١٦٣

يعقوب بن عبد الحق المريني ٨٦

يحيى الملقب ٢٨٥

يوحنا ابنة فرديناند الخامس ١٧١

يوسف أبو الحجاج ١٨٥، ١١٧٨، ١١٨٠، ١١٩٠، ١١٩٧

١١٩٨، ١٢٠٥، ١٢٤٨، ١٢٨٢، ١٢٩١، ١٢٩٤، ٣٣٨

يوليان، الكونت ٩٠

PDF Eraser Free

LOS MONUMENTOS MOROS EN ESPAÑA Y PORTUGAL

ESTUDIO HISTÓRICO Y ARQUEOLÓGICO

POR
MOHAMED ABDULLA ENAN

Segunda Edición

Imprenta Lagnat ul Talif

El Cairo, 1962

٣٩٥، ٤١٠، ٤١١، ٤١٦، ٤١٩، ٤١١، ٤١١

٤١٢، ٤١٤، ٤١٥

البربر ٢٥، ٦٥، ٧٤، ١٧٤، ٢٢٨

٢٦٠، ٢٥٨، ٢٦٢

البرتغالي ١، ١٠، ١١، ١٤، ٤٧، ٩٨

الجزيرة الخضراء ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦

٤٣١

الزهراء ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠

٤١، ٤٣، ١٧٥، ٥١٩

العرب ١٤، ١٥، ٧١، ٨٣، ٨٦، ٨٧

١٠٣، ١١٦، ١١٧، ١٤٧، ١٥٤، ١٧٥

٢٤٣، ٢٧٩، ٣٠٩، ٣٣٠، ٤٠٨

٤١١، ٤١٣، ٤١٥، ٤١٦

العجور ١٠٧، ١٥٨، ٣٥٩

الفنشيون ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٦٨، ٣٦٨

٤٢١، ٤٢٣

القصة ٦٩، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢، ١١٤

١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٤١

١٤٢، ١٥٧، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١١

٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٢

٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩

٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٤١، ٢٤٦

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦

٢٦٢، ٢٧٣، ٣٠٧، ٣١٣، ٣٣٥

٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٥٨

الأسترياس ٢٨٦، ٣٢٢، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٤٥

٣٢٤، ٣٢٥

الإسبان ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠

٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٦، ٣٩

٤٠، ٤٣، ٤٨، ٩٩، ١٥٤، ١٣٣، ١٥٤

٣٢١، ٤١٢، ٤١٩

الإسلام ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢

٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٤٣، ٤٤، ٤٦

٤٧، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣

٦٥، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١

٨٢، ٨٥، ٨٦، ٩٠، ٩٥، ٩٦، ١٠٢

١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٢

١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢١، ١٢٣، ١٢٥

١٢٧، ١٣١، ١٣٣، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤

١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤

١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠

١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧١

١٧٣، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٩٦

١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٩

٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٥

٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٤٨

٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠

٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٨١، ٢٨٤

٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٨

٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٥

٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٥

٣٤٦، ٣٥١، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧

٣٧٥، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٩، ٣٩٣، ٣٩٤

طركونة ١٠، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١١،

١١٢

طريق ٩٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤،

٢٦٥، ٢٦٦،

طليطلة ٩، ١٠، ١١، ٢٩، ٥٧، ٧٥، ٧٧،

٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣،

٨٥، ٨٦، ٩٦، ٣١١، ٣١٤، ٣١٥،

٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥،

٤٠٧، ٤١٤،

غرناطة ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤،

٢٠، ٢٦، ٥٤، ٥٥، ٥٩، ٦١،

٦٤، ٧٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٤٨،

١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣،

١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،

١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤،

١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠،

١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨،

١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢،

١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣،

٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٥،

٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣،

٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤،

٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠،

٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٧،

٢١٨، ٢١٩، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٥٧،

٢٠٩، ٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦،

٢١٧،

فارو ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩،

فانس ٢٦٥، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٨٥،

بنبلونة ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،

جبل طارق ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧،

٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣،

٢٧٦، ٢٧٨،

جليقية ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٤١،

جيان ١٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤،

٢١٥، ٢١٦،

دانية ١٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦،

رندة ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠،

٢٧٩،

سرقسطة ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢،

١٠٣، ١٠٤، ١١٥، ١١٦، ١٦٨،

شاطبة ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢،

٢٠٩،

شقبوية ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩،

شيب ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩،

٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤،

شمشقة ١٥٤، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩،

٣٤٠، ٣٤١، ٤٢٢،

شوبانية ١٦، ١٥٠، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٨،

٤٢٢،

شنترة ٣٧٣، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٢٢،

شنترين ٤٧، ٣٧٣، ٤٠٢، ٤٠٣،

شنتمرية الغرب ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٩،

طرطوشة ١٣، ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٣،

١٢٧،

ماردة ٩، ١١، ١٢٥٩، ١٢٦١، ١٢٦٢،

١٢٦٣، ١٢٦٤

مملكة ٩، ١٣، ١٦، ٩١، ١٢٩، ١٥٠،

٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١٤، ٢٢٨، ٢٢٩،

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٧،

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣،

٢٤٥، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨،

٢٥٩

متريل ٦١، ١٥٠، ٢٤١، ٢٤٨،

مطريـ ١١، ١٣، ١٤، ٧٥، ٨٦، ٩١،

٩٦، ١٠٠، ١١٣، ١٥٥، ١٩٣،

٢٨٨، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٤،

٣١٥، ٣١٦، ٣٢١، ٣٥٤، ٤٠٨،

٤١١، ٤١٢، ٤١٤

مريئة ٦١، ٢٤١، ٢٤٢،

مرسية ٩، ٩٢، ٩٣، ١٢٨، ١٢٩، ١٤١،

١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ٢٠٩، ٢٢١،

ميورقة ١٣، ١٠٥، ١١٥، ١١٦، ١١٧،

١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤،

١٢٦

وادي الحجارة ٣١١، ٣١٣، ٣١٤،

وادي آش ٩، ١٥، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٢٠،

٢٤٩، ٤٠٧،

ولاية ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٤،

ياطرة ٩، ١١، ٣٧٣، ٣٨٥، ٣٨٩، ٣٩٠،

٣٩٣، ٣٩٤

قرطاجنة ٩١، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧،

قرطبة ٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٥، ١٦، ١٩،

٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٨،

٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٥،

٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦،

٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦،

٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦،

٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦،

٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦، ٣٦،

قرمونة ١٦، ٦٦، ٦٨، ٧٣،

قشنة ٢٠، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥،

٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥،

٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥،

٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥،

٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥،

٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥،

٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥، ٢٥،

قصر الحمراء ٢٦، ٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٢،

٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٢،

٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٢، ٢٢،

قصر جنة العريف ١٥٦، ١٦٦، ١٦٧،

١٦٨، ١٦٩، ٢٠٠، ٢٠٢،

لاردة ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١١،

لغت ٩١، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩،

١٤٠، ١٤٢،

لوشة ١٥٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧،

ليون ٣٨، ٢٨٧، ٢٩٨، ٣٣٠، ٣٣١،

٣٣٢